الرواية الفائزة بالجائزة العالمية بولتزير برايز

ريتشارد فورد

كندا

مكتبة بغداد

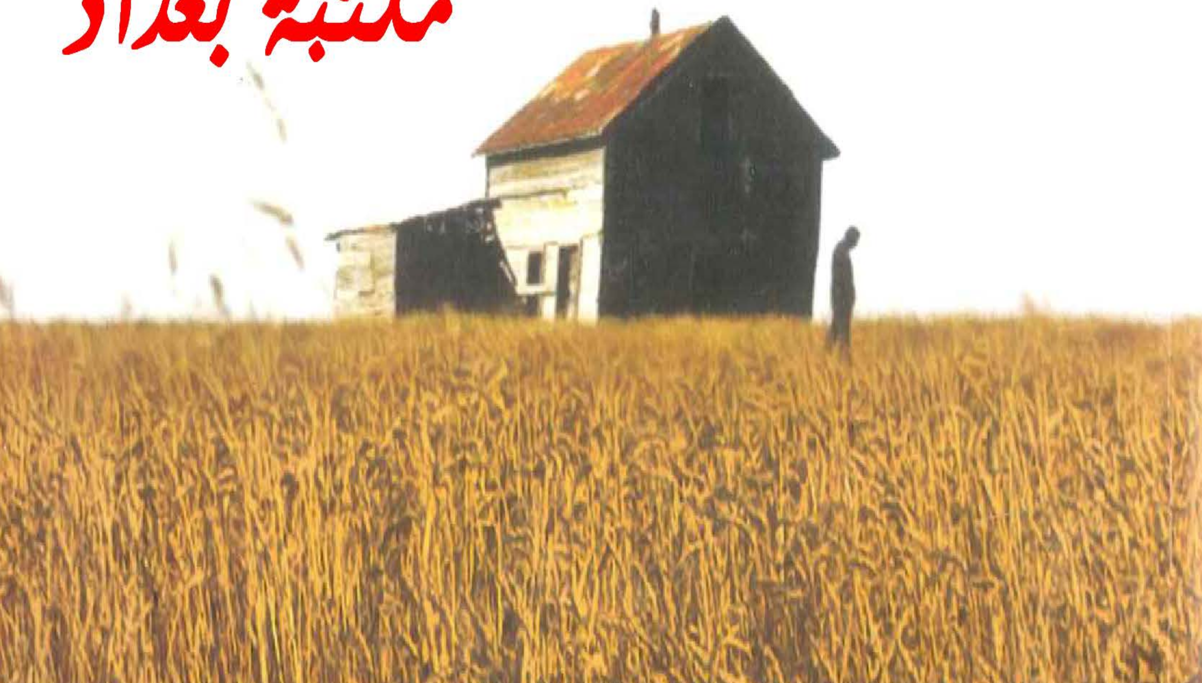

رواية

ترجمت: أسامة إسبر

كنــدا

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ريتشارد فورد

كندا

رواية

ترجمة: أسامة إسبر

كندا - رواية - ريتشارد فورد

ترجمة: أسامة إسبر

الطبعة الأولى 1435 هـ - 2014م
تدمك ISBN 978-9948-20-840-2
كتاب من القطع الوسط عدد الصفحات (538 صفحة) قياس 23X15

© جميع الحقوق محفوظة للناشر

الناشر: دار ورق للنشر والتوزيع

دار ورق للنشر والتوزيع
DAR WARAQ PUBLISHING AND DISTRIBUTION

T : + 971 4 264 4410
F : + 971 4 272 2077
P.O. Box : 91110 Dubai, UAE
info@darwaraq.ae
www.darwaraq.ae

الإمارات العربية المتحدة - دبي - الممزر - بناية بحيرات الممزر - ميزانين مكتب رقم «8»
الطباعة . www.upp.ae دولة الإمارات العربية المتحدة - أبوظبي

https://telegram.me/maktabatbaghdad

إن رواية كندا عمل أدبيٌّ من إبداع الخيال. فجميع الشخصيات والأحداث في الرواية خيالية، وليس هناك تشابه مقصود مع أشخاص حقيقيين، ويجب ألا يُسْتَنْتَجُ هذا. لقد منحتُ نفسي حرية التصرف بتفاصيل مشهد بلدة غريت فولز، في مونتانا، وكذلك مشهد السهوب، وببعض تفاصيل البلدات الصغيرة في الجنوب الغربي لساسكاتشيوان. إنّ الطريق السريع 32، مثلاً، كان غير معبّد سنة 1960، ولكنه كان معبّداً حين كتبتُ عنه. فيما عدا ذلك، إن جميع الأخطاء التي قد تُكتشف، وعمليات الحذف هي من مسؤوليتي.

ريتشارد فورد

الجزء الأول

https://telegram.me/maktabatbaghdad

(1)

سأخبركم أولاً عن عملية السطو التي نفّذها والداي، ثم عن الجرائم التي ارتُكبتْ لاحقاً. لكنّ عملية السطو هي الحدث الأكثر أهمية، لأنها وضعت حياتي وحياة أختي في المسارين اللذين سلكتاهما في النهاية. ولن يُفهم أيّ شيء بشكل دقيق دون أن يُروى هذا في البداية.

كان من المستبعد جداً أن يقوم والدانا بالسطو على مصرف، لأنهما لم يكونا غريبي الأطوار، ولا مُجْرِمَيْن. ولن يظنّ أحد أنه كان مقدّراً عليهما أن يواجها هذه النهاية. فقد كانا عاديين فحسب، لكنّ هذا النوع من التفكير صار بالطبع باطلاً وفارغاً في اللحظة التي سطيا فيها على مصرف.

كان والدي، بيف بارسونز، من أصل ريفي. وُلد في مقاطعة مارنغو، في ولاية ألاباما، سنة 1923، وأنهى دراسته الثانوية سنة 1939، متلهّفاً كي

يتطوع في الجيش في سلك سلاح الجوّ. تطوع في ديموبوليس، وتدرّب في راندولف، قرب سان أنطونيو، وتاق إلى أن يصبح طيّاراً هجوميّاً، ولكن بسبب افتقاره إلى الكفاءة تعلّم بدلاً من ذلك القصف. طار في طائرات البي 25، والميتشيلز الخفيفة ذات الحجم المتوسط، والتي كانت تقوم بواجبها في الفلبين، وفيما بعد طار فوق أوساكا، حيث أمطرت الطائرات الدمار على الأرض، على كلٍّ من الأعداء والناس الأبرياء في آن واحد معاً. كان أبي طويلاً وجميلاً وأنيقاً تعلو وجهه ابتسامة دائمة ويبلغ طوله ستة أقدام، وكانت مقصورة القصف الخاصة به تتسع له بصعوبة. وجهه كبير مربّع، من النوع المترقّب، عظامه الوجنية كثيرة العقد، شفتاه حسيّتان وأهدابه أنثوية طويلة وجذابة. أسنانه بيضاء لامعة وشعره أسود قصير افتخر به، كما افتخر باسمه: بيف. النقيب بيف بارسونز. لم يقرّ أبداً أن بيفرلي اسم امرأة في أذهان معظم الناس. قال إنه جاء من جذور أنجلوسكسونية. "إنه اسم شائع في إنكلترة. فيفيان وغوين وشيرلي أسماء ذكور، ولن يخطئ أحد الظنّ بأنها أسماء نساء". كان محدّثاً لا يتوقّف، ومنفتح الذهن بالنسبة لجنوبي، ويتمتع بخصال حميدة. وكان هذا كافياً لترقيته إلى مراتب أعلى في سلاح الجو، لكنّ هذا لم يحدث. عيناه العسليتان السريعتان تفتشان أنحاء أية غرفة يكون فيها، كي يعثر على شخص يخصّه بالانتباه: أنا وأختي عادة. يروي النكات المبتذلة بأداء مسرحي جنوبيّ، يقوم بخدع في ألعاب الورق وبخدع سحرية، كأن يفصل إبهامه ويستبدله، ويخفي المنديل ويُظهره. يستطيع أن يعزف البلوز السريع على البيانو، وتارة "يتحدث بلهجة ديكسي" معنا، وطوراً يحاكي لغة المسرحية الهزلية "أموس ن آندي". ضعفَ سمعه من

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الطيران في طائرات الميتشيلز، وكان حساساً حيال الأمر. ولكنه بدا أنيقاً في قصة شعره العسكرية البسيطة وصدرية النقيب الزرقاء، وكان يعبّر دائماً عن مودّة حقيقية مما جعلني أنا وأختي التوأم نحبّه. ربما كان هذا أيضاً السبب الذي جذب أمي إليه (بالرغم من أنهما كانا غير منسجمين ومختلفين جداً). ولسوء حظّها حملتْ من موعدهما الوحيد السريع بعد اللقاء في حفلة على شرف طيارين أُمروا بالعودة، في موضع قريب من مكان تدريبه الجديد كي يتعلم مسؤوليات ضابط التموين في فورت لويس، في آذار\ مارس سنة 1954، حين لم يحتج إليه أحد كي يرمي القنابل. تزوّجا على الفور حين اكتشفا الأمر. لم يوافق والداها، اللذان كانا يعيشان في تاكوما، وكانا مهاجرين يهوديين من بولندا، على الزواج. كانا مُدرّسيْ رياضيات متعلمين وموسيقيين شبه محترفين يعزفان في الحفلات في بوزنان، هربا بعد سنة 1918 وجاءا إلى ولاية واشنطن عبر كندا، واشتغلا كعاملي تنظيف في مدرسة. لم تَعْنِ هويتهما اليهودية لهما سوى القليل آنذاك، أو لأمي: كان هذا مفهوماً قديماً صارماً ومقيّداً في الحياة فحسب، وكانا سعيدين لأنهما تركاه خلفهما في أرض لم يكن فيها يهود على ما يبدو. ولم يخطر في ذهنهما أبداً أن ابنتهما الوحيدة ستتزوج من الابن الوحيد المبتسم والثرثار لمُسَعِّريْ أخشاب في الغابات الخلفية لألاباما، ومن أصل اسكتلندي ـ إيرلندي، فرفضا الزواج فوراً. ولكن بينما قد يبدو واضحاً من مسافة أنّ والديْنا لم يكونا مصنوعين لبعضهما بعضاً، فقد كان من الجليّ أكثر أيضاً أنه حين تزوّجت أمّنا من أبينا، فإن زواجها أنذر بخسارة، وغيّر حياتها إلى الأبد، ولكن ليس بطريقة جيدة، كما اعتقدت هي.

كانت أمي، نيفا كامبر (اختصار لجينيفا)، امرأة صغيرة الحجم، متوترة ترتدي نظارة. شعرها بنيّ فوضويّ، أطرافه السفلية الناعمة تتدلى فوق خط فكها. لها حاجبان كثيفان وجبين لامع ذو جلد رقيق، شرايينها مرئية تحته، بشرتها شاحبة من البقاء داخل المنزل، وجعلتها تبدو هشّة، غير أنها لم تكن كذلك. قال أبي مازحاً إنّ الناس من المكان الذي جاء منه في ألاباما سمّوا شعرها "الشعر اليهودي"، أو "شعر المهاجرين"، ولكنه أُعجب به وأحبّها. (لم تعر أي انتباه لتلك الكلمات). كان لها يدان صغيرتان وناعمتان حافظت على أظافرهما مشذّبة ولامعة وكانت معجبة بهما وتومئ بهما وهي شاردة الذهن. كان ذهنها شكّاكاً، وتصغي باهتمام حين نتحدث إليها، وتتمتع بذكاء يمكن أن ينقلب إلى سخرية. ترتدي نظارة بلا إطار، وتقرأ الشعر الفرنسي، وغالباً ما تستخدم مصطلحات بالفرنسية مثل "كابوس" و"أهبل"، لم نكن نفهمها أنا وأختي. تؤلف قصائد بالحبر البنيّ الذي تشتريه بواسطة البريد، وتحافظ على دفتر يوميات لم تسمح لنا بقراءته، وتعبّر أحياناً عن ارتباك وخاصة حين ترفع أنفها قليلاً وتبدو بعيدة النظر، وربما لازمها هذا التعبير على الدوام. وقبل أن تتزوج من أبي وتنجبني أنا وأختي بسرعة، تخرجتْ في سن الثامنة عشرة من كلية ويتمان في والا والا، وعملت في مكتبة، ومن المحتمل أنها قدّمت نفسها كبوهيمية وشاعرة، وكانت تأمل أن تعمل يوماً ما كمدرّسة مجتهدة في كلية صغيرة وتتزوج رجلاً مختلفاً عن ذلك الذي تزوّجته، وربما تخيّلته أستاذاً جامعياً، سيمنحها الحياة التي تصبو إليها. كانت في الرابعة والثلاثين فقط سنة 1960، العام الذي وقعت فيه تلك الأحداث. ولكن كان لديها "تجاعيد بارزة" إلى جانب أنفها، الصغير والقرنفلي في قمته، وكان لعينيها الكبيرتين الخضراوين المشوبتين بالرمادي

https://telegram.me/maktabatbaghdad

والثاقبتين جفنان داكنان جعلاها تبدو أجنبية وحزينة وساخطة قليلاً، وهكذا كانت. عنقها جميل ونحيل، وابتسامتها فجائية غير متوقعة تُظْهِرُ أسنانها الصغيرة وفمها البناتيّ الذي يشبه القلب، بالرغم من أنها ابتسامة نادراً ما تدرّبت عليها، إلا معي ومع وأختي. أدركنا أنها شخصية غير عادية، ترتدي عادة بنطلوناً لونه زيتوني وبلوزات قطنية بأكمام فضفاضة وأحذية من القنّب والقطن لا بدّ أنها كانت تطلبها من الساحل الغربي.بما أنه لا يمكن شراء ملابس كهذه في منطقة غريت فولز. وكانت تبدو غير عادية أكثر حين تقف مترددة إلى جانب والدنا الطويل والأنيق وغير المتحفظ. وبما أنه كان من النادر خروجنا من البيت كأسرة، أو تناولنا للطعام في المطاعم، فإننا نادراً ما لاحظنا كيف يبدوان في العالم، بين الغرباء. فقد بدت الحياة في منزلنا طبيعية بالنسبة لنا.

استطعتُ، أنا وأختي، أن نفهم بسهولة لماذا انجذبت أمي إلى بيف بارسونز: فقد كان ضخم الجثة، بكتفين كاللوح، وثرثاراً ومسلّياً، يريد إلى الأبد أن يسرّ أي شخص يقع في مداه. ولكن لم نعرف أبداً ما الذي جذبه إليها، فهي صغيرة لا يكاد طولها يبلغ خمسة أقدام، وانطوائية وخجولة، وتشعر بالاغتراب وتميل إلى الفن وجميلة فقط حين تبتسم وذكية فقط حين تشعر بأنها مرتاحة بشكل كامل. يُحْسَب له أنه تجاوز اختلافهما الجسدي مركّزاً على جوهر الأمور الإنسانية، مما أثار إعجابي حتى ولو لم يكن في مقدور أمي أن تلاحظ ذلك.

لكنّ الاتحاد الغريب لصفاتهما الجسدية التي لا تتناغم مع بعضها بعضاً خطر دوماً في ذهني كجزء من السبب الذي جعلهما ينتهيان هذه النهاية السيئة: كانا دون شك مخطئين في اختيار بعضهما وكان يجب ألا يتزوجا

أبداً، أو أن يقوما بأيٍّ من هذا، وكانا ينبغي أن يسلكا طريقين منفصلين بعد لقائهما الأول المحموم، مهما كانت نتيجته. كلما طال بقاؤهما، وكلما عرفا بعضهما على نحو أفضل، رأت على نحو أفضل على الأقل خطأهما، وصارت حياتهما أكثر تضليلاً، كمسألة رياضية يكون فيه الحساب الأول خاطئاً، ونتيجة لذلك تبعدك جميع الحسابات الأخرى عن النتيجة الصحيحة المعقولة. إن عالم اجتماع من تلك الأيام ـ بداية الستينيات ـ يمكن أن يقول إن والديْنا كانا في طليعة لحظة تاريخية، بين أول من انتهكوا حدود المجتمع، وآثروا التمرد، وآمنوا بالعقائد التي تحتاج إلى التأكيد عبر تدمير الذات. ولكنهما لم يكونا من هذا النوع. لم يكونا شخصين طائشين في طليعة أي شيء. كانا، كما قلتُ، شخصين عاديين خدعهما الظرف والغرائز السيئة، والحظ العاثر، فغامرا وخرقا الحدود التي عرفا أنها صحيحة، ثم وجدا نفسيهما غير قادرين على العودة.

لكنني سأقول هذا عن أبي: حين عاد من مسرح الحرب ومن كونه وكيل الموت الصافر الهابط من السماوات، سنة 1945، السنة التي وُلدتُ فيه أنا وشقيقتي، في ميشيغان، في قاعدة ورتسميث في أوسكودا، من المحتمل أنه كان تحت تأثير جاذبية ما عظيمة غير محددة، مثله مثل كثير من الجنود الآخرين. أمضى بقية حياته يصارع تلك الجاذبية، محاولاً أن يبقى إيجابياً ودون هدف، متخذاً القرارات السيئة التي بدت في الحقيقة جيدة للحظة، ولكنه في النهاية أساء فهم العالم الذي عاد إليه جاعلاً سوء الفهم ذاك حياته. ولا بدّ أن الأمر حدث بهذه الطريقة لملايين الشبان، بالرغم من أنه كان يجهل هذا في نفسه ولم يعترف أبداً بأنه صحيح.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

(2)

استقرت عائلتنا في بلدة غريت فولز في مونتانا، سنة 1956، كما فعلت كثير من العائلات العسكرية بعد الحرب. عشنا في قواعد جوية في المسيسيبي وكاليفورنيا وتكساس. حصلت أمّنا على شهادتها وعملتْ كمدرّسة بديلة في جميع تلك الأمكنة. لم يُنقل والدنا إلى كوريا، ولكنه عُيّن في وظيفة مكتبيّة في الوطن، في سلاح التموين والإمداد. سُمح له بالبقاء في الخدمة لأنه فاز بأوسمة في المعارك، ولكنه لم يُرفّع إلى أكثر من نقيب. وفي نقطة معيّنة، حين كنّا في غريت فولز وكان في السابعة والثلاثين، قرر أن سلاح الجوّ لم يعد يشكّل مستقبلاً واعداً له، وبعد أن خدم عشرين سنة، ينبغي أن يأخذ راتب تقاعده ويتسرّح. وشعر بأن ما أعاده إلى الوراء على الأرجح هو افتقار أمّنا إلى الاهتمامات الاجتماعية، وعدم رغبتها بدعوة أي شخص من القاعدة إلى منزلنا لتناول العشاء،

ومن المحتمل أنه كان على حق في هذا. وفي الحقيقة، أعتقد أنه لو أثار أحد ما إعجابها، لأحبّت الأمر، ولكنها لم تعتقد أبداً أنه سيكون هناك أحد. قالت: "لا يوجد في الخارج سوى الأبقار والقمح. ليس هناك مجتمع حقيقيّ منظّم". على أي حال، أعتقد أن والدنا كان متعباً من سلاح الجوّ وأحبَّ غريت فولز كمكان اعتقد أنه يستطيع أن ينطلق فيه إلى الأمام، حتى دون حياة اجتماعية. قال إنه كان يأمل أن ينضم إلى الماسونيين.

كان ربيع 1960 آنذاك. وكنت أنا وأختي بيرنير في الخامسة عشرة. سُجّلنا في مدرسة لويس (ميريويزر لويس) الثانوية، التي كانت قريبة بما يكفي إلى نهر ميسوري، وكان بمقدوري أن أشاهد من نوافذ المدرسة الطويلة سطح النهر اللامع والبط والطيور المحتشدة، وأن ألمح محطة قطارات شيكاغو، ميلوكي، وسينت بول، حيث لم تعد تتوقف قطارات المسافرين، ونحو الأعلى المطار البلدي في جور هيل، حيث تنطلق رحلتان جويتان يومياً، وفي أسفل النهر مدخنة المصهر ومصفاة النفط فوق الشلالات التي أخذت المدينة اسمها منها. وفي أيام الصحو أستطيع رؤية القمم الثلجية للجبال الشرقية، على بعد ستين ميلاً، تتسلسلُ جنوباً نحو إداهو وشمالاً إلى كندا. ولم نكن أنا وأختي نعرف أي شيء عن "الغرب"، باستثناء ما رأيناه على شاشة التلفاز، أو حتى عن أميركا نفسها، التي سلّمنا جدلاً بأنها أفضل مكان موجود. كانت حياتنا الحقيقية هي الأسرة، وكنا جزءاً من متاعها المتناثر. وبسبب اغتراب أمنا المتنامي وانسحابها وشعورها بالتفوّق ورغبتها بأن لا أتكيّف أنا وبيرنير

https://telegram.me/maktabatbaghdad

مع "ذهنية البلدة ـ السوق"، والتي اعتقدت أنها خنقت الحياة في غريت فولز، فإننا لم نعش الحياة كمعظم الأطفال، والتي يمكن أن تشمل زيارة أصدقاء، وإيصال الصحف، والكشافة والرقص. إن تكيّفنا، كما شعرت أمنا، سيزيد فحسب من فرصة أن ننتهي حيث كنا. وكان صحيحاً أيضاً أنه لو كان والدك في القاعدة ـ بغض النظر عن المكان الذي تعيش فيه ـ سيكون لديك دائماً أصدقاء قليلون ونادراً ما تلتقي بجيرانك. فعلنا كل شيء في القاعدة: زرنا الطبيب، وطبيب الأسنان، حلقنا شعرنا، تسوّقنا. عرف الناس هذا. كانوا يعرفون أننا لن نمكث هنا وقتاً طويلاً، ولهذا لم يزعجوا أنفسهم بمعرفتنا. كانت القاعدة تحمل وصمة، كما لو أن الأمور التي تجري لا يحتاج الناس الملائمون إلى معرفتها أو الارتباط بها. أضفْ إلى ذلك أنّ أمي يهودية ولها مظهر مهاجرة، وهي بطريقة ما بوهيمية. كان هذا شيئاً تحدثنا عنه جميعاً، كما لو أنّ حماية أميركا من أعدائها لم تكن أمراً لائقاً.

لكنني أحببتُ غريت فولز، على الأقل في البداية. فقد كانت تُدعى "المدينة الكهربائية" لأن الشلالات تنتج الطاقة. بدت فظّة ومتزمّتة وبعيدة، غير أنها جزء من البلاد التي بلا حدود، والتي عشنا فيها. لم يعجبني أن للشوارع أرقاماً بدلاً من الأسماء، فقد كان هذا مُشَوِّشاً، وقالت أمي إن هذا يعنى أنها بلدة بناها أصحاب مصارف بخلاء. وكانت فصول الشتاء بالطبع قارسة ولا تكلّ، والريح تهبّ من الشمال مندفعة كقطار شحن، وقلة الضوء تثبّط معنويات أي شخص، حتى الأشخاص الأكثر تفاؤلاً.

في الحقيقة، لم أفكّر أنا وبيرنير بأننا من أي مكان على وجه التحديد. فكلما انتقلت عائلتنا إلى مكان جديد ـ أيّ من الأمكنة البعيدة ـ واستقرت في منزل مستأجر، وارتدى والدنا بزّته الزرقاء الضيّقة وقاد سيارته إلى العمل في قاعدة جوية ما، وبدأت أمي بمنصب تدريس جديد، أقرّر أنا وبيرنير بأننا سنقول إننا من هذا المكان إذا حدث وسألنا أحد. كنّا نتمرّن على نطق الكلمات لبعضنا بطريقتنا الخاصة في طريقنا إلى أية مدرسة جديدة في كل مرة. "مرحباً، نحن من بيلوكسي، المسيسيبي". "مرحباً، أنا من أوسكودا. إنها في أعلى ميشيغان". "مرحباً، أعيش في فكتورفيل". حاولتُ تعلّم الأشياء الأساسية التي يعرفها الأولاد الآخرون وأن أتحدث بالطريقة التي يتحدثون بها، أتقنتُ التعابير بالمحكيّة، تجوّلتُ كما لو أنني أشعر بالثقة من كوني هناك ولا يمكن أن أُفاجَأ. فعلتْ بيرنير الشيء نفسه. ثم حين ننتقل إلى مكان آخر، أحاول أنا وبيرنير التكيّف مرة أخرى. إن هذا النوع من النموّ، كما اكتشفت، يمكن أن يتركك إما منبوذاً وإما بلا هدف، أو يمكن أن يشجّعك على أن تكون مرناً ومكرّساً للتكيّف، الشيء الذي لم توافق عليه أمي، بما أنها لم تمارسه، وتمسكت لنفسها بفكرة ما عن مستقبل مختلف، يشبه كثيراً ذاك الذي تخيلته قبل أن تلتقي بأبي. وقد كنا ـ أنا وأختي ـ ممثلين صغيرين في مسرحية رأت أنها تتكشف بلا هوادة.

نتيجة لهذا، ما بدأتُ أحرص عليه على نحو كبير هو المدرسة، والتي شكّلتْ الخيط المتواصل في الحياة بالإضافة إلى والديّ وأختي. لم أرد أبداً أن تنتهي المدرسة. كنت أقضي وقتاً طويلاً داخل المدرسة قدر استطاعتي،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

مستغرقاً في قراءة الكتب التي يمنحونها لنا، مرافقاً المدرّسين، مستنشقاً روائح المدرسة، التي كانت نفسها في كل مكان ومختلفة عن أية روائح أخرى.

صارت معرفة الأشياء مهمة لي، مهما كانت. كانت أمنا تعرف أشياء وتقدّرها. أردتُ أن أكون مثلها، بما أنني أستطيع أن أحفظ الأشياء التي أعرفها، وسوف تميّزني كشخص مثقّف في ميادين عديدة وواعدة، وكانت هذه خصائص مهمة لي. ولم يهمني عدم انتمائي إلى أيّ من تلك الأمكنة، إلا أنني انتميتُ إلى مدارسها. كنت جيداً في الإنكليزية والتاريخ والعلوم والرياضيات، هذه الموضوعات التي كانت أمي جيدة فيها أيضاً. وفي كل مرة كنا نجتمع وننتقل كانت حقيقة الحياة الوحيدة التي تجعل الانتقال مخيفاً هو ألا أتمكن من العودة إلى المدرسة، أو أنني سأفتقد معرفة جوهرية يمكن أن تضمن مستقبلي ولا يمكن تحصيلها في أي مكان آخر، أو أننا سننتقل إلى مكان جديد لن تكون فيه مدرسة لي مطلقاً. (نُوقشت غوام مرة).

خفتُ أن أنتهي دون أن أعرف شيئاً، وألا يكون لدي شيء أعتمد عليه يمكن أن يميّزني.

أنا متأكد من أن هذا كله كان ميراثاً من مشاعرِ أمي حيال حياة غير مُكافأة. وربما كانت المسألة أن والديْنا الغارقين في الفوضى المتزايدة لحياتهما كشابين لم يقدما لي ولأختي ما يكفي كي نستند إليه، كما من المفترض أن يفعل الوالدان، لأنهما لم يكونا مصنوعين لبعضهما، وربما لا يشتهيان بعضهما جسدياً كما حدث لوقت قصير، ولأنهما أصبحا

بالتدريج تابعين لبعضهما بعضاً فحسب، وصارا في النهاية يستاءان من بعضهما دون أن يدركا ذلك. على أي حال، إن إلقاءك اللوم على والديك من أجل مصاعب الحياة التي تواجهك لا يؤدي في النهاية إلى أية نتيجة.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

(3)

حين تسرّح والدي في أوائل الربيع كنا جميعاً مهتمين بالحملة الرئاسية التي كانت تجري آنذاك. اتفق والدانا على الديمقراطيين وكينيدي، الذي كان سيُرشَّح في الحال. قالت أمي إن أبي أحب كينيدي لأنه تخيّل تشابهاً. كره أبي كثيراً إيزنهاور لأسباب تتعلق بالقاذفات الأميركية التي ضُحِّيَ بها من أجل "إضعاف الألمان"، وراء الخطوط يوم اجتياح الحلفاء لفرنسا، وبسبب صمت إيزنهاور الخيانيّ حيال ماكأرثر، الذي كان أبي يجلّه، ولأن زوجته كان معروفاً عنها بأنها "كحولية".

كره نكسون أيضاً. كان "شخصاً بارداً"، و"بدا إيطالياً"، وكان "صاحبيّاً مؤيداً للحرب"، مما جعله منافقاً. كره أيضاً الأمم المتحدة، التي اعتقد أنها مكلفة جداً وسمحت لشيوعيين مثل كاسترو (الذي سمّاه ممثلاً تافهاً) بأن يكون لهم صوت في العالم. حافظ على صورة مؤطرة لفرانكلين روزفلت

في غرفة جلوسنا على الحائط فوق بيانو كمبال الصغير وجهاز ضبط الإيقاع (المترونوم) الذي من الماهوغاني والنحاس، والذي لم يكن يعمل ولكنه كان في المنزل حين استأجرناه. مدح روزفلت لأنه لم يسمح لشلل الأطفال (البوليو) بأن يهزمه، لأنه قتل نفسه من العمل لإنقاذ البلاد، ولإخراج الغابات الخلفية لألاباما من ظلمة القرون الوسطى عبر نظام إنارة الريف، ولطلاقه من السيدة روزفلت التي سماها "الخوخة المجففة الأولى".

حافظ أبي على تناقض قويّ حيال كونه من ألاباما. فمن ناحية، تصوّر نفسه "رجلاً حديثاً" وليس كريفيّ، كما قال. اعتنق وجهات نظر حديثة في أمور كثيرة، كمثل العِرْق، لأنه عمل مع الزنوج في سلاح الجو. شعر أن مارتن لوثر كينغ رجل مبادئ وأن هناك حاجة ماسة إلى قانون الحقوق المدنية الذي أصدره إيزنهاور. وشعر أنّ حقوق النساء بحاجة إلى هزة أكثر عدلاً، وأن الحرب مأساة وتبديد، وكان يعرفها عن قرب.

من ناحية أخرى، حين تقول أمنا شيئاً ما يسيء إلى الجنوب - كما تفعل غالباً - يشرد ويقول لي إنّ جيف وديفيس "رجلان حقيقيان"، بالرغم من أن قضيتهما ضلّلتْهما، وإنّ أشياء كثيرة جيدة أتت من الجنوب، وليس فقط محلاج القطن ومزلجة المياه. وكانت أمي تقول:"ربما تستطيع أن تسمي لي واحداً، مستثنياً نفسك، بالطبع".

في اللحظة التي توقف فيها عن ارتداء البزة الزرقاء لسلاح الجوّ والذهاب إلى القاعدة، عثر والدنا على عمل في بيع سيارات الأولدزموبايل الجديدة. شعر بأنه سيكون موهوباً في بيع السيارات. إن شخصيته الودّية، كونه مرحاً ومُرحِّباً ومضيافاً وواثقاً، ويتحدث باستمرار وبشكل مطوّل جداً،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ستجذب الغرباء وتجعل ما وجده أشخاص آخرين صعباً سهلاً عليه. كان الزبائن سيثقون به لأنه جنوبيّ، وكان من المعروف أن الجنوبيين عمليون أكثر من الغربيين الصامتين. قال إن المال سيتدفّق حالما تنتهي سنة الموديل وترفع الحسومات الكبيرة من المبيعات. ومن أجل وظيفته منحوه سيارة أولدزموبايل سوبر 88 قرنفلية مائلة إلى الرمادي كي يستخدمها للعرض، وكان يصفّها أمام منزلنا في الجادة الأولى ساوث ويست، حيث عُرضتْ كإعلان جيّد. أخذَنا جميعاً في نزهة إلى فيرفيلد، نحو الجبال، وشرقاً نحو لويستاون وجنوباً نحو هيلينا. سمّى تلك الرحلات النهارية "اختبارات توجّه وشرْح وأداء"، بالرغم من معرفته القليلة جداً عن السيارات باستثناء كيف يقودها، الأمر الذي أحبّه. شعر أنه كان من السهل بالنسبة لضابط في سلاح الجوّ العثور على وظيفة جيدة، وأنه كان يجب أن يترك الخدمة حين انتهت الحرب، ولو فعل ذلك لكان قد حقق قفزة كبيرة إلى الأمام الآن.

وبعد أن ترك والدنا سلاح الجو وبدأ العمل، اعتقدتُ أنا وأختي أن حياتنا يمكن أن تحصل في النهاية على موطئ قدم دائم. فقد عشنا في غريت فولز لسنوات. وفي كلّ يوم مدرسة كان أحد ما يوقف سيارته ويقلّها إلى بلدة فورت شو الصغيرة، حيث تدرّس الصفّ الخامس. لم تتحدث أبداً عن التعليم، ولكن بدا كأنها تحبّه وكانت أحياناً تتحدث عن المعلّمين الآخرين وتقول إنهم أشخاص مخلصون (بالرغم من أن علاقتها بهم محدودة ولا تريدهم أن يزوروا منزلنا أبداً كمثل الأشخاص الآخرين في القاعدة). وفي نهاية الصيف استطعت التنبؤ بالبدء في مدرسة غريت فولز الثانوية، حيث اكتشفت وجود ناد للشطرنج وجمعية للنقاش، وحيث بوسعي تعلّم اللاتينية

أيضاً، بما أنني كنت صغيراً ووزني لا يسمح لي بممارسة الرياضة، التي لم أكن مهتماً بها بأية حال. قالت أمي إنها تتوقع أن أدرس أنا وبيرنير في الجامعة، ولكن سيكون علينا الذهاب إليها معتمدين على ذكائنا لأنه لن يكون هناك أبداً نقود كافية. لكنها قالت إنّ بيرنير تمتلك شخصية تشبهها كثيراً قادرة على أن تحدث تأثيراً جيداً بما يكفي كي تدخل الجامعة، وربما عليها أن تحاول التزوج من خريج جامعي بدلاً من ذلك فقط. وعثرتْ في حانوت في سنترال أفينيو على عدة أعلام جامعية دعائية مثلثة الشكل وعلقتها على جدراننا، وهي موادّ تخلّص منها فتيان آخرون. كانت رايات فورمان وبيلور والصليب المقدس من نصيبي، ورتجرز وليهاي ودوكويسين من نصيب أختي. لم نعرف أي شيء عن هذه الجامعات، بالطبع، ولا أين تقع، ولكن كان هناك صور في ذهني حول شكلها: أبنية آجرية قديمة بأشجار كبيرة تمنح الظل ونهر وجرس برج.

بدأت بيرنير في ذلك الوقت تصبح سهلة الرفقة. لم نكن في الصفوف نفسها منذ المدرسة الابتدائية لأنه يُعدّ من غير الصحيّ للتوأمين أن يكونا معاً طول الوقت، بالرغم من أننا ساعدنا بعضنا دوماً في وظائفنا المدرسية وقمنا بعمل جيد. كانت تمضي في غرفتها وقتاً أطول الآن، تقرأ مجلات عن السينما تشتريها في الريكسال، ومجلة بايتون بليس وبونجور تريستس، اللتين هربتهما إلى المنزل ولم تقل من أين. كانت تعتني بأسماكها في حوضها، وتصغي إلى موسيقا المذياع، ولم يكن لديها أصدقاء، وكان هذا ينطبق عليّ أيضاً. لم يهمني الابتعاد عنها والحصول على حياة منفصلة باهتماماتي وأفكاري الخاصة عن المستقبل. كنتُ أنا وبيرنير توأمين. كانت تكبرني بست دقائق

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ولا تشبهني في أي شيء. كانت طويلة ونحيلة ومرتبكة ومليئة بالنمش، ويساريّة، بينما كنت أستخدم اليمين. على أصابعها ثآليل، عيناها رماديتان وخضراوان كعيني أمي وعينيّ. ثمة بثور في الوجه، وهو مسطح، وذقنها ناعم وغير جميل. شعرها بنيّ سلكيّ مفروق في الوسط وفمها حسيّ مثل فم والدنا، بالرغم من أن لديها شعراً قصيراً في جميع الأمكنة، على ساقيها وذراعيها. ولم يكن لها صدر بارز، وكان هذا ينطبق على أمي أيضاً. كانت ترتدي عادة بنطلونات وفستاناً بلا ياقة أو كمين فوقها تجعلها تبدو أضخم مما هي. كانت أحياناً ترتدي قفازين من الدانتيل كي تغطي يديها. لديها أيضاً حساسية تحمل من أجلها منشاق الفيكس التوربيدو في جيبها، وكانت رائحة الفيكس تصدر عن غرفتها دوماً حين يقترب المرء من الباب. بالنسبة لي، كانت تشبه مزيجاً من والدينا: طول أبي ونظرات أمي. وقد وجدتُ نفسي أحياناً أفكّر ببيرنير كفتى أكبر مني. في أوقات أخرى تمنيت لو أنها بدت مثلي أكثر كي تكون ألطف معي، ونكون أكثر قرباً. لكنني لم أرغب أبداً بأن أبدو مثلها.

أنا، من ناحية أخرى، كنت أصغر وأنيقاً بشعر منتصب بني مفروق بشكل عريض جانبياً، وبشرة ناعمة بعدد قليل جداً من البثور. كانت ملامحي "جميلة" أكثر مثل ملامح والدنا، ولكنني رقيق كأمنا. وقد أحببتُ هذا كما أحببتُ الطريقة التي كانت أمي تلبسني بها ثيابي، فقد كنت أرتدي بنطلوناً خاكيّاً وقمصاناً نظيفة مكويّة وأحذية أكسفورد من كتالوج سيرز. كان والدانا يمزحان مع بيرنير ومعي قائلين إننا أتينا من ساعي البريد أو بائع الحليب، أو إننا "بقايا شيء ما". لكنني شعرتُ بأنهما يعنيان بيرنير فحسب.

وفي الأشهر الأخيرة، صارت بيرنير حساسة حيال شكلها، وصارت عصبيّة كما لو أن خطأ حدث في حياتها في مدة قصيرة من الوقت. في لحظة واحدة في ذاكرتي، كانت فتاة صغيرة سعيدة وذكية ومنمشة الوجه وعادية لها ابتسامة رائعة ويمكن أن تجعل وجهها مرحاً وتجعلنا كلّنا نضحك. ولكنها تصرفت الآن كمتشائمة، مما جعلها مرتابة وماهرة في تحديد نقاط ضعفي، ولكن هذا جعلها تبدو غاضبة، إذ لم يعجبها حتى اسمها، الذي أحببتهُ واعتقدتُ أنه جعلها فريدة.

بعد أن باع والدي سيارات الأولدزموبايل لمدة شهر، تعرض لحادث مروريّ ثانوي صدم فيه مؤخرة السيارة فيما كان يسوق بسرعة في سيارته الخاصة بالعرض، وكان أيضاً في القاعدة حيث لم يكن لديه عمل هناك. بعد ذلك بدأ ببيع سيارات الدودج وأحضر إلى المنزل سيارة دودج بنية وبيضاء لها سقف ثابت، فيها ما يُدعى بزرّ الإشعال ونوافذ كهربائية ومقاعد دوارة، وأيضاً زعانف أنيقة وأضواء خلفية مبهرجة حمراء وهوائي طويل يتحرك كالسوط. توضعت هذه السيارة بشكل مشابه لمدة ثلاثة أسابيع أمام منزلنا. دخلت إليها أنا وبيرنير وشغّلنا الراديو، وأخذنا والدي المزيد من النزهات وتركْنا الهواء يدخل والنوافذ الأربع كلها مفتوحة. وفي مناسبات عدة كان يقود السيارة خارج "ذ بوتليجر تريل"، ويتركنا نسوق ويعلّمنا كيف نرجع إلى الوراء وندير العجلات بشكل صحيح للتزلج على الجليد. ولسوء الحظ لم يبع أية سيارات دودج واستنتج أنه في الوظيفة الخطأ في مكان مثل غريت فولز، البلدة الفظة التي يبلغ عدد سكانها خمسين ألفاً فقط، والتي

https://telegram.me/maktabatbaghdad

تكتظّ بالسويديين المقتصدين والألمان المرتابين، ونسبة مئوية قليلة فقط من الناس الذين يملكون النقود ويمكن أن يرغبوا بإنفاق نقودهم على السيارات الفارهة. ترك العمل عندئذ وعمل في بيع السيارات المستعملة والاتجار بها في مكان قريب من القاعدة. كان رجال سلاح الجو يعانون دوماً من صعوبات مالية ويتطلّقون ويُحاكَمون ويتزوّجون ثانية ويُسجنون ويحتاجون إلى النقود. كانوا يشترون السيارات ويتاجرون بها لتأمين النقود. تستطيع أن تصنع النقود كونك الوسيط، وكان يحبُّ هذا المنصب. أضفْ إلى ذلك أنّ رجال سلاح الجو سيميلون للقيام بالعمل مع ضابط سابق، يفهم مشاكلهم الخاصة ولا ينظر إليهم باستعلاء مثل سكان البلدة الآخرين.

لم يبق طويلاً في هذه الوظيفة أيضاً. لكنه أخذني أنا وبيرنير في مناسبتين أو ثلاث إلى مكان العمل كي يرينا المكان. لم يكن هناك شيء بالنسبة لنا كي نقوم به سوى التجول بين صفوف السيارات، في الجوّ الخانق والساخن، تحت الرايات المرفرفة والفلاشات الفضية على الأسلاك، محدقين في آليات القاعدة العابرة من بين أغطية محركات السيارات التي تزداد سخونة تحت شمس مونتانا. "إن غريت فولز بلدة سيارات مستعملة، وليست بلدة سيارات جديدة"، قال والدنا، واقفاً ويداه على ردفيه على درجات المكتب الخشبي الصغير حيث ينتظر البائعون الزبائن. "إن السيارات الجديدة تضع الجميع في مأوى الفقراء. يذهب ألف دولار في الثانية التي تقود فيها خارجاً من مكان صف السيارات". في حوالى هذا الوقت - في أواخر حزيران - قال إنه يفكّر في القيام برحلة في السيارة إلى ديكسي، لرؤية كيف تبدو الأمور

هناك، بين "الذين تُركوا في الخلف". قالت له أمي إن هذه رحلة سيقوم بها بنفسه وبدون ولديه، مما أغاظه. قالت إنها لا تريد أن تقترب من ألاباما. كانت المسيسبي كافية. إن الوضع بالنسبة لليهود أسوأ مما هو بالنسبة لغير المنحدرين من العرق الأبيض، الذين ينتمون إلى هناك على الأقل. كانت ترى أن مونتانا أفضل لأنه لا أحد يعرف حتى كيف هو الشخص اليهودي، مما أنهى نقاشهما. إن موقف أمنا من كونها يهودية هو أن هذا يشكل عبئاً أحياناً، وفي أحيان أخرى يميّزها بطريقة تقبلها. ولكنه لم يكن جيداً بأية طريقة. لم أعرف أنا وبيرنير ما يعنيه أن يكون المرء يهودياً، سوى أن أمنا يهودية، مما يجعلنا وفق القواعد القديمة يهوديين رسمياً، وكان هذا أفضل من كوننا من ألاباما. قالت إننا يجب أن نعدّ أنفسنا "غير ملتزمين بالدين"، أو "بلا جذور". عنى هذا أننا نحتفل بعيد الميلاد وعيد الشكر وعيد الفصح والرابع من تموز\يوليو بالطريقة نفسها ولا نذهب إلى الكنيسة، وكان هذا جيداً لأنه لم يكن هناك كنيس يهوديّ في غريت فولز بأية حال. ربما في يوم من الأيام قد يعني هذا شيئاً، ولكن ليس عليه أن يعني الآن.

حين حاول والدنا أن يبيع السيارات المستعملة لمدة شهر، رجع إلى المنزل في أحد الأيام بسيارة مستعملة اشتراها لنفسه، قايضها بسيارتنا 52 ميركوري وهي بيل إير شيفروليه بيضاء وحمراء، اشتُريت من مكان بيع السيارات حيث كان يعمل. "صفقة جيدة". قال إنه سيبدأ وظيفة جديدة في بيع المزارع والأراضي، وكان هذا شيئاً أقرّ أنه لا يعرف عنه أيّ شيء ولكنه سجّل كي يتعلّم عن هذه المهنة في قبو منظمة الجمعية المسيحية للشبان. وسيساعده الرجال الآخرون في الشركة. كان والده مُسَعِّراً للأخشاب،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وهكذا فقد كان واثقاً من أنه يمتلك شعوراً جيداً حيال الأشياء "في الخارج في السهوب"، أفضل مما كان الأمر عليه في البلدة. فضلاً عن ذلك، حين يُنتخب كينيدي في تشرين الثاني\نوفمبر، سيبزغ فجر فترة من الانتعاش، والشيء الأول الذي سيريد الناس أن يفعلوه هو شراء الأراضي. قال إنهم لم يكونوا يفعلون الكثير من هذا، رغم أن هناك الكثير منها في تلك الأرجاء، وإنه علمَ أن النسب المئوية من مبيعات السيارات المستعملة، ليست لصالح أحد باستثناء التاجر، ولا يعرف لماذا هو آخر من يكتشف هذه الأمور. ووافقت أمنا على ذلك.

لم نعرف بالطبع عن الأمر آنذاك، أعني أنا وأختي، ولكن لا بدّ أنهما أدركا أن كلاً منهما بدأ بالانسحاب من عالم الآخر أثناء ذلك الوقت، بعد أن ترك سلاح الجوّ وكان من المفترض أنه يعثر على نفسه في العالم، وأنهما ينظران إلى بعضهما بشكل مختلف، ومن المحتمل أنه بدأ يفهم أن الخلافات بينهما لم تكن تتلاشى بل تزداد. ذلك أنّ التنقل المُشوِّش والمقلق والصاخب من قاعدة إلى أخرى، وتربية طفلين، أثناء الانتقال، وأعوام من هذا، سمح لهما بأن يؤجلا الانتباه إلى ما كان يجب أن ينتبها إليه في البداية ـ وربما حدث لها هذا أكثر منه، وهو أنّ ما بدا صغيراً صار شيئاً لم تعد تحبه الآن: تفاؤله، ارتيابها واغترابها، كونه من الجنوب، وكونها يهودية مهاجرة، افتقاره إلى التعليم، وانشغالها به وشعورها بعدم التحقق. حين أدركا الأمر (أو حين أدركته) ـ حدث هذا بعد أن سُرِّح وتغيّرت الحركة نحو الأمام ـ بدأ كلّ منهما يعيش توتراً وهاجساً بالشرّ خاصاً به ولا يتقاسمه مع الآخر. (سُجِّل هذا في تفاصيل متنوّعة كتبتها أمي، في يومياتها). لو سُمحَ للأمور

بأن تسلك الطريق الذي يسلكه آلاف من الأشخاص الآخرين - الانفصال العادي الذي يحدث كلّ يوم - لكان بوسعها أن تأخذني أنا وبيرنير وتضعنا في القطار وتنطلق بنا خارج غريت فولز إلى تاكوما، المكان الذي جاءت منه، أو إلى نيويورك أو لوس أنجلوس. لو حدث هذا، لسنحت لكلٍّ منهما الفرصة بأن يعيش حياة جديدة في العالم الواسع. كان بمقدور أبي أن يعود إلى سلاح الجوّ، بما أن تركه كان صعباً عليه، أو كان بوسعه الزواج من امرأة أخرى. وكان بمقدور أمنا أن تعود إلى المدرسة بما أن بيرنير وأنا سنكون قد ذهبنا إلى الجامعة. كان بوسعها تأليف القصائد، وتحقيق طموحاتها الأولى. كان القدر سيحسن من حياتهما.

لو كانا هما من يروي هذه القصة، لاختلفتْ بشكل طبيعي، لأنهما لعبا الدور الرئيسي في الأحداث التي كانت قادمة، وكنت أنا وأختي المشاهدين، وهذا أحد الأشياء التي يمثلها الأطفال بالنسبة للوالدين. فالعالم لا يفكر عادة بأنَّ للصوص المصارف أطفالاً، بالرغم من أن كثيرين ينبغي أن يفعلوا هذا. ولكن قصة الأطفال، والتي هي قصتي أنا وأختي، هي لنا كي نفكّر بها مليّاً ونتقاسمها ونحكم عليها فيما نعيشها. بعد سنوات، فيما بعد في الجامعة، قرأتُ أن الناقد العظيم رسكين قال إن التأليف هو المؤالفة بين أشياء متنافرة. مما يعني أن المؤلف هو الذي يحدد ما الذي يتماثل مع ماذا، وما يهم أكثر وما الذي ينبغي أن يُرمى جانباً في اندفاع الحياة السريع إلى الأمام.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

(4)

إن معظم ما حدث تالياً ـ منذ منتصف صيف 1960 ـ عرفته عموماً من مصادر متنوعة غير موثوقة: مما قرأتُهُ في صحيفة تربيون التي تصدر في غريت فولز، التي نشرتْ قصصاً عن والديْنا جعلت الأمر يبدو كأن هناك شيئاً فنتازياً ومسلياً إلى حد كبير في ما فعلاه. عرفتُ تفاصيل أخرى من اليوميات الذي كتبتها أمي في سجن مقاطعة جولدن فالي، في نورث داكوتا، وهي تنتظر المحاكمة، وفيما بعد في سجن ولاية نورث داكوتا في بسمارك. واطّلعتُ على بعض الأمور مما سمعتهُ الناس في ذلك الوقت. وبالطبع، عرفتُ بعض التفاصيل لأننا كنا في المنزل معهما وراقبناهما، كما يفعل الأطفال، فيما كانت الأمور تتغير من الوضع الطبيعي المسالم والجيد إلى السيء والأسوأ ثم إلى أسوأ ما يمكن تصوّره (بالرغم من أنه لم يُقتل أحد إلا فيما بعد).

في معظم الوقت الذي قضاه أبي في القاعدة في غريت فولز ـ لمدة أربع

سنوات ـ كان متورطاً، دون علم منا، في خطة لتزويد نادي الضباط باللحوم المسروقة، وقد تلقى النقود مقابل هذا، وشرائح لحم البقر الطازجة التي كنا نأكلها في المنزل مرتين في الأسبوع. وُضعت الخطة بشكل جيد في القاعدة، وانتقلت من ضابط مؤونة إلى آخر فيما هم يتنقلون عبر وظائفهم وخارجها. وشملت الخطة القيام بتجارة غير مشروعة مع أعضاء معيّنين من قبيلة كري الهندية، الذين يعيشون إلى الجنوب من هافر، مونتانا، في محميّة، وكانوا خبراء في سرقة أبقار هيرفورد من قطعان المزارعين المحليين، يذبحون الأبقار في السرّ، ثم ينقلون لحوم الخاصرة إلى القاعدة منفّذين العمل كلّه ليلاً. كان مدير نادي الضباط يخزن اللحوم في براد النادي ويقدمه لمساعدي وعقداء وقائد القاعدة وزوجاتهم، الذين لا يعرفون من أين تجيء اللحوم ولا يكترثون طالما لم يُقبض على أحد وطالما أن نوعيتها جيدة.

كانت هذه خطة تجارية صغيرة على ما يبدو، ولهذا استمرت لسنوات وتوقع الجميع أن تدوم. إلا أن سوء تفاهم حدث في القاعدة فكُشفت على نحو محرج أجزاء من الخطة تضمّنت ممارسات دفع في مكتب المؤونة والإمداد، فسُجن عدد من رجال سلاح الجو، وفقد والدي رتبة النقيب، التي كان فخوراً بها، وخُفِّضت رتبته إلى ملازم أول. ربما كان أحد الأطراف الذين تسبّبوا في كشف عملية الاحتيال، لكن هذا لم يُعلن أبداً. وأكيد أنّ الحادثة، التي لم يناقشها أحد في منزلنا ولم نعرف عنها أنا وبيرنير، لعبتْ دوراً في قراره في ترك سلاح الجو. ومن الممكن أنه أُجبر على الاستقالة، بالرغم من أنه تلقى شهادة تسريح مشرفة، أطّرها وعلّقها في غرفة جلوسنا فوق البيانو، إلى جانب صورة روزفلت الخاصة به. كانت الصورة موجودة بعد

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أن اعتُقل والدانا، حين كنتُ أنا وشقيقتي لوحدنا في المنزل، ولم يأت أحد كي يتفقّدنا. في ذلك الوقت، وقفتُ وأمعنتُ النظر فيها عدة مرات ("سُرِّح على نحو مشرّف من سلاح الجو في الولايات المتحدة... شهادة خدمة صادقة ومخلصة..") واعتقدتُ أن ما هو مكتوب فيها صحيح. وفكرت بأخذها معي حين غادرت، ولكنني نسيتها، معلقة في منزلنا المهجور من أجل شخص آخر كي يسخر منها ويرميها في النهاية في القمامة. ذكرت أمي في يومياتها، التي كان عنوانها "سجلّ جريمة ارتكبها شخص ضعيف" ـ ربما كانت تنوي نشر قصتها في أحد الأيام ـ أنّ ما فعله والدي، بينما كان يحاول دون نجاح، أن يبيع سيارات الأولدزموبايل، ثم الدودج، ثم المتاجرة بالسيارات المستعملة والدراجات النارية لرجال الجو، هو أنه احتك ثانية بالهنود في جنوب هافر وحاول أن ينشئ تجارة جديدة في شرائح لحوم خواصر البقر. اعتقد أنّ الهنود خسروا منفذاً مربحاً لخط عملهم، وإذا استطاع العثور على شخص ما، أو مكان ما جديد يشتري اللحوم، فإن بوسعه أن يبدأ كلّ شيء من جديد، ويكون أفضل من قبل، لأن سلاح الجو لن يتورط، ولن يكون هناك أحد يقتسم الريع معه. كان ذلك الانخراط في العمل الشرير الذي من الدرجة الثالثة، والذي خُطّط له على نحو سيء، سيصبح كوميدياً لو أنه لم يكن مغيّراً للحياة: والدنا وأمنا اليهودية الصارمة الصغيرة في منزلهما المتواضع المُستأجر في غريت فولز، أولئك الهنود ذوو الحظ السيء والأبقار المسروقة التي تُذبح في منتصف الليل في شبه مقطورة قديمة. كان يجب أن تملي الفطرة السليمة ألا يحدث أيّ من هذا، ولكن لا أحد يمتلك مدخلاً إلى الفطرة السليمة.

بعد أن أدرك أنه لن يجمع نقوداً كافية كي يدعم عائلتنا وهو يتعلم تجارة المزارع ـ حتى بمبلغ المائتين وثمانين دولاراً الذي يقبضه كمعاش تقاعد من سلاح الجو وراتب أمي من مدرسة فورت شو ـ انطلق والدي للعثور على زبون جديد للحوم البقر المسروقة، شخص ما سيعمل هو كوسيط له. لم يكن يوجد الكثير من الإمكانيات للقيام بأمور كهذه في غريت فولز كما كان يعرف. كان هناك مستشفى كولومبس، وفندق رينبو لكنه لا يعرف أحداً فيهما، وثمة مطعم أو اثنان لشرائح لحم البقر يمكن أنه يعرف عنهما، لكن الشرطة تراقبهما بسبب ألعاب القمار غير القانونية. ما وقعتْ عيناه عليه هو شركة السكك الحديدية الشمالية الكبيرة، التي تسيّر قطاراً للركّاب (ويسترن ستار) عبر غريت فولز في طريقه إلى سياتل، والذي يعود بعد يومين إلى شيكاغو، وكانت الشركة بحاجة إلى تزويد عربات الطعام بطعام من الدرجة الأولى، ذهاباً وإياباً بشكل ثابت. اعتقد والدنا أنه يمكن أن يصبح هو مزوّد اللحوم الرئيسي، عبر الارتباط بالهنود قرب هافر مرة ثانية. وكان يعرف رجلاً من سلاح الجوّ يبيع البط والإوز البري ولحم الغزلان، بشكل غير قانوني، لزنجيّ يعمل لدى شركة السكك الحديدية كنادل رئيسي في خدمة عربة الطعام. زار والدنا الرجل الأسود في منزله في بلاك إيغل وعرض عليه أن يبيعه شرائح لحم البقر التي سيؤمّنها من الهنود الذين هم مساعدون له كما قال.

كان الزنجيّ الذي يُدعى سبنسر ديغباي إيجابياً إزاء الاقتراح. فقد انخرط في عمليات كهذه مع مرور الأعوام ولم يكن خائفاً من الأمر. وبدا كأن شركة السكك الحديدية لم تكن مختلفة جداً عن القاعدة الجوية. أذكر أن أبي رجع

https://telegram.me/maktabatbaghdad

مرة إلى المنزل في بعد ظهر أحد الأيام في مزاج مرح جداً. قال لأمي إنه أنشأ "شراكة تجارية مستقلة" مع "أشخاص في شركة السكك الحديدية"، ستؤمّن لنا دخلنا بينما يتعلم مداخل ومخارج لعبة المزرعة. قال إن هذه الشراكة لن تغيّر حياة وحظوظ الجميع إلى الأبد، ولكنها ستضع الأشياء على أرض أكثر صلابة مما كانت عليه منذ أن غادر القاعدة.

لا أذكر ما الذي قالته أمنا، إلا أنها كتبت في يومياتها أنها فكّرت بترك أبي لبعض الوقت وأخذي أنا وأختي إلى ولاية واشنطن. حين وصفَ لها عملية بيع اللحوم المسروقة لشركة السكك الحديدية الكبيرة الشمالية، الأمر الذي لم يكن على ما يبدو محروجاً منه، كتبت أنها عارضت الأمر، وبدأت تشعر على الفور "بتوتر مريع"، وقررت، لأن كل شيء بدا كأنه يسلك طريق الخطأ، أنها يجب أن تغادر معنا في الحال، لكنها لم تفعل ذلك.

بالطبع، لم أعرف ما الذي فكرت به فعلياً. كان من الأكيد أنّ أمّنا، وهي الشابة المثقفة ذات القيم الجيدة، والتي كانت في الرابعة والثلاثين، لم تعتقد أن هناك أي شيء مشترك يجمعها مع المجرمين المنحطّين. ربما لم تعرف عن جريمة القاعدة الجوية السابقة، بما أن والدنا كان يذهب إلى القاعدة كل صباح كما لو أن الأمر مثل أية وظيفة أخرى، مرتدياً بزته الزرقاء. ربما لم يخبرها عما حدث هناك، خشية أنها كانت ستعارض الأمر على الأرجح أيضاً، وستزداد خيبة أملها من اكتشاف أنها ما تزال زوجة في قاعدة جوية.

ربما فكّرتْ أنها على وشك إنهاء تلك الحياة الخاصة آنذاك، وأن أموراً أفضل ستكون ممكنة حالما أكبر أنا وبيرنير بما يكفي، والطلاق وارد في النهاية. كان بمقدورها أن تتركه في اللحظة التي أخبرها فيها عن خطة شركة

السكك الحديدية الشمالية الكبيرة، ولكنها ثانية لم تفعل. بالتالي، إن كل ما كان من الممكن أن يحدث لو أنها لم تقابل بيف أبداً في حفلة عيد ميلاد: القصائد التي ستؤلفها وتنشرها، احتمال التدريس في كلية صغيرة، الزواج من أستاذ جامعي شاب، الأطفال المختلفون عني وعن بيرنير، كل ما يمكن أن يحدث لها في حياة منقّحة، لم يحدث. بدلاً من ذلك، عاشت في غريت فولز، البلدة التي لم تسمع بها أبداً من قبل، والتي لن يميّزها المرء عن سيو فولز، سيو سيتي، سيدار فولز. عاشت في عالم واحد مشغولة بنا جداً، شاعرة بأنها معزولة، وغير راغبة بالتكيّف، مفكرة بالمستقبل بشكل مخيّب للأمل، ومعقد فحسب. أما والدنا فقد عاش طول الوقت في عالم آخر: طبيعته السهلة التآمرية، تفاؤله بالمستقبل، بهجته. وقد بدا هذان العالمان كأنهما واحد لأن كليهما اشتركا فيه، وأنجبانا، ولكنهما كانا مختلفين. ومن المحتمل أيضاً أنها أحبّته، بما أنه أحبها بشكل غير قابل للتشكيك. وإذا ما افترضنا ذهنيتها العامة غير التفاؤلية، وأنها أحبّته، وأنهما أنجبانا، فإنها لم تستطع، كما هو قابل للإدراك، مواجهة صدمة الذهاب بعيداً وكونها وحيدة معنا إلى الأبد. وهذه ليست قصة غير مألوفة في العالم.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

(5)

سارت تجارة أبي مع الهنود وشركة السكك الحديدية الشمالية الكبيرة على ما يرام لفترة. لكنّ أمي كتبت في يومياتها أنه في هذا الوقت - تموز\يوليو - بدأت تعاني من "ملل جسدي". وللمرة الأولى في أعوام بدأت تتحدث مع والديْها بالهاتف حين يكون أبي في الخارج يتعلّم عن بيع المزارع ويُشرف على إرسال اللحوم المسروقة. لم يلعب جدّانا أيّ دور في حياتنا العائلية. فأنا وأختي لم نلتق بهما أبداً، وكنا نعرف أن هذا مخالف للعادة، بما أننا كنا نرى الفتيان في مدرستنا يشاهدون أجدادهم طول الوقت ويذهبون في رحلات معهم، ويتلقون البطاقات والهدايا والنقود في أعياد ميلادهم. عارض جدّانا اللذان من تاكوما زواج ابنتهما الذكية التي تحمل شهادة جامعية لائقة من طيار سابق، فطن ومبتسم من ألاباما، سبّب الذعر في عالم المُهَاجِرين المنفصل الخاص بهما في تاكوما. وقد أهانا والدي لأنهما عبّرا عن رفضهما علناً.

وأُهين لأنهما قّللا من قيمته، ونتيجة لهذا لم يشجّعنا أبداً على زيارتهما، أو يشجعهما على زيارتنا، لكنني لا أظنّ أنه منع زيارتهما، على نحو محدد، إلى أي من الأمكنة التي عشنا فيها، إلى تكساس ومسيسيبي وديتون وأوهايو. كانت رغبتهما هي أن تتعلم أمي "المهن"، وتعيش في مدينة متطوّرة وتتزوج محاسباً عاماً مرخّصاً، أو طبيباً جرّاحاً. إلا أنّ أمي قالت لبيرنير إنها لن تفعل ذلك أبداً، بما أنها أرادت دوماً ـ كونها شخصاً نادراً كما عرّفتْ نفسها ـ حياة أكثر امتلاء بالمغامرات. ولكنّ والديها كانا متشائمين وخائفين وغير مرنين، بالرغم من أنهما عاشا في أميركا منذ 1919. وقد وجدا أنه من المسموح أن يديرا ظهريهما لابنتهما وأسرتها ويتركوننا جميعاً نختفي داخل البلاد. وقد قالت لنا أمنا أكثر من مرة: "سيكون من الجيد أن تتعرفا على جديكما قبل أن يموتا، بالرغم من كلّ شيء". حافظت على صورة بالأسود والأبيض مؤطرة، التُقطت في شلالات نياغارا: ثلاثة أشخاص صغار يرتدون النظارات ويبدون متشابهين، ويرتدون معاطف مطاطية واقية من المطر، يبدون بائسين ومرتبكين، يقفون على الدرج المتحرك لقارب (اسمه "وصيفة الضباب"، أعرفه الآن، بما أنني ركبته أنا نفسي)، والذي يقوم بجولات في المياه الهادرة للشلالات المتدفقة نحو الأسفل. كانت رحلة عودة والديها عبر القارة في الذكرى الثانية عشرة لزواجهما، سنة 1938. كانت أمنا في الثانية عشرة. وكان اسمهما ويتيك وريناتا. وكان اسمهما الأميركي فينس ويني. لم يكن كامبر اسمهما أيضاً، بل كامبتشنسكي. إنّ اسم أمي هو نيفا كامبتشنسكي، وكان هذا اسماً يناسبها أكثر من كامبر، أو حتى بارسونز، الذي لا يناسبها مطلقاً. "يوجد شلال حقيقي هناك يا

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أولاد"، قالت، محدقة بالصورة المشقوقة، التي أخرجتها من خزانتها كي تريها لنا. "ستشاهدانه يوماً ما. إنه يجعل هذه الشلالات التافهة التي هنا تبدو كمزحة. ليست شلالات كبيرة إلا إذا كنتم لا تعرفون غيرها، مثل الريفيين الأغبياء الذين يعيشون هنا".

أعتقد أن أمنا عبّرت لوالديها عن عدم الرضا والسخط، وربما تحدثت عن هجر والدنا وأخذي أنا وبيرنير معها إلى تاكوما. قبل ذلك، لم أكن أعرف أن سياتل وتاكوما قريبتين هكذا. عرفت عن "إبرة الفضاء" (برج ارتفاعه 605 أقدام في سياتل) من صحيفتنا المدرسية الأسبوعية، وأنه سيُبنى في الحال. أردتُ مشاهدته. وكان "المعرض العالمي" يبدو رائعاً ومذهلاً حين يتأمله المرء من غريت فولز، مونتانا. لا أعرف إن تعاطف جدّانا مع شكاوى أمنا أو رحّبا بعودتها. فقد غابت لمدة خمس عشرة سنة، دون مباركة منهما. وكانا عجوزين متصلبين ومحافظين ومفكّرين أنقذا حياتهما في زمن سيء وأرادا أن تكون الحياة قابلة للتنبؤ. كان باستطاعتهما أن يتقبلا الأمر فحسب. وكما قلتُ، لم أعتقد أن الرحيل مسألة بسيطة بالنسبة لها حتى ولو كانت تشعر بالاغتراب. وبتلك الطريقة ربما كانت تقليدية وأكثر محافظة مما ظننت ومدحتها من أجله. ربما كانت مثل والديها أكثر مما كانت تعرف.

كنتُ في ذلك الوقت مهتماً على نحو كبير بالبدء بالدراسة في ثانوية غريت فولز. وتمنيت لو أنها تبدأ قبل أيلول\سبتمبر، كي أقضي مدة أطول خارج المنزل. اكتشفتُ أن نادي الشطرنج يجتمع مرة كلّ أسبوع أثناء الصيف في غرفة مغبرة لا هواء فيها في البرج الجنوبي للمدرسة. كنت

أركب دراجتي عابراً الجسر القديم المقنطر فوق النهر، مجتازاً الطريق كلّه إلى سيكوند أفينيو ساوث، كي "أراقب" الأولاد الأكبر سناً وهم يلعبون ضد بعضهم ويتحدثون بغموض عن الشطرنج واستراتيجياتهم الشخصية وتضحياتهم السلطوية ويتفوّهون بأسماء لاعبين مشهورين لا أعرفهم مثل: غليغوريش، راي لوبيز، وحتى بوبي فيشر الذي كان معلّماً يُعجب به أعضاء النادي. (كان من المعروف أنه يهودي، مما جعلني أفتخر به بطريقة غير عقلانية وصامتة). لم أمتلك فكرة حول كيفية اللعب، ولكنني أحببت ترتيب اللوح والمظهر القديم للقطع وملمسها في يدي. عرفتُ أن الشخص يحتاج إلى تفكير منطقي كي يلعب ويقدر على تخطيط الحركات ويجب أن يتمتع بذاكرة جيدة، وقد ذكر الفتية الآخرون الأمر نفسه. لم يزعج حضوري الأعضاء الذين كانوا مغرورين إلا أنهم ودودون. حدّثوني عن الكتب التي يجب أن أقرأها وعن مجلة تشيس ماستر الشهرية التي أستطيع الاشتراك فيها لو كنت جدياً. كان هناك خمسة منهم فقط. لم يكن هناك فتيات بين الأعضاء. وكانوا أبناء محامين وأطباء يعملون في المستشفيات، يتحدثون بغرور عن أنواع الأشياء التي أجهلها ولكنني كنتُ مهتماً بها جداً: حادثة طائرة التجسس، فرانسيس غاري باورز، "رياح التغيير"، الثورة في كوبا، كينيدي وكونه كاثوليكياً، باتريس لومومبا، إن كان المجرم الذي تم إعدامه كاريل تشيسمان قد لعب الشطرنج بدلاً من تناول عشائه الأخير، وإن كان من الصحيح أو الخطأ كتابة أسماء لاعبي البيسبول على بلوزاتهم. جعلتني هذه الأحاديث أدرك أنني لا أعرف الكثير مما يجري في العالم، وأنني بحاجة إلى هذه المعرفة.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

شجّعتني أمي على اللعب. وأخبرتني أن والدها كان يلعب في حديقة في تاكوما ضد مهاجرين آخرين، وأحياناً ينافس في عدة ألعاب في المرة الواحدة. اعتقدتْ أن الشطرنج سيزيد من حدة ذكائي ويجعلني مرتاحاً أكثر حيال تعقيد العالم الذي حولي، ويحصّنني ضدّ الفوضى، بما أنها منتشرة في كل مكان. مما ادخرته من الدولار الذي كنت أحصل عليه كل أسبوع، اشتريت مجموعة قطع شطرنج بلاستيكية من نوع ستونتون من حانوت الهوايات في سنترال، مع لوح من البلاستيك الذي يمكن طويه، وضعته بشكل مستمر فوق خزانة الثياب الخاصة بي، واشتريت أيضاً كتاباً مزوّداً بالرسوم زكّاه لي أعضاء النادي كي أعلّم نفسي القواعد. وحفظتُ هذا الكتاب مع الألغاز العلمية لريك برانت والكتب الضخمة لتشارلز أطلس التي تُركت في المنزل والتي قرأتُها. أحببتُ بشكل خاص أنّ جميع رجال الشطرنج بدوا مختلفين، وغامضين قليلاً ولديهم مسؤوليات معقدة تتطلب منهم التحرك فقط على طرق محددة مسبقاً من أجل مهمات استراتيجية محددة، وصفها كتابي بأنها تمثل كيف سارت الحرب الحقيقية في الوقت الذي ابتُكرت فيه لعبة الشطرنج في الهند.

لم تلعب والدتي. كانت تفضل لعبة البيانكل، والتي قالت إنها لعبة يهودية، بالرغم من أنه لم يكن لديها أحد تلعب معه. ولم يكن أبي يحبّ الشطرنج لأن لينين كان لاعب شطرنج كما قال. كان يفضّل لعبة الداما، زاعماً أنها لعبة أكثر طبيعية تتطلب مهارات مكر وخداع. جعل هذا أمي تسخر وتقول إنه فقط مكر إذا كنت من ألاباما ولا تستطيع أن تفكر بشكل مستقيم. حين حصلتُ على مجموعتي، فرشتُها وأريتها كيف كان الرجال يُنقّلون. حاولتْ

تنفيذ بعض هذه الحركات، ولكن اهتمامها فتر وأخيراً قالت إنّ والدها قضى على الأمر بالنسبة لها كونه كان متطلباً جداً. اكتشفتُ من كتابي أن جميع اللاعبين يلعبون الشطرنج ضد أنفسهم من أجل الممارسة ويمضون ساعات في دراسة كيف يهزمون أنفسهم وهكذا حين يلعبون ضد منافس حقيقيّ في مباراة تصبح اللعبة شيئاً لعبته في رأسك، مما راق لي، بالرغم من أنني لم أستطع أن أحزر كيف أقوم بذلك، وقمت بحركات متهورة وجاهلة لن يبتهج بها أعضاء النادي ويصيحوا. حاولت عدة مرات إقناع بيرنير أن تجلس في الجهة المقابلة من اللوح، على سريري، وتجعلني أقوم بالنقلات التي قرأتُ عنها في كتاب أسس الشطرنج، والتي كنت سأعلمها عندئذ كيف ترد عليها. فعلتْ هذا مرتين، ثم ضجرتْ أيضاً واللعبة في أوّلها. حين تتضايق مني تحدق بي ولا تتحدث ثم تتنفس من أنفها بطريقة مقصودة كي أسمع. "لو حدث وصرتَ جيداً في هذه، فأي فرق سيحدث هذا؟" قالت وهي تغادر. أما أنا فاعتقدت أن هذه ليست هي النقطة. ليس من الضروري أن يكون لكل شيء نتيجة عملية. فأنت تقوم ببعض الأشياء لأنك تحب القيام بها فحسب غير أن هذه لم تكن طريقتها في التفكير عن الحياة آنذاك.

كانت بيرنير صديقتي الوحيدة الحقيقية بالطبع. لم نتحمل أبداً الخصومات والخلافات الحادّة والعداء الذي يمكن أن يعاني منه الأخوة والأخوات. وذلك لأننا توأمان وبدونا في الغالب كأننا نعرف ما الذي يفكر به الآخر ويهتم به، ويمكن أن نتفق بسهولة. عرفنا أيضاً أن الحياة مع والدينا مختلفة عن حيوات الفتيان الآخرين الذين نذهب معهم إلى المدرسة، والذين تخيّلناهم

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بشراً عاديين بأصدقاء ووالديْن يتصرفان على نحو سوي معاً. (كان هذا خطأً بالطبع). اتفقنا أيضاً أن حياتنا "موقف" والانتظار هو الجزء الصعب.

وكما قلتُ، بدأتْ بيرنير تعبّر عن مزاج أكثر حدة، ولم تتحدث مع أحد كثيراً، وكانت في الغالب تسخر مني. كان بمقدوري أن أرى سمات أمي الخطيرة تعيش في وجهها المسطح والمنمّش، وفي أنفها الدائري وعينيها الضخمتين المخيفتين وحاجبيها الكثيفين، في المسام الكبيرة في جلدها المليء بالبثور وشعرها الأسود السلكي الثقيل الذي يبدأ قرب جبينها. توقفتْ عن الابتسام مثل أمي ومرة سمعتُ أمي تقول لها:"لا تريدين أن تكبري وتكوني فتاة طويلة ضامرة بنظرة سخط على وجهها". ولكنني لا أعتقد أنّ بيرنير يهمها كيف ستكون حين تكبر. بدت كأنها تعيش بشكل كامل في اللحظة الحاضرة، والتفكير بما سيحدث لها فيما بعد لم يطرد الشعور بأنها لا تحب كيف تجري الأمور الآن. كانت أقوى مني جسدياً وأحياناً تمسك برسغي بيديها الضخمتين وتحك جلدي باتجاهين مختلفين وتقوم بـ "الحرق الصيني"، بينما تقول لي إنها أكبر مني، ولهذا يجب أن أفعل ما تأمرني به، الأمر الذي قمتُ به طول الوقت بأية حال. كنتُ مختلفاً عنها كثيراً. استمتعتُ وتخيّلْتُ ما الذي سيحدث فيما بعد، في الثانوية، الانتصارات في الشطرنج، والجامعة. ربما لم يبد هذا حقيقياً، لكنّ شك بيرنير كان على الأرجح أكثر واقعية من وجهات نظري الخاصة. ربما كان من الأفضل لها، مفترضين مآل حياتها، لو أنها بقيت في غريت فولز وتزوّجت مزارعاً طيب القلب وأنجبت الكثير من الأولاد وعلّمتْهم. كان هذا سيجعلها سعيدة ويزيل النظرة الحادة عن وجهها الفتيّ، التي كانت في النهاية دفاعها فحسب عن

كونها بريئة. حافظت هي وأمي على قرب صامت بينهما لا يتعلق بي بأية طريقة. قبلتُ وقدّرتُ هذا القرب كُرْمى لبيرنير. شعرتُ أنها بحاجة إليه أكثر مني، بما أنني اعتقدت أنني متكيّف بشكل أفضل في ذلك الوقت. كنت كما هو مفترض قريباً من أبي، وهذا متوقع من الأولاد الذكور، حتى في عائلتنا. ولكن لم يكن من المستحيل بناء علاقة حميمة معه. فقد كان خارج المنزل طول الوقت، أولاً في القاعدة؛ ثم حين انتهى هذا، وبعد أن قُذف في العالم، بدأ يبيع ولا يبيع السيارات؛ ثم انتقل إلى تعلم بيع المزارع، ثم عمل أخيراً كوسيط للحوم المسروقة التي يشحنها اللصوص الهنود إلى شركة السكك الحديدية الشمالية الكبيرة، وهي الخطة التي أدت إلى القضاء عليَّ، وإلى خرابنا جميعاً، في النهاية. وفي الحقيقة، لم نكن قريبين جداً، بالرغم من أنني أحببته.

من الممكن النظر إلى أسرتنا الصغيرة بأنه كان محكوماً عليها بالفشل، بأنها كانت تنتظر الغرق تحت الأمواج الهائجة. ولكنني لا أستطيع في الحقيقة أن أصور عائلتنا بهذه الطريقة، أو الوقت بأنه وقت سيء أو تعيس، بالرغم من أنه كان خارج المألوف كثيراً. أستطيع أن أرى والدي في الخارج في المرج الصغير لمنزلنا المستأجر، ذي اللون الأصفر الخردليّ المتلاشي بمصاريع نوافذ بيضاء، أمي الصغيرة جالسة على درجات المدخل، ضامة ركبتيها، مرتدية سروالها القصير الفضفاض المصنوع من قماش الأشرعة؛ ووالدي يرتدي بنطلوناً أنيقاً مدبوغاً وقميصاً سماوياً وحزاماً من جلد الأفعى أصفر ماسيّاً وبوط رعاة بقر أسود جديداً اشتراه بعد تسريحه. إنه طويل ومبتسم وغير

https://telegram.me/maktabatbaghdad

واع لذاته بالرغم من أن لديه أسراراً. شعر أمي الكثيف مشدود إلى الخلف بإهمال وترتدي لفاعاً. تراقبه وهو يركّب دون خبرة شبكة البدمنتون في فنائنا الجانبي. سيارة الشيفروليه 55 تتوضّع على الرصيف في ظل شجرة الدردار ذات الأغصان الكثيفة تحت سماء مونتانا المنخفضة. عينا أمي الصغيرتان تركّزان وتقيّمان، ملامحها تضغط على أنفها خلف نظارتها. أنا وأختي نساعد في حلّ الشبكة، بما أن البدمنتون (شبكة لعبة الريشة) تُنصب لنا. فجأة تبتسم أمي وترفع ذقنها من شيء قاله:"لا يُعتمد عليّ يا نيفي"، أو "لسنا جيدين جداً في هذا"، أو "أعرف كيف ألقي القنابل، ولكن ليس كيف أنصب الشباك". تقول:"نعرف هذا". ثم يضحكان كلاهما. كان يمتلك حسّ فكاهة جيداً، وكذلك هي، بالرغم من أنه، كما قلتُ، نادراً ما شعرتْ بالدافع كي تستغلّه. كان هذا أمراً معتاداً لديهما ولدينا في ذلك الوقت. ذهب والدي إلى العمل في ذلك الصيف في مكان أو آخر. بدأتُ أقرأ كتابي الذي عن الشطرنج وأيضاً عن تربية النحل، الذي قررت أن يكون برنامجي الآخر في الثانوية لأنه لا أحد، كما ظننت، يعرف عن النحل، الأمر الذي كان اهتماماً، كما شعرت، من المحتمل أن يوجد في مدارس ريفية حيث مزارعو أميركا المستقبليون ومنظمة 4 إتش الشبابية. بدأت أمي تقرأ روايات أوربية (لستاندال وفلوبير)؛ وبما أن هناك كلية كاثوليكية صغيرة في غريت فولز، بدأتْ بالذهاب إليها وحضور صفّ صيفيّ مرة كل أسبوع. أما أختي فقد اكتشفت عشيقاً فجأة بالرغم من وجهات نظرها المتطرفة بالعالم ومزاجها السيء، التقت به في الشارع وهي تسير إلى المنزل من الريكسال (مما أزعج والدي، لكنه نسي الأمر بسرعة). لم يكن والداي يشربان الكحول

أو يتخاصمان، ولم يدخلا في علاقات غرامية خارج الزواج حسب علمي. ربما شعرت أمي بـ "ملل جسدي"، وفكرت بشكل متزايد بالرحيل. ولكنها فكرت دوماً أكثر بالبقاء. أذكر أنها قرأت قصيدة لي في ذلك الوقت للشاعر الإيرلندي العظيم ييتس، والتي فيها ذلك البيت الذي يقول: "لا شيء يمكن أن يكون متماسكاً أو متكاملاً إذا لم يتمزّق". لقد درّستُ هذه القصيدة مرات كثيرة في حياة من التدريس، وأعتقد أنها هكذا فكرت بالأمور: بأنها غير مكتملة، لكنها ما تزال مقبولة. إن تغيير الحياة سيحطّ من قيمة الحياة ومن قيمتها، ويسبب الكثير من الدمار. كانت هذه وجهة نظر ابنة المهاجرين التي ورثْتها. وبينما يمكن للإدراك المتأخر أن يستنتج الأسوأ حيال والدينا ـ لنقل إنه كانت هناك قوة ما مريعة وغير عقلانية وكارثية تعمل في داخلهما ـ من الصحيح أكثر أننا لن نبدو غير عقلانيين أو كارثيين مطلقاً لو نُظر إلينا من الفضاء الخارجي، من سبوتنيك، وأكيد أننا لن نفكر أبداً بأننا كنا هكذا. من الأفضل أن نرى حياتنا والأفعال التي قضت عليها، كوجهين لشيء واحد يجب أن نفكّر بهما معاً كي نفهمهما: الوجه السويّ والوجه الكارثي. كان أحدهما قريباً جداً من الآخر. إن أية طريقة مختلفة في النظر إلى حياتنا تهدد بالاستهانة بالجزء الجوهري العقلاني والمألوف الذي عشناه، الجزء الذي كان كل شيء فيه يمتلك معنى لأولئك الذين في الداخل، والذي بدونه لا شيء من هذه القصة يستحق أن يُروى.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

(6)

سارت خطة والدنا الجديدة لبيع شرائح لحوم البقر المسروقة إلى شركة السكك الحديدية كما هو مخطط لها على الأقل في البداية، لكنّ القصة التي نُشرتْ لاحقاً في صحيفة تربيون بيّنت أنها خطة أكثر تعقيداً من تلك التي وضعها في القاعدة، حيث كان الهنود ينقلون اللحوم بالشاحنة عبر البوابة الرئيسية، ونُبّه الحرّاس للسماح لهم بالدخول. كانوا يسوقون مباشرة إلى خلف نادي الضباط، يُنزلون اللحوم، يقبضون، ربما من أبي، نقداً في المكان. يحتفظ هو ومدير نادي الضباط، وهو نقيب يدعى هنلي، بحصة متفق عليها من نقود الهنود ويأخذان إلى المنزل القطع الطرية من لحم الخاصرة كي يُطْعما أسرتيهما. كان الجميع راضين.

كانت صفقة شركة السكك الحديدية الشمالية مختلفة على أي حال لأنه تبيّن أن الزنجي سبنسر ديغباي يخاف كثيراً من الهنود ولا يثق بهم، وكان

قلقاً على وظيفته، والتي هي عمل نقابيّ بمرتّب جيد وبوضع أقدمية في خدمة عربة الطعام. إن ديغباي هذا جعل الهنود يسوقون شاحنتهم الصغيرة المغلقة، والتي عليها علامة شركة سجاد من هافر على جانبها، إلى رصيف التنزيل في محطة السكك الحديدية الكبيرة الشمالية حيث يستقبل البضائع المهربة. ولكنه رفض أن يدفع للهنود في المكان لأسباب تتعلق بالخوف منهم وعدم الثقة بهم، ولأنه يريد فحص نوعية اللحوم. إن كلا من هذين السببين أهان الهنود، الذين لم يحبّوا القيام بعمل مع زنجيّ. لهذا كان يجب أن يحدث ترتيب للأمور، بالتالي، يأتي بمقتضاه والدنا إلى المستودع ويأخذ النقود من ديغباي، بعد مرور يوم، وبعد أن يضمن ديغباي النقود كي يدفع ويتأكد من أن اللحوم تتمتع بجودة عالية بما يكفي كي تُقدم في عربات الطعام. أراد ديغباي الفصل بين العمليتين، أي بين استلام اللحوم والدفع، كما لو أن النقود ليست في الحقيقة للحوم، في حال قُبض عليه متلبّساً، وكما لو أن والدي هو المزوِّد الفعلي والهنود يعملون لديه كعمال فحسب. في قلب خطط كهذه هناك دائماً شيء ما غير معقول، تفسيره هو أن كائنات بشرية منخرطة في العمل.

إن هذا التبديل في خطة القاعدة الجوية الأصلية وضع والدي في موقف حرج. أحبّ دور الوسيط لأنه جعله يشعر بأنه كفوء، ولم يعدّه خطراً حتى وقت متأخر جداً. ولكنّ الخطة الجديدة عنتْ أنه لمدة يوم أو أكثر لم يعد الهنود يملكون اللحوم التي سرقوها وقاموا بذبحها معرضين أنفسهم لمجازفة خطيرة، ثم ساقوا إلى غريت فولز وأوصلوها أمام مرأى الناس تقريباً، بعد

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أن جازفوا بعبور البلدة بشاحنة مليئة باللحوم التي ليست لهم، في وقت في التاريخ ستعتقل فيه الشرطة بكل سرور هندياً أحمر دون سبب، وستراقب أي زنجي، بما أنهم كانوا يسببون المشاكل في الجنوب آنذاك. وبالرغم من هذه المجازفات، على أي حال، لم يكن الهنود قادرين على الحصول على النقود التي هي - حقهم فوراً: 100 دولار مقابل كل خاصرة من لحم البقر (كان لحم البقر رخيصاً آنذاك). وكان الأمر الأكثر خطراً في وجهة نظرهم هو أنه عليهم أن ينتظروا بشكل مكشوف في البلدة كي يأخذوا النقود من أبي، الذي يثقون به جزئياً فحسب. وثقوا من قبل بسلاح الجو لأن أحدهم كان متطوعاً فيه مرة، ويميل الهنود دوماً للثقة بالحكومة كي تعتني بهم لأن هذه هي الطريقة التي حدث بها الأمر دائماً، وهكذا لم يكونوا مختلفين جداً عن أبي.

إن خطر الخطة الجديدة، الترتيب الذي توصّل إليه أبي، معتقداً أنه سيسرّ الجميع، هو أنه كان في الوسط بين طرفين مجرمين، لا يثقان ببعضهما أو يحبّان بعضهما، ولكنه قرر أنه يستطيع الثقة بهما، هذا إذا لم يحبّهما بالفعل. والأسوأ من هذا، في كل مرة يتم فيها إيصال اللحوم، يصبح مديناً بالنقود على الفور للهنود، الذين لا يريد أحد أن يكون مديناً لهم أو يكونوا مدينين له، لأنهم يملكون ميولاً عنيفة معروفة جيداً. قالت صحيفة تربيون فيما بعد إن اثنين منهم كانا مجرمين، وكان الآخر خاطفاً. وقد أمضى الثلاثة في سجن دير لودج أكثر من نصف أعمارهم. وإذا ما نُظر إليها بعد كل تلك الأعوام فإنّ الخطة كانت سخيفة ولم يكن ينبغي أن تعمل حتى مرة واحدة، إلا أنها عملت ولم تكن أكثر سخافة من السطو على مصرف.

في أحد الأيام في منتصف تموز\يوليو نهض والدي في الصباح وأخبرنا أنه خطط للذهاب بسيارته إلى بوكس إلدر، مونتانا، على الطريق السريع شمالاً نحو هافر كي يفحص قطعة من أرض مزرعة ممتازة تأمل شركته الجديدة أن تبيعها وتحقق أرباحاً عالية. أرادني أنا وأختي أن نذهب معه، قائلاً إننا أطفال قاعدة جوية طيلة حياتنا ولا نعرف أي شيء عن المكان الذي عشنا فيه وأمضينا الكثير من الوقت داخل المنزل، وإن أمنا تستطيع أن تقضي صباحاً هادئاً لوحدها.

ذهبنا في سيارة بيل إير البيضاء والحمراء خارجين من الطريق السريع 87، الذي يقود شمالاً ونحو الأعلى إلى حقول القمح الناضجة الحارة في اتجاه هافر، التي كانت تبعد 100 ميل. كانت جبال هايوود، شرق غريت فولز على يميننا، غير قابلة للتمييز بسبب بعدها، وزرقاء وضبابية وأكثر غموضاً مما تبدو عليه لو كانت المدينة هي النقطة التي يُنظر منها إليها. بعد ساعة، عبرنا فورت بنتون حيث استطعنا رؤية نهر ميسوري تحت الطريق السريع، النهر المتوهج نفسه الذي رأيناه من نوافذ مدرستنا. كان أصغر وأكثر هدوءاً ويتجه شرقاً على طول قاعدة ضفتين من الحوّار والغرانيت، في طريقه (عرفت ذلك سابقاً) إلى لقائه مع يلوستون و"ذ وايت" و"ذ فرمليون" و"ذ بلات" وأخيراً المسيسبي على حدود إيلينوي. انحدر الطريق السريع نحو وعلى طول قاع النهر، ثم صعد ثانية إلى مستوى ضيق بمزيد من الأراضي الزراعية، وجبال مختلفة ملونة بالأزرق أمامنا، أطول وأكثر انخفاضاً من الهايوودز، ولكنها ضبابية ومليئة بالأشجار وتبدو غريبة. كانت هذه "مخالب الدب"، كما أعلن أبي كما لو أنه مرجع. كانت في محميّة الهنود التي تُدعى روكي بوي،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

مما يعني أن الهنود يعيشون هناك ولكنهم لم يملكوا أي شيء إطلاقاً لأنهم لم يكونوا بحاجة إلى ذلك لأنّ الحكومة تقوم بالعمل، بالإضافة إلى أنهم لم يكونوا أكفاء كي يملكوا الأرض. قال إنه قام بعمل هنا من قبل، ونستطيع أن نسوق إلى أرضهم دون مشكلة أو إذن.

سقنا على الطريق السريع الضيق عبر القمح إلى أن عبرنا بلدة صغيرة غبارية فيها رافعة للحبوب، ثم وصلنا بسرعة إلى أخرى، تُدعى بوكس إلدر، وهذا اسم أشجار القيقب التي تمنح الظلّ في حارتنا، فيها شارع رئيسي قصير يمر عابراً بعض خطوط السكك الحديدية، ومصرف ومكتب للبريد وبقالية ومقهيان ومحطة بنزين، وكان من المدهش أن نكون هناك وسط اللاشيء. انعطفنا شرقاً عن الطريق السريع إلى طريق ترابي وحصويّ ضيّق يتجه مباشرة نحو الجبال، حيث كانت المزرعة التي تأمل شركة أبي بيعها. لم يكن يمتدّ أمامنا إلا السفوح الجبلية ومحيطات القمح. ما من منازل أو أشجار أو بشر. انتصب القمح الناضج على حواف الطريق، أصفر وكثيفاً ومتمايلاً في النسيم الحار والجاف الذي أدخل غباراً من نوافذ سيارتنا غمر شفتيّ. قال والدنا إن نهر ميسوري يقع إلى الجنوب منا الآن. لم نستطع رؤيته لأنه كان في أسفل مزيد من الجروف. إن لويس وكلارك اللذين سمعنا عنهما، قطعا المسافة كلها إلى هنا سنة 1805 واصطادا ثوراً حيث كنا بالضبط. على أي حال، كان هذا الجزء من مونتانا، كما قال ـ موجّهاً كوعه اليساري خارج النافذة ـ الذي يشبه الصحراء كما تبدو من منظار رامي القنابل، ولم يكن مكاناً يمكن أن يعيش أحد سكان ألاباما سعيداً فيه. مزح مع بيرنير وسألها

إن كانت تشعر بأنها ألابامية بما أنه كذلك. قالت إنها لا تشعر وعبست في وجهي وغضّنت شفتيها وصنعت فم سمكة. قلتُ لأبي إنني لا أشعر أيضاً بأنني ألابامي، وبدا كأن هذا أمتعه. قال إننا أميركيون، وهذا ما يهمّ. بعد ذلك رأينا قيّوطاً كبيراً على الطريق يحمل أرنباً بين فكيّه. توقّف ونظر إلى سيارتنا وهي تقترب، ثم سار عبر القمح الطويل وغاب عن البصر. رأينا ما قال أبي إنه نسر ذهبيّ، يرفرف في السماء الزرقاء، وقد أعاقته غربان تريد دفعه بعيداً. رأينا ثلاثة عقاعق تنقر ثعباناً وهو يسرع كي يعبر الرصيف. انحرف والدنا ومرّ فوقه، مما أدى إلى ارتطامين تحت العجلات وطارت العقاعق.

بعد أن اجتزنا عدة أميال على هذا الطريق غير المعبّد والعاصفة الغبارية خلفنا، انتهى القمح فجأة، وتبدّت أرض معشوشبة جافة ومسيّجة ومرعيّة، فيها بعض الأبقار الضامرة التي وقفت دون حراك في الحفر حين عبرت سيارتنا. أبطأ والدنا وأطلق بوق السيارة، مما جعل الأبقار ترفس وتنخر وتتبرّز جداول كبيرة وهي تندفع لاهثة خارج الطريق. "حسناً، اعذرينا"، قالت بيرنير، وهي تراقبها من مقعدها الخلفيّ.

بعد برهة، سقنا عابرين منزلاً خشبياً مفرداً منخفضاً وغير مدهون بُنيَ على جانب الطريق، مهدّم إلى مستوى الأرض، وكان هناك واحد آخر مرئي من بعيد من أسفل الطريق، وثالث لا يبين تقريباً في المسافة المتلألئة والضبابية. المنازل متهدّمة، كما لو أنّ شيئاً سيئاً حدث لها. لم يكن للمنزل الأول باب أمامي أو ألواح زجاج في نوافذه، والجزء الخلفي منه متهدّم. أجزاء من هياكل سيارات وإطار سرير معدني وبراد أبيض منتصب نُقلوا إلى

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الفناء الأمامي. الدجاج يتمايل وينقر في الأرض الجافة. عدة كلاب تجلس على الدرجات، تراقب الطريق. حصان أبيض بلجام مربوط إلى عمود خشبيّ بعيداً إلى جانب المنزل. اندفعت الجنادب في الجو الحار الذي أزاحته السيارة. صفّ أحدهم شبه مقطورة مدهونة بالأسود وسط الحقل خلف المنزل، وإلى جانبها شاحنة مغلقة أصغر كُتبَ على جانبها هافر للسجاد. ولدان نحيلان ـ واحد بدون قميصه ـ جاءا إلى المدخل الفارغ وراقبانا ونحن نعبر. لوّحتْ بيرنير لهما ولوّح لها أحد الصبيان.

قال أبي: "إن هؤلاء الأطفال هنود. هنا يعيشون. ليسوا محظوظين مثلكما. لا يوجد هنا كهرباء".

"لماذا يعيشون هنا؟" قالت بيرنير. نظرت من النافذة الخلفية عبر الغبار إلى المنزل المهدم والأولاد. لا شيء فيهم أشار إلى أنهم هنود. كنتُ أعرف أن الهنود لا يعيشون كلّهم في خيام مخروطية وينامون على الأرض ويرتدون الريش. لم أر هنوداً في مدرسة لويس. ولكنني عرفتُ أن هناك هنوداً يظلّون ثملين، ويعثر عليهم الناس في الأزقة في الشتاء، مجمّدين إلى الإسفلت. وثمة هنود في مكتب الشريف لا يعالجون إلا جرائم الهنود. غير أنني بالرغم من ذلك اعتقدتُ أنني لو ذهبتُ إلى حيث يعيش الهنود، فإنهم سيبدون مختلفين. إن هذين الولدين لم يكونا مختلفين عني في أي شيء، بالرغم من أن منزلهما متهدم. وتساءلتُ أين والداهما.

قال أبي، كما لو أن هذه كانت نكتة: "أعتقد أنك تستطيع طرح الأسئلة نفسها على عائلة بارسونز، أليس كذلك؟ ما الذي تفعله في مونتانا؟ ينبغي أن نكون في هوليود. يمكن أن أكون شبيه روي روجرز". ثم بدأ يغنّي.

غالباً ما كان يغني. له صوت متحدِّث وناعم أحببتُ سماعه، ولكنّ صوته ليس جيداً للغناء. كانت بيرنير تغطي أذنيها عادة. غنّى هذه المرة، "المنزل، المنزل على الأرض المفتوحة، حيث يلعب الماعز والفيلة". كانت واحدة من نكاته. اعتقدتُ أن الأولاد الهنود لا يلعبون الشطرنج وليس لديهم جمعيات نقاش، أو ربما لا يذهبون إلى المدرسة مطلقاً، ولن يرقوا إلى أي شيء.

"أنا معجب بالهنود"، قال أبي، حالما توقف عن الغناء. ثم صمتنا.

سقنا عابرين المنزل الثاني المهدّم، حيث توجد سيارة سوداء بلا باب مقلوبة على ظهرها ومنزوعة الإطارات. في سقف هذا المنزل ثقوب كبيرة عبر الألواح الخشبية، وثمة زنابق طويلة ونباتات خطميّ حول الباب كما في منزلنا، وأحدهم قد صنع حظيرة للخنازير من الأنابيب والمشعاعات. خطوم الخنازير وآذانها مرئية فوق القمة. خلف المنزل صفٌّ من خلايا النحل المدهونة بالأبيض يعتني بها أحد ما من المنزل. لفت هذا انتباهي. كنت قد قرأتُ كتابي عن النحل ووضعتُ الخطط كي أقنع والدي بمساعدتي في بناء خلية واحدة في الفناء الخلفي. كنت أعرف أين أطلب النحل في ولاية جورجيا. وسمعت في الإذاعة أن معرض ولاية مونتانا سيأتي إلى أراضي المعرض غير البعيدة عن منزلنا، ونويت أن أزور معرض النحل هناك، حيث ستُعرض أجهزة النحل وستُقدم الشروح عن الخلايا المدخنة، وملابس النحل وجني العسل. إن تربية النحل مشابهة للعبة الشطرنج في ذهني. كلتاهما معقدة ولها قواعد وتتطلب مهارة ووضع أهداف، وكل منها تقدم نماذج مخبأة للنجاح لا يمكن أن تُفهم إلا بالصبر والثقة. "إن النحل يحلّ لغز كلّ شيء بشري"، كما يقول كتاب عقل النحل، الذي استعرته من المكتبة. كل

https://telegram.me/maktabatbaghdad

تلك الأشياء التي أردت أن أتعلم عنها، كان بوسعي تعلمها بسهولة في الكشافة لو رغبت أمي. لكنها لم ترغب.

امرأة سمينة وشاحبة ترتدي سروالاً قصيراً وصدرية بدلة سباحة سارت إلى الباب الأمامي وغطت عينيها كي تحميهما الشمس حين عبرنا.

"لدينا هنودنا في ألاباما أيضاً"، قال أبي بصوت يهدف إلى جعلي أنا وبيرنير نعتقد أن كل ما هو في الخارج عادي في حال كان تصوّرنا مخالفاً لذلك. "لدينا التشيكاسو والتشوكتو، والبلغاريون الذي سكنوا في المستنقعات. وتربطهم جميعاً علاقة بهؤلاء القوم الذين هنا. وبالطبع، لم يُعامل أحد منهم بإنصاف، لكنهم حافظوا على الكرامة واحترام الذات". كان من الصعب رؤية هذا في المنازل التي عبرناها، ولكن لفت نظري أن الهنود يعرفون عن النحل، واعتقدتُ أن فيهم مزايا كثيرة لا أعرفها.

سألت: "أين المزرعة التي ستبيعها؟"

مدّ أبي يده فوق المقعد وربت على ركبتي. "عبرناها منذ وقت طويل يا بني. لم تبد جيدة لي. أنت تلاحظ كلّ شيء. أردت فقط أن تشاهدا بعض الهنود الحقيقيين بينما أنتما هنا. ينبغي أن تعرفا هندياً حين تريان واحداً. أنتما تعيشان في مونتانا. إنهم جزء من المشهد الطبيعي". أردت أن أثير موضوع معرض الولاية عندئذ بما أنه كان في مزاج جيد، ولكن الهنود ألهوه واعتقدت أنني يمكن أن أضحي بفرصتي كي أناقش الموضوع في ما بعد.

"لم يجب أحد عن لماذا يعيشون هنا"، قالت بيرنير. كانت تتعرق وتستخدم إصبعها الرطبة كي ترسم نموذجاً على غبار الطريق الدقيق جداً

المتوضع على ذراعها المنمّش. "ليسوا مضطرين إلى ذلك. بمقدورهم أن يعيشوا في غريت فولز. ليست هذه روسيا أو فرنسا".

بدا الأمر وكأن والدنا توقف عن الانتباه إلينا آنذاك. سقنا على الطريق الوعر ميلاً آخر إلى أن اقتربنا بما يكفي من جبال "مخالب الدب" بحيث استطعتُ أن أميّز خط الأشجار وبقعاً مبعثرة من الثلج الأجرب لم تصلها الشمس طيلة الصيف. كان الجو حاراً، ولكن إذا صعدتَ إلى أعلى، سيكون بارداً. وفي نقطة معيّنة على الطريق، توقفنا بين أعمدة سياج لا سياج عليها، استدرنا، وبدأنا نعود من الطريق التي جئنا منه عابرين المنازل المهدّمة على اليسار والهنود، عائدين إلى بوكس إلدر وإلى الطريق السريع 87 نحو غريت فولز. شعرتُ بأن الرحلة إلى هناك لم تنجز أي شيء كان والدنا مهتماً به أو قلقاً عليه أو يحتاج إلى رؤيته، أيّ شيء يتعلق ببيع أو شراء مزرعة. لم أمتلك فكرة لماذا ذهبنا إلى هناك. لم أناقش أنا وأختي الأمر بعد أن عدنا إلى المنزل.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

(7)

في الأسبوع الأول من آب\أغسطس أتمَّ أبي وموظّف شركة السكك الحديدية الشمالية الكبيرة ديغباي، وشركاء أبي في الجريمة، الهنود الحمر الثلاثة، ثلاث صفقات لحوم بقر مسروقة سارت كلها على ما يرام. فقد سُرقت الأبقار، وذُبحت ونُقلت، وانتقلت النقود من يد إلى أخرى، وذهب الهنود بعيداً. ورضيت جميع الأطراف. واعتقد أبي أنّ خطته التي حُسبت من جديد عملت جيداً، ولم يشعر بالخطر بأية طريقة أقلقته. واعتقد أنه إذا سارت الأمور على ما يُرام وبشكل هادئ، فإنها ستستمرّ هكذا إلى الأبد، دون أي احتمال للخطأ. وكان مثل الهنود الذين يعتمدون على الحكومة، فقد قدّمَ له سلاح الجو المأوى من الحياة التي واجهها معظم الأشخاص الآخرين. وبسبب خبرته في الحرب (أتقن استخدام منظار نوردن، رمى القنابل على الناس الذي لم يرهم أبداً، ولم يُقتل)، شعر أنه إذا اعتُني بالمرء

فإن هذا قابل للتبرير، مما ولّد ميلاً لعدم التدقيق في الأمور، أية أمور، بتمعّن شديد. مما عنى، أنه في خطته المتعلقة باللحوم، نسيَ أن التوسّط لبيع الأبقار المذبوحة لم يعمل في النهاية بشكل ناجح في القاعدة الجوية. فقد سبّبتْ له خطته في الحقيقة فقدان رتبة النقيب، وبطريقة أو أخرى، أعادته إلى الحياة المدنية قبل وقت طويل من استعداده لذلك، هذا في حال أنه سيكون مستعداً بعد هذا الزمن الطويل من الابتعاد عنها.

من المحتمل أيضاً أن أمنا، كونها من النوع الحذر والمنعزل، جعلته يشعر بأنها تراقبه وتحسب أنه إذا فشل من جديد فإنّ هذا سيكون السبب الذي يدفعها إلى تركه. وهكذا بالرغم من نجاحه الظاهر، وطبيعته المتفائلة، وبدايته الجديدة الطازجة في العالم المدني، فإنّ شكوكها تراكمت، وأنهت ثقته بـ"الشعور" الذي اعتقد أنه لديه حيال ما كان يفعله. كان كل ما يريده هو أن تبقى الحياة في مجراها الثابت إلى أن تبدأ المدرسة ثانية وتعود إلى التعليم، وتتركه حراً كي يتعلم عمل المزارع ويتمكن من القيام بالأمور التي يريدها مع ديغباي والهنود بما أنها كلها لمصلحتنا.

كنت ما أزال أشعر أن الحياة عادية جداً بالنسبة لي في ذلك الوقت. وأتذكر في أوائل آب\أغسطس، أن أبي أصرّ على أن نذهب جميعاً إلى ليبرتي كي نشاهد سويس فاميلي روبنسون في عرض السبت الصباحي. كنا نحبه أنا وأبي، ولكنّ أمي ألحّت أن أقرأ أنا وبيرنير الكتاب الذي ما يزال معها من المدرسة الثانوية، والذي كان أقل تفاؤلاً ورومانسية من الفيلم بكثير. بدأت دروسها في مدرسة "سيسترز أوف بروفيدنس" في أوائل

https://telegram.me/maktabatbaghdad

آب\أغسطس وجاءت إلى البيت بالمزيد من الكتب، وتحدثتْ عما تقوله الراهبات عن السناتور كينيدي. قلْنَ إن الناس في الجنوب لن يتركوه يفوز أبداً؛ وإنّ شخصاً ما سيُطْلقُ عليه النار قبل موعد الانتخابات. (أكّد لنا أبي أن هذا ليس صحيحاً، وأن الجنوب أُسيء فهمه على نحو محزن، ولكن صحيح أن البابا في روما ستكون له الآن سلطة القرار في الحياة الأميركية، وأن والد كينيدي تاجر ويسكي كبير). كان هناك المزيد من الحديث عن برج "إبرة الفضاء"، الذي قال والدي إنه يريد رؤيته وسيأخذنا حين ينتهي بناؤه. أحضرتْ أختي عشيقها إلى المنزل مرتين في ذلك الوقت، بالرغم من أنه لم يدخل المنزل أبداً. أحببتهُ. كان اسمه رودي باترسون. كان أكبر مني بسنة ومورمونيّ (فتّشتُ عن معنى الكلمة، وقال رودي إنها تعني متعدّدي الزوجات، بين أمور أخرى)، وذهب سابقاً إلى الثانوية مما جعله مثيراً جداً بالنسبة لي. كان أحمر الشعر ونحيلاً وطويلاً بقدمين كبيرتين، وله شارب خفيف كان فخوراً به. مرة، عبرتُ أنا وهو الشارع ولعبنا كرة السلة ورمينا الكرة في السلة التي ركّبت البلدة عارضتها هناك. قال لي إنه يخطط لترك المدرسة في الحال والذهاب إلى كاليفورنيا والانضمام إلى فرقة، أو التطوع في المارينز. كان قد سأل بيرنير إذا كانت تريد الذهاب معه أو أن تقابله هناك في وقت لاحق، لكنها رفضتْ مما جعل رودي يقول إن بيرنير صلبة كالمسامير، وهكذا كانت. وبينما كنا نلعب تحت قلنسوة أشجار الدردار والقيقب الكثيفة ذات الرائحة الذكية، والمليئة بزيزان الحصاد التي تصدر صريرها، جلست بيرنير على درجات المدخل الأمامي، تماماً كما تفعل أمي، في ضوء الشمس، ضامة ركبتيها مراقبة المناوشات حولها. نادت:"لا تخبره

بما قُلتهُ لكَ. لا أريده أن يعرف أسراري". لم أعرف إلى من منا كانت توجّه كلامها: أنا أم رودي. لم أكن أعرف أسرار بيرنير بالرغم من أنني اعتقدتُ مرة أنني أعرف كلّ شيء عنها لأننا توأمان. ولكن لا بدّ أن لها أسراراً جديدة الآن، بما أنها لم تعد تتحدث معي عن مسائل خاصة وتعاملني كما لو أنني أصغر بكثير منها وكأن حياتها بدأت انطلاقها في اتجاه يقودها بعيداً عن اتجاهي.

ما أعرفه بشكل مباشر عن الأمور السيئة، السيئة على نحو خطير، هو أنه في وقت متأخر من الأسبوع الأول من آب\أغسطس رجع أبي إلى المنزل في مساء أحد الأيام، وبالرغم من أنني لم أشاهده، عرفتُ أن شيئاً غير عادي يحدث في المنزل. إن المرء يصير حساساً لأمور كهذه من صوت مدخل يُغلق بقسوة، أو خبْط بوط أحدهم الثقيل وهو يضرب ألواح الأرضية، أو صرير باب غرفة نوم ينفتحُ وصوت يبدأ بالكلام، ثم ينغلق الباب بسرعة، تاركاً فقط الضجيج المكتوم مسموعاً.

كان الجو حاراً وجافاً وغبارياً في منزلنا في منتصف الصيف، مما أثر في حساسية بيرنير. (يتميّز الجو دائماً بهبوب ريح شديدة وباردة في الشتاء). تركتْ أمي مروحة العليّة شغالة، وجلست في الحمام البارد كما تحبّ أن تفعل في أوائل المساء قبل أن تعدّ العشاء، حين يشع الضوء الفاتح عبر نافذة الحمام المربعة والصغيرة. أشعلتْ شمعةً من خشب الصندل وضعتها على قمة مقعدة المرحاض وبقيت إلى أن بردت المياه. كان أبي خارج المنزل، يتعلم عن بيع الأراضي كما هو مفترض. ولكنه حين عاد إلى المنزل، ذهب

https://telegram.me/maktabatbaghdad

مباشرة إلى الحمام حيث كانت أمنا وبدأ يتحدث بطريقة قويّة وحيويّة. كان الباب مغلقاً على ما يقوله. ولكنني سمعته يقول: "لقد حدثت معي بعض المشاكل في هذا..." لم أسمع البقية. كنتُ في غرفتي أقرأ عن النحل وأستمع إلى مذياعي. شعرتُ بالحاجة إلى إتمام استراتيجيتي للذهاب إلى معرض الولاية. لم نزره في السنوات الأربع التي جاء فيها إلى هنا. طرحت أمي عذراً غير مقنع لعدم الذهاب، قائلة إنها لا تحبّ الألعاب الدوّارة والروائح، ولم تكن بيرنير مهتمة.

بقي والدي يتحدث مع أمي في الحمام لوقت طويل. خيّم الظلام في الخارج، وخرجت أختي من غرفتها وأشعلت الأضواء في غرفة الجلوس، وأسدلت الستائر وأطفأت مروحة العليّة وهكذا خيّم الهدوء في المنزل.

بعد وهلة قليلة فُتح باب الحمام وقال أبي: " أستطيع أن أقلق على كل هذا فيما بعد. لكن ليس الآن". قالت أمي: "بالطبع. أعتقد أنني لا ألومك". جاء إلى باب غرفتي، الذي كان مفتوحاً ينتعل بوطه الأسود الذي من ماركة أكميس ويلبس قمصاً أبيض له جيبان سهميا الشكل وأزرار رمادية فاتحة وحزامه من جلد أفعى. أحبَّ أن يلبس جيداً بعد أن قضى معظم حياته في البزة العسكرية. وأقنعه تعلم بيع المزارع أن مظهره يجب أن يحاكي مظهر مالك مزرعة حتى لو أنه يجهل كلّ شيء عن المزارع. سألني ماذا كنت أفعل فأخبرته أنني أقرأ عن النحل وأنوي زيارة معرض الولاية، الذي ذكرته سابقاً. ستكون هناك خيمة لمنظمة الشباب التابعة لوزارة الزراعة والأولاد الذين في عمري سيشرحون النقاط الدقيقة لتربية النحل وجني العسل. قال: "يبدو هذا لي كأنه مهمة كبيرة. يجب أن تنتبه كي لا تُلسع حتى الموت.

سمعتُ أن النحل يتجمّع ويهاجم المرء". سار إلى باب غرفة أختي وسألها عن أنشطتها وتحدث عن أسماكها. خرجت أمي من الحمام، وكانت تبدو جدية، وترتدي رداء حمام من القماش الأخضر وثمة منشفة ملفوفة حول شعرها المبلل. دخلت إلى المطبخ في ذلك اللباس وبدأت تُخرج الطعام من البراد. دخل أبي إلى المطبخ خلفها وقال:" سأحلّ هذا". قالت شيئاً ما لم أسمعه لأنها تفوّهتْ به همساً. ثم خرج أبي إلى الردهة الأمامية، حيث الجو مظلم وأكثر برودة. كانت مصابيح الشارع مضاءة. جلس في الأرجوحة، التي لها سلسلة نحيلة نائتة، وبدأ يهدهد نفسه مصغياً إلى صرير الزيزان. سمعتهُ يتمتمُ بعض الكلمات لنفسه فعرفتُ أنه قلق. (غالباً ما كان يتحدث مع نفسه ـ كلاهما يفعل ذلك ـ كما لو أن بعض المحادثة لا يمكن مشاطرتها مع آخر. كان يحدث المزيد من هذا الحديث مع الذات حين تضايقهما أمور). مرة، بينما كان جالساً ويتأرجح إيقاعياً، ضحك بصوت مرتفع. بعد وهلة سار خارجاً إلى الشارع ودخل إلى السيارة وقاد مبتعداً ـ كما خمنت ـ كي يحل تلك المشكلة التي تقلقه أياً كانت.

كان اليوم التالي هو الأحد، ولم نكن نذهب إلى أية كنيسة. كان أبي يحتفظ بكتاب مقدس عائلي كبير، اسمه مكتوب عليه، في درج خزانته. كان رسمياً عضواً في كنيسة المسيح وقد أُنقذ من الخطيئة قبل سنوات في ألاباما. قالت أمي لي إنها "لا أدرية أخلاقية"، بالرغم من أنها يهودية. قالت بيرنير إنه تؤمن بكل شيء وأيضاً بلا شيء، مما فسّر طبيعتها. لم أؤمن بأي شيء مطلقاً أستطيع تذكره، ولا حتى ما عناه الايمان، باستثناء أن الطيور تطير

https://telegram.me/maktabatbaghdad

والأسماك تسبح، وهذه أشياء تستطيع أن تفسّرها. كان ما يزال يوم الأحد يوماً غير مهمّ. فطول اليوم لا أحد يتحدث كثيراً أو بصوت مرتفع، وخاصة في الصباح. أبي يشاهد أخبار التلفزيون وفيما بعد البيسبول، مرتدياً شورت البورمودا وقميصاً، الأمر الذي لا يفعله أيام الأسبوع. أمي تقرأ كتاباً، تعمل على خططها المدرسية من أجل الخريف، وتكتب في دفتر يومياتها، الذي حافظت عليه منذ سنّ مراهقتها. كانت تقوم بنزهة طويلة سيراً على الأقدام لوحدها بعد الفطور، إلى جادة سنترال وعبر النهر إلى البلدة، حيث لا يحدث شيء، والشوارع تقريباً خالية. فيما بعد تأتي إلى المنزل وتطبخ الغداء. وهكذا خصّصْتُ يوم الأحد للتدرب على حركات الشطرنج والتعلم أكثر عن القواعد، التي علّمني الأولاد في النادي أنها المفاتيح إلى كلّ شيء. إذا ذوّتَّ بشكل كامل القواعد المعقّدة، تستطيع أن تلعب عندئذ حدسيّاً وبجسارة، هكذا كان بوبي فيشر يلعب، حتى حين كان في السابعة عشرة فحسب. لم يكن أكبر مني بكثير.

لم يُناقَش أي شيء في يوم الأحد ذاك عما كانت هناك حاجة إلى "حلّه" في الليلة الماضية، وأن والدينا أمضيا ساعة في الحمام يتناقشان. لم أعرف في أية ساعة عاد أبي إلى البيت من المكان الذي ذهب إليه في تلك الليلة. كان موجوداً فحسب صباح الأحد في شورت البرمودا، يشاهد التلفاز. رنّ الهاتف عدة مرات. رفعتُ السماعة مرتين، ولكن لم يكن هناك أحد على الخط، وكان عدم تحدث الأشخاص غريباً. واصلتْ أمي نزهتها إلى البلدة. شاهد أبي برنامج "ميت ذ برس" (التق بالصحافة). كان مهتماً بالانتخابات واعتقد أن الشيوعيين يحتلون أفريقيا ولكن كينيدي سيمنع هذا. خرجتُ

أنا وبيرنير إلى الفناء المشمس والحار وأعدنا نصب أعمدة شبكة البدمنتون كي نمنح أنفسنا المزيد من الفراغ إزاء جانب الكاراج. لم يكن هناك شيء نفعله في غريت فولز.

في الحادية عشرة، بدأت كنيسة زيون للوثريين الواقعة في الجهة الأخرى من الشارع على طرف الحديقة، بقرع جرسها كالعادة واستقبال الناس. كانت السيارات والبيك آبات تصل كما كانت تفعل دوماً وتصفّ على الرصيف مقابل منزلنا. عائلات مع أطفال يسيرون إلى البناء الخشبي الرمادي ويختفون في الداخل. أحببت مراقبتهم من أرجوحة المدخل الأمامي. كانوا مرحين دائماً ويتحدثون ويضحكون على موضوعات تهمهم وافترضتُ أنهم اتفقوا عليها. سرتُ مرة في أحد أيام الأسبوع كي أنظر من الأبواب وأرى أي شيء تمكن رؤيته. ولكن الأبواب كانت مقفلة ولم يكن هناك أحد. شعرت أن البناء الرمادي المبني من ألواح الخشب مثل متجر انتهى عمله.

حين بدأ جرس كنيسة اللوثريين بالرنين توقّفتْ سيارة قديمة أمام منزلنا. اعتقدتُ أن السائق، الذي هو رجل، أحد اللوثريين وسيخرج ويعبر إلى الكنيسة. ولكنه جلس فحسب في سيارة البليموث القديمة الحمراء المدهونة بشكل رديء ودخّنَ سيجارة كما لو أنه ينتظر شيئاً أو شخصاً كي ينتبه إلى وجوده. كانت السيارة من الأربعينيات وملوثة بالطين وعليها علامات، ولسبب ما بدتْ مألوفة، بالرغم من أنني لم أستطع أن أقول لماذا. كان زجاج نافذتها الخلفية مكسوراً ولم تكن عجلاتها متطابقة وثمة عجلة في الخلف ليس لها غطاء إطار. حصل لها أكثر من حادث وبدت غريبة أمام منزلنا، وهي تقف خلف سيارة والدنا البيل إير، التي كانت لامعة ونظيفة.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بعد أن جلس الرجل في الداخل وبدأ يدخّن لوهلة (راقبته أنا وبيرنير من الفناء الجانبي عند شبكة البدمنتون حاملين مضاربنا). كان ينظر إلى منزلنا وفجأة خرج، مما جعل باب السائق يصدر صريراً، قبل أن يغلقه.

في تلك اللحظة نفسها تقريباً خرج أبي من الباب الأمامي، وهو ما يزال في شورته، ونزل إلى الممرّ الإسمنتي كما لو أنه كان يراقب كي يرى إن كان الرجل سيخرج من السيارة. والآن بعد أن فعل، يجب أن يحدث شيء فوريٌّ حيال الأمر.

سمعْنا كلانا أبي يقول: "حسناً، أوه، أوه، أوه!"، حين اقترب الرجل ببطء من المَمرّ. قال له: "ما من داع لمجيئك إلى هنا الآن. هذا منزلي. سيُحلّ الأمر". ضحك أبي بعد أن قال هذا، بالرغم من أنّ الأمر لم يبد مسليّاً.

وقف الرجل في الممرّ الإسمنتي بذقنه المنخفض دراميا، وحدّق بأبي فحسب. لم يتراجع إلى الخلف حين اقترب أبي قائلاً: أوه أوه أوه!"؛ ولم يمدّ يده كي يصافحه؛ لم يبتسم كما لو أنه لم يكن أي شيء مسلياً. بدا كأنه قادم من مكان بارد، لأنه كان يرتدي بنطلوناً صوفياً ثقيلاً كستنائي اللون وحذاء بنياً بالياً بدون جوارب، وسترة صوفية حمراء لمّاعة فوق قميص ثقيل متسخ. كان لباساً غريباً في شهر آب.

حين سار على الرصيف، تبيّن أن ثمة مشكلة في ساقيه. كان عليه أن ينقّل نفسه مستخدماً كتفيه، فيما ركبتاه ترتفعان نحو الأعلى. لم يكن رجلاً ضخماً، لم يكن مطلقاً كوالدنا، لكنه كان ثقيلاً، كما لو أن عظامه ثقيلة ومرتبك الحركة. شعره أسود غزير ومزيّت ومربوط إلى الخلف مشكلاً ذيلاً طويلاً، ونظارته سميكة وإطارها أسود. بشرته برتقالية متدرجة ومخشوشنة

فيها بقع حمراء (شري)، وعلى عنقه ضمادة. له لحية خفيفة وربما كان في الخمسين من عمره، ولكن ربما أصغر. كان حضوره في فنائنا الأمامي قاسياً، بما أنه ولّد انطباعاً بأنه غير سعيد هناك. وبالرغم من أننا كنا بعيدين أنا وبيرنير في الموضع الذي كنا نقف فيه، قرب شبكة البدمنتون، استطعت أن أشم رائحة الرجل، رائحة لحوم ورائحة دواء في الوقت نفسه. بعد أن غادر، شممتُها في أبي.

حين رفض الرجل المصافحة، أو أن يخطو إلى الخلف، وضع والدنا يده على كتف الرجل واقترب كي يديره، وبدآ يتحدثان ويسيران عائدين إلى سيارة البليموث بدلاً من نحو المنزل. ولكن عند نقطة معيّنة خطا الرجل جانبياً مغادراً الاسمنت إلى العشب، وبعيداً عن قبضة والدنا. نظر بعيداً، ليس نحو بيرنير ونحوي، ولكن بعيداً عن والدنا في الاتجاه الآخر، كما لو أنه لا يريد النظر إليه أو إلينا. ثم تحدث، سمعتُ أنا وبيرنير هذا: "يمكن أن ينتهي هذا نهاية سيئة بالنسبة للجميع، يا كاب"، قال. "كاب"، هذا كان ما يُدعى به أبي في القاعدة الجوية. نقّل الرجل عينيه حواليه ثم ركّزهما على والدي. قال شيئاً آخر عندئذ، تحت نَفَسه، كما لو أنه عرف أنني أصغي أنا وبيرنير ولم يكن يريدنا أن نسمع. بعد أن تحدث، صالب ذراعيه، تراجع إلى الخلف ووضع قدماً أمام الآخر بطريقة لم أر أحداً يفعلها من قبل. كان كما لو أنه يريد لكلماته أن تطوف بعيداً عنه.

بدأ والدنا بهزّ رأسه ووضع يديه في جيبي شورته البرمودا دون أن يقول شيئاً، هزّ رأسه فحسب. بدأ الرجل عندئذ يتحدث باهتمام شديد، وبسرعة أكبر. كان مكتوم الصوت، لكنني تمكّنتُ من سماع كلمة أنتَ منطوقة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بتشديد، وكلمة مجازفة وكلمة أخ. نظر والدي إلى صندله المطاطي وقدميه العاريتين وهزّ رأسه قائلاً: "كلا، كلا، كلا"، كما لو أنه موافق على مع ما يسمعه، بالرغم من أن الكلمات بدت كما لو أنه لم يكن. ثم قال: "هذا ليس معقولاً، أنا آسف"، و"أفهم. حسناً، تمام". خرج التوتر من جسمه عند تلك النقطة، كما لو أنه أُريح، أو خاب أمله. ثم إن الرجل، الذي عرفنا فيما بعد أن اسمه مارفن وليامز، ويدعى "الفأر"، وهو من هنود الكري، استدار بعيداً دون أن ينهي كلامه وسار بطريقته المؤلمة المنقِّلة للكتفين والركبتين عائداً إلى سيارته البليموث، فتح الباب الذي أصدر صريراً، وأدار المحرِّك بصخب، وقاد دون أن ينظر إلى الخلف إلى أبينا، تاركاً إياه واقفاً على الممرّ الاسمنتي في شورته وصندله، مراقباً. رنّ جرس كنيسة اللوثريين مرة ثانية، مطلقاً دعوة أخيرة إلى العبادة. رجل في بذلة رمادية خفيفة أغلق البابين الأماميين. نظر إلى منزلنا ولوّح بيده، ولكن والدي لم يشاهده.

في ذلك الصباح عادت أمّنا في وقت لاحق من نزهتها وأعدّت فطائر البلينيس المفضّلة لدينا. لم يقل والدنا الكثير أثناء تناول الطعام. روى نكتة عن جمل له ثلاثة أسنمة وأصدر صوتاً كالرّغاء. قال إنني أنا وبيرنير يجب أن نتعلم رواية النكات، لأن هذا سيجعل الناس يحبون دعوتنا لرفقتهم. فيما بعد، دخل هو وأمي إلى غرفة نومهما وأغلقا الباب وبقيا هناك فترة طويلة، أطول من الفترة التي قضياها في الحمام في الليلة السابقة. وقبل أن تعود أمي إلى المنزل من نزهتها، كان والدي قد نزع صندله ولعب البدمنتون في الفناء، كلانا ضده. وثب مرحاً في كل أنحاء المكان، وقد تعرّقتْ شفته

العليا وانقطع نَفَسَهُ، محاولاً بقوة أن يضرب الشطكوك ضاحكاً وممضياً وقتاً رائعاً. بدا وكأنّ الأمور جيدة، وأن زيارة الهندي لا تتعلق بأي شيء مهم. سألتُهُ بيرنير عن اسم الرجل، والذي كان حين اكتشفنا الأمر مارفن وليامز، وهو هندي. قال أبي "إنه رجل أعمال، صادق لكنه متطلّب". في نقطة ما من لعبتنا وقف فحسب في الفناء العشبي الدافئ، واضعاً يديه على شفتيه، وابتسم، وجهه أحمر ومتعرّق. أخذَ نَفَسَاً عميقاً وقال إنه يعتقد أن الأمور ستكون في الحال أفضل بالنسبة لنا كلنا. يمكن ألا نبقى بالضرورة في غريت فولز وقد ننتقل إلى بلدة واعدة أكثر لم يسمّها، مما صدمني وأقلقني على الفور، لأن المدرسة ستبدأ بعد أسابيع فحسب وكنتُ قد وضعتُ خططي من أجل الشطرنج وتربية النحل وتعلّم عدد كبير من الأشياء. كنت سعيداً من الاتجاه الذي تسلكه الأمور، والذي لدى الاستعادة، كان جنونياً، لأنني لم أمتلك أية فكرة عن الاتجاه الذي كانت تسير فيه. وفكّرتُ أنه على الأرجح في الساعات التي تلت مجيء الهندي وليامز (الفأر) إلى فنائنا وتهديده بقتل والدنا، وربما قتلنا جميعاً إذا لم يحصل على نقوده (هذا ما عرفت أنه قاله في تهديده بصوته الهامس)، بدأ والدنا يرتّب أفكاره عن ضرورة القيام بعمل فائق للعادة كي ينقذنا، والتي تبيّن أنها أفكار عن السطو على مصرف، وأي مصرف سيُسرق، ومتى، وكيف يستطيع تطويع أمنا بحيث يمكن أن يقلّل من احتمال أن يكتشف أحد ما الأمر، وبالتالي يبقيهما هذا خارج السجن، الأمر الذي لم يحصل.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

(8)

فيما بعد، حين عرفتُ القصة كلّها، إلى الحد الذي عرفتها به، اكتشفتُ أن الهنود نقلوا يوم الجمعة، قبل يوم السبت الذي تحدث فيه أبي مع أمي في الحمام ثم ساق سيارته وذهب في الليل، أربع أبقار هيرفورد مذبوحة إلى ديغباي، إلى رصيف التحميل في شركة السكك الحديدية الشمالية الكبيرة متوقعين أن يُدْفَع لهم في اليوم التالي عن طريق والدنا. قرر ديغباي أنه نظراً لأن عملية اللحوم المسروقة تمت بسلاسة، فإنه يستطيع الآن أن يشتري المزيد من اللحوم كي يزود بها صديقاً يعمل رئيساً للخدم في قطار آخر تابع لشركة السكك الحديدية الشمالية الكبيرة، وهذا امتياز سيُدفع لديغباي جيداً مقابله. اعتبر والدي الخبر تطوراً ممتازاً للجميع ولكنه حين ذهب مساء السبت إلى كوخ ديغباي الصغير في بلاك إيغل كي يأخذ النقود قال له ديغباي إن بقرتين وصلتا فاسدتين (حدث هذا في فصل الصيف، وكان الجو حاراً جداً وغير

ملائم لنقل لحم ميت في شاحنة سجاد غير مبرّدة) واللحوم غير ملائمة كي تقدم لهنود آخرين، فكيف بالنسبة لمسافري العربة الذين يذخون بين سياتل وشيكاغو. قال ديغباي إنه لن يدفع لأبينا مقابل لحوم كهذه، وأضاف أنه في الحقيقة شحن اللحوم ورماها في نهر ميسوري خشية أن يعثر عليها أحد ـ شركة سكك الحديد مثلاً ـ عنده، دون أن تخضع للتفتيش، ودون فاتورة مبيع أو أي تفسير لوجودها في براد المستودع.

كانت هذه مفاجأة غير مرحب بها بالنسبة لوالدنا، الذي قال لديغباي بعبارات صريحة إنه كان يجب ألا يستلم الطلبية إذا كانت اللحوم فاسدة. ولكن بما أنه استلمها، فإن اللحوم وكلفتها (400 دولار) هي من مسؤوليته.

اعتقد والدنا أنّ ديغباي، الذي كان طويلاً ونحيلاً، بعينين ناتئتين، وصوت بناتيّ قليلاً، ويضع ربطة عنق على شكل قوس ويرتدي سترة بيضاء، خاف من الهنود، الذين لا يثق بهم ولا يثقون به، وهكذا فإن خطته المدروسة لشراء المزيد من اللحوم منهم بدت في الحال فكرة سيئة كما من قبل. توسّع هذا الإدراك إلى خوف أكبر من أن يُقبض عليه ويخسر وظيفته في غرفة الطعام التي تدرّ عليه مرتّباً مرتفعاً. وبزغ نشاط آخر غير قانونيّ إلى الضوء فيما بعد، كان ديغباي متورطاً فيه، والذي من أجله كانت شرطة غريت فولز ستحب أن تزجّه في السجن. كان من المعروف أن موظّفي عربة الطعام وخدم عربات النوم يديرون شبكات دعارة على طول الخط الرئيسي. تصعد فتاة في إحدى البلدات، تقوم بالعمل أثناء الرحلة، ثم تنزل في الصباح التالي.

لم يصدّق والدنا للحظة أن اللحوم وصلت فاسدة، ذلك أن هذا لم يحدث أبداً من قبل، ولم ير سبباً لماذا سيحدث. ولكن حين عاد إلى منزل ديغباي (بعد أن استشار أمي في حمامها)، كي يأخذ الأربعمائة دولار، مستعداً

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كي يجبر ديغباي على دفعها بقبضتيه (الطريقة التي لا يتبعها ولكنه كان يائساً)، كان ديغباي قد غادر البلدة على متن "الويسترن ستار" في طريقه إلى شيكاغو، حيث كانت له حياة أخرى منفصلة، تاركاً والدي كي يصارع الهنود.

وقع أبي آنذاك في المأزق الخطير الذي كان بوسعه أن يعرف أنه سيصل إليه وكان يجب أن يتخذ احتياطات ضده. (مثلاً، إن حضوره أثناء تسليم اللحوم يجب أن يكون أحد هذه الاحتياطات؛ امتلاك مبلغ من النقد في جيبه كاف للتعويض في حال حدث خطأ سيكون احتياطاً آخر). على أي حال، كان كلّ ما يملكه في تلك اللحظة لضمان الصفقة هو ما تبقى من راتبه التقاعدي من القاعدة الجوية، والقليل من النقود لدى أمي من التدريس لمدة تسعة أشهر في العام في فورت شو، وسيارتنا الشيفروليه. لم يحتفظ والدانا بأي مبلغ جانبي للطوارئ، كمثل هذا الحدث. لم يكن لديهما حتى حساب في المصرف. وكانا يدفعان مقابل كل شيء نقداً.

في الصباح التالي - يوم الأحد - وصل "الفأر" أو وليامز إلى منزلنا، وقف في الفناء مع والدي، وقال ما قاله عن قتلنا، وكان هذا تهديداً اعتبره أبي في غاية الجدية. قال وليامز أيضاً إنه قام مع شركائه بمجازفة كبيرة حين سرقوا أربع أبقار بدلاً من واحدة، وواجهوا صعوبة كبيرة أيضاً في ذبحها ونقلها، وقد ضحك عليهم الزنجي ديغباي حين أوصلوا اللحوم وطلبوا أن يُدفع لهم ستمائة دولار بدلاً من الأربعمائة التي يدين لهم بها بالأصل. قال وليامز لوالدنا أيضاً إن أحد شركائه تحت المراقبة من قبل شرطة المحميّة بسبب خطة سرقة البقر، ويحتاج إلى النقود كي يذهب إلى وايومي ويختفي عن الأنظار لعدة أشهر. لهذه الأسباب، قال وليامز، إنه هو وأصدقاؤه يريدون مبلغ ألفي

دولار، وليس الستمائة أو الأربعمائة التي اتفقوا عليها. لم يشرح من أين جاء مبلغ الألفي دولار.

لم يكن والدنا رجلاً معتاداً على أن يُهدَّد بل على أن تكون علاقته جيدة مع الناس، وعلى أن يسلّيهم، وأن يُعْجَبَ به لنظراته، ولعاداته الحميدة، ولكنته الجنوبية، وخدمته الجسورة في الحرب كرامي قنابل. إن تهديده بالقتل ترك تأثيراً كبيراً فيه. بدأ على الفور يفكّر بكيفية الحصول على النقود، وبسرعة توصل إلى الفكرة الفائقة للعادة وهي العثور على مصرف والسطو عليه. لا بدّ أن تلك الفكرة بدت في تلك اللحظة أفضل من ترك الهنود يقتلونه ويقتلون أمي وبيرنير وأنا، وأفضل من أن يطلب من ثلاثتنا الصعود إلى سيارة البيل إير كي نرحل في منتصف الليل تاركين كلّ شيء، كي لا يُسمع بنا بعد ذلك أبداً. لم تخطر في ذهنه طرق أخرى للحصول على النقود، كمثل الاستدانة (لم يكن لديه ائتمان، وكان والدا أمي يكرهانه، ولم يكن لديه راتب أو أي شيء يستدين على أساسه)، أو التعامل مع الموقف، كمثل الذهاب إلى شرطة غريت فولز أو النقاش العقلاني مع وليامز، أو، ربما شعر أن هذا سيقود إلى مشاكل أكثر سوءاً. فيما بعد، حين ربما خطرتْ له فكرة الذهاب إلى الشرطة وتسليم نفسه، كان قد قرر سابقاً أن السطو على مصرف فكرة جيدة، وكان هذا ما حدث.

حين كانت أمي في قسم النساء في سجن بسمارك في نورث داكوتا، حيث سُجنت بعد محاكمتها هي وأبي، كتبتْ عن الأيام التالية وتلك التي سبقتها في دفتر يومياتها، قصة ذكرت فيها بالتفصيل ما فعلتْهُ هي وأبي. كان

https://telegram.me/maktabatbaghdad

لديها طموح لأن تصبح شاعرة حين كانت في الكلية في والا والا، ومن المحتمل أنها فكرت بأن نسخة مؤلفة جيداً من قصتهما ستصنع لها مستقبلاً حين تخرج من السجن، الأمر الذي لم يحدث أبداً. انتقدت في دفتر يومياتها أبي وأخطاءه بحدة. وهي لا تعذر نفسها أو تدّعي أنها كانت مجنونة أو مجبرة على المشاركة، أو تحاول حتى أن تشرح كيف أُقنعتْ بالمشاركة. (لا تعبّر عن الأسف حيال ما حدث لي ولأختي). تقول في يومياتها إن صورتها عن شخصيتها لم تتغيّر: فقد كانت متأملة وذكية وذات خيال واسع ومن المحتمل شكاكة ومغتربة، ومحافظة ومرحة. (لم تكن هذا). كانت هذه هي القيم التي جعلتها تمنعني أنا وبيرنير من التكيّف مع الأمكنة التي أخذنا إليها تطوّع والدنا في سلاح الجوّ. شعرتْ بأن تلك الأمكنة ستُنْقص من قيمة تكويننا، وتُفسد ما هو جيد ومهم فينا، وتجرّدنا من الأصالة، وتجعلنا عاديين كالآخرين في المسيسيبي وتكساس وميشيغان وأوهايو، الأمكنة التي تحتقرها وتعدّها غير متحضّرة. تستخدم هذه الكلمات في دفتر يومياتها: يجرّد من القيمة، حماية، مستلبة، مبتذلة، فاسدة. اعتقدتْ أنها هي ووالدى كان ينبغي ألا يتزوجا أبداً، وكان يجب أن ترى من قبل أن كليهما سيكونان أكثر سعادة لو لم يتزوّجا. وردَ هذا حيث كتبت عن الزواج من أستاذ جامعي وأن تعيش حياتها كشاعرة وأمور أخرى من هذا القبيل. قالت إنها كان يجب أن تتركه في الدقيقة التي طُرح فيها موضوع السطو، بما أنها فكرتْ بتركه من قبل. باستثناء ما اكتشفتْهُ عن نفسها ـ كما كتبت ـ إن جميع الطرق التي عرفتْ بها نفسها (حين نظرتْ في المرآة ورأتْ الشخص غير العادي الذي كانتْهُ) كانت مصيبة وصادقة، وأيضاً ضعيفة، الأمر الذي لم تظنّه أبداً

من قبل، ولكنه السبب، كما اعتقدت، الذي جعلها تتزوّج من بيف بارسونز الرومانسي المبتسم والجميل. (كانت حاملاً، ولكن كان بوسعها التخلّص من حملها، وكان هذا أمراً تعرف الفتيات في الأربعينيات كيف يقمن به). إن ضعفها هو سبب عدم تركها منذ زمن طويل لبيف وأخذنا بعيداً من هنا. وقد أكّدتْ هذه الحقائق لها الآن أنها كانت مثل أي شخص آخر، مما قادها بطريقة من المستحيل منعها (من قبل منطقها المختلّ) إلى السطو على مصرف. لا يعني هذا أنها ظنّت أنها مجرمة. لم تفكر أبداً بهذا. لم يربّيها والداها كي تكون قادرة على تصديق شيء كهذا (الذي ربما يتعلق بكونها يهودية حيث لم يكن هناك يهود، وبالحفاظ على شعور بالفرادة لم يسمح بتبني وجهات نظر وتحذيرات أناس آخرين، عقلانية).

ولكن ما فكّرْتُ به آنذاك ـ وقد فكّرتُ بهذا حين كنت أنا وبيرنير في المنزل لوحدنا، وكان والدانا في زنزانتيهما في سجن مقاطعة كاسكيد ـ هو كم كان والدانا شابيّن. كانا في السابعة والثلاثين وفي الرابعة والثلاثين فقط، ولم يكونا من الأشخاص الذين يسطون على مصارف. وبما أنّ قلة قليلة من الناس تسطو على المصارف، ما يمتلك معنى فحسب هو أن القلة التي تفعل هذا مقدّر عليها الأمر، مهما كان تفكيرها بنفسها أو كيف نشأت. أجد أنه من المستحيل ألا أفكر بهذه الطريقة، لأن الإحساس بالمأساة سيكون بطريقة أخرى طاغياً بالنسبة لي.

ولكن من الغريب أن تصدق عن والديك أنهما كانا طول الوقت من نوع البشر الذين ينحدر منهم المجرمون. إنها كمثل معجزة معكوسة. أنا متأكد من أن هذا ما عنتْه أمي حين قالتْ إنها كانت "ضعيفة". إن كلمتيْ مجرم وضعيف ربما كانتا تعنيان الشيء نفسه بالنسبة لها.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

(9)

في صباح يوم الاثنين تغيّر شيءٌ ما في المنزل. كانت أحداث كبيرة تجري، أكبر من بدء أبي لوظيفة جديدة، أو ترك سلاح الجوّ، أو حزم الأغراض والانتقال إلى بلدة جديدة. بقي والدانا في غرفتهما والباب مغلق حتى وقت متأخر من الليلة السابقة، وعرفتُ أنهما تخاصما. استنتجتُ أنه مصمّم على القيام بعمل ما لم توافق عليه. سمعتُ باب خزانتهما يُغلق عدة مرات، وأمي تقول:"هذه هي المرة الأخيرة..." و:"لن تحصل عليه..." و:"هذا الأكثر جنوناً...". وفي كل مرة يبدأ صوتها عالياً ثم ينخفضُ بسرعة بحيث لا أستطيع سماع بقية الكلام. في ثلاثة أوقات مختلفة سار أبي خارجاً من غرفة النوم إلى المدخل الأمامي. (سمعتُ صوت بوطه على الألواح الخشبية). وكان يعود إلى الداخل في كل مرة ويُغلق الباب، ويبدآن الحديث ثانية. قالت:"وهكذا أيّ خيار ترى؟"، و:"أنت دائماً جبان في هذه الأمور".

و: "لن تُعتقل هكذا بأية حال". بعد وهلة تفوّها ببضع كلمات لبعضهما فقط. بعد ذلك ساد الصمت. غادرتُ غرفتي وذهبتُ إلى المطبخ، حيث كان الضوء مشتعلاً، وشربتُ كأساً من الماء. خرزة من الضوء البرتقالي شعّت تحت بابهما. حين أويت إلى السرير مرة ثانية، كانت بيرنير هناك. لم تقل أي شيء. استلقت فقط وكانت تتنفّس وباردة، وجهها إلى الحائط الذي عليه أعلامي المثلثية الشكل. لم نفعل شيئاً كهذا منذ أن عشنا في غريت فولز، بالرغم من أننا نمنا معاً في منازل أصغر في طفولتنا. لم أكن مرتاحاً لوجودها في سريري، ولكنني عرفت أنها لن تأتي إلي لو لم يكن الأمر مهماً، وأنها كانت تصغي مثلي. فاحت منها رائحة التبغ والحلوى القاسية، وكانت ترتدي ثيابها. نمنا بعد أن توقف والدانا عن الحديث. حين استيقظتُ في الصباح كانت قبضتاي مشدودتين وتؤلمانني، وكانت بيرنير قد ذهبت، ولم نتحدث عن الأمر حين شاهدتها مرة ثانية، كما لو أنه لم يحدث.

في الصباح يكون والداي عادة في مزاج جيد بشكل عام. ولكن في يوم الاثنين ذاك تصرف أبي بطريقة جدية حيال شيء ما، أما أمي فبدتْ كأنها تبتعد عن طريقه. أعدّتْ الفطور، وجلسنا جميعاً وأكلنا. وهو يتناول بيضه سألني أنا وبيرنير ما الذي نعتقد أننا نستطيع فعله وسيكون مفيداً للجمهورية، وكان هذا شيئاً يقوله حين يريد أن يعرف أية خطط لدينا. ذكّرتهُ أن معرض الولاية سيبدأ في ذلك اليوم، وأنني مهتم بشرح تربية النحل، الذي سيكون مفيداً. لم يعلق على الأمر وبدا كأنه نسي أنه سأل. لم ينكّت على أي شيء أو يتبسم. كانت عيناه محمرّتين. لم يشكر أمنا من أجل الفطور. لم يحلق ذقنه،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الأمر الذي يفعله دوماً حين كان يذهب إلى القاعدة، ويعتني به. كان لبشرة ذقنه غير المحلوق لون أزرق خفيف. إن المأزق الذي يعاني منه صار المشكلة الوحيدة على المائدة، ولكن لم يسأل أحدٌ عن الموضوع. رأيت أمنا تنظر إليه باستياء من خلف النظارة. كانت شفتاها مزمومتين وقاسيتين، كما لو أنه تصرف معها بطريقة لم تعجبها.

لاحظتُ أيضاً أن والدي لم يكن يرتدي بنطلونه الجديد أو بوطه الأسود المزخرف أو أحد قمصانه الذي له جيب سهميّ، كما كان يلبس حين يذهب للعمل في شركة بيع المزارع. بدلاً من ذلك، كان يرتدي بزة القفز المظلّي وحذاء تنس أبيض ملطخاً بالدهان ومنبسط، وهذه ثياب يرتديها حين يحصد العشب أو يقوم بالسقاية. كان قد قصّ الرتب حين استلم أمر تسريحه، والرقعة الذي كُتب عليها "بارسونز". واعتقدت أنه بدا كشخص لا يريد أن يتم التعرّف عليه من قبل أي شخص يعرفه.

بعد الفطور ساد المزيد من الصمت. دخلت بيرنير إلى غرفتها وأغلقت الباب وشغّلت شريطاً في جهاز تسجيلها. نظّفتْ أمي المطبخ، ثم خرجتْ إلى المدخل الأمامي تحت شمس الصباح وتناولت الشاي وعملت في كتاب كلماتها المتقاطعة وقرأت رواية من أجل درسها للراهبات. أما أنا فقد تبعتُ والدي في أرجاء المنزل. بدا وكأنه ذاهب إلى مكان ما، وأردت أن أعرف إلى أين، وإن كان بوسعي الذهاب معه. أخذ حقيبة حلاقته الجلدية من خزانة الحمام ووضع أشياء مختلفة فيها. وضع الجوارب والثياب الداخلية في حقيبته القماشية الخاصة بسلاح الجو، بينما وقفت على باب الحمام أراقبه. إن البقاء في المنزل ترف، هذا ما كان أبي يقوله دوماً. كانت رغبته الأكبر هي أن

يعيش في مكان واحد كالجميع. فالمرء حر في أن يستقر في أي مكان في بلادنا كما اعتقد، ذلك أنّ مكان الولادة لا يعني سوى القليل. هنا يكمن جمال أميركا، ولا ينطبق هذا على تلك البلدان التي حرّرناها في الحرب، حيث الحياة مقيدة وريفية. ما خشيته هو أن ينفصل هو وأمي. فسلوكه بدا لي كيف ستكون الأمور لو حدث هذا. صمت. توتر. غضب. بالرغم من أنني لم أسمعهما أبداً يتحدثان عن الانفصال.

حين شاهدته يغلق سحاب حقيبته الزرقاء (رأيته يضع مسدساً فيها، مسدسه الأسود الكبير من عيار 45 الذي منحه له سلاح الجو)، قلت:

"إلى أين أنت ذاهب؟"

نظر إليَّ من حيث يجلس على طرف سريره (أبي وأمي ينامان في سريرين كبيرين). الجو حار في المنزل، كما في الصباح، ولم نشغل مروحة العلية حتى بعد الظهر. كانت الساعة التاسعة فقط. ابتسم لي كما لو أنه لم يسمعني وكان هذا يحدث أحياناً. ولكن الطريقة التي بدا فيها متعباً وبحاجة إلى النوم جعلتْ ملامحه ولونه يعودان.

قال: "هل أنت محقق خاص في قضيّة؟" قلت: "نعم أنا محقق." لم أرغب بالقول: هل ستنفصل أنت وأمي، لم أرغب بسماع ذلك.

"أنا ذاهب في رحلة عمل"، قال وواصل اللعب بحقيبته.

"هل ستعود؟"

قال: "نعم بالتأكيد. لماذا؟ هل ترغب بالذهاب معي؟"

ظهرت أمي فجأة إلى جانبي في المدخل. وضعت يدها على كتفي وأمسكته. لم تكن طويلة ولكنها تستطيع أن تمسك بإحكام. قالت: "لن

https://telegram.me/maktabatbaghdad

يذهب معك. أحتاج إليه في أمور هنا تفيد البلاد." دفعتني خارج المدخل ودخلت إلى غرفة نومهما وأغلقت الباب. سمعتُ حديثاً متوتراً حينئذ بالرغم من أنهما كانا يهمسان لأنهما يعرفان أنني أسمع.

قالت: "لا تستطيع في أية ظروف".

فقال: "آه اللعنة... من أجل المسيح، سنتحدث عن هذا لاحقاً". نادراً ما لعن، وهي أيضاً. ولكن بيرنير فعلتْ وقد تعلّمتْ ذلك من رودي. كان من الصعب سماعه يقول ذلك لأمنا.

خفتُ أن تفتح أمنا الباب فجأةً وتغضب مني لأني أسترق السمع، فرجعتُ إلى غرفتي وجلست أمام لوح الشطرنج الأبيض والأسود. شعرت بالهدوء خلف صفوف القطع البيضاء المصنوعة من أجل أهدافها المحددة، والتي تنتظر السير إلى المعركة بأمرٍ مني.

بعد وهلة خرج والدي من الباب الأمامي حاملاً حقيبته القماشية والمسدس في داخلها وركب سيارته. لم يخبرني أبداً ما هو العمل ولم يودّعني. اشتبهتُ بأن هذا العمل لا علاقة له ببيع المزارع بل بالهندي الذي جاء إلى منزلنا. على أيّ حال عرفت أنّ الأمر مهمّ وإلاّ لن يغادر بهذه السرعة. جعلني هذا أشعر بأن هناك شيئاً ما في حياتنا الآن لم يكن فيها من قبل أبداً.

(10)

ما فعله والدي أثناء الأيام التالية هو أنه قاد سيارته حول شرق مونتانا وشمال غرب داكوتا (المكانان اللذان لم يزرهما أبداً)، باحثاً عن مصرف يستطيع أن يسطو عليه. كانت خطته هي ألاّ يسطو على مصرف مباشرةً، بل أن يختار بلدةً ومصرفاً وفق معايير طوّرها في ذهنه، ثم يرجع إلى غريت فولز، إلى حياته العائلية ثانية لوقتٍ قصير، ثم يسافر كي يسطو على المصرف الذي اختاره بعد يومين. بدت هذه الخطة أقل استعجالاً ومروّى فيها أكثر، وأكثر قابلية لإعادة الحساب وحتى التخلي عنها، وأكثر حكمةً كطريقة للسطو على مصرف. كان نقيض هذا هو كيف تصبح أفعال البشر خاطئةً وينتهون إلى السجن.

من الغريب أن تتخيّل بالطبع: تعبرُ سيارةً على طريق سريعة ريفية مهجورة؛ تجلسُ إلى جانب رجل في حافلة طعام وتشاطره وجهات النظر، تنتظرُ

https://telegram.me/maktabatbaghdad

خلف زبون يحجز في موتيل، رجل ودود بابتسامة جذابة وعينين عسيليتين براقتين، يسعده أن يروي تفاصيل حياته لك ويريدك أن تحبه، من الغريب التفكير أنّ هذا الرجل يتجوّل بمسدّس مذخّر، يفكر بأي مصرف سيسطو عليه في أقرب وقت.

أعتقد أنه بالرغم من أن والدي خاف من الهنود، ومن الكارثة التي هدد وليامز "الفأر" أنها ستحلّ بنا إذا لم يحصل على النقود، فإنه في الوقت الذي قاد فيه سيارته على الطريق الطويل شرقاً إلى الأجزاء الواسعة والفارغة من مونتانا، التي تمتد الطريق كلّه إلى شمال داكوتا، قام بدراسة المصارف والبلدات، وفكّر بأمكنة يختبئُ فيها، وأحصى عدد ضباط شرطة الولاية ونوّاب الشريف الذين عبرهم، وحسبَ كم سيكون المصرف بعيداً عن الحدود بين الولايات (إن كونها جنوبية عنى أن حدود الولاية تشير إلى شيء بالنسبة له لا تعنيه لأشخاص آخرين في أمكنة أخرى عشنا فيها)، وفي الوقت الذي فعل فيه كلّ هذا، بدأت فكرة السطو تبدو، إن لم تكن معقولة، فعلى الأقل مقبولة، وكان من المفاجئ أنها لم تثر إلا القليل من القلق. حكمتُ على هذا من كيفية تصرّفه حين عاد إلى المنزل، بعد يومين، فقد تصرّف بثقة وحماسة، وارتفعت معنوياته مرة أخرى كما لو أنه واجه مشكلة كبيرة حين غادر لكنه اكتشف أنها أبسط شيء يمكن حلّه في العالم، وكانت هذه هي عادته في التخفيف من مشكلاته إلى الحد الأدنى. كذلك حكمت على إطار ذهنه غير المثقل بحقيقة أنه فكر قليلاً بأخذي معه للقيام بالسرقة. لا أعني أنه وصل إلى حدّ اقتراح عملية السطو عليّ. فقد اكتشفتُ لاحقاً، من دفتر يوميات أمي، أضفْ إلى أنني سمعتُ عبر الأبواب المغلقة كلمات تبادلاها

عن الأمر فيما بينهما على نحو حقيقي، ولكنني لم أفهم بشكل كامل: أنه، من وجهة نظره يمكن أن أكون شريكاً مقنعاً. وشعر أن أمي (-خياره الآخر)، ستُكشفُ فوراً بسبب مظهرها الأجنبي وهيئتها الصغيرة ولأنها ليست ودية مع معظم الناس، وهذا عائق كما اعتقد. أراد أن يجري السطو على المصرف بسلاسة. (أنا متأكد من أن رغبته بأن أكون شريكاً له كانت أحد الأسباب التي جعلها تذهب هي في النهاية، والقيام بأكثر الأفعال غرابة).

عرفتُ سابقاً من أمور قالها أبي أنه فكر طويلاً بالسطو على مصرف، بالرغم من أنني لم أعتبر هذا جدياً. وأوضحت يوميات أمي أنه لم يفكر أبداً على نحو محدد بأنه يمكن أن يُقبض عليه، لأنه كان ذكياً جداً. شعر أيضاً بأن السطو على "مصرف قومي جريمة بدون أي ضحايا"، بما أنه إذا سرق المرء أقل من عشرة آلاف دولار (سرقَ أقل من هذا بكثير)، فإن الحكومة الفدرالية، كما اعتقد، ستعوّض المُودعين. وكما قلتُ، كانت لديه ثقة كبيرة بالحكومة، ويعود في حديثه إلى أيام الصفقة الجديدة وقانون إنارة الريف أثناء سنوات خدمته في سلاح الجوّ، حيث اعتُني بكل شيء لأنهم كانوا مدينين له بالكثير بسبب خدمته. بوسع المرء أن يقول الآن إنه كان ديمقراطياً طيلة حياته.

أما بالنسبة للقبض عليه فإنه حالما رأى كيف بدا شرق مونتانا وغرب داكوتا فارغين وغير اجتماعيين وفقيرين، لم يستطع تصوّر أنّ أيّ شخص يمكن أن يراه، خاصة إذا لم تكن أمي معه. سيكون رجلاً لطيفاً غير قابل للتمييز يرتدي لباساً غير قابل للتذكر ويقود سيارة غير قابلة للتذكر مع فتى. (نوى أن يسرق لوحات سيارة من نورث داكوتا كي لا ينتبه أحد إلى سيارته

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الشيفروليه أيضاً). كان يعرف أنه لا يبدو كلصّ مصارف. وهكذا يستطيع أن يسطو على مصرف حتى دون أن يلجأ إلى قناع أو يتنكّر. سيقوم بالأمر بسرعة، ثم يسوق عائداً إلى المشهد الطبيعي الضائع والحارّ ويرجع إلى غريت فولز في المساء. لا أحد سيكون أكثر حكمة.

يشكّل هذا معنى مقنعاً للنوع الصحيح من الأشخاص. فقد قال شريف مقاطعة كاسكيد، حيث تقع غريت فولز، لصحيفة تريبيون، لاحقاً، بعد أن قُبض على والديَّ، إن كثيراً من الناس يظنّون أن مونتانا مكان سهل للقيام بعملية سطو دون أن يُقبض عليهم، ولهذا حصلت الكثير من عمليات السطو فيها (وهذا شيء آخر لم يعرفه أبي). أضاف الشريف إن الناس يعتقدون، أنه حالما يرتكبون السرقة يبتلعهم عندئذ المكان الفارغ، ولا أحد يراهم لأن عدد الناس هناك قليل جداً بحيث لا يمكن أن ينتبهوا، غير أن الحقيقة هي أن سارق المصرف يُنتبه إليه دوماً في مونتانا. ففي النهاية، إنه الوحيد الذي ارتكب تلك الجريمة، ولهذا هو هناك في الخارج لوحده، بينما يعرف الجميع جيداً أنهم لم يرتكبوا جريمة. فضلاً عن ذلك، في حالة أبي سينتبه الجميع إلى وجه بشوش لأن هناك القليل جداً من تلك الوجوه في أفضل الأيام.

لا بدّ أن أمي عرفت كل شيء بوضوح. فحين ساق أبي بعيداً في صباح الاثنين في بزّته الزرقاء حاملاً مسدّسه المذخّر، ومرعوباً من أن أشخاصاً سيقومون بقتلنا وأن عليه أن يسطو على مصرف للحصول على المال، بدأت أمّنا على الفور بالتصرف كما لو أن حياتنا في قبضة تغيّر كبير. وطلبت منا أن نساعدها في تنظيف المنزل، وكان هذا شيئاً لم تفعله كثيراً بما أن منازلنا

دوماً مستأجرة وفيها روائح أنابيب وتسرّب غاز ولم تكن أبداً نظيفة حين نصل. ربطت رأسها بمنديل أحمر رافعة شعرها إلى الأعلى، ارتدت بنطلونا قطنياً قديماً ورفعته نحو الأعلى وعثرت على قفاز مطاطي أسود كي تنقذ أظافرها، وبدأت تشطف أرض المطبخ وبلاط الحمام، كانسة الخزانات وغاسلة النوافذ، مخرجة الصحون ومنظفة الرفوف بمادة "باب أو". كانت مهمتي أنا وبيرنير غسل الأرضيات والأبواب والأجزاء المصنوعة من الخشب وزوايا الخزانة وأطر النوافذ في غرفنا بالصابون والخرق، وتنظيف زجاج نوافذنا بالخلّ مما جعل يديّ جافتين ولهما رائحة حموضة. طلبتْ منا أن نختار من ثيابنا كي نمنحها للقديس فنسنت دي بول، وأن نكوّمها في الرواق الخلفي إلى جانب درّاجتي، كي تؤخذ بعيداً. طلبتْ مني الصعود على الدرجات المخفية للعليّة كي أرى إن كنا قد نسينا أشياء كي نضعها مع الثياب في الرواق. الحرارة في العلية مرتفعة جداً والجو مظلم وتفوح منها رائحة كرات العثّ، والعفونة ومليئة بالغبار والسخام، وكنتُ حذراً من الثعابين والعناكب السامّة والدبابير التي تعشعشُ في عوارض السقف، ونزلتُ بسرعة دون أن أحضر أي شيء معي.

حين سألنا لماذا نقوم بعملية التنظيف هذه قالت أمنا إن السبب هو أنه حين يجيء والدنا إلى المنزل من رحلة عمله من المحتمل أن نرحل من غريت فولز ونعيد المنزل إلى بارغميان، المالك، الذي كان يعيش في بوتي. كان لديه مال مودع من قِبلنا تريد أمي استعادته. (قال أبي إنّ بارغميان "واحد من قبيلتها". ولكن أمنا قالت إنه أرمنيّ، من سلالة من الضحايا).

لم تقل إلى أين يمكن أن نذهب. وبما أننا سمعنا والدنا يقول الشيء نفسه

https://telegram.me/maktabatbaghdad

في صباح الأحد، اعتقدتُ أن الأمر ربما كان صحيحاً فشعرتُ بالخوف لأن المدرسة ستبدأ بعد أسبوعين، وتساءلت فيما إذا كنت سأقدر على الذهاب إليها بعد الآن.

بينما كان أبي غائباً، رنّ الهاتف عدة مرات في الأيام التالية وكنت أرد عليه على الفور معتقداً أنه هو. ولكن لم يتحدث أحد كما من قبل. أخيراً ردّت أمي وقالت: "ما الذي تريده؟ من أنت؟" لم يقل أحد في الطرف الآخر أي شيء، ثم انقطع الخط.

وفي الأيام التالية، ولخمس مرات على الأقل، صادف أنني نظرتُ من النافذة الأمامية ورأيت واحدة من سيارتين تمران ببطء أمام منزلنا. كانت واحدة منهما البليموث القديمة والسيئة التي ساقها "الفأر" في يوم الأحد ذاك. لم يكن الفأر الذي يقودها هذه المرة، بل شاب آخر أصغر منه، ليس هندياً. في مرات أخرى كانت سيارة أكثر سوءاً في منظرها، ستيشن واغون بنية، محطمة فوق نوابضها وسقفها متآكل. كان فيها عدة أشخاص، بينهم امرأة ضخمة اعتقدتُ أنها هندية. في كل مرة كان السائق يحدق بمنزلنا لكنه لا يتوقف. لم يحتج الأمر إلى عبقريّ كي يفهم أن لأولئك الهنود علاقة باحتمال رحيلنا، وأيضاً بذهابنا إلى بوكس إلدر في الأيام السابقة (كي نلقي نظرة أكثر تفحّصاً على أشياء تتعلق بالهنود)، وبشعوري بالخوف، وربما بلماذا يبحث والدنا لنا الآن عن مكان جديد نعيش فيه.

كان الشيء الآخر اللافت الذي حدث في غياب والدنا هو أن بيرنير خرجتْ من غرفتها واضعة أحمر الشفاه، وقد ذكرت أمي هذا بطريقة فكاهية وسمّتها "الأنثى القاتلة" التي ستذهب في الحال إلى نيويورك أو

باريس كي تبدأ مهنة تمثيلها المشهورة. لم يزعج هذا الكلام بيرنير. كانت قد حررت شعرها من طريقة الفرق النصفي الصلب، والتمشيط إلى الخلف التي تعتمدها وتركته يتدلى مباشرة على كتفيها بشكل فوضوي لم يعجبني لأنه أبرز تسطّح شكل وجهها وجعل نمشها يبدو وكأن وجهها متّسخ، بدلاً من كونه نضراً، كما كان دوماً بالرغم من النمش. حين كنا ننظف، سألتُها لماذا بالغت بمظهرها بهذه الطريقة. عبست في وجهي وقالت إن السبب هو "صديقها" (رودي) ـ الذي لم نره إلا قليلاً بعد ذلك ـ الذي قال لها إنها يجب أن تبدو كامرأة ناضجة إذا كانت تريده أن يهتم بها. قالت لي إنها تفكر بالهرب معه، وإذا ذكرتُ الأمر لأمنا فإنها ستقتلني. "إن البقاء هنا يدفعني إلى الجنون"، قالت وأدارت وجهها نحو الأسفل. صدمني هذا، لأنه لم يخطر لي أبداً أن الحياة مع والدينا يمكن أن تكون غير قابلة للاحتمال، أو أن الهرب يمكن أن يكون خياراً. لم أعتقد أن أياً من هذا كان ينطبق عليّ.

كان الشيء الآخر الذي حدث فيما كنت أنا وبيرنير ننظّف المنزل ووالدنا يقود سيارته بجنون في براري مونتانا وشمال داكوتا مقرراً أي مصرف سيسرق، هو أن أمّنا دخلت في حالة ذهنية جديدة وغريبة. كان من الأكيد أن تنظيف المنزل وتهويته أحد الأشياء. ولكنني سمعتُها أيضاً تقوم بعدة اتصالات هاتفيّة مع والديها في تاكوما، لم تطلب منهما السماح لها بالعودة إلى المنزل، بل أن يقدما لي ولبيرنير مكاناً نعيش فيه. تحدثتْ معهما بالصوت الأكثر طبيعية وعفوية كما لو أنها تتبادل معهما الزيارات مرة في الشهر بدلاً من عدم اللقاء أبداً لمدة 16 سنة تقريباً. فهمت أنهم سيقبلون بيرنير ولكن ليس أنا. فالفتى الذكر كان شيئاً كثيراً. كان هذا شيئاً آخر إضافياً، على أي

https://telegram.me/maktabatbaghdad

حال، جعل بيرنير تعتقد أن عليها الهرب ومواجهة الحياة، بدلاً من العيش مع عجوزين بولونيين صارمين ومرتابين لا يستوعبان ولا تعرفهما ويمكن ألا يحباها، ولكن اللذان هما جدّاها كما لو أن هذا تم بحكم المصادفة.

إن تسلسل الأحداث المحدّد والذي وفقاً له حرصت أمنا على سعادتي وعلى ألا أقع بين يدي ولاية مونتانا، سأذكره في النهاية، بما أنه الجزء المهم بالنسبة لي. ولكن في ذينك اليومين، حين كنا ننظّف المنزل قبل أن يعود والدي في مساء الأربعاء بعد أن قام باختيار المصرف، بقيت حالة أمي الذهنية موضوع الاهتمام الأكبر، حتى بعد كل تلك الأعوام التي مضت على رحيلها.

إنّ امرأة من المحتمل أن زوجها فقد عقله، أو على الأقل جزءاً منه، ويستعدّ للسطو على مصرف، ويقود عائلته إلى الدمار تقريباً، ويعتبر أن توريط ابنه في عملية سطو فكرة مبتكرة، ومهدد بالسجن والكارثة وتفكك كلّ ما فهمه كلاهما عن الحياة، إنّ امرأة كانت تفكر سابقاً بترك الرجل نفسه، بأية حال، سيعتقد المرء أنّها متلهفة لفرصة كي تبتعد، أو أنها ستبلغ السلطات كي تنقذ نفسها وولديها، أو ستتسلّح بإرادة حديدية، ولن تتراجع قيد أنملة، ولن تدع أي شيء يتحرك إلى الأمام وبالتالي ستحافظ على عائلتها بقوة إرادتها. (إن أمي، التي كانت صغيرة وساخطة، بدا كأن لها إرادة قوية، حتى ولو تبيّن أن هذا غير صحيح). ولكنّ أمنا لم تتصرف على هذا النحو.

حالما صار المنزل نظيفاً وخالياً من البقع كما لم يحدث من قبل، وبعد أن أجرتْ المكالمات الهاتفية مع والديْها وتلاشى غضبها من والدي (لأنه

ذهب)، صارت فجأة، ليس في معنويات مرتفعة، لأنها لم تكن أبداً هكذا، ولكن هادئة بشكل غير متوقع. الأمر الذي لم يكن عادياً أيضاً. بدا كأنها شعرت بالراحة للمرة الأولى في الأسابيع الأخيرة أو أكثر، كما لو أنّ شيئاً مهماً قد قُرِّرَ وَوُضع في مكانه الملائم. ضحكت معنا، مزحتْ مع بيرنير قائلة إنها ستصبح ممثلة سينمائية مشهورة، ومعي قائلة إنني سأصبح أستاذاً جامعيّاً أو بطل شطرنج أو خبيراً في النحل. عبّرت عن وجهات نظر حول أمور كثيرة في العالم، أمور لم أعرف أنها متنبّهة لها ولم تناقشها معنا كالسيناتور كينيدي، الذي لم تكن معجبة به، والزلزال في المغرب، والثورة الكوبية، وهذه معلومات لا بدّ أنها حصلت عليها من المذياع، كما فعلتُ أنا. شاهدتْ التلفاز معنا، دوغلاس إدواردز، البندقية التي لا تستريح، تراك داون (عروض شاهدتُها). روت النكات عن الأوبرات الصابونية وعروض أخرى قائمة.

لم أتحدث أنا وبيرنير معها كثيراً في تلك الأيام. فقد كان كلانا يشاركها الحديث بطريقة مترددة واعية ذاتياً لم تجعلنا نصفّ ضد والدنا، ولكنّ هذا احترمَ انقساماً غير معبّر عنه وُجد الآن بينهما جعله جزئياً يغادر في "رحلة عمل" دون أن يذكر متى سيعود. (والواقع أنني تساءلت عدة مرات، في خيالي، إن كان قد ذهب للسطو على مصرف). لم يبد كأن هناك طريقة كي أبدأ محادثة عن هذا الانقسام ـ حتى مع أختي ـ دون أن أفاتحها بالأمر كله. وهكذا قمنا بتنظيف المنزل فحسب، وتناولنا وجباتنا، شاهدنا القناتين على التلفاز. قرأتُ كتابي الخاص بالشطرنج، وضعت استراتيجيات غير قابلة للتطبيق، نظرت في كتالوجات تربية النحل، واشتقت إلى المدرسة.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بقيتْ بيرنير في غرفتها كالعادة، تصغي إلى مذياعها، تجرب المساحيق، تسرّح وتعاود تسريح شعرها، تستخدم السلك الطويل كي تتحدث سرياً في الهاتف مع رودي، وبدأت (أنا متأكد) تخطط لهربها، الذي لن تعود منه أبداً، بما أنه في القريب العاجل لن يكون هناك أي شيء تمكن العودة إليه. وإذا كانت أمنا قد عبّرت، في ذلك الوقت القصير، عن تغيّر في كيفية رؤيتها للعالم كلّه، فلا بدّ أنه تغير كان يحدث لسنوات، وصار فجأة واضحاً فحسب في ذينك اليومين حين كان والدنا غائباً.

اعتقدتُ دوماً أنّ مظهر أمي لعب دوراً في الطريقة التي تغيّرت بها وصارت هادئة فيما كنا ننتظر رجوع أبي إلى المنزل كي يأخذ الحياة إلى حيث ستذهب. كيف بدت: حجمها (طول القامة نفسه كشيرلي تيمبل حين كانت في الخامسة عشرة)، مظهرها (نادراً ما تبتسم، ترتدي نظارة، غربتها اليهودية الواضحة)، ميلها الواضح (شكاكة، حادة الذكاء، مدافعة عن الذات، بعيدة في غالب الأحيان). بدت دوماً منخرطة في كل شيء فكّرتْ به أو قالته، كما لو أنّ مظهرها أنشأ ذاتها كلّها. يمكن أن ينطبق هذا على أيّ شخص، ولكنّ كلّ ما فيها ميّزها في أيٍّ من الأمكنة التي سبق أن عاشت فيها أسرتُنا، الأمر الذي لن يكون صحيحاً في بولونيا أو إسرائيل أو حتى نيويورك أو شيكاغو، حيث كثير من الناس يبدون ويتصرّفون مثلها. لا شيء فيها جعلها أقلّ بروزاً أو من المحتمل أن تتكيّف. وبينما لم أستطع ان أعلن هذا آنذاك، افترضتُ أن جميع الأشياء المتعلقة بها (ما قالتْهُ لنا، ما نصحتْنا به، وما كرهتهُ، الأشياء التي ناصرتْها) تدين بوجودها فقط إلى ذلك

الشخص الذي كانته، وليس إلى ما اعتقده البشر عنها، ليس إلى الجماعة، أو حتى إلى الفطرة السليمة. لم تكتب هذا أبداً في دفتر يومياتها، ولكن بسبب كيف كانت، وبدت، لا بدّ أن كل شيء كان تجربة لها: الذهاب في السيارة كي تعلّم في فورت شو؛ التنقّلات والمنازل؛ البلدات غير المقبولة؛ وزملاء أبي في سلاح الجوّ المنكّتون والأغبياء الذين لا أصدقاء لهم، بخططهم الغبية كي يكونوا في المقدمة. وكما قلتُ، كانت تملك ما اعتقدتُ لبعض الوقت أنه إرادة قوية. ولا بدّ أن تلك الإرادة لم تدعها تفكّر أبداً بأي شيء سوى هذا، مفترضين كم كانت منفصلة عن كلّ ما أحاط بها (عدا بيرنير وأنا، فقد أحبّتنا)، وكانت الحياة المألوفة كلّها جديرة باحتقارها. فقد ازدرت الألفة والتكيّف لأنهما لم يكونا متوفّرين. وهذه طريقة أخرى لتفسير لماذا لم ترغب باندماجنا في المحيط.

إن شعورها بالسكينة آنذاك (ربما شعرت بأنها غير قابلة للتغيّر فقط)، ومزاحها معي ومع بيرنير حول مستقبلها كممثلة، وضحكها وهي تقول إنني سأصبح أستاذاً جامعيّاً، ومشاهدتها التلفاز معنا، وحديثها عن "العاصفة السرية" و" كما يدور العالم"، وكم هما معبّران عن الحياة، ربما عنوا أنّ ما أدركتْه، مفترضين أن الحياة ألقت بها بعيداً، هو أنها لم تتحمل عبئاً بل امتلكت في الحقيقة توقاً عظيماً، غير مستغل ومكبوتاً لسنوات، إلى التغيّر. وبعد أن فقد والدي عقله، وصار يجهّز كي يسطو على مصرف (الأمر الذي عرفتْ عنه)، ربما لم تشعر باليأس أو الرعب أو باغتراب أكبر (الذي سيكون تقليدياً)، بل بالتحرر من جميع القوى التي اضطهدتها. ربما استنتجتْ أن هذا الشعور المتحرر جاء مباشرة من الصفات نفسها التي

https://telegram.me/maktabatbaghdad

عزلتْها، وأنها لم تكن عذاباً بل زادتها قوة. سيكون هذا مميّزاً لها ولحالتها الذهنية الشكاكة. ربما جعلها هذا تشعر بالتحسّن أكثر مما كانت عليه لوقت طويل. وإنه لغريب أن هذا حدث. ولكنها كانت غريبة.

لا يفسّر هذا لماذا لم تضعني أنا وبيرنير في قطار إلى تاكوما (أو شيكاغو، أو أطلنطا أو نيو أورليانز)، جاعلةً أبي يعود إلى منزل فارغ، علّه يعود إلى رشده، لو بقي فيه ذرة عقل، ولا يفسّر لماذا، حين عاد والدي إلى البيت في اليوم التالي، بعد أن اختار المصرف مبدياً حماساً كبيراً للذهاب، لم تقرر المغادرة عندئذ، أو تتحدث معه وتمنعه، أو تذهب إلى الشرطة، أو ترسم خطاً في الرمال، ولكنها بدلاً من ذلك صارت شريكته في الجريمة وجازفت بحياتها حين جازف بحياته. حين نفكّر بعمق لماذا يقرر شخصان ذكيان وعاقلان السطو على مصرف، ولماذا يبقيان معاً بعد أن بدأ الحبّ بالتبخرّ والتلاشي، يكون هناك دوماً أسباب كهذه، أسباب ليس لها أي معنى في ضوء يوم لاحق مطلقاً ويجب أن تُبتكر.

(11)

كلما أجلّتُ تشخيص والدي كمجرم بالفطرة، كانت قصتي أكثر صحّة. صار مجرماً، هذا صحيح، ولكنني غير متأكد في أية نقطة في تسلسل الأحداث عرف هو أو أي شخص أو العالم ذلك. إن النية بأن تصبح مجرماً مهمة في هذه الأمور. ويمكن أن تُطْرَح قضية أنه لم يملك أبداً نية واضحة قبل أن يسرق المصرف الزراعي القومي في كريكمور، نورث داكوتا. ربما كان يفتقر إلى النية آنذاك ولم يمتلكها إلى أن جلبت له ما يمكن أن يحدث له نتيجة لهذا. بالنسبة لبيف بارسونز، في الحالة الذهنية التي وصل إليها، كان هناك شيء ضروري جداً وأيضاً عاديّ في المهمة بحيث لم يكن هناك أية أرضيات للاعتراض، الأمر الذي كشف شيئاً ما غير جيد فيه، كما عرفت. وبما أنه، ثانية، لم يعتبر نفسه من النوع الذي يرتكب سطواً مسلّحاً، فإن القيام بالسطو لم يغيّر رأيه بنفسه مباشرة، ومن المحتمل أنه لم يغيّره إلى اللحظة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

التي جاء فيها المحققان إلى منزلنا، وسارا في غرفة النوم وهما يسألان عن "رحلة إلى نورث داكوتا"، ثم قالا لوالديّ، تقريباً بشكل عادي، إنهما يجب أن يُصفّدا ويذهبا إلى السجن. ربما يفكّر كثير من المجرمين الجدد على المهنة بأفعالهم وبأنفسهم بهذه الطريقة.

XXX

ولكن كيف يتصرّف الأشخاص حين يكونون على وشك ركوب سيارتهم والانطلاق للسطو على مصرف؟ لو قدتَ سيارتك عابراً منزلنا مساء الأربعاء، ورأيتَ مصابيحنا مضاءة، ونظرتَ عبْر النوافذ ورأيت أمي في المطبخ تطهو طعام العشاء، وشاهدتَ مصابيح الجيران مضاءة، وأبي خارجاً لتوه من الحمام، يجلس على درجات الرواق الأمامي ويربط حذاءه في الغسق البارد الذي يصدر طنيناً، تحت قمر مرتفع وواضح، فيما السيارات تتحرك وراء الحديقة، ورأيتَ شعره مبللاً، ويفوح منه عطر أولد سبايس ومسحوق البودرة، ويروي لبيرنير ولي قصصاً عما رآه في "رحلة عمله": السهوب كبحر داخلي كبير، ("كمثل خليج مكسيكو")، الأضواء الشمالية، لا جبال، ولكن الكثير من الحيوانات البرية، وأنا وبيرنير جالسان باستغراق، وسعيدان، لو رأيت هذا هل كنتَ ستظنّ أن هناك رجلاً يستعدّ للقيام بسطو مسلّح؟ كلا، لن تظنّ ذلك. لكن، وعلى نحو لا يمكن إنكاره، سحرني كيف يوجد التصرف الطبيعيّ قريباً جداً من نقيضه.

إن جميع العلامات والتحذيرات التي نعتقد أننا نعرفها عن الكارثة هي عموماً خاطئة. ومن المحتمل أن تكون وجهة نظر طفل فيها جيدة كوجهة نظر الراشد وربما أفضل. فمنذ أعوام، سمعتُ عن رجل شنق نفسه، وهو

سمسار بورصة يعاني من كثير من الآلام والمشاكل الذهنية ومن شعور باليأس لا يمكن أن يبدده شيء، ولكن في الأسبوع الذي قاد إلى لحظته المريعة، والتي خطط لها إلى آخر تفصيل ـ كان الأمر مرتباً بحيث تعثر عليه زوجته حين تعود من عطلة في فلوريدا مع صديقاتها ـ قال معارفه إنه أزاح ثقل العالم عن كاهله، وأن معنوياته صارت مرتفعة جداً. كان يضحك ويروي النكات ويمزح مع الناس ويخطط بطريقة لم يذكر أحد أنه قام بها من قبل. اعتقدوا أنه عبرَ الأزمة، واكتشف الحياة، وعثر على طريق إلى ذاته القديمة، وقد تذكّروه بغبطة وسُعدوا بالعودة إلى التواصل معه. ثم حدث هذا: تدلّى متأرجحاً من الثريّا في بهو المنزل الذي بناه منذ عامين فحسب وزعم أنه يحبه. إن تركيبتنا لغزٌ. إنها لغزٌ.

حين عاد والدي إلى المنزل في حوالى الثامنة من مساء الأربعاء كان مزاجه رائقاً. ستعتقد أنه أنجز أفضل صفقة تجارية في العالم، اكتشف منجم ذهب أو بئر نفط أو ربح اليانصيب. كان ما يزال يرتدي بزة القفز المظليّ وحذاء التنس الملوث بالأعشاب ولم يحلق ذقنه. أحضر معه حقيبته الزرقاء التي خبأ فيها مسدسه. (فتشت درج جواربه أثناء تنظيفي للمنزل كي أشبع فضولي بأنني رأيت ما رأيته. لم يكن هناك. كان معه).

بعد برهة من مجيئه طاف في أنحاء المنزل، متحدثاً إلى أمنا، ومع بيرنير ومعي، وأحياناً مع نفسه فقط. كان مسترخياً ومرتاحاً ونظر في جميع الغرف، كما لو أنه لاحظ كم هي نظيفة. كان صوته المتحدث واثقاً وبدا لي جنوبياً أكثر من المعتاد، وهذه هي الطريقة التي يتحدث بها حين يشعر

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أنه غير محميّ، أو حين يروي نكتة أو يتناول مشروباً. كانت التأثيرات المُغيِّرة للحياة الحديثة تشغل ذهنه: هناك قمر صناعيّ في السماء الآن يتنبأ بالطقس ويبدو كنجم في الليل. اعتقد أن هذا يمكن أن يشكّل ازدهاراً للملاحة الجويّة. وفي البرازيل شيّدتْ الحكومة مدينة جديدة بشكل كامل في الغابة ونقلت آلاف السكان إلى هناك. سيحلّ هذا المشكلات العرقية، كما اعتقدَ. نستطيع جميعنا أن نشتري الآن كِلْية جديدة حين تتعطل كليتنا، وكان هذا جيداً على نحو جليّ. سمع هذه الأنباء من الإذاعة الكندية في سيارته. وقد تلقى بثّها بوضوح لأنه كان قريباً من الحدود أثناء قيادته.

بعد أن استحمّ رافقني أنا وبيرنير إلى الرواق الأمامي في الغسق وأخبرنا أن السهوب كالمحيط. نظرنا نحو الأعلى إلى القمر الصناعي الذي يدور في السماء، وقال إنه يعتقد أنه رآه بالرغم من أننا لم نلمحه. تحدث عن أعوام نشأته في ألاباما وجميع الأشياء المضحكة التي قالها الناس وكم كانت غنية ومتنوّعة بالمقارنة مع مونتانا، حيث يفتقر الناس إلى حسّ الفكاهة ويعتقدون أن الفظاظة والارتياب وعدم الودّ فضائل. سألنا مرة أخرى ـ لأنه غالباً ما يطرح هذا السؤال ـ إن كنا نشعر بأننا ألاباميّون فأجبنا كلانا مرة ثانية بأننا لا نشعر بذلك. سألني ما المكان الذي أشعر أنني منه فأجبته بأنه غريت فولز. أما بيرنير فقالت إنه لا يوجد مكان، ثم قالت من المريخ، وضحكنا جميعاً. تحدث لبرهة قائلاً إنه حلم بأن يصبح طياراً إلا أنه لم يكن مؤهلاً إلا لوظيفة قاذف وشعر بخيبة أمل كبيرة، ولكن خيبات الأمل تلك كانت تعليمية وأحياناً تكون النتائج العكسية أفضل. تحدّث عن الأخطاء المريعة التي ارتكبها الناس أثناء التدرّب على رَمْي القنابل، وكم كانت مسؤولية

ثقيلة. خرجت أمنا مرة أو مرتين من المطبخ إلى الخارج. أحضر إلى المنزل زجاجتين من بيرة شليتز، وشرب كلّ منهما واحدة، وهذا أمر لا يفعلانه عادة. جعلهما هذا مرحين، وهكذا كانت أمّنا معنا في غيابه. ارتدت بنطلوناً قصيراً كشف كاحليها النحيلين، وحذاء قطنياً مسطّحاً، وبلوزة خضراء جميلة. ولم نكن نعرف أنها لديها هذه الثياب. بدت كفتاة شابة وابتسمت أكثر مما تفعل عادة وأمسكت زجاجة البيرة من عنقها وشربتها في جرعات صغيرة. تصرفت بشكل عاطفيّ مع والدنا وضحكتْ وهزّت رأسها لدى حديثه عن أمور سخيفة. وربتتْ على كتفيه مرتين وقالت إنه شخص ذكيّ ومسلّ. (وكما قلتُ: كانت مستمعة جيدة). لكنه لم يبد لي مختلفاً بأية طريقة. كان رجلاً رائق المزاج في معظم الأوقات.

قالت له بيرنير ونحن ما نزال في الرواق والزيزان تُصْدرُ صريرها في الأشجار إنّ أشخاصاً غريبين يقودون سياراتهم مارين أمام منزلنا وإن اتصالات هاتفية جرتْ ولكن لم يتحدث أحد. وقالت إنها تظنّ أنهم هنود. قال والدي:"آه أولئك الفتيان ما من مشكلة. لا تقلقوا منهم. لا يفهمون طرق الرجل الأبيض. إنهم رائعون، بالرغم من ذلك".

سألته عن العمل الذي يتعلّمه ويتطلع إليه. قال إن هذا يسير بشكل جيد ولكنه يجب أن يعود في الحال كي يحل الأمور، وربما سأذهب معه هذه المرة. يمكن أن نذهب جميعاً. سألتهُ إن كان ما قاله يوم الأحد صحيحاً، وإن كنا سننتقل إلى بلدة أخرى. كنتُ ما أزال متضايقاً حيال المدرسة، ونادي الشطرنج، إلخ، الأشياء التي لدي ركيزة فيها. ابتسم وقال كلا، لن ننتقل. حان الوقت كي تستقر الأسرة وأنا وبيرنير سنصنع بعض الأصدقاء

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ونعيش كمواطنين محترمين، وإنه يتطلّع إلى الأمام نحو النجاح في عمله في بيع المزارع. وقال إنه سيعلّمني خدع هذا العمل حالما يتعلمها، بالرغم من أنني لم أر كيف ينسجم هذا مع فرصة عمل جديدة. فكّرت بأن أسأله لماذا أخذ مسدسه في رحلة عمل. ولكنني لم أفعل لأنني لم أعتقد أنه سيذكر لي الأسباب الحقيقية. حين أفكر بالأمر الآن، لم يكن أي شيء قاله لي صحيحاً. كلّ ما عرفته هو أنه كان يجب أن أصدّقه، والأطفال جيّدون في التظاهر كالبالغين.

حين تناولنا العشاء كانت الساعة قد تجاوزت العاشرة والنصف. رنّ الهاتف مرتين أخريين حين كنا جالسين إلى المائدة. في إحدى المرات ردّ والدي وضحك من كل قلبه وقال إنه سيتصل فيما بعد بالشخص. في المرة الأخرى وقف وأصغى وكأن شخصاً يتحدث إليه بجدية. حين عاد قال:"لا شيء. هذا لم يكن شيئاً. متابعة فحسب".

سألتْهُ أمّنا ونحن جالسون إلى المائدة إن كان قد لاحظ أي اختلاف في بيرنير. قال إنه لاحظ ذلك. بدا شعرها أجمل وأحبّه. قالت إن بيرنير تضع أحمر الشفاه ـ الأمر الذي فعلته ثانية ـ وإذا لم نراقبها ستهرب إلى هوليود أو فرنسا. قال أبي إن بيرنير يمكن أن تذهب إلى "سيسترز أوف بروفيدنز" مع أمنا وتصبح راهبة بعد أن تؤدي قسم الطهارة، مما جعل أمي تضحك، ولكن بيرنير لم تضحك. أذكر تلك الليلة الآن، على أنها الوقت الأفضل والأكثر طبيعية الذي قضتْه عائلتنا في ذاك الصيف، أو في أيّ وقت. للحظة واحدة فحسب، رأيت كيف يمكن أن تسير الحياة نحو الأمام في مسار أكثر انتظاماً ودقة. كان كلاهما سعيداً بالآخر. قدّر أبي الطريقة التي تصرّفت بها أمي

حياله. مدح ثيابها ومظهرها ومزاجها. بدا كما لو أنهما اكتشفا شيئاً ما كان موجوداً مرة لكنه اختفى أو أُسيءَ فهمه أو نُسي مع مرور الزمن، وقد أبهجهما مرة ثانية، وفرح كلٌّ بالآخر، الأمر الذي يبدو صحيحاً ومتوقعاً لدى المتزوّجين. يلمحان الشخص الذي وقعا في غرامه، والذي غذّى الحياة. بالنسبة للبعض، ينبغي ألا تبهت تلك الرؤية أبداً، كما هو بالنسبة لي. ولكن كان من الغريب أن يحصل والدانا على تلك النظرة، ويتخلصا من الإحباط والقلق والانزعاج كسحب تبددها العاصفة، ويصقلا ذاتهما، تماماً قبل أن يقودا عائلتنا إلى الدمار.

سأقول هذا عن والدنا: في تلك الليلة حين كنا عائلة، نضحك ونمزح ونأكل متجاهلين ما يحوم فوقنا، تغيّرت ملامحه ثانية. حين غادر المنزل منذ يومين بدا سميناً ومرهقاً. كانت ملامحه مرتخية وغير قابلة للتمييز ومتلاشية كما لو أن كل خطوة من خطواته مترددة وغير ممارسة. ولكن حين رجع في تلك الليلة وطاف في المنزل معلناً الأمور التي كانت تهمّه مثل الأقمار الصناعية والسياسة في أميركا الجنوبية وزراعة الأعضاء وكيف أن حيواتنا جميعاً قد تكون أفضل، بدت ملامحه حادّة ومنحوتة. وفي الضوء المنمش فوق مائدة عشائنا، أصبح مصمّماً ودقيق المنظر. كان لوالدنا عينان صغيرتان عسليتا اللون، قرصان بنيان خفيفان لن يلفتا نظرك. ستبدو عيناه ضعيفتين لأنه يحدق مغمضاً نصف عينيه حين يبتسم. وبما أن وجهه كبير العظام، فإن عيينه تضيعان تقريباً في التأثير الإجمالي. على أي حال، بدا الآن إلى مائدة عشائنا كأن عينيه تختزلان وجهه، كما لو أنهما شاهدتا عالماً لم تشاهداه من

https://telegram.me/maktabatbaghdad

قبل. لقد توهّجتا. وحين نظر إليّ بتينك العينين، أحسستُ في البداية بأنني جيد وإيجابي. ولكنني في النهاية شعرت بأنني غير مرتاح. بدا وكأنه يعاود تقويم كل شيء، كما حين تجوّل في الغرف في منزلنا قبل ساعتين كأنه يراها للمرة الأولى، وأبدى اهتماماً جديداً بها. مما جعل المنزل يولّد شعوراً بأنه غريب بالنسبة لي، كما لو أنه يخطط لاستخدامه بطريقة لم تحدث من قبل. جعلتني عيناه أشعر بالطريقة نفسها.

فكّرتُ بعينيه أثناء كل تلك الأعوام، وكيف أصبحتا مختلفتين هكذا. وبما أن الكثير كان سيتغيّر بسببه، اعتقدتُ أنه من الممكن أن احتمالاً مكبوتاً لفترة طويلة فيه تجلّى في النهاية على وجهه. تحوّل إلى من وماذا كان من المفترض أن يكونه دائماً. كان عليه أن يخترق الطبقات الأخرى إلى ما كانه في الحقيقة. فقد رأيتُ هذه الظاهرة في وجوه رجال آخرين، رجال مشرّدين بلا سكن، متمددين على الأرصفة أمام البارات أو في الحدائق العامة أو مواقف الباصات، أو مصطفين أمام أبواب الإرساليات، منتظرين الدخول للهرب من شتاء طويل. على وجوههم ـ كان كثير منهم أنيقين لكنهم محطمون ـ رأيتُ بقايا ما نجحوا في أن يكونوه لكنهم فشلوا في أن يكونوه، قبل أن يصبحوا أنفسهم. إنها نظرية قدر وشخصية لا أُحبُّها ولا أريد أن أؤمن بها. ولكنها هناك فيَّ كطبقة قاسية من النبات. وفي الحقيقة كلما رأيت شخصاً مدمراً كهذا أقول بيني وبين نفسي: هذا أبي. ذلك الرجل أبي. كنتُ أعرفه.

(12)

إن الأمور التي قمتَ بها، والأمور لم تفعلها أبداً، والأمور التي حلمتَ بها، تمتزجُ كلّها معاً بعد وقت طويل.

بعد أن ذهبتُ أنا وبيرنير إلى الفراش ليلة الأربعاء بعد عودة والدي، أصغيتُ إلى والديّ في المطبخ وهما يتحدثان ويضحكان ويجليان الصحون. صوت الماء وهو يجري. قعقعة الصحون والآنية. خزانة تُفتح وتصرّ وهي تُغلق. صوتهما المُخفّف.

"لن يظنّ أحد أبداً..."، قال والدي، ثم لم أستطع سماع البقية.

"هل تريد أن تجعل من الأمر نزهة عائلية؟" قالت أمي.

جرى الماء ثم توقّف. كان صوتُها الأكثر سخرية.

"لن يفكّر أحد أبداً"، قال ثانية. ثم نطق اسمي. "ديل".

"لن تفعل. كلا"، قالت.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

"حسناً". وُضِعَت الصحون المجففة في أمكنتها.

"وهكذا، هل أنت سعيدة؟"، قال بصوت مرتفع جداً بحيث سمعت.

"ما علاقة السعادة بالأمر؟"

"علاقة كاملة".

وكان هذا حلمي: أجري راكضاً في بيجامتي إلى ضوء المطبخ حيث يقفان، ينظران إلي. والدي الطويل، عيناه الصغيرتان ما تزالان تتوهّجان. أمي القصيرة في بنطلونها القصير الأبيض وبلوزتها الخضراء الجميلة بأزرارها الخضراء. وجهٌ يبدي الاهتمام الجدي. "أنا ذاهب"، قلتُ. قبضتاي مشدودتان. الوجه مبلل. القلب يخفق. بدأ والداي يتراجعان في مدى بصري، كما حين تكون مريضاً وتُقلّصُ الحمّى العالم وتطول المسافة. صغرَ والداي شيئاً فشيئاً إلى أن صرتُ في المطبخ المضاء بحدة وحيداً، وكانا في نقطة التلاشي، تماماً على وشك الاختفاء.

(13)

نمتُ حتى وقت متأخر يوم الخميس، بسبب بقائي مستيقظاً أصغي إليهما وهما يتحركان في المنزل ليلاً. دخلت أمي إلى غرفتي في الثامنة، ترتدي نظارتها، وجهها ناعم وتنظر بحدة، قريبة من وجهي، يدها الصغيرة الباردة لمست كتفي العاري. رائحة نَفَسها عذبة من معجون الأسنان إبانا وحامضة من الشاي. كان باب غرفتي مفتوحاً. مرّت قامة أبي وعبرت أمامه. كان يرتدي بنطلون جينز أزرق وقميصاً أبيض بسيطاً وبوطه.

"تناولتْ أختك الفطور. كُلْ بعض قشدة حبوب القمح". كانت عيناها مركزتين على وجهي، كما لو أنها رأت شيئاً غير متوقع فيه.

"سنغيب لمدة يوم. سنعود غداً. ستكون تجربة جيدة لكما أن تعتنيا بالأمور". كان وجهها هادئاً. اتخذت قراراً حيال شيء ما.

توقف والدنا في الرواق، شعره ممشّط ولامع. كان حليق الذقن. فاحت في غرفتي رائحة مسحوق البودرة الخاص به. كان طويلاً جداً في الباب

https://telegram.me/maktabatbaghdad

المفتوح.

قال:"لا تردّا على الهاتف أنت وأختك. ولا تذهبا إلى أيّ مكان. سنعود غداً في المساء. ستكون هذه تجربة جيدة لكما".

"إلى أين أنتما ذاهبان؟" حدقتُ بضوء الشمس خلفه في غرفة الجلوس، وعيناي تلتهبان من قلة النوم.

قال:"لدي المزيد من العمل. لقد ذكرتُه. أحتاج إلى رأي أمّك". كان يتحدث بهدوء، ولكنني استطعتُ أن أرى شرياناً بارزاً في جبينه.

نظرتْ إليه، كما لو أنّها لم تسمع هذا الكلام من قبل. كانت تركع قرب سريري، أصابعها خفيفة فوق صدري. قالت:"هذا صحيح".

قلت:"هل نستطيع الذهاب معكما؟"

قال:"سنأخذك في المرة التالية".

مرّ حلمي في ذهني. سأذهب. صحتُ. قبضتاي مشدودتان.

ابتسم على نحو عارف:"اعتن بأختك. إنها تحت سلطة العقيد بارسونز هنا". كان يصنع دعابة من الأشياء إن استطاع.

"هل ستطلق النار على أحد ما؟"

قالت أمي:"آه يا إلهي".

فم أبي الكبير، المبتسم، انفتح. أغمض عينيه نصف إغماضة كما لو أن ضوءاً باهراً أُشعل. "لماذا قلت هذا؟"

"إنه يعرف"، قالت أمي. وقفت إلى جانب السرير وحدقت نحو الأسفل إليَّ، كما لو أنني سأُلام على شيء ما لا أعرف ما هو.

"ما الذي تظنّ أنك تعرفه يا ديل؟" استأنفتْ ابتسامةُ أبي نشاطها عبر وجهه. بدا متفهّماً.

"أخذتَ مسدسك في المرة الأخيرة".

خطا خطوة إلى داخل غرفتي. "آه. الناس يحملون مسدسات هنا. هذا شائع. إنه الغرب المتوحش. ولكنك لا تطلق النار على أحد أبداً".

نظرت إليّ أمي بثبات. كانت عيناها الصغيرتان مركّزتين خلف نظارتها، كما لو أنها تدرسني من أجل إشارة. كانت تتعرق تحت بلوزتها. شممتُ رائحتها. كان الجوّ حاراً من قبل في المنزل.

"هل أنت خائف؟"، سألتْني.

"كلا"، قلت.

"إنه ليس خائفاً"، قال أبي، وخرج من المدخل ونظر نحو الساعة في المطبخ. "يجب أن نذهب". واختفى في الردهة.

واصلت أمي التحديق بي، كما لو أنني أصبحت شخصاً لم تكن بحاجة إلى معرفته بشكل كامل.

قالت:"فكِّرْ بمكان رائع تحبُّ الذهاب إليه، لماذا لا تفعل؟ سآخذك إلى هناك. أنت وبيرنير".

أُغلق باب المنخل الخارجي. "إنه تحت سلطة العقيد بارسونز"، سمعته يقول. كان يتحدث مع بيرنير في الرواق.

"موسكو"، قلتُ. قرأتُ في مجلة تشيس ماستر (معلّم الشطرنج) أن اللاعبين الكبار هم روس: ميخائيل تال، الذي كان مشهوراً بأسلوبه في التضحية وتحديقته المريعة، أليكسندر أليخاين، المعروف بعدوانيته. فتّشتُ عن كلمة موسكو في معجم مريام-وبستر ثم في موسوعة دليل العالم، وأخيراً في الخريطة الكروية على خزانة ملابسي في غرفتي. لم أعرف ما كانه الاتحاد السوفييتي، أو لماذا كان مختلفاً عن روسيا. إنّ لينين، الذي قال عنه والدي

https://telegram.me/maktabatbaghdad

إنه كان يلعب الشطرنج، لعب دوراً فيها، وكذلك ستالين، وكان أبي يزدري الاثنين. قال إن ستالين دفن روزفلت في القبر كما لو أنه أطلق عليه النار.

قالت أمي: "موسكو! سيُصاب أبي المسكين بأزمة قلبية. كنت أفكّر بسياتل".

دوّى صوت بوق الشيفروليه في الشارع. سمعتُ باب المنخل يُغلق ثانية. كانت بيرنير عائدة إلى الداخل، مستعدة كي تعتني بي. "إنّه على أحرّ من الجمر"، سمعتُها تقول. انحنت أمي، قبّلتْني بسرعة على جبيني. "نستطيع التحدث عن الأمر حين أعود"، قالت. ثم غادرت.

حين عشنا في المسيسيبي، في بيلوكسي، سنة 1955، كنت في الحادية عشرة من عمري، وكان والدي يعمل في القاعدة ويبقى في المنزل في عطل نهاية الأسبوع، كما يفعل في غريت فولز. أحبَّ مسيسيبي. فقد كانت قريبة من المكان الذي ترعرع فيه، وأحبَّ خليج مكسيكو. لو ترك سلاح الجوّ في ذلك الوقت وهناك، بدلاً من الوقت الذي فعل فيه هذا، لسارتْ الأمور على نحو أفضل بالنسبة إليه ولأمنا. كان بوسعهما أن يتطلّقا ويذهب كلّ منهما في طريقه. يستطيع الأطفال أن يتكيّفوا إذا كان آباؤهم وأمهاتهم يحبّونهم. ووالدانا أحبّانا.

كان أبي يأخذني في غالب الأحيان إلى السينما في صباحات السبت حين يكون هناك شيء يريد أن يشاهده أو لا يكون لديه شيء آخر يفعله. كان هناك سينما مكيّفة تُدعى تريكسي، تقع في الشارع الرئيسي وسط المدينة الذي ينتهي عند الخليج. تبدأ الأفلام في العاشرة وتتواصل مباشرة حتى الرابعة، وتُعرض أفلام قصيرة وأفلام كرتون وأفلام رئيسية باستمرار،

وكلها مقابل أجر واحد كان 50 سنتاً. كنا نجلس ونشاهد كل شيء ونأكل الحلويات والبوشار ونشرب شراب "دكتور بيبر"، ونستمتع بطرزان أو جنغل جيم وجوني مكشين وهوبالونغ كاسيدي، بالإضافة إلى الممثلين الفكاهيين ولوريل وهاردي وجريدة السينما ولقطات عن الحرب القديمة، كان والدي يحبّها. نخرج من البرودة في الرابعة، ونعود إلى بعد ظهر ساحل الخليج المالح والحار والذي بلا أية نسمة، حيث تبهر الشمس أعيننا ونشعر بالغثيان، صامتين حيال تضييع اليوم بدون أية نتيجة.

في صباح كهذا، كنا في الظلام جنباً إلى جنب، وعلى الشاشة عُرضت جريدة إخبارية من الثلاثينيات، عن المُجْرِمَين كليد بارو وبوني باركر، اللذين أرعبا (كما قال المذيع) عدة ولايات في الجنوب الغربي، وهما يسرقان ويقتلان ويصنعان اسماً سيئ الصيت إلى أن قُتلا في كمين على طريق ريفيّ في لويزيانا، على يد عدد قليل من رجال الشرطة الذين أطلقوا عليهما النار من بين الأشجار وأنهوا إجرامهما. كانا في العشرين من عمرهما فحسب.

فيما بعد، حين سرتُ أنا وأبي في بعد الظهر البخاري الحارق، في شهر حزيران، أعيننا تتألم، ورأسانا ثقيلان، اكتشفنا أن أحداً ما (ميكانيكيون من تريكسي) صفّوا شاحنة طويلة مسطحة أمام السينما، وعليها توضعت سيارة فورد قديمة رمادية لها أربعة أبواب من الثلاثينيات وفيها كلها ثقوب متوهجة، نوافذها مكسّرة، والأبواب وغطاء المحرك مثقّبة، والإطارات منفّسة. إلى جانب عجلة القيادة لافتة مدهونة مكتوب عليها: السيارة التي قُتل فيها بوني وكلايد الحقيقيان، ندفع عشرة آلاف دولار لكل من يثبت أنها ليست هي. وضع المالكون مجموعة من الدرجات الخشبية على السيارة، ودُعي زبائن السينما إلى دفع 50 سنتاً للصعود وتفتيشها، كما لو أن بوني

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وكلايد ما يزالان ميتين داخلها، ويجب أن يراهما الجميع.

وقف أبي على الاسمنت القاسي الحار، محدقاً بالسيارة والزبائن، الصغار منهم والكبار، الرجال والنساء، يصطفون عابرين، ومحدّقين، ويروون النكات ويصدرون الضجيج ويضحكون. لم ينْو الدفع. قال إن السيارة مزيّفة، وإلا لن تكون هناك أبداً. إن العالم لا يعمل بتلك الطريقة. فضلاً عن أنها مدهونة حديثاً، وثقوب الرصاص لا تبدو حقيقية. لقد رأى ثقوب رصاص في كثير من الطائرات، وكانت أكبر، وحوافّها أكثر خشونة. لا يعني أن هذا سيوقف أي شخص عن تبديد نقوده.

ولكن حين توقفنا على الرصيف ناظرين إلى السيارة لبضع لحظات، قال:"هل ستصبح سارق مصارف، يا ديل؟ سيكون هذا مثيراً. ألن يفاجئ هذا أمك؟" "لن أصبح"، قلتُ، ناظراً بتأمل إلى الثقوب المتوهجة وجميع أجلاف الريف يحدقون في نوافذ السيارة ويصرخون ويبتسمون.

قال:"هل أنت متأكد؟ أستطيع أن أجرب هذا. سأكون أذكى من هذين الاثنين، بأية حال. حين لا تستخدم رأسك تنتهي كقطعة من الجبنة السويسرية. ستعتبر أمك هذا خطأ بالطبع. فلا تقل لها هذا". شدّني وقرّبني منه. فاحت رائحة النشاء من قميصه في ضوء الشمس. ثم تابعنا سيرنا في فترة بعد الظهر.

لم أخبر أمي أبداً، ولم أفكر بالأمر إلى ذلك الوقت حين وقفتُ أنا وأختي في الرواق الأمامي وراقبنا والدينا يسوقان السيارة كي يسرقا مصرفاً. لم أجمع تلك الأمور مع بعضها عندئذ، رغم أنني فعلتُ ذلك فيما بعد. كان هذا شيئاً رغبَ دوماً بأن يقوم به. يريد بعض الأشخاص أن يكونوا مديري مصارف، فيما يريد آخرون السطو عليها.

14

ما أعرفه عن عملية السطو على المصرف مستمدّ من دفتر يوميات أمي، ومن أعداد جريدة غريت فولز تربيون، والتي قلتُ في السابق إنها تبنّت وجهة نظر بأن الأحداث حكاية كوميدية تحذيرية من واجب الجريدة أن تنشرها كي يطلع عليها الجمهور العام. لكنني ركّبتُ أيضاً عملية السطو في ذهني مسحوراً من أن والديَّ قاما بها، بطريقة سخيفة وغير قابلة للشرح جعلت الحقائق القابلة للنقل غير ملائمة كتفسير.

يفكّر كثيرون منا، على نحو قابل للتصور، بالسطو على مصرف بالطريقة نفسها التي نستلقي بها في سرير في الليل ونخطط لقتل عدونا طول الحياة؛ مؤالفين بين أجزاء معقدة لخطة، مكيّفين التفاصيل، عائدين إلى مصالحة حسابات أبكر مع احتمالات حصلت لاحقاً حيال احتمال القبض علينا. في النهاية، نجد أنفسنا في مواجهة المشكلة الوحيدة غير القابلة للمحو في المنطق

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وهي أن ذكاءنا لا يستطيع أن يعمل طول الطريق. بعد ذلك نستنتج أنه بالرغم من أنّ التفكير مُرْض بأننا نستطيع قتل عدوّنا في كمين (بما أن هذا يجب أن يتم)، فإنّ شخصاً مختلاً عقلياً أو انتحارياً سينفذ خطة كهذه فحسب. هذا لأنّ العالم مركّب ضدّ أفعال كهذه. وفي أية حال نحن هواة في عمل التخطيط والتآمر والقتل، ولا نمتلك التركيز المطلوب لهزيمة ما هو العالم مركّب ضدّه. عند هذه النقطة ننسى الخطة وننام. كي ينجحا، كان ينبغي على والديّ أن يُدركا أن سيارتهما سيتم التعرف عليها على الفور. أما بزّة القفز المظلي الزرقاء الخاصة بأبي فستُحدد كشيء ينتمي إلى القاعدة الجوية، حتى بدون شاراتها، والعلامة غير الممحية لرتبة النقيب السابقة ستُلاحظ بسهولة. وسيذكر أي شخص في مصرف في نورث داكوتا مظهر أبي الجيد ولكنته الجنوبية وسلوكه، وحقيقة أنه ذكر رغبته بالسطو على مصرف لعدد من الأشخاص في القاعدة في غريت فولز (بالرغم من أنه ذكر ذلك على سبيل المزاح). كان على والدينا أن يُدركا أيضاً، خلافاً لحدس أبي، أنّ الأشخاص الذين يسطون على المصارف لا يختلطون مع السكان، بل ينعزلون لأنهم صاروا شيئاً ما، أو شخصاً ما مختلفاً عما كانوا عليه وعن كل شخص آخر، حتى ولو لم يدركوا الأمر. وهكذا إن اكتشاف من سطا على مصرف بسرعة ليس صعباً على الإطلاق في ضوء كلّ هذه الأسباب. لم يخطر هذا النوع من التفكير في ذهن والديّ، اللذين انطلقا في السيارة في صباح الخميس بريئين بشكل كامل، وليسا عليهما سوى دَيْن تافه لمجموعة من الهنود غير المجدّين، وهذا شيء كان بوسعهما حلّه بنجاح بعدة طرق، ولكن من الأكيد أنه خطر لهما حالما بدآ يسوقان إلى المنزل في غريت فولز في اليوم التالي، بعد ارتكاب الجرم؛ وأية أفكار بالنجاة مما فعلاه كانت تصعد منهما إلى سماء الصيف المترامية.

(15)

ما فعلاه هو أنهما انطلقا بسرعة على الطريق السريع 200، عبر بلدتي لويستاون ووينيت، عابرين شبكة تصريف نهر موسيلشيل نحو جوردن، سيركل وسيدني، ثم نجْد الأعشاب الجافة والمحترقة من الصيف الذي في أوج حرارته، والذي يمتدّ من الجبال إلى مينيسوتا. كانا حيث لا يعرفان أحداً أو أي شيء، عدا ما اكتشفه والدي أثناء "رحلة عمله"، التي بدت على الأرجح كصفقة كبيرة في ذهنه، وساعدت في خلق إحساس بأنهما لامرئيان.

قاد السيارة دون توقف لمدة يومين، مجتازاً حدود نورث داكوتا، ووصل إلى بلدة كريكمور (كان عدد سكانها 600 آنذاك)، ومصرف نورث داكوتا الزراعي القومي. تناول الغداء في مقهى مقابل الشارع الرئيسي. لم يتحدث

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أحد معه أو بدا كأنه انتبه إلى بزّته الجويّة. (كان هناك قاعدة جوية في مينوت، ليست بعيدة جداً). دفعه هذا إلى الاعتقاد بأن الناس لن يتذكروه إذا دخل المصرف في هذا اللباس في الثانية التي يُفتح فيها، وأخرج مسدسه، وأخذ ما يوجد في أدراج أمناء الصناديق من نقود وأية نقود فالتة موجودة، دون أن يبذل جهداً في النزول إلى القبو، إلا إذا صادف ووجده مفتوحاً والنقود بارزة، ويستطيع سرقتها بسهولة، ويضعها كلها في حقيبته القماشية ويرحل. يستطيع في أقل من ثلاث دقائق أن يسوق نحو الغرب نحو حدود مونتانا، ثم يعود بسرعة إلى المكان الذي لن يُنتبه إليه فيه. ستكون أمي بانتظاره ولكنها لن تخرج من السيارة لأن شكلها قابل للتمييز. ستترك المحرك شغّالاً طول الوقت الذي يكون فيه في الداخل يقوم بالسطو، وستسوق به بعيداً. نعم، كانت خطة جسورة. ولكن أبي صدق أنها بسيطة بما يكفي كي تعمل، واستخدم رأسه كي يفكر بها. سيكون لصالحه أنه لم يدخل إلى المصرف من قبل، ذلك أن معظم سارقي المصارف يشعرون بالحاجة إلى "دراسة" المشهد، وبفعلهم لهذا يزرعون ذكريات لاواعية في ذهن أي شخص يشاهدهم لاحقاً، بالرغم من أن والدي لم يعتقد أن أي شخص سيشاهده فيما بعد. ذلك أنّ أيّ عدد قليل من الأشخاص سيكون في المصرف الزراعي القومي الصغير باكراً في تلك الساعة سيبهره المظهر المفاجئ لمسدسه ولن ينتبه إليه وإلى مظهره. هذا ما كان الهدف من المسدس: الإلهاء. يستطيع أن يخرج بخمسة أو ستة أو حتى عشرة آلاف دولار على الأقلّ. كان هذا ما خطّط له في ذهنه أيضاً.

تضمّن الجزء المعقّد من خطّته تجنّب الاكتشاف في اللحظة التي ينتهي

فيها السطو. فالأمكنة الواسعة المفتوحة ستكون حليفه الرئيسي. ولكن لتحسين تلك الفائدة، ساق يوم السبت السابق إلى بلدة ويبوكس في مونتانا، عبر الحدود وإلى الجنوب من كريكمور. وبصفته وكيل أراض، فقد قام بتحقيقات في مصرف ويبوكس وفي مكتب ضمان وفي بار عن المزارع المعروضة للبيع في المنطقة، وسأل إلى أين غادر المالكون سابقاً، وكيف يمكن أن يتصل بهم لصالح زبون في غريت فولز. كانت وجهة نظره أنّ المنطقة فيها الكثير من الأمكنة الفارغة التي لا ينتبه إليها أحد. لم يكن أحد هناك مرئياً، من خط الأفق إلى خط الأفق.

مسلّحاً بمعلومات من تجار البلدة وخريطة ساق إلى مواقع مزارع عديدة إلى أن عثر على واحدة من الواضح أنها غير مسكونة، حيث العربات والأجهزة مرئية ولكن لا يوجد أحد. ساق إلى فناء المزرعة، خرج من السيارة، وقرع الباب. حدق من النافذة كي يتأكد أن لا أحد في المنزل. نوى أن يشغّل إحدى شاحنات المزرعة دون مفتاح، ولكنه عثر على المفتاح في تلك التي اختارها ودارت. نظر كي يرى إن كان ثمة كوخ قابل للفتح، أو إن كان من السهل الدخول إلى المنزل، واكتشف أن الأمرين ممكنان.

كانت خطته أن يسوق هو وأمنا إلى المزرعة المعزولة في مساء الخميس، وأن يناما في السيارة أو في بناء خارجيّ، أو حتى في المنزل دون أن يشعلا أية أضواء، وأن يخبئا سيارة البيل إير في أحد الأبنية، ويركّبا على إحدى شاحنات المزرعة لوحات نورث داكوتا التي سرقها في كريكمور وحملها في حقيبة سلاح الجو مع مسدسه وقبعة (قناعه الوحيد)، وأن يقودا سيارة المزرعة هذه، وهي من نوع فورد، في الصباح التالي المسافة القصيرة عبر

https://telegram.me/maktabatbaghdad

حدود نورث داكوتا إلى كريكمور، وأن تصفّ أمي السيارة في الشارع أمام المصرف الزراعي حين يفتح، وأن يخرج أبي من الشاحنة، يدخل المصرف، يسطو عليه، يغادر ويعود إلى الشاحنة، وأن تسوق أمي عائدة عبر الحدود إلى مزرعة ويبوكس حيث تنتظر الشيفروليه، وأن يبدلا ملابسهما، ويتخلصا من المسدس والقبعة والحقيبة الزرقاء ولوحات نورث داكوتا، وكل شيء ما عدا النقود، في بركة المزرعة أو في جدول ما، أو في بئر، ويستقلا السيارة ويعودا إلى غريت فولز، كشخصين كانا في نزهة ورجعا إلى المنزل. وسأكون أنا وبيرنير بانتظارهما فيه.

شرح أبي خطته لأمي حين كانا يسوقان يوم الخميس، عبر لويستاون، نحو نورث داكوتا فرفضتها على الفور. لم تكن تعرف أي شيء عن السطو على المصارف؛ ولكنها كانت مستمعة دقيقة وذكية واعتقدت أن خطة أبي معقدة جداً وتحتوي على فرص كثيرة للفشل. لقد التزمت بسرقة المصرف لسبب ما، والتفسير الوحيد الحقيقي الموثوق لذلك هو الأبسط: إنّ الناس يسطون على المصارف. وإذا ما بدا هذا مخالفاً للمنطق، فهذا يعني أنكم ما تزالون تحكمون على الأحداث من وجهة نظر شخص ما لا يسطو على مصرف ولن يفعل ذلك أبداً لأنه يعرف أن هذا جنوني.

سألته أمي ماذا لو عاد مالكو المزرعة إليها ووجدوا الاثنين نائمين في السيارة أو المنزل؟ (كان لديه جواب على هذا: أنهما شعرا بالنعاس وقرّرا الابتعاد عن الطريق من أجل الأمان. لن يقاضيهما أحد. لن يكونا قد سرقا المصرف بعد. ويمكن أن يعودا إلى المنزل). ولكن ماذا لو تعطّلت الشاحنة الكبيرة في منتصف الطريق خارج كريكمور؟ (لم يكن لديه جواب على

هذا). وماذا لو كان هناك أحد ما ينتظر حين يعودان لأخذ الشيفروليه؟ (افترض أنه إذا كانت المزرعة فارغة حين اكتشفها، فإنها ستظل فارغة إلى أن تنتهي حاجته إليها، وكانت هذه عادة ذهنه).

قالت أمي إن خطته الكلية فيها كثير من الأجزاء غير المتماسكة، ونقاط ضعف كثيرة يمكن أن تؤدي إلى انهيارها، وإن الأبسط هو أفضل. وذكرتْ البنية المحكمة جداً للخطة التي وضعته في الوسط بين الهنود وديغباي. لم يكن حذراً بما يكفي، أو ذكياً بالرغم من أنه شاهد الكثير من أفلام العصابات في بودنك، ألاباما، إلا أنها لم تشاهد واحداً منها، ولم تعرف عن سيارة بوني وكلايد وما أخبرني إياه عن ميله إلى عمليات السطو المسلحة. ولكنها الآن منخرطة.

إن الخطة الأفضل ـ البسيطة جداً ـ هي تبديل لوحات سيارتهم الشيفروليه ووضع لوحات نورث داكوتا عليها، قيادتها إلى كريكمور في الساعة المبكرة التي اقترحها، صفّها خلف المصرف، وليس أمامه كي تصبح مرئية بشكل كامل؛ الدخول إلى المصرف، السطو عليه، الخروج والالتفاف حول البناء، أو حتى الدخول في الصندوق الخلفيّ، وبعد ذلك ستذهب كما جاءت سائقة السيارة. لا داعي للتهوّر. سيبدو كلّ شيء طبيعياً. استفادت هذه الخطة من عادة الناس في اكتشاف أن معظم الأشياء عادية طالما أنهم يرون أنفسهم غير منخرطين. سيشمل هذا جميع من في الشارع في التاسعة في صباح الجمعة في كريكمور، نورث داكوتا، البلدة التي لا يحدث فيها أي شيء إلا الأشياء العادية.

لا يقول دفتر يوميات أمي أي شيء عن حجج وضعها أبي ضدّ خطتها

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الأبسط. كانت رحلة طويلة جداً، أربعمائة ميل. توقفا لتناول الغداء، عبآ الوقود في وينيت، أمضيا كل تلك الساعات معاً في السيارة، الكثير من الوقت للتعبير عن وجهات نظرهما بشكل كامل. قالت أمي فقط إنها أخيراً "أقنعته" بأن الفكرة الأفضل هي أن يبقيا في بلدة غليندايف، مونتانا، مرئيين بشكل عادي ويمكثا ويتناولا العشاء، وأن ينهضا في صباح اليوم التالي، ويجتازا ستين ميلاً بالسيارة إلى كريكمور، وينفذا ما قررا فعله، ثم يقودا السيارة عائدين إليّ وإلى أختي في المنزل. قالت إنه يجب أن يرتدي قناعاً لكنه رفض لأنه لا أحد يعرفه في البلدة، ووجهه هو مسبقاً قناع. قناع أنيق.

لدى الإدراك المتأخر، كانت مفارقة قاسية أن خطة أمي هي التي نُفِّذتْ. فبالرغم من كل نقاطها التي من المحتمل أنها غير صالحة، فإن خطة أبي كان من المحتمل أن تعمل بشكل أفضل من خطتها. فقد أمضى بعض الوقت (ربما سنوات) في استنباطها والتفكير فيها، وبينما لم تؤد خطتها المطمئنة ذاتياً إلى اعتقالهما على الفور إلا أنها أدت إلى اعتقالهما لاحقاً. تم تذكّر سيارةِ البيل إير منذ الوقت الذي تناول فيه والدي الغداء في التاون داينر في كريكمور يوم الثلاثاء السابق. وتم التعرف عليها أيضاً بشكل مضاعف حين دخلا فيها إلى البلدة في صباح الجمعة، وصفّا خلف المصرف، ثم ساقا خارج البلدة بعد السطو. وقد تذكّر كلٌّ من موظّف الغرفة في موتيل غليندايف وشريف مقاطعة دوسون، الذي شاهد لوحات غريت فولز والملصق من متجر "بي إكس" على الزجاج الأمامي. كان هناك أيضاً لهجة أبي الممتعة، لهجة ديكسي، وأعراف عشاء الأحد الحميدة، وبزة القفز المظلي الخاصة بسلاح

الجوّ، ومسدسه الـ 45 الذي مُنح له بسبب خدمته، وقد لاحظ حارس المصرف حتى الثقوب الصغيرة المنسولة لكتفي بزة القفز المظلي. فقد خدم برتبة رقيب أوّل في سلاح الجوّ وخمّن على نحو صحيح أن سبب الثقوب وتغيّر لون النسيج هو نزع رتب النقيب. إن والديّ لم يفهما الحياة في بلدات السهوب الصغيرة، حيث ينتبه الجميع إلى كلّ شيء. كان من الممكن ألا يُربط بهما أي شيء من تلك المسائل الأخيرة على نحو مباشر، لأنهما كانا معنا في المنزل آنذاك، في غريت فولز، لو لم يتعرّف على سيارة الشيفروليه أشخاص لم يفكّر أحد أنهم سيلاحظون الأشياء أو يجمعون الأشياء مع أشياء أخرى لم يعرفوا حتى أنهم لاحظوها ولكنهم لاحظوها على نحو مدهش. وكما تبيّنَ، لم يكن أبي ذاك الذي يمكن تذكّره من قِبل أي شخص في كريكمور، إلى أن جاء وقت الشهادة ضدّه، فتبيّن أنهم يتذكّرونه على نحو جيّد جداً.

تساءلتُ دوماً ما الذي تحدّث عنه أبي وأمي في السيارة في الطريق وسط مونتانا، المسدس في الحقيبة، وهما يسرعان نحو مصيرهما فيما كنت أنا وأختي نتعقّب الأثر من مكان في الخلف ليس ببعيد. وقد افترضتُ دوماً أنه مختلف عما يمكن أن يظنّه المرء، كما تصبح كثير من الأشياء. في (ما ستسمّونه) خيالي، لم يتجادلا، ولم يغضبا أو يكرها أو يخافا، لم يحاول إقناعها بارتكاب السطو، (لم يضطر إلى ذلك)، لم تكرر الأسباب بأن السطو غير ضروري، فقد (حُلّ هذا من قبل). اعتقد أن النقود ستحسّن مسار الحياة، وتجعله يزدهر، وتبقينا معاً، وتساعدنا على الاستقرار في غريت فولز ونكون أسرة طبيعية، (قال هذا)، أو ربما استنتج كم هو فاشل، وكم أخلّ بالأمور، وتاق إلى إنجاز شيء مؤثر (أكثر من بيع المزارع أو السيارات أو سرقة الأبقار)،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

شيء إما سيحقق لنفسه ولنا وضعاً مستقلاً جيداً، وإما سيفجّر هذا الوضع إلى شظايا، وهكذا لا شيء سيكون كما كان من قبل. إن كلا الأمرين أو أحدهما يمكن أن يكون صحيحاً، مفترضين شخصيته الزئبقية الطائشة. ولكن من الواضح أنه كان بحاجة إلى أكثر من مبلغ الألفي دولار الذي يجب أن يدفعه للهنود، بما أنه كان يستطيع حلّ هذا الأمر دون أن يسطو على مصرف. كان هذا "الأكثر" ـ مهما كان ـ هدف عملية السطو.

كان الأمر مختلفاً بالطبع بالنسبة لأمّنا. فهي لم تكن مجازفة على نحو واضح وكان لديها فهم جيد. ورُبِّيَتْ كي تعرف الأمور، وتقدّر الفروقات الدقيقة، وتستطيع أن ترى مستقبلاً مختلفاً ما يزال قابلاً للتحقق حتى في الرابعة والثلاثين. ولكن لأنها وافقتْ على القيام بالأمر، على الذهاب معه، واستنباط خطتها الأبسط، والجلوس في السيارة، وقيادة السيارة بهما بعيداً حالما تمت عملية السطو، وقد كانت حتى في مزاج رائق في الليلة السابقة، يجب قبول أنها فعلت ذلك، إن لم يكن برغبة، فبمعرفة على الأقل، وثمة فكرة في رأسها حول كيف من المحتمل أن تكون الأشياء أفضل بالنسبة لها حالما تنتهي عملية السطو.

كانت سترى في أفضل حالات تفكيرها أن من الخطأ أن يتركا المنزل وممتلكاتهما حيث هي، ويسوقا في منتصف الليل. لم يكن هناك شيء خاص في غريت فولز الآن ولم يكن هو في سلاح الجوّ. كره كلاهما المراكمة ولم يملكا إلا القليل، سيارة الشيفروليه والولدين. لا بدّ أن دماغها لم يبحث إلى كل ذلك البعد، لأنه لو فعل، لكان اللايقين مانعاً.

إن تخميني هو ـ بعد مرور خمسين عاماً الآن ـ أنه بعد شعورها بالتحرر

والراحة الذي اكتشفته حديثاً، الذي جاءها على نحو غير متوقع فيما كان بيف يتجوّل في أراضي داكوتا الوعرة، محاولاً اختيار مصرف كي يسطو عليه، وصلتْ نيفا إلى الاستنتاج الخاطئ بشكل لافت بأن السطو على مصرف مجازفة ستُسهّل الأمور التي تريدها. كان خطأ في الحساب لا يختلف جداً عن الخطأ الذي دفعها إلى الزواج من بيف بارسونز في المقام الأول، متخليّة عن الحياة التي كان بوسعها الحصول عليها، كي تعيش ما يمكن أنه بدا حياة أكثر مغامرة وغير متوقعة، ولكنه لم يكن. فبنصف نقود عملية السطو سيكون عليها أن تعود إلى حياتها المحسوبة خطأ، التي صارت عاراً. ربما بدت عملية السطو أفضل من قيادة السيارة في الليل، والاستيقاظ في مدينة غبارية غريبة مثل تشيين، وايومي، أو أوماها ونبراسكا، يتبعها الشيء نفسه الذي اكتفت منه. كتبتْ في دفتر يومياتها أنه أثناء ذهابهما إلى كريكمور، ودون أن تعرف حتى كم سيسرقون من المال، غير أنها افترضت أنه سيكون كافياً، قالت لأبي إنه حالما ينتهيان من عملية السطو ستأخذ نصف النقود وتأخذني أنا وأختي وترحل. قالت إنه ضحك وقال: "حسناً، انتظري وانظري كيف تشعرين".

كان الحدّ الأقرب إلى نقطة اللاعودة هو الفاتن بالنسبة لي: فأثناء الرحلة، والثرثرة ومشاطرة الأسرار، وتبادل التربيتات التحبّبيّة، بما أن حياتهما كانت ما تزال سليمة رسمياً، لم يكونا مجرمين. كم تمتد الحالة السوية بشكل بعيد على نحو مدهش؛ كم تستطيع إبقاءها في مدى النظر كما لو أنك على معدّية تنزلق إلى البحر، نقطة اليابسة تصغر وتصغر، أو في منطاد رُفع على عمود من هواء السهوب، الأرض تتسع وتتسطح، تصبح أقل تمييزاً

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بالتدريج تحتك. تلاحظ ذلك، أو لا تلاحظه. ولكنك أصبحت بعيداً جداً، وضاع كل شيء. بالنسبة لأسباب خيارات والديّ الكارثية، أعتقد أنني لا أثق بالحياة السوية غير أنني متلهف إليها بشكل مساو في الوقت نفسه. من الصعب أن أحتفظ بفكرة الحياة السوية، وكذلك بالنهاية التي حصلت لهما في ذهني في وقت واحد. ولكن هذا يستحقُّ المحاولة، بما أنني أكرّر: بخلاف ذلك لا يمكن أن يُفهم إلا القليل جداً من هذه القصة.

إن آخر لمحة لهما، قبل أن يصبحا شيئاً آخر، قالت لي إنّ أبي وأمي ربما شعرا في الشيفروليه المتجهة إلى الشرق، وهما إلى جانب بعضهما، ومتحرران من طفليهما للمرة الأولى، ووحيدان معاً، بأثر أخير من الجاذبية القديمة من الليلة السابقة، استطاعا تعقبه إلى الخلف، كوالديْ أي شخص، وشعرا بأن أحدهما أكمل في الآخر شيئاً فريداً ومحبوباً وأساسياً بحيث لا يُعاش أو يجرب أبداً بشكل كامل إلا مرةً واحدة، في البداية. بالطبع، لو لم تحمل أمي، ولو لم يفعل أبي الشيء الصحيح، لمرّ كل شيء كجاذبية عابرة، يتساءل عنها المرء لاحقاً ويتصوّرها شيئاً ما كالحب، شيئاً ما كان حاضراً في كليهما ولكنه انتهى دون مشكلة.

(16)

استغرقت قيادة السيارة إلى غليندايف ست ساعات ونصف. حجزا في موتيل يلوستون. عبّر والدي لموظف الغرفة عن بهجته بينما حاول ألا يقول أي شيء قد يتم تذكّره. ترك أمي في السيارة حين حجز كي لا يشاهدها أحد وتترك انطباعاً. ناما في غرفة حارة تفوح منها رائحة الرطوبة، مبنية من ألواح خشبية ليفية وستائرها مسدلة. في السابعة، والجو ما يزال مظلماً، بالرغم من أنّ المدينة فارغة وطيور السنونو تحتشد وتحلّق منخفضةً نحو صورها المنعكسة في سطح نهر يلوستون الصقيل كالمرآة، ساق إلى البلدة، وتناول العشاء وحيداً في فندق جوردن، وطلب صحن لحم بقر ومعكرونة مغلّفاً كي يأخذه لزوجته، التي كانت مريضة في الغرفة.

ما من طريقة لمعرفة كيف أمضيا تلك الليلة معاً، الليلة الأخيرة قبل أن يصبحا مجرمين، بما أن أمي لا تروي هذا بالتفصيل. لا يوجد قالب لتلك

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الليلة. كانا وحيدين في غرفتهما القائظة، وتحدثا عن الموضوعات التي كانا بحاجة إلى التحدث عنها أو تخيلاها. إن البشر الأسوياء سيستيقظون في الثانية صباحاً، مرعوبين ومتعرقين، ويوقظون الشخص الذي إلى جانبهم، ويشعلون مصباح الطاولة ويصيحون: "كلا، انتظر! انتظر! ما هذا الشيء الذي نفعله؟ من الجيد أن نفكّر بهذه الأمور، أن نصل إلى خطة، وأن نقود إلى هنا ونتخيّل أن الأمر سيعمل، ولكن هذا جنون! يجب أن نرجع إلى المنزل، إلى ولدينا، ونفكر بهذا بطريقة أخرى". هذه هي الطريقة التي يفكر بها الناس العاقلون ويتحدثون ويتصرفون حين يحصلون على لحظة تأمل. ولكن هذا لم يكن ما فعله والدانا. فما كتبته أمي هو التالي: "لم أنم جيداً في الليلة الحارة في غليندايف". "رأيت أحلاماً سيئة، رأيت أنني في قارب، في سفينة، أعبر (لا بد أنه هذا) في قناة بنما، أو ربما في قناة السويس، عالقة، غير قادرة على أن أتقدم أو أتراجع. نام بيف بعمق، كما يفعل دائماً واستيقظ باكراً. ارتدى ثيابه وجلس على الكرسي، كان يفعل شيئاً في مسدسه، حين فتحت عيني ورأيته".

ما فعلاه بالتالي هو أنهما استيقظا في السابعة والنصف، وتركا الملابس مبعثرة في الغرفة، وتناولا الفطور، وعلقا لافتة "يُرجى عدم الإزعاج" على الباب، وساقا بعيداً عن الموتيل. كان من المفترض أن يشير هذا إلى أنهما سيبقيان، وينامان حتى وقت متأخر، ثم يذهبان إلى مكان ما حيث سيقضيان عملاً، مع توقع العودة.

انطلقا في السيارة شرقاً عبر بلدة ويبوكس الصغيرة، قرب المكان الذي صاغ فيه والدي خطته الأصلية - المزرعة الفارغة، الشاحنة التي سيستخدمها

ـ قبل أن يذعن لخطة أمي الأبسط. تجاوزا وييوكس، وعبرا حدود نورث داكوتا، حيث لم يكن هناك سوى لافتة معدنية صغيرة تعلن أنه تم الدخول إلى ولاية أخرى. وفي مكان ليس ببعيد وراء حدود الولاية انعطفا في طريق مزرعة ترابيّ، وساقا ميلاً إلى حقول الشعير حيث يوجد جدول يلتفّ عابراً أجمة من شجر حور قطني تجثم العقاعق على أغصانه. خرج أبي في ضوء الصباح الضبابي وغيّر لوحات السيارة، ثبت لوحات ولاية نورث داكوتا الخضراء والبيضاء (حديقة السلام) التي سرقها منذ ثلاثة أيام بدلاً من لوحات مونتانا المكتوب عليها بالأسود التي نوى تركيبها. ارتدى بذلته الزرقاء وحذاء التنس، الذي اعتقد أنه سيجعله غير مرئيّ، وطوى ثيابه الجيدة تحت بعض أغصان الشجر المتساقطة، مع بوطه. بقيتْ أمي في السيارة، بسبب خوفها من الثعابين. ثم ساقا عائدين إلى الطريق السريع، وانعطفا شرقاً وفي الحال دخلا إلى كريكمور، التي كانت أول بلدة بعد الحدود، وقد اختيرت لهذا السبب.

كان المصرف الزراعي القومي يقع قرب الجهة الغربية للشارع الرئيسي في مركز كريكمور. فوجئ أبي من كثرة الناس في الشارع في التاسعة إلا دقيقتين. كانت شاحنات المزرعة وآلات حصد القمح وشاحنات الحبوب تتحرك والناس في البلدة يتسوقون. كانت بلدة يستيقظ سكّانها باكراً. وبحسب خطتهما، لم يقد السيارة في الشارع الرئيسي، بل انعطف عند الزاوية الأولى حيث هناك شركة ضمان، اجتاز نصف شارع قصير إلى الزقاق الخلفي الذي يعرف أنه هناك، وهو زقاق كثير الأعشاب وحصوي يجري فيه إصلاح سيارات عند المنعطف، ولكن لا يوجد بناء خلف المصرف نفسه. ساق عبر

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الزقاق الحصويّ إلى حيث يستطيع أن يصفّ خلف المصرف، وحيث هناك سيارتان مصفوفتان، للموظّفين. لم يرد أن يستغرق الأمر وقتاً طويلاً. أراد أن يكون كلّ شيء غير قابل للملاحظة قدر الإمكان، لهذا قرّر ألا يتنكّر أو يرتدي قناعاً، الشيء الذي نصحتْ به أمي. حتى عندئذ لم يعتقد أنه يبدو كلصّ مصارف. كانت له ملامح واضحة عادية، وقصة شعره حديثة، وقد حلق ذقنه. لا شيء (إلا بزة القفز المظلي) جعله مختلفاً عن أي بالغ من نورث داكوتا بوجه واضح وملامح عادية.

كانت التاسعة وثلاث دقائق حين وصلا إلى خلف المصرف. خرج والدنا على الفور مرتدياً قبعة قماشية بنية، ومسدّسه المذخّر في جيب بزّته. لم يتحدثا. سار مباشرة في الزقاق الجانبي المظلل نصف المبلط الذي يفصل المصرف عن محل المجوهرات وبزغ على رصيف الشارع الرئيسي. كانت الشمس أكثر تألّقاً والسماء أشدّ زرقة وارتفاعاً مما توقّع. رأى بقعاً من الشمس، روى ذلك لأمي. وللحظة مخيفة لم يعرف في أي طريق من المفترض أن ينعطف. فضلاً عن ذلك، كان هناك نشاط أكبر بكثير في الشارع، أكثر مما كان منذ خمس دقائق. كتبت أمنا أنه استدار تقريباً وشرع بالعودة سائراً في الزقاق، الأمر الذي كان ما يزال بوسعه فعله. ولكن تحت ضغط اللحظة قرّر أن هذا النشاط سيشكل إلهاء حين يخرج من المصرف، الأمر الذي سيحدث ليس بعد أكثر من ثلاث دقائق، حاملاً حقيبة مليئة بالنقود، ولن يكون شكله بارزاً ويمكن أن يختفي من جديد في الزقاق دون أن يلاحظه أحد.

سار بضع خطوات على الرصيف الحار إلى باب المصرف النحاسي وذي الزجاج المعشّق المشطوف. خطرت له فكرة أنه كان يجب أن يرتدي نظارة

شمسية، كي تشكل قناعاً جيداً وتظلل عينيه. كان الجوّ بارداً في الداخل، مظللاً وهادئاً. في الخارج ضجيج وحرارة وصخب. صدمه كم كان المصرف صغيراً. ذلك أنه لم يدخلِ إليه من قبل كي لا يتذكره أحد. كان هناك زبونة واحدة تقف عند إحدى نوافذ أمناء الصندوق ذات القضبان النحاسية، تتحدث عبر القضبان، وهي امرأة صغيرة ونحيلة وشقراء. كانت تراقب أمين الصندوق وهو يحصي الأوراق النقدية كي يضعها في كيس قماشيّ والتي ستشكّل الصندوق الخاص بمتجر المجوهرات المجاور. فاحت رائحة نظافة، كرائحة منظّف البراسو، من المصرف، كما قال لأمي، أو كمثل جوف براد جديد.

عند هذه النقطة انتبِهَ إلى والدي، الذي شهر المسدس سائراً إلى نافذة أمين الصندوق المشغولة، فيما كان هناك اثنتان خاليتان. أعلن للغرفة أن المصرف يتعرض للسطو الآن من قِبله. أمر الزبونة التي من متجر المجوهرات وموظفي المصرف، وهما رجلان يرتديان بذلتين حدقا إليه بذهول من مقعدهما خلف السياج المعدني حيث كانت تتم أعمال المصرف، وكذلك حارس المصرف كبير السنّ الجالس إلى أحد مكاتب الموظفين، أن ينبطحوا جميعاً ووجوههم إلى الأسفل على الأرضية الرخامية وأن يمتثلوا لأوامره. إذا ضغط أحد جرس الإنذار، أو أصدر ضجة، أو حاول النهوض، أو فعل أي شيء مفاجئ أو غير متوقع، فإنه سيطلق الرصاص عليه، كما قال. (أنكر فيما بعد أنه قالَ هذا).

ربما كانت هذه اللحظة، لحظة الإعلان، وإشهار المسدس، والأوامر المتصنّعة - "لا تتحركوا وإلا سأُطلق النار" - هي التي جعلتْ والدي يستمتعُ

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بنفسه ويحقّقها بشكل أكثر صدقاً (منذ أن أسقط الكثير من القنابل على اليابان من السماء)، ويشعر بالابتهاج لأنه قام أخيراً بما أراد فعله منذ وقت طويل، شاعراً أنه يستحقّ الفرصة، بسبب الظروف التي سارت ضده بشكل غير عادل (الهنود والوظائف وسلاح الجوّ، وأمي)، وأن السطو المسلّح يشكّل حلاً مرضياً وتعويضاً، بما أنه لم يكن يسرق في الحقيقة من المواطنين بل من الحكومة، التي ضحى من أجلها بالكثير، وقتل الآلاف، وكان وطنياً، والتي تملك موارد بلا نهاية بحيث تضمن ألا يخسر أي شخص بريء بنساً واحداً، بينما يحلّ هو مشكلات عائلتنا كلّها في ضربة بارعة واحدة.

من غير المرجّح أن هذه البهجة استمرت طويلاً. بعين واحدة على موظفي المصرف والحارس، ودون أن ينتبه كثيراً إلى موظفة متجر المجوهرات، التي ركعت متألمة وتحركت خارج الطريق زاحفة كأفعى على الأرض الصلبة، وضع والدي حقيبته القماشية على الطاولة الرخاميّة تحت حاجز أمين الصندوق، وطلب من أمين الصندوق أن يفرغ أدراج النقود كلّها وأن يفعل ذلك بسرعة ودون كلام. عند تلك النقطة، وفيما كان أمين الصندوق يضع الحزم النقدية في الحقيبة، الكبيرة بما يكفي كي تتسع لكرة بولنغ، قام أحد الموظّفين، وهو نائب مدير يرتدي ثياباً مسرفة الأناقة ويدعى لاسي كلاوسن، والذي شهد فيما بعد ضد والدي في المحكمة، برفع رأسه عن الأرض ونظر إلى أبي وسأله: "من أين أنت يا بنيّ؟" (التقط لهجة ألاباما لدى أبي). "ينبغي ألا تفعل هذا. هذا هو الطريق الخطأ الذي يسلكه المرء". مما جعل موظفة متجر المجوهرات المنبطحة على أرض المصرف تقول: "لن تنجو بفعلتك. سيُطلق عليك أحد ما النار قبل أن تغادر البلدة. لستَ الوحيد

الذي يحمل مسدّساً في هذه الأنحاء".

قال والدنا لأمنا إنه حين سمع تلك الكلمات شعر بالإحباط و"بموجة كبيرة من الاستياء" من جميع الأشخاص الذين في المصرف. لقد أُغري بأن يُطلق النار عليهم واحداً واحداً، منهياً أية فرصة للقبض عليه، وأن يخدمهم جيداً كونهم أكثر سوء حظ منه. أخبرها أن سبب عدم فعله لذلك هو أنه لم يخطط لقتلهم. ففي أثناء الأعوام التي من المحتمل أنه فكر فيها بسرقة مصرف ـ مبتهجاً من الفكرة ـ لم يُقتل أحد في خطته. نوى أن يتقيد بتلك الخطة، والتي هي الخطة التي يعتمدها شخص ذكي. ولكنه كان قادراً على قتلهم، كما قال، بما أنه فعل أموراً أسوأ بكثير في حياته. ربما كان يتباهى بالحقيقة، بما أن قتلهم سيكون شيئاً مختلفاً سيقوم به شخصياً، وليس كمثل إلقاء القنابل من طائرة.

حين أُفرغتْ أدراج النقود في الحقيبة، وقفتْ أمينة الصندوق الشابة خلف النافذة ونظرت مباشرة إلى أبي. قالت فيما بعد إنها نظرت إليه كما لو أنها تعرفه. عرف هو أيضاً أنهم نظروا إليه جميعاً بشكل جيد، وأنهم لم يُصدموا من مسدسه أو حتى من السرقة. ذلك أن مصرفهم قد سُرق منذ وقت قصير، ولكن ليس من قبِله. كان قد دخل سيرورة القبض عليه. ربما كان مصدوماً أكثر منهم. قال فيما بعد لأمي إن هذه هي المرة الأولى التي خطرت له بشكل جدي فكرة القبض عليه. جعلته يرغب بأن يهجر عملية السطو مباشرة، إلا أن هذا لم يعد ممكناً. نظر إلى الساعة الكبيرة فوق غرفة المصرف الفولاذية المفتوحة، كانت التاسعة وتسع دقائق. كانت الغرفة النحاسية والفضية والفولاذية تقود بشكل مغر إلى الخلفية المغرية. كان هناك المزيد من آلاف

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الدولارات. ولكنه قرر أنه لا يستطيع حمل الكثير من النقود في حقيبته، بالإضافة إلى أنه لم يكن بحاجة إلى ذلك الكثير. أمضى في المصرف الزراعي القومي أربع دقائق. نظر الجميع إليه. سمع الجميع صوته الناعم ولهجته التي من ديكسي. سيراه الجميع في عين ذهنهم بقية حياتهم حين يروون أنهم كانوا في المصرف في اليوم الذي تعرض فيه للسطو. كان يعرف عن كلّ هذا. ربما أحبّه أيضاً. استطاع أن يشم رائحة عرقه، التي استطاعوا شمّها أيضاً. لم يتبق أمامه شيء يفعله سوى أخذ حقيبة النقود، التي كان فيها 2500 دولار، ويغادر دون أن يقول أية كلمة أخرى. وهذا ما فعله. كان هناك شعور مسبق بأن سرقة المصرف هي الشيء الخطأ الذي يُقام به.

(17)

جلست أمي في مقعد السائق بعد أن صفّ أبي خلف المصرف. دفعت المقعد كثيراً إلى الأمام كي تصل قدماها. كان المحرك دائراً حين جاء من الزقاق بحقيبته القماشية. جلس مباشرة في المقعد الخلفيّ، تمدد تحت شرشف وابتعدت ببطء كأنه لم يحدث شيء في المصرف يتعلق بسيارة شيفروليه بيضاء وحمراء (بيل إير) بلوحات من نورث داكوتا، تنطلق من البلدة نحو الغرب.

كتبت أنها حين وصلت إلى زاوية الشارع الرئيسي، مستعدة كي تنعطف إلى اليسار، لم تر أي شيء لم تتوقع رؤيته في الشارع القصير للمصرف. كانت امرأة تدخل لتوها، ولم يُسمع الإنذار، ولم يكن هناك شريف أو شرطة ولاية، أو أشخاص يركضون إلى الخارج ويصيحون "سطو!" واعتقدت أنهما سينجوان بفعلتهما. ستدخل في الحال إلى حياة جديدة لا تشمل والدنا أو غريت فولز، مونتانا. وبحسب الخطة، ساقت عائدة إلى حدود مونتانا، فيما

https://telegram.me/maktabatbaghdad

والدي يختبئ في الخلف، وإلى طريق المزرعة ذي المطبات الكثيرة عبر حقول الشعير، وإلى أشجار الحور القطني والجدول حيث توقفا قبل أقل من ساعة. خرج أبي في الغبار والحرارة، خلع بذلته وحذاء التنس، وبقي في ثيابه الداخلية، أدخل النقود (عرف أن هناك أقل مما خطط لسرقته) في الفراغ خلف المقعد الخلفي. وضع البذلة والحذاء ومسدسه والقبعة والشرشف ولوحات نورث داكوتا الخضراء والبيضاء في الحقيبة الزرقاء، مع عدد من الأحجار المغبرة، ورماها في الجدول. لم تغص الحقيبة، اندفعت في كومة من الزبد الأصفر واختفت. ولكنه اعتقد أن الأمر جيد كما لو أنها غرقت، بما أنه لن يشاهدها أحد. ثم ارتدى بنطلونه الجينز وقميصه الأبيض وبوطه، ثبّت لوحات مونتانا من جديد. وساقت أمي عائدة بهما إلى الطريق السريع، وانعطفت يساراً نحو الحدود، وتركا كل شيء خلفهما.

في غليندايف توقفا في موتيل يلوستون. دخل والدي إلى غرفتهما، جمع الملابس التي تركاها. سار إلى مكتب الموتيل، تحدث مع موظف الغرف، الذي لم يكن الموظف الذي استقبله في الليلة السابقة. حين دفع نقداً مزح قائلاً إن السماء مليئة الآن بالأقمار الصناعية وفي الحال سيعرف الجميع كل ما يعرفه الجميع، الأمر الذي أثار دهشة الموظف الذي قال لاحقاً إن هذا الكلام غريب ولا يُقال عادة. عاد أبي إلى الغرفة، حمل حقيبة أمي الصغيرة إلى الشيفروليه، حيث كانت تنتظر. جلس في مقعد السائق وقاد نحو غريت فولز. سار كل شيء وفقاً لخطة أمي البسيطة. وإذا كانا قد فكرّا على نحو عقلاني باحتمال القبض عليهما ـ ولا بدّ أنهما فعلا هذا ـ فإنّ هذا التفكير غادر ذهنيهما وهما يسوقان نحو المنزل، مما جعلهما مرتاحين وسعيدين، بينما كان يفكران ببيرنير وبي ونحن ننتظرهما، كي نبدأ جميعنا حياة جديدة.

(18)

فكّرتُ بثلاثة أمور، تتعلق بنتائج سطوهما المسلّح وبتحوّل والديْنا إلى مجرمين سيُزجُّ بهما في السجن في الحال. أحدها هو أنهما كانا مختلفين جداً عن بعضهما دوماً. سلّمتُ أنا وأختي بهذا مع مرور الأعوام التي كنا نكبر فيها. إن هذه الفروق الدقيقة في الشخصية والمظهر والهيئة والمزاج، والتي وصفتُها سابقاً، صنعتْ طَرَفَيْ نقيض لاستمرارية حياتنا أنا وبيرنير. كلانا مركّب من تلك الخصائص البشرية التي جعلتْنا مختلفين، بعضها مجسّد فيّ وبعضها الآخر في بيرنير، بالرغم من أن هذا لم يجعلنا متشابهين. كنتُ متفائلاً، ولكن بقدر ما كان والدي. وكنتُ حذراً، ولكن ليس متعنّتاً وشكاكاً بقدر أمي. أما بيرنير فقد بدتْ مثل أمي ولكنها كانت أطول، حتى في الخامسة عشرة، (172،72) سم. كان فيها جانب عذب، مثل أبينا، ولكنها أخفتْهُ وعموماً تصرّفتْ كما لو أنه غير موجود، كما فعلت أمنا.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كنتُ أنا وهي نتمتّع بالذكاء مثل أمنا ولكن بيرنير عملية، غير أن أمي وأبي لم يكونا هكذا. كانت أيضاً مزاجيّة وقابلة للهزيمة، مثلهما، وفي نقطة ما مالت إلى قبول الهزيمة والقدر، الأمر الذي لم أفعله أبداً.

ولكن حين عاد والدانا من عملية السطو على المصرف في نورث داكوتا، واجتمعنا كلنا مرة أخرى في المنزل، قبل أن يأتي محققو الشرطة، لاحظتُ أنا وأختي تقريباً على الفور كيف بدت أمنا وأبونا أقل اختلافاً عن بعضهما. كانا أكثر انسجاماً، وأقل استسلاماً للتبرّم والتشاحن، أو الخصومة والخلاف، وهذا شيء لم يحدث أبداً إلى أن غادرا وعادا بهذه الطريقة. قررت أن هذا الرباط الذي عُثر عليه من جديد تشكّل حتى قبل أن يغادرا، في تلك الليلة التي كانت معنوياتهما مرتفعة فيها، كما لو أنهما تذكرا جاذبية قديمة بزغت ثانية وجمعتهما، بحيث لم يعودا نقيضين بل مجرد شخصين تزوّجا مرة لأنهما أحبّا بعضهما بعضاً.

لا يعرف إلا الله ما الذي جرى في دماغيهما في الأيام التي تلت عملية السطو مباشرة. كانت النقود المسروقة في مكان ما من منزلنا. لا بدّ أنهما شعرا بالتميّز، وأنهما الآن في عالم معاد (بينما كانا قبل يوم غير مرئيين)، ولا بدّ أن الحياة السابقة التي ضاقا ذرعاً بها لأسباب خاصة، بدت على نحو محيّر وفجأة كأنها غير موجودة، فقد اندفعت المعدية بعيداً، وصعد المنطاد عالياً. انتهى الماضي على نحو قاس، وتعرض المستقبل للخطر. ربما كان هذا أيضاً ما جمعهما: وعي متبادل غير متوقّع بالعاقبة. لم يكن أيّ منهما مشبعاً بشكل غني بهذا. ربما كان خطأهما الكبير هو الافتقار لإدراك العاقبة. بالرغم من أن كلاً منهما لديه أسباب كي يعرف أن للأفعال نتائج.

لم أفكّر بالموضوع الثاني إلى أن قرأتُ دفتر يوميّات أمي، بعد عقود من انتحارها في السجن، حينها عرفتُ أن أبي كان يريدني، وليس هي، أن أكون شريكه. أردتُ أن أعرف عندئذ: هل كان سيشرح لي أنه يخطط للسطو على مصرف ويريدني أن أساعده؟ أية كلمات كان سيختار كي يطرح هذا الموضوع على فتى في الخامسة عشرة من عمره؟ هل كان سيدخل إلى غرفتي حيث كنت مستيقظاً صباح الخميس ويطلب أن يجري معي حديثاً خاصاً ويشرح الأمر عندئذ؟ هل كان سينتظر إلى أن نذهب في السيارة متجهين شرقاً عبر موسيلشيل كي يطرح عندئذ موضوعه الغريب؟ أم هل كان سيمتنع عن إخباري، ويستخدمني للتمويه فحسب، ويتركني جالساً في السيارة خلف المصرف، منتظراً عودته، دون أن أعرف أي شيء؟

وإذا أخبرني، ما الذي سيكونه جوابي؟ كلا؟ هل ستكون كلا ممكنة؟ (نظرياً ستكون). بالطبع، كنت سأقول نعم، أو على الأقل لن أقول أي شيء وأذهب معه. لم أكن متمرداً أو كثير الكلام كأختي. فقد أحببتُهُ وأردتُ أن أرى الأمور كما يراها. وإذا ما أصبحتُ شريكه، ما الذي كان سيتغيّر بيننا بعد ذلك؟ من المرجح أكثر، أن كلّ شيء سيتغيّر. هل كنت سأنضج في يوم واحد؟ هل كانت حياتي ستُدمَّر؟ هل سنكون كأخوين أكثر مما هو كأب وابن؟ هل سأكون مجرماً الآن بدلاً من أستاذ مدرسة؟ كل هذا ممكن.

مما يستدعي سؤالاً آخر: ما الذي كان سيحدث لو قُبض علينا نحن الاثنين، وسُجنّا؛ أو كمن لنا الشرطة كما كمنوا لبوني وكلايد، وقُتلنا وعُرضتْ صورنا؟ "رجل وابنه قاما بالسطو على مصرف. قُتل الاثنان". هذا خطّ في التفكير لم يُفكّر به، ومصير أنقذتني أمي منه.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ولو لم يُقبض عليهما هما الاثنان، هل كان سيتوقفان عن السطو على المصارف؟ كان هذا هو الشيء الثالث الذي تساءلتُ حوله. بالنسبة لأمي، هذا أكيد، لأنه كان لديها هدف للقيام بالأمر مرة واحدة، على الأقل كما ظننت: كي تترك حياتها غير المرضية خلفها. لو تحقق هذا الهدف، فما من شك أنها كانت ستبدأ حياتها الجديدة (مع بيرنير ومعي) في مكان آخر. كانت في الرابعة والثلاثين فحسب. ولم يكن من المستبعد التفكير بها كمعلّمة في كلية صغيرة في مكان ما، أقلّ اغتراباً، ربما غير متزوّجة، قابلة لحظّها، وقد تُرِك سطوها على المصرف بعيداً خلفها.

بالنسبة لأبي، لم يكن هذا مؤكداً. فقد كان يميل إلى السطو على المصارف، أو اعتقد أنه يمتلك الشهية لفعل ذلك. ولو نجحت عملية السطو، لجعلته طبيعته، كما سبق وقلتُ، يفكر بأنها ستنجح دوماً ويمكن على الأرجح أن تتحسّن، على الأقل مرة أخرى. واعتقد أيضاً على الدوام، بالرغم من أن البرهان أثبت أن هذا خطأ، أنه لم يبد كنوع الرجل الذي يسطو على مصرف. كان هذا، بالطبع، سوء فهمه الكبير.

(19)

حين وصلا إلى المنزل، كانت الساعة قد تجاوزت السابعة مساء الجمعة. كانا متعبين وذاهلين ولكنهما شعرا بالراحة لأنهما في المنزل. كنتُ في غاية السعادة وبدأت أخبرهما كيف أمضيتُ أنا وبيرنير اليومين، ما جرى، ما شاهدناه، وما فكّرنا به. قام الهنود بعدة رحلات عابرين منزلنا. رنّ الهاتف عدة مرات ولكننا لم نرفع السماعة. أكلنا أنا وبيرنير بقية المعكرونة والبيض المسلوق وأعددنا التوست. لعبنا الشطرنج، وشاهدنا فيلم "الذين لا يمكن مسّهم"، "إرني كوفاكس"، والأخبار. حصدتُ المرج وراقبتُ النحل يعمل في نبات الزينة قرب الكاراج. جلسْنا في أرجوحة الرواق في الليل وراقبْنا توهج السماء. سمعتُ ضجيجاً من معرض الولاية، ودون أن أذهب بعيداً عن المنزل، سمعتُ صوت المذيع في مكبّر الصوت في "عرض رعاة بقر الغرب المتوحش" وسباق عربة الطعام، والجمهور المبتهج، وآلة الكاليوب

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الموسيقية وصوت ضحك رجل مضخماً.

كان هناك أمور تشغل ذهني والديَّ وكانا منشغلين ببعضهما. بدا وكأنهما حريصان على ألا يستاء طرف من الآخر. استحمّت أمّنا، ثم دخلت إلى المطبخ وأعدت التوست الفرنسي وشرائح لحم الخنزير. كان والدي يحبّ طعام الفطور على العشاء، واعتقد أنه جيد للهضم. خرج إلى الشارع وقاد السيارة دائراً إلى الزقاق خلف المنزل، وهذا شيء لا يفعله في الغالب. بما أنه كان فخوراً بسيارة البيل الإير كما كان فخوراً بسيارات الإعلان التي جربها وفشل في بيعها. أقفلها أيضاً وأحضر المفتاح إلى الداخل بدلاً من تركه في المِشعل كالعادة.

حين جلسنا إلى مائدة العشاء، أعلن أبي أن انخراط المرء في صفقة العمل التي سافرا بعيداً كي يتحققا منها ما سيكون ضرباً من الجنون. قال بصوت عميق إن الأمر يتعلق بآبار نفط، ثم ابتسم وهزّ رأسه كما لو كانت فكرة مثيرة للشفقة. أشارت أمّنا إلى هذا، كما قال. كان من الحكمة أخذها. لديها ذهن تجاريّ ممتاز. قال إنه ينوي الآن أن يخصّص وقته كله لتعلّم لعبة بيع المزارع، فهي أمر مستمر وثابت وستأتي الفرصة في الحال وربما ساعدنا هذا على امتلاك أرض خاصة بنا. سنمكث في غريت فولز. ونستطيع أن وبيرنير أن نخطط للبدء بالذهاب إلى المدرسة بعد أسبوعين. قال إنه ينوي أن يقدم لبارغاميان عرضاً حيال منزلنا. إنه منزل "صانع محترف"، ولم تعد تُبنى منازل كهذه، كما قال. يحتاج إلى أن يُدهن بلون جديد وإلى ورق جدران جديد، وتمنى لو كان له رواق أماميّ وفيه موقد. فيه لمسات رشيقة أخرى: التصميم البيضويّ في سقف غرفة الجلوس إحداها. أعجبه تناسق

المنزل وخطوطه الصلبة. كان الضوء الخارجي يبدو جميلاً من خلال غرفة الجلوس ـ وكان هذا صحيحاً ـ وكان بارداً في الصيف. ذكّره بالمنزل الذي نشأ فيه في آلاباما الذي يُدعى "دوغ تروت". ولكن لم يعد هناك تفكير بالانتقال، مما أراحني، وربما لم يؤثر هذا ببيرنير، بما أنها قررت من قبل أن تهرب مع رودي باترسون وتترك كل حياتها السابقة خلفها.

لاحظتُ أن والدي لم يعد إلى المنزل الحقيبة الزرقاء التي أخذها معه في الصباح ولم يذكر أنه فقدها. كان عصبياً حيال الأشياء التي يملكها على الطريقة العسكرية. وحين فتحت ثانية درج جواربه كي أتفحص مسدسه، لم أره أيضاً. اعتقدتُ أن شيئاً ما حدث في رحلة العمل التي قام بها جعله لا يحضر معه مسدسه. لم أستطع تخيّل ماذا. لاحظتُ أيضاً أنه بعد أن تناولنا العشاء وأكّد لنا أننا سنبقى في غريت فولز، جلس في غرفة الجلوس، وما يزال ينتعل بوطه ويرتدي قميصه الأبيض وبنطاله الجينز، وأشعل التلفاز كي يشاهد "المسرح الصيفي"، وتحدث مع أمي عبر باب المطبخ، حيث كانت تجلي الصحون. قال لها إنه يشعر في الحقيقة أنه في الوطن في غريت فولز، ولكنه متأكد من أنه سيكون سعيداً في ألاباما، أيضاً. ثمة فائدة في كونه قرب أقربائه. فردت أنها ليست فكرة سيئة أبداً أن يبقى المرء قريباً من مكان ولادته، وقد عاش كثير من الناس حيواتهم كلها يحاربون تلك الفكرة. أضافت أنه محظوظ جداً لأنه يفكر بهذا وهو ما يزال يافعاً.

كان كل هذا كذبة، بالطبع: ما قالاه لنا، تصرفهما مع بعضهما، ما أرادانا أن نصدقه، وتزيينهما للمستقبل. كانا يزيّنان سطح الأفعال التي ارتكباها، ينشدان إكساءها، ومنح منظر جيّد لما كانا يأملان أنه سيكون النتيجة، لكن

https://telegram.me/maktabatbaghdad

لا يدرك المرء كلّ ما يتمنّاه. فقد كان والدانا يجريان أمام الكارثة، ولكنهما جاءا إلى مكان مألوف هادئ حيث كان كلّ شيء حيث تركاه، بما فيه بيرنير وأنا، ولم يتغيّر أيّ شيء، وفي ظل ظروف أخرى يمكن أن لا يتغيّر. ربما فكّرا أنهما يتقدمان إلى الأمام بطرقهما السابقة، وأنهما قادران على ذلك. كانت هناك المشاكل القديمة نفسها، ورغباتهما نفسها. لكن لم يخطر في بالهما أنّ هناك نتيجة كارثية يجب مواجهتها الآن، أن هناك أحداثاً متحركة قادمة لأخذهما والختم على حياتيهما بأنهما منتهيتان. استطاعا أن يفكرا ويتصرفا ويتحدثا بالطرق القديمة. وكلاهما قابل للصفح من أجل هذا، وقابل للحب أيضاً، لأنهما سُحرا وتذوّقا للمرة الأخيرة الحياة التي دمّراها.

(20)

استيقظتُ صباح السبت على صوت أمي تتحدث في الهاتف. كانت تصرّ على شيء ولوحّت لي بأن أبتعد حين سرتُ عبر الردهة إلى المرحاض، عابراً حيث كان الهاتف معلقاً في الحائط. لم يبد كأن والدي في المنزل. ولم تكن السيارة حيث وضعها في الخلف. حصل تغيّر في الطقس بين عشية وضحاها. كان المنزل الآن بارداً ويهب فيه النسيم، وكانا البابان الخلفي والأمامي مفتوحين. تستطيع أن ترى سحباً شاحبة عبر نافذة المطبخ تسرع من ناحية الغرب، وتحول الضوء إلى صفرة يشوبها اخضرار. انتفخت الستائر، وتمايلتْ أشجار الدردار في فنائنا وفي الحديقة التي في الطرف الآخر من الشارع كما لو أن المطر قادم. كانت كومة الثياب التي انتقيناها ما تزال في الرواق الخلفي تنتظر شاحنة القديس فنسنت دي بول. وفي الداخل، بدا المنزل جديداً وتقريباً هادئاً بالرغم من النسائم. بدا كصباح فيه

https://telegram.me/maktabatbaghdad

شيء مهم متوقع حدوثه بعد الظهر.

حين أنهت أمي كلامها قالت إنها ذاهبة إلى بقالية الإيطالي في سنترال حيث تشتري حاجياتنا. كانت بيرنير ما تزال نائمة. أضافت أمي أنني أستطيع أن أذهب إذا أردتُ، مما جعلني سعيداً. لم أمض ما يكفي من الوقت مع أمي، كما قدّرتُ. أمضت وقتاً أكثر مع بيرنير.

على أي حال، لم تقل أمي سوى القليل جداً أثناء سيرنا. في حانوت الإيطالي اشترتْ صحيفة التربيون، وهذا شيء لم أرها تفعله أبداً، بما أنها لم تبد أي اهتمام بما يجري في البلدة. في الطريق، حاولتُ أن أطرح بعض الموضوعات التي تهمّني. كانت دراجتي الهوائية قديمة واشتريت مستعملة في مسيسيبي ولم تعد تلائمني. كنت أفكر بدراجة من نوع رالي، دراجة إنكليزية، بإطارات نحيلة، وفرامل يدوي، وتروس مسننة وسلة خلف المقعد. أردت أن أحمل كتبي ورجال شطرنجي إلى المدرسة حين أبدأ. لم يُسمح لي بأن أركب الدراجة إلى المدرسة من قبل، ولكنني افترضتُ أنه سيُسمح لي الآن. ذكّرتُها أنني خططتُ لبناء خلية نحل في صندوق واحد في الفناء، وأتوقع أن أفعل هذا قبل الربيع، حين يصل النحل الذي كنت سأطلبه من جورجيا. سنجني فوائد من هذا، كتلقيح نباتات الخطميّ، والعسل الذي نستطيع أن نأكله كلّنا، فهو مفيد للحساسية، وهذا سيكون جيداً لبيرنير. فضلاً عن ذلك، سيكون تعليمياً، بما أن النحل منظّم جداً وهادف، وسأتمكن من تأليف تقارير مدرسية عما تعلّمتُه، كما فعلتُ عن عملية ولقاح البوليو، الذي تلقيته أنا وبيرنير. ذكّرتُها أن معرض الولاية ما يزال قائماً، وآمل أن أزور معرض النحل، وأن اليوم هو آخر يوم. أخبرتني أن

أبي سينظر في الأمر، وأنها مشغولة. وذكرتني أنها لا تحب المعارض، وأنها خطيرة، وأن الأشخاص الذين يعملون هناك مشهورون باختطاف الأطفال، فاعتقدتُ أنها تختلق ذلك. كانت الملابس في ذهنها، فبيرنير بحاجة إلى أثواب تحتانية جديدة، أما أنا فلم أكن أنمو بسرعة، ولكن بيرنير كانت تنمو بسرعة أكبر، الأمر الذي لاحظتُهُ وقالت أمي إنه طبيعي. استطعتُ أن أرتدي ثيابي التي من العام الماضي فصلاً آخر جديداً. ولم أشعر أنني أحصل على أي من نقاطي المهمة.

حين كنا أمام المنزل، فُتحت أبواب كنيسة اللوثريين وكان نشاط يحدث في الداخل. وتحت الأشجار التي تسوطها الريح، نظرت أمي عبر قوس الأغصان المتمايلة ولاحظت أن في الهواء أثر برد الآن (لم أشعر بهذا). كانت آسفة حيال هذا. سنرى بعض الثلج على القمم الغربية في الحال. وسيأتينا الخريف قبل أن نعرف ذلك.

حين رجعنا إلى الداخل، أعدّت أمي الشاي وسندويشة سجق وخرجت إلى الدرجات الأمامية في ضوء الشمس حيث تهبّ نسمات كثيرة وقرأت الصحيفة. كان مذياع السترومبيرغ ـ كارلسون الكبير شغّالاً في غرفة الجلوس، ولم يكن هذا معتاداً. كانت تبحث عن كلمة عن سرقتهما، تريد سماع إن كانت الأنباء قد وصلت إلى غريت فولز، بالرغم من أنني لم أعرف ذلك. فيما بعد نظرتُ في الصحيفة كي أرى ساعات إغلاق المعرض. لم ألاحظ أي شيء ولا أذكر أنه قد تم وصف عملية سطو. لا شيء من هذا القبيل قد حدث في حياتي بعد.

على أي حال، لاحظتُ أن الهنود قد توقفوا عن قيادة السيارة عابرين

https://telegram.me/maktabatbaghdad

منزلنا أو النظر بشكل كريه إلينا. توقف الهاتف عن الرنين. مرت سيارة شرطة سوداء وبيضاء مرتين أو ثلاث مرات في ذلك الصباح، وأعرف أن أمي شاهدتها. لم ألاحظ أي شيء خاطئ. الشيء الوحيد الذي كنتُ واعياً له هو إحساس ـ ولم يكن بوسعي وصفه ـ بحركة تحدث حولي. لم يكن أي شيء مرئياً على سطح الحياة، وكان سطح الحياة هو الذي أعرف عنه. ولكن الأطفال في العائلات ينتابهم هذا الإحساس بالحركة. ويمكن أن يشير إلى أنّ شخصاً ما يعتني بهم، وأن الأمور يُعتنى بها بشكل لامرئي، ومن غير المرجّح أن يحدث أيّ شيء سيء، أو يمكن أن يعني شيئاً آخر. إنه الإحساس الذي يعتريك إذا تربيت بشكل سليم، كما اعتقدت أنا وبيرنير أننا تربينا.

لم يعد والدنا ظهراً ولبست أمنا ثيابها وذهبت إلى مكان ما، الأمر الذي لم يحدث أبداً يوم السبت. ارتدت البذلة التي ترتديها أحياناً للمدرسة، وهي بذلة صوفية سميكة خضراء بمربعات قرنفلية كبيرة وشاحبة لن يرتديها أحد في الصيف. ارتدت جوارب وحذاء أسود بكعب عال قليلاً. لبست وتجولت في المنزل، عثرت على محفظتها، وبدت متصلّبة وغير مرتاحة. بدا كأن بذلتها تُصدر حفيفاً وحذاءها يصدر ضجة مرتفعة على الأرض. رفعت شعرها إلى الأعلى في مرآة الحمام، بحيث بدا اسفنجيّاً وجعل ملامحها تبدو صغيرة، مخفية تقريباً، وربما أرادت هذا. حين شاهدتْها بيرنير قالت: "لقد رأيته كله الآن"، وعادت إلى غرفتها وأغلقت الباب.

وقفتُ في غرفة الجلوس وسألتُ أمي إلى أين هي ذاهبة. كانت ما تزال تنتابني تلك الإحساسات بأشياء تتحرك حولي. وكانت فرصة تساقط المطر قد جاءت وذهبت، كما حدث عموماً. صار النهار رطباً ومتوهجاً وحارّاً

جداً. قالت لي أمي إن صديقتها ملدريد رملنغر ستأخذها بالسيارة، وهي ممرضة المدرسة حيث كانت تدرّس والتي تركب معها كل يوم حين تكون الصفوف قائمة، ولم ترها منذ أن بدأ الصيف. لم أقابل ملدريد أبداً، ولكنّ أمي قالت إن ملدريد تواجه مشكلات شخصية تحتاج إلى مناقشتها مع امرأة أخرى. لن تغيب طويلاً. أستطيع أنا وبيرنير أن نأكل بقية السجق إذا جعنا. وسوف تطبخ عشاء.

أخيراً جاءت سيارة ملدريد وتوقفت أمام الباب وأطلقت بوقها. خرجت أمي بسرعة، نازلة الدرجات، ودخلت السيارة، وهي فورد بنية بأربعة أبواب، انطلقت بعيداً. اعتقدت أن الأحاسيس القديمة التي كنت أشعر بها ولّدتها أمي.

بعد وهلة خرجت بيرنير من غرفتها وأكلنا السجق وبعض الجبنة. كان والدنا ما يزال غائباً. قالت بيرنير إننا يجب أن نأخذ بعض الجبنة إلى النهر في الأسفل ونطعم البط والإوزّ، وكان هذا شيئاً نفعله. كان لدينا القليل الذي نفعله إذا لم نكن في المدرسة أو في المنزل مع والدينا، نراقبهما ويراقباننا. إن كوني طفلاً في ظروف كهذه كان عموماً انتظاراً ـ لهم كي يفعلوا شيئاً ما، أو كي يكونوا أكثر شجاعة ـ الأمر الذي بدا بعيداً جداً.

لم يكن النهر يبعد كثيراً عن منزلنا، في الجهة المقابلة لحانوت الإيطالي. ارتدت بيرنير نظارتها الشمسية وقفازيها المخرمين الأبيضين كي تغطي يديها وثآليلها. على الطريق، أخبرتني أن رودي باترسون قال لها إن كاسترو سيصنع في الحال قنبلة نووية والشيء الأول الذي سيفعله هو تدمير فلوريدا. سيشعل هذا حرباً عالمية لن ينجو منها أحد منا، لكنني لم أصدق ذلك. قالت

https://telegram.me/maktabatbaghdad

إن رودي أخبرها أيضاً أن المورمون يرتدون ثياباً خاصة تحميهم من غير المورمون، ويُمنع عليهم خلعها. ثم أخبرتني أنها بدأت بالتسلق من نافذة غرفتها في الليل ومقابلة رودي، الذي كان يسرق سيارة أسرته. كانا يقودان السيارة إلى الحواف الصخرية قرب المطار البلدي ويصفان حيث يستطيعان رؤية أضواء البلدة ويصغيان إلى المحطات الإذاعية من شيكاغو وتكساس ويدخنان السجائر. هناك حدّثها رودي عن كاسترو وعن جديته في الهرب من غريت فولز. شعر بأنه أكبر من عمره، وقد نما شعر على صدره، ويمكن أن يُعدَّ في الثامنة عشرة. كان ما أردتُ معرفته هو الأشياء الأخرى التي فعلاها في السيارة. قالت بيرنير: "تبادلنا القبل فقط. لم يحدث شيء رذيل. لا أحب فمه كثيراً، وذلك الشارب الصغير. رائحته ليست جيدة. رائحته كالتراب". ثم أرتني كدمة أخفتها ياقتها المدوّرة. قالت: "لقد فعل هذا. ضربته بقسوة من أجل ذلك. ستتضايق أمي كثيراً من الأمر". عرفت ما كان هذا. "وشم لسان"، هذا ما دعاه فتى في المدرسة. كان لديه واحد في المكان نفسه تماماً كبيرنير. وقال إن التخلص منه مؤذ. لا أفهم لماذا يفعل المرء شيئاً كهذا. فحتى تلك النقطة في حياتي لم يشرح لي أحد عن الجنس، وكنت أعرف ما أسمعه فقط.

وقفنا لوهلة بين الأعشاب قرب النهر، حيث تُصرّ الجنادب ويطير الذباب عند حافة المياه اللامعة التي تُصدر هسيساً. كانت السيارات تخبط فوق جسر سنترال أفينيو غير البعيد جداً. كان منتصف النهار حاراً وهادئاً. وكان المصهر يترك دوماً طعماً مراً ومعدنياً في الجوّ، وتفوح من النهر رائحة المعدن، بالرغم من أنه بارد قرب السطح. وكان في الجهة الأخرى من

النهر البنايات الطويلة في غريت فولز، وطريق ميلوكي ومستودعات شركة السكك الحديدية الشمالية الكبيرة، وفندق رينبو، والمصرف القومي الأول، وشركة الأدوية في غريت فولز، وكانت كلها تبدو غريبة. حلّق نسر أبيض الرأس فوق رصيف النهر المنبسط نحو جزيرة سكوا ومدخنة أناكوندا، التي يبلغ طولها خمسمائة قدم والتي بدت لي مثيرة للإعجاب، ثم حطّ في شجرة في الجانب البعيد وصار صغيراً. صعدت الأسماك البيضاء من أجل كرات الجبنة الصفراء التي رميناها في التيار. وسبح البط البري قريباً ورفرف وتنازع عليها وهي تندفع إلى الخلف نحو الضفة والقصب. أمسكتُ جندباً دافئاً بين يديّ ووضعته على سطح الماء. دار في التيار محاولاً رفع جناحيه، والتحليق ثم اختفى. طيارة كبيرة للتزويد بالوقود تابعة لسلاح الجوّ ارتفعت نحو السماء من القاعدة. اتجهتْ جنوباً وغابت عن الأنظار قبل أن يصل إلينا صوتُها. أُحبُّ غريت فولز، ولكنها لم تكن أبداً بلدة تهمّني كثيراً. تخيّلت نفسي أستقلّ "الويسترن ستار" وأسافر بعيداً إلى الجامعة ـ الصليب المقدس أو ليهاي ـ كل شيء في حياتي بعد ذلك يكون على الطريق الصحيح.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

(21)

حين سرنا عائدين إلى المنزل، كانت الحرارة تضغط على رأسينا. أثارت ريحٌ رطبة وحارة تهب من الجنوب الغبار في سنترال أفينيو. إطارات السيارات العابرة تخبط، والأشجار مغبرّة وجافة الأوراق. لم يكن هناك أثر برودة في الجوّ.

كان اللوثريون في الداخل يعقدون زفافاً، والأبواب الأمامية والجانبية مفتوحة وثمة مروحتان فضيتان طويلتان متوضعتان كي تصنعا دورة للهواء. وقف رجلان يعتمران قبعتي رعاة بقر في فناء الكنيسة يرتديان قميصين بأكمام ويحملان سترتيهما ويدخّنان. سيارة بيك آب حمراء متسخة تصفّ وحيدة على رصيف الكنيسة. علب صفيح وآنية وبعض الأبواط القديمة معلّقة على ممتص الصدمات، ومكتوب على عجل على النوافذ الجانبية وبالأبيض: "تزوّجا لتوّهما ـ متوجهان إلى الفردوس"، و"فتاة مسكينة".

توقّفتُ أنا وبيرنير التي نظرت إلى الباب الأمامي المفتوح من خلال نظارتها الشمسية، كما لو أن عريساً وعروساً سيخرجان. لم ندخل أبداً إلى الكنيسة.

قالت بيرنير وقد بدا عليها القرف: "لماذا يتزوج المرء؟ تدفع لما تستطيع الحصول عليه مجاناً"، بصقت بحرص بين فردتي حذائها على عشب مرجنا الأمامي. لن أفكر أبداً بطرح ذلك السؤال، بالرغم من أنني اعتقدتُ أحياناً أن بيرنير تعرف ما أفكر به قبل أن أفكر به. كانت تنمو بسرعة أكثر مني. لم يعجبها أي شيء لا تفهمه.

قالت:"إن والديْ رودي غير متزوجين. تعيش أمه الحقيقية في سان فرانسيكسو، المكان الذي سيذهب إليه حين يهرب من هنا. أنا أفكر بالذهاب معه. إذا وشيتَ بي سأخنقك". أمسكتْ بذراعي وشدت أذنيّ بقسوة بحيث آلمتني، حتى بقفازيها الأبيضين. كانت أقوى مني بكثير. قالت: "أعني هذا. أنت أيها الغبيّ".

قالت أشياء من هذا القبيل لي سابقاً. دعتني غبياً، وضعيفاً، لم أحبّ هذا، ولكنني اعتقدت أنه يعني أنّ علاقتنا ما تزال وثيقة. جعلني هذا أشعر بأنني أحسن مما كنت عليه من قبل.

قلت:"لن أقول أيّ شيء".

قالت:"لن يصغي أحد على أي حال يا سيد شطرنج. هذا أنت". صعدت الدرجات إلى المنزل.

كان والدنا يجلس إلى طاولة غرفة الطعام يدهن بوطه الأسود بـ "كاتس بو". رأيته يفعل هذا لحذائه الخاص بسلاح الجوّ مائة مرة. كان صندوق

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أدوات التلميع مفتوحاً فوق صحيفة التربيون التي كانت تقرأها أمي. كان أيضاً يقصّ أظافره، والقطع الصغيرة التي كالهلال متناثرة على الصحيفة.

كان قد أخذ الخريطة الكروية عن خزانة ملابسي ووضعها أمامه. فاحت من الغرفة الرائحة الذكية للمادة الملمّعة. شغّل الراديو من أجل تقرير المزارع ليوم السبت. وكان يرتدي ثيابه المعتادة يوم السبت: الصندل المطاطي وشورت البرمودا وقميص هاواي الذي عليه أزهار حمراء ويظهر وشمه والذي هو ثعبان ملتفّ على ساعده. كانت الأحرف تشكّل اسم طائرة الميتشل التي كان يرمي القنابل منها، "أولد فايير". كان هناك وشم آخر على كتفه: جناحا سلاح الجوّ، والذي لم يكسبه كونه طياراً، الأمر الذي كان دوماً يشعر بالخيبة حياله.

ابتسم ابتسامة عريضة لي. بدا كئيباً ومركّزاً حين قام بها. لم يتصرف وكأنه يشعر بالتحسّن. لم يكن قد حلق ذقنه، ولكن عينيه كانتا تتوهّجان كما حين عاد من رحلة عمله الأولى.

واصلت بيرنير السير عبر الغرفة ولم تتوقّف. قالت: "أشعر بالحرارة. سأجلس في مغطس بارد، ثم أطعم أسماكي". لم يكن أحد قد شغّل مروحة العليّة، ولكنّ بيرنير فعلت ذلك حين دخلت إلى الردهة. بدأ الهواء يتحرك. سمعت بابها يُغلق.

قال أبي، مواصلاً العمل بالخرقة وبالمادة الملمّعة: "أريد أن أتحدث معك، اجلس هنا".

لم أكن معتاداً على أن أكون وحيداً معه، بالرغم من أنه من المفترض أن أمضي معه وقتاً أطول من الذي أمضيه مع أمي، إلا أنها تكون قريبة عادة.

كان يريد دوماً الانخراط في نقاش جدي حين يراني وحدي. وكانت عادة تتعلق بأنه يريدني أن أعرف أنه يحبّنا، وأنه يعمل دائماً من أجل رفاهنا، وأنه يحاول شخصياً أن يلعب دوراً في مستقبلنا الشخصي، الذي لم يكن محدداً حوله أبداً، مما جعلني أشعر دوماً بأنه لا يعرفني أنا وبيرنير جيداً، لأننا سلمنا بتلك الأمور جدلاً.

جلست إلى جانب ضجيج قطع القماش وفراشي الأسنان المسودّة وعلبة المادة الملمّعة الدائرية. أديرت الخريطة الكروية كي تظهر الولايات المتحدة. "أتمنّى لو أستطيع أن آخذك كي تزور معرض الولاية". حدق مباشرة بين عينيّ، وكأنه يقول شيئاً ما يعني شيئاً آخر، أو كما لو أنه قُبض عليّ وأنا أكذب، وكان يحاول أن يجعلني أفهم أهمية عدم الكذب. لم أكذب في ذلك الوقت.

"هذا آخر يوم من أيام المعرض"، قلت. كان الإعلان في الصحيفة التي ينظف عليها حذاءه. ربما رآه، ولهذا أثار الموضوع. "ما يزال بوسعنا الذهاب".

نظر من النافذة حين مرت سيارة، ثم نظر إلى الخريطة الكروية. قال: "أعرف ذلك. غير أنني لا أشعر بالرغبة بالحركة اليوم".

مرة في مسيسيبي ذهبنا إلى معرض ريفي متجوّل نصب خيامه في مكان غير بعيد عن منزلنا. ذهبتُ أنا وهو في إحدى الليالي. رميتُ كرات مطاطية على دمى قماشية لها ضفائر حمراء، ولكنني لم أقلب أيّاً منها، ثم أطلقتُ من بندقية مذخّرة بسدادات الفلّين وأصبتُ بعض البطات السابحة وربحت علبة من قطع الحلويات البيضاء. تركني والدي ودخل إلى خيمة من أجل

https://telegram.me/maktabatbaghdad

عرض لم أكن كبيراً بما يكفي كي أشاهده. وقفتُ في الخارج على نشارة الخشب، مصغياً إلى أصوات الناس وموسيقا الألعاب الدوارة وأصوات الضحك من "بيت المرح". كانت السماء صفراء من أضواء الكرنفال. حين خرج أبي مع حشد من رجال آخرين، قال إنه مرَّ في تجربة سيئة، ولكنه لم يضف أيّ شيء آخر. ركبنا سيارات الدودج الكهربائية معاً وأكلنا الحلوى، ثم ذهبنا إلى البيت. لم أذهب أبداً إلى معرض آخر ولم أكترث كثيراً بذلك المعرض. قال الفتيان في نادي الشطرنج إن معرض مونتانا يعرض الماشية والدواجن والزراعة ولا فائدة منه. ولكنني كنت ما أزال مهتماً بالنحل.

كان أبي يتنفّس من أنفه وهو يدهن بوطه الجلدي وتصدر عنه رائحة قوية، أقوى من المادة الملمّعة كاتس بو، رائحة حرّيفة اعتقدتُ أنها تتعلق بأنه لا يشعر بالراحة. جلس متكئاً إلى الخلف، وضع الخرقة جانباً وحكَّ وجهه بيديه كما لو أن في يديه ماء، ثم دفعهما في شعره إلى الخلف، مما أصدر المزيد من الرائحة. أغمض عينيه وفتحهما.

"حين كنتُ فتى صغيراً في ألاباما، كان لدي صديق في أسفل الشارع الذي كنا نسكن فيه. وقام أحد جيراننا، وهو طبيب عجوز، ومكتبه في منزله، بدعوة صديقي في أحد الأيام. ارتكب هذا الطبيب العجوز حماقة مع صديقي لم تكن جيدة." ركزّت عينا أبي اللامعتان والداكنتان على صفيحة المادة الملمّعة، ثم ارتفعتا إليّ دراميّاً.

"أتفهم ما أعنيه؟"

"نعم، يا سيدي"، قلتُ، بالرغم من أنني لم أفهم.

"إن صديقي، الذي كان اسمه بدي إنكستر، جعله يرحل بالطبع. ذهب

مباشرة إلى المنزل وأخبر أمه. وهل تعرف ماذا قالت أمه؟" وجّه أبي عينيه نحوي، وحرّك رأسه مستفسراً.

"كلا، يا سيدي".

قالت:" قلْ لذلك العجوز أن يوقف ذلك الشيء يا بَدي!"

بدأت أختي بفتح مياه الحمام، وبالرغم من أن المروحة تعمل فقد شعرتُ بالحرارة وأنا في ثيابي، وبدأتُ بالتعرق تحت ياقة قميصي. انغلق باب الحمام ثم أُقفل.

"هل تعرف ما الذي كانت تعنيه أمه؟" التقط أبي غطاء علبة المادة الملمّعة وأعادها إلى مكانها ضاغطاً عليها بإصبعيه. أصدرت طقطقة ناعمة. "الآن، بالطبع، إذا حدث هذا، سيُسجن الطبيب العجوز وسيطارده الناس بالمذاري والمشاعل. أنت تعرف؟" لم أعرف. أطلقتْ سيارة بوقها في الشارع، ازدادت سرعة محرّكها، ثم زأرت مبتعدة. لم يبد كأنّ أبي سمعها. "حسناً، كانت تقول إنّ إنكستر يجب أن يتعلّم أن يعيش مع الأمور ويقوم بعمله. هل تفهم هذا؟"

"أعتقد ذلك". هذا ما ظننته.

قال أبي:"يمكن أن تحدث لك أمور سيئة، ولكنك تواجهها". كان يحاول أن يجعل قصته تؤثر فيّ. بدا كأنه يقول إنه يمكن أن تفوتك أجزاء مهمة مما يفعله الناس أو يقولونه، ولكن يجب عليك أن تعتمد على نفسك كي تفهمها. وفي الحقيقة، ما اعتقدت أنه كان يقوله لي ـ دون أن يستخدم تلك الكلمات تماماً ـ هو ربما أن شيئاً سيئاً يقترب مني، ويجب أن أواجهه بطريقتي. أرادني أن أكون مسؤولاً عن بيرنير أيضاً. لهذا قال لي وليس لها،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وأثبت فقط أنه لا يعرف بيرنير مثلما لا يعرفني.

"هل تفكّر أنت وأختك بما يجب أن تفعلاه بحياتكما؟" بدت عيناه جافتين ومتعبتين. كانت رؤوس أصابعه ملوثة بالمادة الملمّعة. كان يمسح إصبعاً إصبعاً على خرقته الناعمة. بدا كأنه يخاطبني من مسافة الآن.

"نعم، سيدي"، قلت.

قال: "وهكذا ما رأيك؟ بالمستقبل".

"أريد أن أصبح محامياً"، قلت، دون سبب عدا أن ولداً في نادي الشطرنج قال إن والده محام.

"أتمنى لو أنك تستطيع أن تسرع، إذاً"، قال وفحص أظافره بعد أن نظفها. كان السواد ما يزال تحت حوافّها. "يجب أن تعثر على طرق لجعل كل شيء له معنى". ابتسم ابتسامة خفيفة. "رتّب أولوياتك، بعض الأشياء أكثر أهمية من الأخرى. ربما لا يكون هذا ما تتوقّعه". أدار تحديقته خارج النافذة الأمامية إلى "ساوث ويست فيرست". كان اللوثريون يختلطون تحت الأشجار في الحديقة التي مقابل الكنيسة. كان الزفاف يُختتم والضيوف يهوّون وجوههم بقبعاتهم وبمراوح ورقية، ويضحكون. كانت أمي تخرج من سيارة ملدريد رملنغر الفورد على الرصيف. بدت صغيرة وغير سعيدة في بذلتها الصوفية الخضراء والقرنفلية التي عليها مربعات نقوش. لم تقل أي شيء في السيارة، أغلقت بابها وبدأت السير نحو الرواق الأمامي فقط. انطلقت سيارة ملدريد بعيداً. قال أبي: "جاءت المشكلات". توقعت أن يطلب مني ألا أحدثها عن نقاشنا، فقد كان يقول هذا دوماً، كما لو أن بيننا أسراراً مهمة، ولكنني لم أعتقد ذلك. غير أنه لم يطلب مني ذلك، مما جعلني

أفهم أن كليهما اتفق على هذه المحادثة، بالرغم من أنني لم أفهم الهدف منها: القبض عليهما، وما سنفعله أنا وبيرنير بعد ذلك.

ابتسم والدي لي ابتسامته التآمرية ونهض عن الطاولة. قال: "سوف تخمّن كل شيء. سترى. إنها ذكية جداً، أذكى مني بكثير". ذهب كي يفتح لها الباب. انتهت محادثتنا هنا. لم نتبادل محادثة مثلها.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

(22)

تسمعون قصصاً عن أشخاص ارتكبوا جرائم سيئة وفجأة يقررون الاعتراف بها كلّها، وتسليم أنفسهم للسلطات، ويريحون ضميرهم من العبء والأذى والعار وكراهية الذات. يعترفون بالحقيقة قبل الذهاب إلى السجن، كما لو أن الذنب هو أسوأ شيء في الوجود بالنسبة لهم.

أودّ أن أقول الآن إن الذنب أقل تعلقاً بالأمر مما يمكن أن تظنّوا. إن المشكلة التي لا تُطاق هي أن كل شيء يتشوّش فجأة: الممر الواضح إلى الماضي يظلم وينسدّ؛ وشعور المرء يتغيّر بشكل كامل عما كان عليه في الماضي، والزمن نفسه يتغيّر، فساعات النهار والليل تتقدم بشكل غريب، سريعة في البداية، ثم لا تكاد تعبر، يظلم المستقبل ويصبح عصيّاً على الاختراق كالماضي تماماً. ويُشلّ الشخص في هذا الموقف ويعلق في حاضر طويل مستمر لا يُحتمل.

من الذي لا يرغب بالتحرر من هذا، إذا استطاع؟ من الذي لا يرغب

يجعل الحاضر يفسح المجال لأي مستقبل تقريباً؟ من الذي لن يعترف بأي شيء كي يحظى بالتحرر من الحاضر المريع فحسب؟ سأرغب بذلك. إن القديس هو الوحيد لن يرغب.

XXX

عبرت سيارة شرطة بيضاء وسوداء أخرى منزلنا عدة مرات يوم السبت. بدا السائق الذي يرتدي بذلة كأنه يركز انتباهه على منزلنا. ذهب والدنا إلى النافذة الأمامية عدة مرات ونظر إلى الخارج. "حسناً. أراك"، قال أكثر من مرة. كان هو وأمي منسجمين ويتحدثان مع بعضهما في اليوم السابق. أما الآن فقد عادا إلى الطريقة التي أعرفها. بدا والدي وكأنه ليس لديه ما يكفي كي يفعله. هي، من الناحية الأخرى، كانت مصمّمة. لم يتم التحدث عن أمور كثيرة. حاولتُ أن أجعل بيرنير تهتم بـ "مفهوم التموضع"، و"التضحية الهجومية"، الذي كنت أقرأ عنه وشرحته لها في السرير، مستخدماً لوح الشطرنج القابل للطوي. قالت إنها لا تشعر بالراحة ولم أفهم لأن هذا كان عن الحياة وليس لعبة.

منذ أن جاءت أمنا من زيارة الآنسة رملنغر، صارت مشغولة ثانية في المنزل. غسلت حملاً من الملابس في حوض الغسالة ونشرتها على حبل الغسيل في الفناء الخلفي وهي تقف على صندوق خشبي كي تصل إلى كيس ملاقط الغسيل. نظفت حوض الحمام ـ الذي كانت بيرنير تتركه دوماً متّسخاً ـ وكنست الرواق الأمامي حيث قامت الريح بنثر الغبار في الشقوق. جلتْ الصحون التي تُركت في المغسلة الليلة الماضية. خرج والدنا

https://telegram.me/maktabatbaghdad

إلى الفناء وجلس على أحد كراسي المرج ونظر إلى سماء بعد الظهر ومارس تمارين العينين التي تعلّمها في سلاح الجوّ. دخل إلى المنزل بعد برهة وأخرج طاولة الورق من خزانة الصالة ونصبها في غرفة الجلوس وأحضر لعبة قطع اللغز وجلس فارشاً القطع على الطاولة. كان يحبُّ الألغاز واعتقد أنها تتطلب ذكاء خاصاً. ركّب عدداً من اللوحات مع مرور الأعوام، والتي كان يعرضها لوقت قصير، ثم يضعها في الخزانة نفسها ولا ينظر إليها أبداً.

سحب كرسياً من غرفة الطعام لأي شخص يريد أن يشارك في اللغز، وبدأ يفرش القطع ويقلبها، ويدرسها ويركب الواضحة معاً كجزر صغيرة. سأل بيرنير إن كانت تريد المشاركة، لأن هذا سيجعلها تشعر بالتحسّن. ولكنها قالت كلا. كان اللغز يشكّل لوحة لشلالات نياغارا رسمها فريدريك ي. تشيرش، وهي تظهر المياه الخضراء العظيمة المندفعة وهي تذوب فوق صخور حمراء وتتحول إلى بيضاء وصفراء حين تسقط في الهوة البيضاء المفتوحة. ركّبناها مرات كثيرة، وذكرتني بشكل طبيعي بصورة أمي لوالديها ولها، والتي كانوا فيها في قارب تحت الشلال. كانت المفضلة لوالدنا لأنها دراميّة. وتجسّد مدرسة نهر الهدسون في الرسم، كما تقول العلبة، ولم يكن لهذا معنى بالنسبة لي لأن العلبة كتب عليها أيضاً أنه كان نهر نياغارا، وليس الهدسون. تساءلت دوماً إن كانت هناك صيغة لتركيب القطع بحيث تستطيع أن تركبها في ساعة أو أقل. إن معرفة الصورة في كل مرة والبحث عن القطع المناسبة بدت كأنها الطريقة الأصعب للقيام بالأمر. فضلاً عن ذلك، لم أعرف لماذا سيرغب المرء في تركيبها أكثر من مرة. لم تكن كالشطرنج، الذي يمكن أن يبدو نفسه في كل مرة تلعبه، ولكن عدد الحركات المختلفة التي تستطيع أن

تقوم بها لانهائي.

وقفتُ برهة إلى جانب أبي وأشرتُ إلى قطع سماء أرجوانية وزرقاء والأجزاء التي كانت النهر بوضوح. سألتْ بيرنير أمنا إذا كان تستطيع مغادرة المنزل والذهاب في نزهة، لأن المروحة تزعج جيوبها الأنفية، ولكن الاثنين قالا إنها لا تستطيع.

أمضت أمنا مدة طويلة من الوقت ثانية على الهاتف في الصالة، وكان هذا شيئاً تظاهر أبي بأنه لم ينتبه إليه، ثم أخذت الهاتف ذي السلك الطويل إلى غرفة نومها وأغلقت الباب. استطعت تمييز صوتها رغم ضجيج المروحة. "كلا، لا نفعل هذا في أية ظروف عادية، ولكن..."، سمعتُها تقول. و:..."لا سبب للتفكير أن هذا سيستمر إلى الأبد..." كان شيئاً آخر. إن قطع الحديث التي تبادلتها مع شخص لا أعرفه جعلت والدي، الجالس في غرفة الجلوس وهو يركّب لوحة شلالات نياغارا، يبدو غريباً بالنسبة لي، كما لو أنّ أمنا أمه أيضاً، ويجب أن تعتني به كما تعتني بنا.

ذهبتُ إلى غرفتي بعد وهلة واستلقيتُ على سريري. جاءت بيرنير وأغلقت الباب وقالت إن والدينا، من وجهة نظرها، مجنونان. قالت إنه بعد أن أنهتْ أمي محادثتها الهاتفية جاءت إلى المطبخ، وأنها هي، بيرنير، ذهبت وألقت نظرة على غرفتهما كما لو أنها تستطيع أن تتبيّن مع من كانت أمنا تتحدث. كانت حقيبة أمنا مفتوحة على سريرها المزدوج، وقطع ثيابها فيها. خرجت وسألت لماذا الحقيبة هناك فقالت أمنا إننا سنقوم برحلة في الحال. لم تقل إلى أين. سألتْ بيرنير إن كان أبي سيذهب، فقالت أمي إنه يستطيع إذا كان يريد ذلك، ولكنه على الأرجح لن يفعل. قالت بيرنير إن هذه المحادثة سببت لها

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الغثيان وأرادت أن تتقيأ ـ بالرغم من أنها لم تفعل ـ وبعد برهة جعلتها ترغب بالهرب من المنزل والزواج من رودي باترسون على الفور. اعتقدت بأنني لن أُدعى كي أذهب معهما في تلك الرحلة.

في الرابعة دخلت أمي إلى غرفة نومها كي تأخذ قيلولة. حين أُغلق بابها، جاء والدي إلى غرفتي ونظر إلى الداخل، ثم ذهب إلى باب بيرنير. تساءل إن كنا نريد أن نذهب بالسيارة إلى أراضي المعرض، بما أنه قرأ أن الدخول هو بنصف السعر في بعد الظهر الأخير وستكون هناك ألعاب نارية في الليل. قال لا يوجد سبب يمنعنا من الذهاب. ابتسم بطريقة اعتقدتُ أنها خبيثة ومؤذية وولّدتْ الانطباع بأنه يخدع أمي.

أنا، بالطبع، رغبت كثيراً بالذهاب. فهناك أمور معقدة ومهمة يجب أن يتعلّمها المرء. سيشرح الخبراء أين تعيش ملكة النحل في خلية أطرافها زجاجية وكيفية التعامل مع أواني الدخان بحيث لا يقرصك النحل ويهلكك، الأمر الذي ذكره والدي وأقلقني.

قالت بيرنير إنها لا تريد الذهاب. وهي مستلقية في سريرها، قالت إن الناس في المدرسة ذكروا أن الهنود الذين تفوح منهم رائحة كريهة يذهبون في اليوم الأخير لأنهم مفلسون وثملون دوماً. كانت قد رأت ما يكفي من الهنود بعد أن شاهدت السيارات التي يركبونها والتي مرت قرب منزلنا طيلة الأسبوع بينما هما لم يزعجا نفسيهما بالبقاء.

ارتدى والدي بوط رعاة البقر الملمّع وبنطلون جينز ضيّقاً يلبسه إلى مكتب بيع الأراضي، بالرغم من أنه لم يحلق أو يمشط شعره كما اعتاد أن يفعل. كان يبتسم، ولكنه بدا غريباً مرة أخرى، كما لو أن ملامح وجهه لم

تكن مثبتة على عظامه بشكل صحيح. واقفاً في مدخل غرفة بيرنير قال لها إنه يأسف لقدوم الهنود، ولكن تمت تهدئتهم الآن. قال إن عمه كليو دعاه مرة كي يذهب معه في السيارة إلى برمنغهام، ولكن كانت له حبيبة صغيرة اسمها باتسي في ذلك الوقت، فقال للعم كليو إنه لا يستطيع الذهاب لأن لديه فرصة لرؤية باتسي. في الشهر التالي قُتل العم كليو عند معبر قطار لأن البوابة لم تعمل، ولم ير العم كليو ثانية وندم كثيراً لأنه لم يذهب معه.

"لا أرى أن هذا خطأك"، قالت بيرنير من سريرها، حيث كانت تبرد أظافرها. "ربما كان يجب أن يكون العم كليو أكثر حذراً". كانت تحب أن تشاحنه وتشعر بالتفوق.

قال والدنا:"لا شك في هذا. فكرت لتوي لو كنت أستطيع الذهاب إلى برمنغهام مع العم كليو في أي وقت مضى. ولكن تبين أنني لم أستطع".

قالت بيرنير شيئاً لم أتمكّن من سماعه بسبب المروحة. اعتقدتُ أنها قالت:"وهكذا هل ستُقْتل إذا لم أذهب معك؟"

قال والدي:"آمل لا. في الحقيقة آمل ألا يحدث هذا". كان لبيرنير فم ثرثار، وقد سبق وذكرتُ هذا. كانت كلمة والدي لها هي أنها "متغطرسة".

قالت:"هذا ابتزاز. لا أريد أن يتم ابتزازي".

قال والدي:"ربما أنا لا أقول هذا مباشرة".

ثم قالت بيرنير شيئاً ما لم أستطع سماعه. ولكنني عرفت أنها لانت من النبرة الشاكية في صوتها. سمعتُ ألواح الخشب تصرّ في غرفتها. لم تستطع مقاومته حين ركّز عليها. كانت أمي تستطيع ذلك فحسب. أحببناهما كليهما، لما كان يهمنا. يجب ألا يضيع هذا أثناء رواية القصة. لقد أحببناهما دوماً.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

(23)

سقنا صاعدين في الشارع الثالث، على طول النهر عابرين المكان الذي كنا نذهب إليه أنا وبيرنير كي نطعم البط. اضطرب الجوّ من جديد وهبّت ريح، محركة الروائح في الأرجاء. وانزلقت سحب مسطحة قاعها أرجوانيّ من الجنوب. ورقصت الأمواج الصغيرة الزبديّة على سطح النهر وحلّقت النوارس في النسيم الرطب. ستحدث عاصفة رعدية. كانت تحاول طيلة النهار. الخريف يبدأ، أمّنا محقّة.

لم أفكر بالشروح العلمية بل بالخيمة التي تعرض فيها شرطة الولاية أسلحتها للمواطنين وأنا جالس في االمقعد الخلفيّ. تحدّث بعض أعضاء نادي الشطرنج عن البازوكا وصندوق القنابل اليدوية والمدفع الرشاش تومسون المعروضين هناك. كان هناك تساؤل حول ضدّ من سيستخدم رجال الشرطة هذه الأسلحة. تمحور التفكير حول الهنود، الذين كانوا يُعدّون عنصراً

إجرامياً، والشيوعيين، الذين كانوا يتآمرون ضد أميركا. نظرتُ مرة ثالثة في درج أبي الخاص بجواربه كي أرى إن كان المسدس موجوداً. لم يكن هناك. تخيّلتُ أنه أطلق النار على شخص ما (ربما على الرجل "الفأر") وتخلص من المسدس رامياً إياه في النهر.

كانت بيرنير تجلس في المقعد الأمامي وتصرّفتْ كأنها كئيبة من المجيء معنا، الأمر الذي لم أقدّره. كان هناك سيارات قرب مدخل المعرض. نظر والدنا مرتين في المرآة التي تكشف الخلفية وقال: "حسناً، من ذاك الذي يتبعنا على مسافة قريبة يا ديل؟" كانت هذه لعبة، وكنتُ أنظر في المرآة، ولا أرى أحداً. ولكنني هذه المرة رأيتُ السيارة السوداء نفسها مرتين. وما أن سقنا على طول سياج أرض المعرض الأبيض حتى رأيت قمم الألعاب الدوارة ـ عجلة فيريس والزيفير (التي وُصفت لي في المدرسة)، والقمة الملتفّة للرولر كوستر بقطار من العربات التي تزحف وتندفع إلى الأسفل، والناس يلّوحون بأيديهم ويصيحون. اختلطت أصوات الموسيقا وضجيج الحشد ومكبّر الصوت في الجو العاصف كما سمعتُها في المنزل، بما فيه أصوات النسوة اللواتي يقرأْنَ بصوت مرتفع أرقام البنغو. كانت الريح تحمل رائحة نشارة الخشب والروث وشيء أكثر عذوبة. وقد كنتُ مثاراً من رغبة أن نسرع بالدخول قبل أن تُغلق البوابة. تألم فكي من الإطباق، ووخزتني أصابع قدميّ. كان الطريق مسدوداً من السيارات القديمة والسيارات الرديئة المليئة بالأطفال والهنود الذين يسيرون في صفٍّ على جانب الطريق نحو مدخل المشاة.

في تلك اللحظة تماماً، حين كانت سيارتنا التالية في الصف للانعطاف

https://telegram.me/maktabatbaghdad

إلى بوابة المدخل الكبيرة، عثرتُ على رزمة النقود. فبسبب عصبيتي دفعتُ يدي اليسرى في الفتحة تحت المقعد الخلفيّ، في المكان البارد، فلمستُ شيئاً ما سحبتهُ على الفور. كانت رزمة من الدولارات الأميركية مربوطة في كمٍّ ورقي أبيض، مختوم عليها: المصرف الزراعي القومي، كريكمور، نورث داكوتا. ذُهلت. قلت:آه! بصوت مرتفع بما يكفي كي ينظر أبي إليّ على الفور في مرآة السائق. حدقت مباشرة في عينيه، اللتين كانتا مثبتتين عليّ. سألني: "ما الذي رأيته؟ هل رأيت شيئاً خلفنا؟" كان فمه يتحرك تحت عينيه، ولكن صوته منفصل. اعتقدتُ أنه سيستدير وينظر إليّ، الأمر الذي فعلتْهُ بيرنير. نظرتْ مباشرة إلى رزمة النقود، ثم إلى الأمام على الفور. "هل رأيتَ رجال الشرطة الملعونين؟"

قلت: "كلا".

كان الناس يطلقون أبواق سياراتهم خلفنا. سنتوقف بشكل كامل حين ننعطف إلى اليسار إلى أراضي المعرض. داخل البوابة، كانت السيارات تصفّ على الأعشاب، وخلفها الألعاب الدوّراة ومنطقة العروض الجانبية. كان هناك شرطي يشير لنا أن نتابع إلى الأمام، وثمة سيارات أخرى تخرج يلوّح لها شرطي آخر. كانت هناك فوضى.

"ما هذا إذاً بحق الجحيم؟" كان مغتاظاً، يحدق في المرآة الكاشفة للخلف دون أن يتقدم.

قلت: "نحلة. لسعتْني نحلة". كان هذا كلُّ ما استطعتُ التفكير بقوله. وضعتُ الأوراق داخل بنطلوني الجينز. استدارت بيرنير قليلاً ونظرت إليّ ساخرة كما لو أنني أفعل شيئاً من المفترض ألا أفعله. بدأ قلبي يخفق. لا

أعرف لماذا لم أقل: عثرتُ على الكثير من النقود. ما الذي تفعله هنا؟ تصرفت بدلاً من ذلك كما لو أنني سرقتُ النقود، أو أن أحداً ما سرقها، وينبغي ألا تُشاهد معي، وأنها ستذهب إذا كانت خارج البصر.

"اللعنة! إنّ رجال الشرطة يفسدون كل شيء"، قال أبي. حدق ثانية في المرآة، إلى من كان خلفنا. وبدلاً من أن ينعطف أمام الشرطي ويقودنا إلى أراضي المعرض، ضغط على دواسة الوقود واندفعنا إلى الشارع الثالث دون أن ننعطف. لم أعرف لماذا كان قلقاً من رجال الشرطة.

"إلى أين نحن ذاهبون؟" قلتُ، والسياج الأبيض يسرع عابراً.

قال أبي: "سنأتي العام القادم. إنه شديد الازدحام الآن. إنهم يسمحون بدخول جميع الهنود، والمطر على وشك السقوط".

قلت: "كلا، لن يسقط".

"ظننتُ أنك تحب الهنود"، قالت بيرنير بصوتها المتغطرس.

قال والدنا: "أحبهم. ولكن ليس اليوم".

"إذا لم يكن اليوم فمتى إذاً؟"، قالت هذا كي تغيظه فقط.

"حين أكون جيداً ومستعداً"، قال. وكانت هذه نهاية المعرض.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

(24)

ذهبنا إلى جادة سميلتر وبلاك إيغل. كانت عينا أبي مثبتتين على المرآة الكاشفة للخلفية كما لو أنه شاهد شيئاً ما يريد أن يبتعد عنه، وهذا ما خمّنت أنه السبب الذي منعنا من الذهاب إلى المعرض. دفع أصابعه في شعره وحك قفا عنقه فوق ياقة قميصه. نظر إليّ لأنني كنت أزعجه بسبب غضبي. كنا نسوق نحو مدخنة المصهر والمصفاة، التي تبقي مصابيحها مشتعلة في النهار والليل ولها منافذ للغاز تنفث ألسنة لهب صفراء. تزداد الرائحة نتانة حين تقترب منها. قال رودي إن رائحة كرائحة المصفاة تصدر عن والده طول الوقت، وكان هذا أحد الأسباب التي جعلت أمه تنتقل إلى سان فرانسيسكو.

قالت بيرنير: "هل هذا يعني أننا لن نذهب"

أجاب والدي: "إن معظم الألعاب الدوارة قد أُغلقت".

قالت بيرنير: "كلا لم تُغلق. استطعت رؤيتها. كنت تسوق. أو تحاول ذلك".

"لا تهمني الألعاب الدوارة"، قلت. ملأت أبخرة المصفاة الحارة داخل السيارة.

"إن للبلوتونيوم رائحة نتنة"ـ قالت بيرنير، وأغلقت زجاج نافذتها وعبرنا متاهة الأنابيب والصمامات العملاقة والخزّانات الكبيرة، ورجالاً يعتمرون قبعات فضية صلبة يتحركون على مسارات ومنصات، ولسان اللهب الطويل من أنابيب التنفيس يلعق الجوّ العاصف. كانت المصفاة تتوضع بين جادة سميلتر والنهر. كنا متجهين إلى جسر الشارع الخامس عشر، والذي سيعيدنا إلى غريت فولز.

"أردتُ أن أشاهد معرض النحل"، قلتُ يائساً وشاعراً بالإحباط. كان شيئاً آخر لن أقدر على تعلّمه.

"إن النحل أذكى منا"، قالت بيرنير. كانت النقود التي عثرتُ عليها ناتئة، في مقدمة بنطلوني. نظرت بيرنير إليّ مرة ثانية وابتسمت بتكلف. كانت دوماً تتظاهر بأنها تعرف أشياء لا أعرفها وتنظر إليّ باستخفاف.

قال والدنا، مخففاً السرعة كي ينعطف إلى الجسر: "إن النحل مثل الناس هنا في مونتانا، إذا أردت رأيي. كلهم متشابهون، نحلات عاملات بدون روح، مجموعة من السويديين والنرويجيين والألمان الذين نجوا من القصف والتحول إلى شظايا. إنهم جميعاً بخيلون كاليهود. لقد بعتهم سيارات". كان أحياناً يقول إنه قصف اليابانيين كي يستطيع اليهود أن يديروا مكاتب الرهن. أُغريتُ بأن أقول له إن الكائن الحي للخلية ليس النحلة المفردة، ويستطيع البشر تعلّم درس كبير من النحل. ولكنني لم أرد أن ألفت الانتباه إلى نفسي والنقود داخل بنطلوني.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

سألتْ بيرنير:"إلى أين نحن ذاهبون؟"

كان والدنا يفحص الطريق خلفه في المرآة. "سنذهب إلى القاعدة. نراقب الطيارات وهي تقلع". فعلنا هذا في جميع الأمكنة التي عشنا فيها، فقد اعتقدَ أن هذا ترفيهيّ. نظر إليّ كي يرى كيف سأتلقى هذا كبديل عن الذهاب إلى المعرض، الذي انتهى الآن. حرّك حاجبيه، كما لو أن هذه نكتة لم تكن بيرنير متضمنة فيها. لم أردّ الابتسامة.

قالت بيرنير:"إن أمي حزمت نصف حقيبتها. إلى أين هي ذاهبة؟"

كنا على جسر دبليو بي إي القديم. نخر والدنا، وقرص منخريه. تحركت عيناه نحو المرآة، وليس نحوي. "لقد تزوّجت لتوّي من أمك، حسناً؟ لا أستطيع أن أقرأ جميع أفكارها أو أعرف كل تفاصيلها. إنها تحبكما كثيراً، مثلي". أضاف:" إنني أعاني من بعض المشاكل الآن التي ستشغل انتباه وحش بريّ. إنني لا أقوم بكل شيء بشكل تام في كل مرة، كما أدركت".

"إلى أين ذهبتما حين غادرتما؟" نظرت بيرنير إليه مباشرة، وجهها المنمّش شاحب، كما لو أنها أصيبت بدوخة من السيارة. نظر والدنا في المرآة الكاشفة للخلفية ثانية. نظرتُ إلى الخلف فرأيتُ سيارة فورد سوداء فيها رجلان في المقعد الأمامي يرتديان بذلة. كانا يتحدثان معاً، وأحدهما يضحك. لم أستطع تذكر إن كانت هذه هي السيارة التي رأيتُها في أراضي المعرض، ولكني اعتقدتُ أنها هي.

قال:"يمكن أن تأخذكما أمكما في رحلة. فلا تقلقا من الأمر".

قالت بيرنير:"هل سمعْتَ ما قلته لك؟"

"نعم، سمعت". أشعل أبي ضوء الانعطاف فيما كنا على وشك مغادرة

الجسر ونوى أن يتجه شرقاً نحو القاعدة. ولكنه أسرع فجأة، ساق مباشرة من الجسر، قطع شارعاً قصيراً آخر، وانعطف إلى اليمين في الشارع السابع نحو مركز البلدة، ثم دخل شارعاً جميلاً مظللاً من المنازل البيضاء الخشبية، التي كانت أجمل من بيتنا، بمزيد من أشجار البطم والبلوط الحقيقية والمروج المعتنى بها بشكل أفضل ومدرسة من الآجرّ الأحمر. لم أعرف من كان يعيش هناك، ربما فتيان نادي الشطرنج الذين آباؤهم محامون. لم آت أبداً إلى هذا الجزء من البلدة، بالرغم من أن غريت فولز ليست كبيرة. كانت بلدة، لا مدينة.

نظرتُ خلفنا. كانت الفورد السوداء قد انعطفت وما تزال هناك، والرجلان ما يزالان يتحدثان. لم نكن ذاهبين إلى القاعدة كي نراقب الطائرات أيضاً.

قلت: "ما الذي فعلته بمسدسك؟"

انقضت عينا أبي عليَّ، ثم على الفورد. "ما الذي تعرفه عن هذا؟"

"نظرتُ في درجك".

تنهّد بطريقة تدل على إحباط. "ينبغي ألا تفعل ذلك. هذه شؤوني الخاصة". لم يكن غاضباً. لم يغضب منا أبداً. لم نفعل أي شيء بأية حال.

"لماذا هي خاصة؟ ما الذي يجعلها خاصة؟"، قالت بيرنير.

"هل تعرفون أنتم الأولاد ما يعنيه ما يكون له معنى؟" واصلت عيناه النظر في المرآة العاكسة للخلفية. اجتاز الشارع السابع كله نحو النهر ثانية. كانت الأمواج الزبدية الصغيرة ما تزال تجعّد سطح الماء العريض، وفي الجهة الأخرى من النهر المعرض، قمم لعبة الزيفير وعجلات الفيريس والرولر

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كوستر مرئية تحت السحب الزاحفة. لم يُفك أي شيء. كان بوسعنا الذهاب إلى هناك.

استدار أبي فجأة في مقعد السائق، بالرغم من أنه كان يسوق، وحدق بي. وضعتُ يدي فوق كتلة النقود في بنطلوني. سينشقُّ العالم وينفتح لو رآها، هذا ما فكرت به بأية حال. توهّجتْ عيناه وهو ينظر إليّ. استطعتُ أن أرى فحسب الجانب الأيمن من ملامحه. بدا خده وذقنه وفمه وأحد حاجبيه في حالة حركة. أخافني هذا. لم يكن يراقب إلى أين هو ذاهب. نسيتُ ما قاله. سألتك سؤالاً. هل تعرف ماذا يعني ما يكون له معنى؟" تحدثنا عن هذا الموضوع من قبل حين كان يلمّع حذاءه. كان للعبة الشطرنج معنى، عليك فقط الانتظار كي ترى ما هو المعنى. لن يكون مهتماً بهذا. "نعم"، قلت.

استدار فاغراً فمه على الشارع، كنا نمر من خلف سجن مقاطعة كاسكيد. "ماذا قلت؟" لم يكن صوتي مرتفعاً.

"نعم، سيدي، أفهم"، قلت.

نظر إلي مرة ثانية كما لو أنه لم يسمعني مرة أخرى. كان لنَفَسه رائحة. حرك عينيه نحوي. بدا وكأنه تغيّر.

قالت بيرنير، وقد ارتفع ذقنها، متحدية: "لماذا لا تسألني؟ أعرف كل شيء عن هذا".

نظر إليها وكأنها أحبطته: "حسناً! سأخبرك بالرغم من ذلك، فقط في حالة..."، مسح فمه بيده ثم أدخلها في شعره. "أعني أنك تقبل الأمور. إذا فهمت، عندئذ تقبل". ألقى نظرة غاضبة على بيرنير، ثم تحركت عيناه نحو المرآة ثانية. كانت الفورد السوداء هناك. الرجلان في البذلة. كانا كمديري

مدرسة، أو تاجرين.

قدنا نحو جسر سنترال أفينيو عبر القسم التجاري من البلدة. بارز. الريكسال. وولورث. مبنى مكاتب طويل في أسفله حانوت الهوايات حيث اشتريت قطع الشطرنج. قاعة احتفالات المدينة. لم يكن هناك الكثير من المواصلات. الجميع في المعرض بسبب الأجر الرخيص. وكان منزلنا في الجهة الأخرى من النهر في حارته الصغيرة الرديئة.

"لا أعتقد أن ما قُلْتَهُ صحيح"، أعلنت بيرنير. استدارت كي تنظر إليّ ونفختْ خدّيها. بدت كبيرة في السن، كمثل معلّمة مدرسة. كانت تحبّ أن تتحدّاه وأرادت أن تمنح نفسها عذراً آخر كي تهرب.

قال والدنا: "حسناً، أنت مخطئة. فقط مخطئة".

قالت بيرنير: "أنا لا أفهم الأمور، بل أقبلها. ولكنني لا أقبل الأشياء، بل أفهمها". طوت ذراعيها بإحكام وحدقت من النافذة إلى النهر الجاري تحت الجسر الذي كنا فوقه الآن. "أنتَ ليس لك معنى، هذا كل شيء، وتعرف ذلك".

ابتسم والدنا بشكل غريب وهزّ رأسه. "هل تعتقدان بأنني كنت وضيعاً معكما؟ هل هذا هو الأمر؟" نظر إلى المرآة ثانية كي يرى إن كانت السيارة السوداء ما تزال خلفنا، وانعطفت إلى الجسر. كانت قد فعلت ذلك.

لم يقل أيّ منا أي شيء. لم أفهم لماذا طرح سؤاله. لم يكونوا وضيعين معنا أبداً. قال: "لأنني لست هكذا. أريدكما أن تتعلما درساً مهماً عن الحياة فقط. هناك بعض الأشياء التي عليكما قبولها وفهمها، حتى ولو لم يكن لها معنى في البداية. عليكما أن تجعلاها تكتسب معنى. هذا ما يفعله الناضجون".

https://telegram.me/maktabatbaghdad

"سأختار ألا أنضج في تلك الحالة"، قالت بيرنير باحتقار. كان والدنا يتحدث، كما أدركتُ، عن النقود التي خبأتها في بنطلوني. كان يقول شيئاً ويعني آخر. لقد رآني أعثر عليها ـ في المرآة ـ أو رآني أخفيها، حين نظر إليّ. ما كان يحاول أن يطلب مني فعله، قبل أن نصل إلى المنزل، هو أن أضع النقود حيث عثرتُ عليها، وأقبل ما لا أستطيع فهمه عن مصدرها. إن الشيء الأسوأ بالنسبة لي سيكون هو الاستمرار في وضعها في بنطلوني حين نصل إلى المنزل وأن أطلب تفسيراً لها. إن إعادتها إلى مكانها هو ما له معنى. حالما تعود إلى مكانها، سيكون كل شيء على ما يرام.

"لا أرى أي سبب يدفعكِ إلى البدء بالبكاء"، قال والدنا. كان ذراعا بيرنير مطويين بشدة على بطنها وتحدق باستياء من نافذتها. "لم يفعل أحد لك سوءاً يا أختي".

قالت بغضب: "أنا لست أختك، وأنا لا أبكي".

"حسناً، نعم أنت تبكين. ولكن يجب ألا تفعلي ذلك". نظر إليها، ثم إلى الشارع في الخلف. كانت جادة سنترال تقودنا إلى المنزل.

في نقطة معيّنة من حياتنا توقفت بيرنير عن البكاء تماماً، كما لو أنها لا تتحمل البكاء وكرهت كيف يجعل الآخرين ـ خاصة أنا ـ نتصرف إزاءها. كانت تعبّر عن غضبها بدلاً من ذلك. ولكنني لاحظتُ أنها تبكي لأنها تضع إصبعها الصغير في زاوية أي من العينين وتتنفّس بعمق. لم يكن هناك صوت بكاء أو نشيج أو أنين كما حين كنا أطفالاً. توقفتُ عن البكاء في وقت لا أذكره، قبلها. أمنا لم تبك أبداً، أما والدنا فقد بكى مرة حين كان يشاهد فيلماً حربياً على شاشة التلفاز.

كانت هذه الفرصة الوحيدة التي سأحظى بها ـ فيما كان أبي يركز انتباهه على بيرنير ـ كي أعيد رزمة النقود إلى تحت المقعد. انحنيتُ إلى الأمام كما لو أنني سأربط حذائي وأخرجت الرزمة من بنطلوني وحشوتها في تجويف المقعد حيث وقعت من قبضتي وجعلتني أشعر، في الثانية التالية، بأنني أفضل وأخف بشكل كامل. حين نظرت في مرآة الرؤية الخلفية رأيت والدي يحدق بي مرة أخرى.

"ما الذي تفعله؟" قال. ألقت بيرنير نظرة متألمة علي لأنني خنتها. كان وجهها يعبر عن استياء. استدارت ونظرت إلى الشارع مرة أخرى.

"أربط حذائي"، قلت. كان شارعنا يقترب. تيجان أشجار البطم والدردار في الحديقة تتمايل في النسيم، برج كنيسة اللوثريين المنخفض بائن بينها.

"اسأل شقيقتك لماذا هي مستاءة". مدّ أبي يده بشكل مشوش وربت على كتف بيرنير. لم تنظر إليه. "لا أمتلك أية فكرة. أقسم بالله. ربما ستقول لكما. هل ستخبرين ديل يا حبيبتي لماذا تبكين؟ لستُ رجلاً وضيعاً. لا أريدك أن تفكّري أنني هكذا".

"يبكي الناس لأنهم بائسون"، بصقت بيرنير كلماتها.

كنا نقوم بدورتنا عند الحديقة. "بائسون؟" كان يُصدم دوماً حين لا يشعر الآخرون حيال شيء ما كما يشعر هو تماماً.

نظرتُ ثانية من النافذة الخلفية. تبعتنا الفورد التي كان فيها الرجلان حتى منعطف كنيسة اللوثريين. انعطف والدنا فجأة إلى الرصيف، كما لو أنه يريد أن يخرج من طريق السيارة السوداء. عبرت الفورد ببطء. نظر إلينا

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الرجلان. أحدهما كان يتحدث فيما الآخر يهزّ رأسه. ساقا إلى الزاوية، انعطفا عند الجهة الغربية للحديقة وتابعا ببطء إلى سنترال. أدركت أنهم الشرطة، ولكنني لم أعرف لماذا يلاحقوننا. لم يخطر في بالي النقود المخبأة وراء المقعد.

"من هذان الغبيّان؟" قال والدنا، مراقباً الفورد تبزغ من سنترال. كانت قبضتاه تمسكان عجلة القيادة وعضلات فكّه تتوتّر كما لو أنه يعمل كي يقول شيئاً آخر. جلسنا بصمت أمام بيتنا، قصاصات ورقية بيضاء من الزفاف في الكنيسة اللوثرية دفعتها الريح عبر الرصيف بين أعشابنا.

"ربما"، قال أبي. توقّف ولعق شفتيه وابتسم لبيرنير التي كانت صامتة وتحدّق بعيداً، ببؤس. التفت إليّ، ولكنني لم أعرف ماذا من المفترض أن أقول. "كنت على وشك القول إن أولئك الشخصين من الإرساليات التبشيرية المورمونية على الأرجح. يرتديان بذلة ويضعان ربطة عنق. ربما لديهما كتاب يريدان منا قراءته. كان يجب أن أتوقف وأتحدث معهما. ربما كان هذا مهماً. "ألا تظنان ذلك؟" عنى هذا أنه يريد منا أن نفكر بأن الرجلين غير مهمين ويجب ألا نشغل بالنا بهما. قال بلكنته الجنوبية: "ماذا تقولين، يا أختاه؟" كان يظنّ أن الناس يحبون لكنته. تحرك حاجباه، وخصّني بنظرة عنت أنني كنت ثانية في تعاون وثيق بينما بيرنير لم تكن. كانت هذه نظرة أحببتُها دوماً.

قالت بيرنير بحزن: "أتمنى لو كنتُ بعيدة من هنا. أتمنى لو أنني في كاليفورنيا أو روسيا؟"

قال أبي: "نتمنى جميعنا هذا يا حبيبتي. يبدو أنك أنت وأمك ترغبان

بذلك أكثر منا. يجب أن تناقشا الأمر". استدار إليّ. توقعت أن يقول شيئاً ما لكنه ابتسم فحسب ابتسامة فمه ذي الأسنان الكبيرة البيضاء، كما لو أن معركة خُسرتْ.

فتح باب سيارته وواصل التحدث وهو يخرج. "اسمعا أنتما الاثنان، إننا نتحكّم بمسار الأمور هنا. لقد تحمّلنا الهراء وقتاً طويلاً بما يكفي".

عبست بيرنير، ثم نظرت نظرة ساخرة، كما لو أنه وضيع ومثير للشفقة، الأمر الذي لم أوافقها عليه، حتى ولو لم نذهب إلى المعرض.

قال أبي خارج السيارة، كما لو أنني أجبته. "ها أنت. هذا كل ما أريد معرفته". اتجه إلى المدخل وأنا وبيرنير معه في الداخل. هبت الريح في الشارع، دفعت قصاصات الأوراق وحنت قمم الأشجار أكثر. فاحت رائحة مطر عذبة. ستهب عاصفة. قال أبي: "اخرجا أيها الولدان الآن. هذا هو المكان الذي نعيش فيه. ليس هناك شيء نفعله حيال هذا. هذا هو المنزل الجميل والمريح، على الأقل الآن".

https://telegram.me/maktabatbaghdad

(25)

حين دخلنا قال والدنا إنه مرهق ودخل إلى غرفة نومه هو وأمي واستلقى على تخته الفارغ ومصباح السقف مضاء، وهو ما يزال في بوطه وثيابه، ونام مباشرة، واضعاً ذراعاً فوق عينيه.

وفيما كان النهار ينتهي ببطء أضيئت نوافذ الجيران وبدأ المطر يتساقط بنعومة ثم بقوة. اشتدت الريح وسالت قطرات المطر كالغطاء على النوافذ. اندفع نسيم بارد عبر المنزل، نافخاً الستائر ومحركاً الصحيفة على طاولة غرفة الطعام. أغلقت أمنا النوافذ وأنزلت الستائر المبللة، وأشعلت مصباح الطاولة وأرجعت صندوق تلميع الأحذية الخاص بأبي إلى مكانه.

لم يكن لديها الكثير كي تقوله وبدت مشغولة. طبخت العشاء في المطبخ ولم تتحدث عن السيدة رملنغر أو الاتصال الذي قامت به أو تسأل إلى أين ذهبنا مع والدنا. إلا أنني أخبرتها بأننا خرجنا لتنفيذ وعد زيارة المعرض،

لكنه كان مزدحماً جداً. لم أذكر موضوع العثور على النقود تحت المقعد أو بكاء بيرنير ورغبتها بالذهاب إلى روسيا، أو رجلي الشرطة اللذين لاحقانا. شعرتُ أنني يجب أن أؤجل كل هذا إلى وقت لاحق.

دخلتْ بيرنير إلى غرفتها كالعادة حين رجعنا إلى المنزل وأغلقت الباب دون أن تقول أي شيء لأيّ منا. شغّلت مذياعها وصدر صوت الموسيقى الخفيف، واستطعت سماعها تتحرك، تحرك علاقات ثياب معدنية في خزانتها وتتحدث مع أسماكها، التي لا بدّ أنها جعلتها تشعر بأنها أقلّ وحدة. اعتقدت أنها تحزم الملابس من أجل هربها. لن أكون قادراً على جعلها تغيّر رأيها، ولم يكن بوسعي إخبار والديّ. كانت هذه هي الطريقة التي قمنا بها بالأمور على الدوام. فالتوأمان لم يسببا لبعضهما المشكلات. ولكنني اعتقدت أنها إذا هربت ستعود، ولا أحد سيلومها.

جلستُ في غرفتي والنافذة مفتوحة قليلاً، شاعراً بحفيف الريح حين انحدر الضوء، وتسرّب المطر بين الألواح الخشبية للبيت وتبعثر في الداخل. لم يكن هناك رعد أو برق، وإنما مطر صيفيّ فقط يضرب ويتوقف بين فينة وأخرى، واستطعت أن أسمع عبر الريح أبي يشخر، وأمي في المطبخ والغربان على أغصان الشجرة المبللة، تنعق وتتقافز، وتستقرّ من جديد قبل أن يسقط المطر ثانية. فكرت بالمعرض الذي يغلق أبوابه، وبالمطر يبلل نشارة الخشب والخيام والمواد المعروضة، بالعمال يفكون الألعاب الدوّارة، ويحمّلونها في الشاحنات، وبمعرض النحل ومعرض الأسلحة يقفلان ويُنقلان بعيداً. أنزلت المجلد (بي) من موسوعة دليل العالم وقرأت عن النحل. إنّ كلّ شيء في الخليّة مثاليّ، عالم منظّم تُشرّف فيه الملكة ويُضحّى من أجلها. إذا لم

https://telegram.me/maktabatbaghdad

يحدث هذا، يقع كل شيء في الفوضى. فالنحل، كما قرأتُ من قبل، هو مفتاح كل شيء إنسانيّ، لأنه يستجيب على نحو تامّ لبيئته وللنحل الآخر. هذا شيء محدّد أستطيع أن أؤلف عنه تقريراً في بداية المدرسة وأنطلق على أساس جيد. وضعت قلم رصاص على الصفحة وأغلقت الكتاب. سأكون أكثر استرخاء حين تبدأ المدرسة ويعود أبي إلى العمل وأمي إلى التدريس.

بعد برهة بدأ صوت أبي المتعب يتحدث بنبرات منخفضة. ضربت قدماه اللتان ترتديان الجوارب على الأرضية. كان ضجيج الصحون والآنية والمقالي مسموعاً في المطبخ. تحدثت أمي، كذلك في نبرات منخفضة. قال والدنا: "... سمكة في المياه العميقة". قالت هي: "...في أفضل العوالم كلّها...". تساءلتُ إن كانا سيتحدثان عن النقود التي خلف مقعد سيارتنا، أو كيف فُقد مسدس أبي، أو إلى أين ذهبا، أو حقيبة أمي التي على السرير. مستلقياً في فراشي في نسيم الليل العليل، والمطر يبلّل قاع غطاء سريري، وخط ضوء الصالة تحت بابي، كانت أسئلة كهذه تدور في ذهني. كانا قريبين جداً مني، ثم فجأة ابتعدا في الوقت نفسه، وهكذا مددتُ يديّ وأمسكتُ طرفي فرشتي. شعرتُ كما حين أصبتُ بالحمى القرمزية، قبل أعوام، ولم أستطع الاستيقاظ بشكل كامل. دخلت أمي وجلست قرب سريري ووضعت إصبعاً باردة على صدغي. وقف أبي في المدخل طويلاً وظليّاً. قال: "كيف حاله؟ ربما يجب أن نأخذه". قالت أمي: "سيكون بخير". سحبت الغطاء إلى ذقني وضغطت.

أصغيتُ إلى بومة في الخارج في الظلام. أردتُ أن أستعرض أفكاري مرة ثانية، لكنني لم أستطع مقاومة النوم فتركتُ كلّ شيء يندفع بعيداً عني لبعض الوقت.

(26)

"هل تريد تناول عشاءك؟" قالت أمي بصوت هادئ، مائلة فوقي. التقطت عدسات نظارتها الضوء من مكان ما خلفها. كانت راحة كفها على خدي؛ فاحت رائحة الصابون من أصابعها. مشطت شعري، أمسكت محارة أذني بين إبهامها وسبابتها. كنت ملفوفاً في أغطيتي ولم أستطع تحريك ذارعيّ. كانت يداي نائمتين. قالت:"إن حرارتك مرتفعة جداً. هل تشعر بالمرض؟ ذهبت إلى قدم سريري ولمست الغطاء. "لقد سقط المطر عليك".

"أين بيرنير؟"، اعتقدتُ أنها رحلتْ.

"أكلت ونامت"، أغلقت أمي النافذة.

"أين أبي؟" عبرني شيء مرهق. كان فمي جافّاً، وشعري ملتصقاً بفروة رأسي، ومفاصلي متألمة.

"لم يذهب إلى أيّ مكان".

https://telegram.me/maktabatbaghdad

عادت إلى المدخل. كان في الردهة ضوء عنبريّ. المياه تقطر وراء الجدران، أو في الخارج. همستْ: "تواصل سقوط المطر. الآن توقف. أعددتُ لك سندويشة".

"شكراً لك"، قلت. عادت إلى الباب واختفت.

في غرفة الطعام أكلتُ جبنة مشوية مع قطعة مخلّل وورقة خسّ وصلصة فرنسية، وهي مأكولات أحبها. كنت جائعاً فأكلتُ بسرعة وشربت كأساً من مخيض اللبن الذي يعتقد أبي أنه منعش. ثيابي مجعدة ومبللة، والمنزل بارد تفوح منه رائحة النظافة، كما لو أن الريح صقلتهُ. نظّفناه منذ بضعة أيام. كانت العاشرة والنصف ليلاً، الوقت غير المناسب لتناول العشاء إلى الطاولة.

سمعتُ كعب بوط أبي على ألواح الرواق الأمامي. مر ظهره عند النافذة. كان يسعل ويتنحنح أحياناً. عبرت عدة سيارات. سقطت الأضواء المائلة عبر الستائر، المزاحة جزئياً. توقفت سيارة على الرصيف. شعاع ضوء قوي اندفع وأضاء الفناء المبلل. لا تستطيع أن ترى من في الداخل. من الرواق المظلم قال أبي: "مساء الخير. مرحباً. نحن هنا والعشاء على الطاولة". ضحك بصوت مرتفع. انطفأ الضوء، وابتعدت السيارة دون أن يتحدث أحد أو يخرج. ضحك أبي مرة ثانية وخطا المزيد من الخطوات، صافراً أصواتاً لم تصنع لحناً.

عادت أمي إلى غرفة نومها. من مكان جلوسي إلى الطاولة استطعت رؤيتها. كان المزيد من ملابسها في الحقيبة. كانت تطوي ملابس أخرى وتضعها فوقها. نظرت من الباب، ولسبب ما أجفلتني مشاهدتها لي. "تعال

إلى هنا يا ديل، أريد أن أتحدث إليك"، قالت.

أتيت في جواربي. كنت ثقيل الجسد كما لو أنني أكلتُ كثيراً. كان بوسعي أن أستلقي على سريرها وأنام أمامها.

"كيف كانت سندويشتك؟"

"لماذا تحزمين ثيابك؟"

واصلت طوي الملابس. "سنذهب إلى سياتل في القطار غداً".

"متى سنعود؟"، سألت.

"حين نكون مستعدين لذلك؟"

"هل بيرنير ذاهبة؟"

"نعم، ذاهبة. شرحتُ هذا لها من قبل".

"هل أبي ذاهب؟" سألتُها هذا من قبل.

"كلا". ذهبت إلى الخزانة وأعادت وضع العلاقات الفارغة التي كانت على السرير.

"لماذا لا؟"، قلت.

"لديه عمل مرتبط به. ويحب البقاء هنا بأية حال".

"ماذا سنفعل في سياتل؟"

قالت أمي بصوتها الرسمي:" إنها مدينة حقيقية. ستقابل جديك. إنهما يريدان رؤيتك ورؤية أختك".

حدقت إليها بحدة كما تحدق بيرنير بي. لم تقل لماذا نحن ذاهبون، وأعرف أنه ليس من المفترض أن أسأل.

"ماذا عن المدرسة؟" بدأ نبض قلبي يتسارع. لا أريد أن يكون الأمر

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أنني لن أبدأ المدرسة. يحدث هذا لأولاد لا تراهم أبداً بعد ذلك. تشنّجت حنجرتي. احترقت عيناي كما لو أنهما أدمعتا من قبل.

"لا تقلق من هذا".

"لدي الكثير من الخطط"، قلت.

"أعرفها. كلنا لدينا خطط". هزّت رأسها كما لو أن هذه كانت محادثة سخيفة. نظرت إلي وطرفت عينها مرة خلف نظارتها. بدت متعبة. قالت: "عليك أن تكون مرناً. إن الأشخاص الذين ليسوا مرنين لا يتقدمون كثيراً في العالم. أنا أحاول أن أكون مرنة".

اعتقدت أنني أعرف معنى الكلمة، ولكن بدا كأنها تعني شيئاً آخر، أيضاً، مثل "يكون له معنى". لم أرغب بالإقرار بأنني لم أكن الشيء الذي تعنيه كلمة مرن مهما كان.

هبت الريح خارج المنزل ودفعت المياه عن الأوراق، مصدرة ضجيجاً على السقف. كان داخل المنزل هادئاً بشكل كامل.

سارت أمي إلى نافذة غرفة النوم، ووضعت يديها على الزجاج كالكوب ونظرت إلى الخارج. عكس زجاج النافذة الغرفة وهي وأنا والسرير بحقيبتها وثيابها. خلفنا، لم أستطع أن أرى سوى الأشكال والظلال، الكاراج بنباتات الخطميّ الشاحبة ونباتات الزينية التي تنمو إلى جانبها، حبل الغسيل الفارغ بعد أن أدخلتْ الثياب النظيفة، شجيرة بلوط زرعها أبي وربطها إلى وتد، وسيارته. قالت: "ما الذي تعرفه عن كندا؟ هِمْ؟" كان هذا صوتاً تصدره حين تريد أن تكون ودّية.

كانت كندا خلف شلالات نياغارا في قطع لغز أبي. لم أبحث عنها أبداً في

الموسوعة. كانت تقع إلى الشمال منا. كانت دموع حارة في عينيّ. تنفّستُ بقدر ما أستطيع وحبسْتُها. "لماذا؟" كان صوتي محبوساً.

"آه". وضعت جبينها على زجاج النافذة. "من عادتي رؤية الأمور بالطريقة التي تُقدم لي فيها فقط. أريدك أن تصبح مختلفاً. هذا ضعف فيّ". ربتت على الزجاج بخفّة بظفرها، كما لو أنها تشير إلى أحد ما في الظلام. نزعت نظارتها، نفخت على العدستين، ومسحتهما على كمّها الأزرق. قالت:"إن أختك مختلفة".

"إنها أذكى مني بكثير". حككت عيني بسرعة ومسحت يدي بساق بنطلوني كي لا تنتبه إليّ.

"ربما. المسكينة". استدارت أمي وابتسمت لي بطريقة ودّية. "لماذا لا تعود إلى السرير الآن. سنغادر في الصباح. ينطلق القطار في العاشرة والنصف". وضعت إصبعها على فمها كي تشير لي ألا أقول أي شيء. "ليس عليك أن تأخذ أي شيء سوى فرشاة أسنانك. اترك كل شيء هنا. اتفقنا؟"

"هل أستطيع أن أحضر قطع شطرنجي؟"

قالت:"حسناً. أبي يلعب الشطرنج. أو كان يلعبه. سيمنحكما هذا شيئاً كي تختلفا عليه. اذهب الآن".

خرجتُ من الغرفة. عادت إلى حزم حقيبتها. لم تكن هناك فرصة لكل ما أردت أن أسأل عنه: الشرطة، المدرسة، وهرب بيرنير، ولماذا سنرحل. كانت الأمور تحدث حولي، كما قلتُ من قبل، وكان دوري هو العثور على طريقة كي أكون طبيعياً. إنّ الأطفال يعرفون الحالة السوية أفضل من أي شخص آخر.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

(27)

فيما بعد جاءت أمي ووضعت شرشفاً ناشفاً تحت قدمي حيث كان الفراش مبللاً. أبقيتُ عينيّ مغمضتين ولكنني استطعتُ شم رائحة كرات العث من الشرشف. أُغلق بابي بهدوء، وسمعتُها تقرع باب بيرنير. قالت بيرنير: "أشعر بالغثيان". قالت أمي: "ستعتادين على ذلك. سأحضر لك زجاجة ماء ساخن". أُغلق بابها، وبعد وهلة رجعت أمي إلى غرفتها وتحدثا أكثر. صرّت نوابض فراش بيرنير. "بالطبع، بالطبع"، سمعتُ أمي تقول. ثم عاد وقع أقدامها إلى المطبخ حيث بدأ الماء بالجريان.

توقّف المطر عن السقوط، ودخل الهواء البارد من جديد إلى الغرفة. اعتقدت أنني يمكن أن أسمع الألعاب النارية في المعرض وأعدت رفع إطار النافذة لسماعها. ولكنني لم أسمع سوى صفير الموقد في المدخنة وصفارة إنذار في البلدة. وكان في الجوّ الرائحة القوية للأبقار في فناءات الشحن.

سمعتُ وقع خطا والدي، ثم صوتيهما، وهما يتحدثان. تكلما لوقت قصير، بطريقة مختصرة، تبعها صمت، كما لو أنه لم يكن لديهما سوى القليل كي يقولاه. بعد وهلة عادت أمي ـ كنت أعرف وقع خطاها ـ إلى غرفة نومهما وأغلقت الباب. خرج أبي من جديد إلى الرواق الأمامي وجلس على الأرجوحة وكان الباب المنخلي يصرّ وهو ينفتح وينغلق.

فكرت بسياتل عندئذ لبعض الوقت. لم أر إلا بضع مدن، غير أنها لم تكن كبيرة. صورتي عن سياتل هي للشمس ترتفع من تحت محيط مظلم، وأبنية تبزغ بالتدريج في صور ظلّيه فيما الضوء يعثر عليها. لم أتذكر آنذاك سوى أن الشمس تشرق من الشرق، والضوء يسقط على الأبنية من الاتجاه الآخر. حاولت تخيّل إبرة الفضاء، كيف سيبدو هذا البرج، هذه الإبرة الكبيرة المرتفعة في السماء. ثم لا بد أنني نمت. آخر شيء أتذكره هو أنني كنت مخطئاً حيال شروق الشمس، وأنني لم أخبر أحداً عن ذلك.

في الليلة التي نهضتُ فيها كي أذهب إلى المرحاض، وجدتُ أبي وحيداً جالساً إلى طاولة الورق مع قطع لغز شلالات نياغارا مثل وجبة أمامه. جميع الأضواء أمام المنزل مشتعلة. كانت شلالات نياغارا كاملة تقريباً، فقط بعض القطع الشاحبة لسماء مسننة تحتاج إلى التركيب. كان يرتدي قميصه الأبيض المغضّن، وبنطلون الجينز، وبوطه البالي عند أصابع القدمين، وهي الملابس التي ارتداها باكراً. كان قد حلق ذقنه وتفوح منه رائحة الاستحمام. استدار كي ينظر إليّ وبدا سعيداً لرؤيتي، بالرغم من أنني نويت أن أعود مباشرة إلى السرير. بدأ بالحديث فحسب: "تعرف، حين كنت فتى في عمرك...". لمس

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بإصبعه قطعة من اللغز وأمسكها كي يفحصها، ثم جربها في المكان الفارغ في السماء، حيث تركّبت بشكل كامل. كان ما يزال ملمّع الأحذية تحت أظافره. "... كنتُ رياضياً ماهراً. كانت الرياضة جوهرية. لم يكن لدى أي شخص أي شيء آخر يسعده. أنت سمعتَ عن الكساد الكبير، أنا متأكد".

كنت قد قرأت عن روزفلت وهوفر ومسيرة العمال وصفوف الخبز، في علم التربية المدنية. قلت: "نعم، يا سيدي".

"حسنا...". جرّبَ بعناية قطعة أخرى من اللغز، التي لم تتركّب. هزّ رأسه. "كان من المحتمل أن أتميّز في الرياضة: في كرة القدم والبيسبول أيضاً. لم يعلّمني أحد أي شيء أبداً. لم يعلمني المدربون. تغوص أو تسبح وفق قدرتك المحلية. وهكذا...". ابتسم وكأنه سعيد لأنه يشرح ذلك. "غصتُ". تنحنح وبلع. "هذا ما قادني إلى التطوّع في الجيش الأميركي. ليس مباشرة، ولكن في النهاية". التقط قطعة لغز أصغر وضغطها برقة في المكان الفارغ ودندنَ حين تركّبت. كان هناك أربع قطع فحسب ليست في مكانها. استدار على كرسيه وفحصني. كنت أرتدي بنطلون بيجامتي الزرقاء والبيضاء المقلّمة وحافياً. قال:"لماذا أنت مستيقظ؟ هل يضايقك شيء؟"

"كلا، يا سيدي"، قلت، بالرغم من أنني متضايق من موضوع المدرسة والمغادرة، ولماذا لن يذهب معنا، ولماذا تتبعنا الشرطة وتمرّ قرب منزلنا بالسيارة. كنت أعاني من كثير من الإزعاجات.

قال: "حسناً، هذا عظيم. هكذا يكون الأمر حين تكون في الخامسة عشرة. أليس هذا عمرك؟" جلس مسترخياً إلى الخلف على كرسي طاولة غرفة الغداء.

"نعم، سيدي"، قلت.

استخدم قطعة لغز كي يحك أذنه. "إن أمك تهيء نفسها من أجل شيء ما كما أعتقد. من الممكن أنها فعلت هـذا دائماً، من أجل حياة مستقبلية. أنا لا ألومها. ولكنني لستُ آسفاً لأنني تزوّجتُها. لولا ذلك لما حصلنا عليك وعلى أختك". نظر إلى قطعة اللغز كما لو أن هناك شيئاً مهماً مرتبطاً بها.

"إنها مستاءة قليلاً مني حالياً. ستفهم كل شيء حين تصلون إلى سياتل. لقد ذهبتْ إلى الجامعة، غير أنني لم أذهب".

"لماذا لم تذهب؟" أردتُ أن أسأله لماذا لن يذهب معنا، ولماذا هي مستاءة منه، ولكنني طرحت هذا السؤال بدلاً من ذلك. أردت أن أعرف دوماً.

بدا غير مهتم: "لم يُطرح الموضوع أبداً. اعتُقد أنني كنتُ ذكيّاً بما يكفي بالنسبة لاحتمالاتي المستقبلية، وعلى الأرجح هذا صحيح".

"هل أنت ذاهب معنا إلى سياتل؟" كنت أعرف أنه غير آت، ولكنني أردت أن يبدو الأمر وكأنه ما يزال ممكناً أن يذهب معنا.

"أنا سعيد هنا. قلتُ لك هذا بعد الظهر. سأكون هنا حين تعودون. هذه هي خطة والدتك".

"هل ستذهب إلى العمل ثانية؟"

ابتسم ابتسامة عريضة وحك أذنه بقطعة اللغز. "إذا أخذوني. لقد بدأت لتوي. لديّ مهارة طبيعية فيه، على ما أظنّ". رفع القطعة عالياً، وقلبها لي إلى الخلف والأمام كي أراها. لقد قام بهذه الخدعة عدة مرات لبيرنير ولي حين كنا صغاراً. صارت عيناه دائرتين. تحركت ابتسامته عند زاويتي فمه كأنه شعر بأنه غير متأكد من شيء ما، لكنه لم يكن كذلك. فجأة وضع قطعة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

اللغز في فمه، مضغها وابتلعها بشكل دراميّ، بعد ذلك تنحنح، سعل بشكل مبالغ فيه. قال: "يا ولد، هذه لذيذة. أحبّ الألغاز أكثر من القطع النقدية والأزرار".

"إنها في يدك"، قلت. لمستُ أذني، حيث يُعثر على أشياء كهذه هناك غالباً.

قال: "لقد أكلتُها. هل تريد واحدة؟ بقي ثلاث منها". التقط إحدى القطع الثلاث الأخيرة.

قلت ثانية: "إنها في يدك".

وضع كلتا يديه على ركبتيه وربت بهما وهزّ رأسه. انتظرته كي يخرج القطعة. قال: "اذهب إلى سريرك، أيها العقيد. أمامك يوم عمل، جميعنا كذلك". مدّ يده وأمسك كتفي العاري وشدني إليه بحيث أستطيع أن أشعر بجسمه الكبير، الذي كان شديد الدفء ويفوح منه عطر الليمون. ربت على ظهري ثلاث مرات، ثم أمسكني على بعد طول ذراع وبدا جدياً. كنت ما أزال أنتظر ظهور قطعة اللغز، كمثل أحمق. قال:"سنعمل على عضلاتك حين تعود. تحتاج إلى بعض العضلات الجديدة. حين أراك ثانية هذا ما سأفعله".

قلت:"أين قطعة اللغز؟"

أشار إلى بطنه بإصبعه. "هنا في الأسفل"، قال، وتحسس نفسه ونظر إلى الأسفل. "ليست خدعة كل مرة. هذا سرّ الساحر. طابت ليلتك ".

قلت:"طابت ليلتك"، وعدتُ إلى غرفتي، أغلقت الباب، ونمتُ في سريري البارد.

(28)

توهّجت الشمس عبر الأوراق المبلّلة ودخلتْ غرفتي، شبكة مستطيلة من الضوء على الأرض وعند قدم سريري. أيقظني جرس الأحد في الكنيسة اللوثرية. كنت مستيقظاً في الليل، أو ربما حلمتُ حلماً جميلاً دفعني إلى الاعتقاد بأنني فعلت الأشياء التي حلمتُ بها. علق خفاش في منخل نافذتي. نزلتُ من السرير ورفعتُ إطار النافذة ثم بممحاة قلمي الرصاص ضربت المنخل، حريصاً ألا أؤذيه. من الفتح المربعة الصغيرة رأيت وجهه البشري الصغير الملتوي، وذيله الرمادي الحريري، وجناحيه المرتعشين. حدق بي كما لو أنني ناديته. ضرب المنخل بخفّة. نظر من جانب إلى آخر. ثم انطلق، متحرراً، وفرغ المنخل.

توقفت سيارة في الزقاق، بعد الكاراج تماماً، ظلَّ محرّكها دائراً، دخانها ثقيل في الجوّ. اشتعل ضوء في الداخل. رأيتُ رجلين يرتديان بذلتين. كان

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الراكب يقرأ شيئاً ما للذي يسوق، حاملاً قطعة ورق بيضاء. مال الاثنان ونظرا إلى منزلنا، عبر عمودي حبل الغسيل. لم يستطيعا رؤيتي. لم يكن هناك ضوء خلفي. على أي حال أشار أحدهما بإصبعه إليّ، ثم انطفأ ضوءهما. اشتغل المحرك. طرطشت العجلات فوق الحصى. ثم انتهى الحلم.

XXX

سمعتُ صوت بيرنير في الصالة. استلقيت محدقاً ببقع المياه في السقف حيث خطوط الصدأ المتقشرة كمثل ولايات الاتحاد على الخريطة. لم أعرف منذ متى رنّ جرس الكنيسة اللوثرية. عوى كلب في شارع خلف شارعنا. ربما تأجلت رحلتنا إلى سياتل. من المحتمل أن تُنسى إذا بقيتُ في سريري. لم أرغب بالذهاب.

سمعتُ أمنا تتحدث بصوت مختصر مع بيرنير. فُتح بابي على الفور تقريباً وكانت أمي هناك، غاضبة وعازمة. "تركتك تنام، ولكن يجب أن نذهب الآن". كانت قد أزاحت الحقيبة القرنقلية ذات الحواف البيضاء الصدفيّة عن فراشها. "ضعْ ما ستأخذه معك في هذه الحقيبة". خطت ووضعت الحقيبة على فراشي. "لا تأخذ الكثير. سنشتري لك ما تحتاجه في المكان الذي سنذهب إليه". حدّقت بي. كنت مغطى حتى ذقني، ضوء الشمس يقسم الأرض وقسماً من الحائط الأبيض. كانت أمنا ترتدي من جديد التنورة الخضراء الصوفية ذات مربعات النقوش القرنقلية، ولكنها ترتدي الآن بلوزة بيضاء. بدت أصغر وأكثر شباباً في هذا اللباس. كانت ملامحها متجمّعة حول أنفها ونظارتها. قالت:"لقد لبست أختك. لا تجعلني أخبرك ثانية". اختفت، تُرك بابي مفتوحاً كتحذير.

ارتديتُ ثيابي بسرعة. لم يكن هناك وقت للاستحمام. وضعت في الحقيبة أحجار الشطرنج المصنوعة من خشب البالسا، مجلة تشيس ماستر، أسس الشطرنج، وكتاب عقل النحل الذي استعرته من المكتبة ونويت إرجاعه. وضعت مجلدين من موسوعة دليل العالم، البي والإم، اللذين كانا سميكين وفيهما معلومات أكثر. ارتديت زوجاً من الجوارب، وثياباً داخلية، وقميصاً، ولا شيء آخر، بما أن أبي قال إننا سنعود. ذهبت إلى الحمام ونظفت أسناني، غسلتُ وجهي وتحت إبطيّ ("حمام رجل الجو"، كما دعاه أبي). مشطتُ شعري واستخدمت الوايلدروت الذي سمح لي والدي باستخدامه معه. لم أره، فقط سمعتُ صوته. "يحتاج الطفلان إلى تناول الطعام". أجابت أمي باستياء: "يستطيعان أن يأكلا في القطار".

كانت بيرنير تجلس في غرفة الجلوس، تنتظر، مرتدية فستانها الفضفاض الرمادي والأزرق ذا الدوائر الواسعة وحذاء التنس وجواربها البيضاء. شعرها مشدود إلى الخلف بالطريقة الكثيفة التي تعتمدها عادة. لم تكن تضع أحمر شفاه. جلست على الأريكة بركبتيها المنمّشتين مضغوطتين وبدت مغتاظة وشاحبة، كما لو أنّها ما تزال تشعر بالغثيان. حقيبتها الصغيرة بين قدميها، وهي هدية قدمها لها والدانا بمناسبة عيد ميلادها الخامس عشر، عليها رسم جلد تمساح مطبوع وقالت بصراحة إنها لا تعجبها. كانت هدية سحب في القاعدة. حين عبرتُ باب الصالة، متجهاً إلى غرفتي حدقت بي من وراء نظارتها دون تعبير. كان لغز شلالات نياغارا الذي رُكِّب كلّه ما يزال على الطاولة، تنقصه فقط القطعة التي أكلها والدي. لا يمكن أن تُنهى الآن وكانت بلا فائدة.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

خرج والدنا من المطبخ عندئذ، في الثياب التي كان يرتديها في منتصف الليل. بدا ضخماً ومسترخياً وفي معنويات مرتفعة، بالرغم أنه لم يحلق وبدا وجهه رمادياً. قال لبيرنير: "أنت فتاة ناضجة الآن. ولكن يبدو كأنك لا تشعرين بالتحسن. من الأفضل أن تبقي في المنزل معي". كانت على وشك أن تقول شيئاً ما مناقضاً، ولكن صوت أمي جاء من المطبخ. "لا تفعل ذلك. لا تلحّ عليها. إنها تشعر بالتحسن".

نظر والدي حوله في غرفة الجلوس كما لو أن كثيراً من الناس فيها ويصغون إليه. رآني فابتسم وطرفت عينه. قال بصوت مرتفع: "إنها ابنتي، أنا لا أزعجها، بل أتحدث معها. سأعتني بأسماكك في غيابك".

هذا ما حدث حين قُرع جرس الباب ودوّى في أنحاء المنزل. نظر أبي إليّ. كان ما يزال يبتسم. مدّ ذراعيه بطريقة يائسة رأيته يفعلها من قبل كي يعبّر عن ذهوله: راحتا اليد إلى الأعلى، كما لو أن المطر يتساقط من السقف. "حسناً، أتساءل من سيكون الطارق"، قال وبدأ يسير عبر غرفة الجلوس ليفتح الباب الأمامي. "ربما المورمونيّان، وسيأتيان بالأنباء الطيبة التي كنا ننتظرها. سنذهب كي نرى، أليس كذلك؟"

من المطبخ، قالت أمي: "من هذا؟" وسقط صحن من يدها عل الأرض وتكسّر إلى قطع في الوقت الذي كان أبي يفتح فيه الباب للأنباء القادمة.

(29)

يجب أن يُحْسَب الزمن بشكل مختلف الآن، ففي اليوم التالي والنصف، حتى يوم الاثنين ظهراً، مرّتْ الساعات راكضة بطريقة مشوشة. أتذكر التفاصيل ولكن القليل من الروابط بينها. فحتى الآن كان الوقت متناغماً تقريباً، ونظام حياة العائلة متواصلاً. وحتى الآن أظنّ أن اليومين التاليين لم يحدثا، أو أنني حلمتُ بهما، أو أسأتُ تذكرهما. غير أنه من الخطأ أن ينسى المرء حتى الأحداث السيئة، كما لو أن بمقدوره العثور على طريقه إلى الحاضر بأية وسيلة أخرى.

كانا رجلان ضخمان يقفان في الرواق حين فتح والدنا الباب الأمامي. خرجت أمنا من المطبخ وجلست إلى طاولة غرفة الطعام. حقيبتها قرب الأريكة، حيث بيرنير ما تزال جالسة بحقيبتها الخضراء بين قدميها. كنت في

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الرواق حاملاً حقيبتي القرنفلية التي فيها قطع الشطرنج وكتبي. لم تزعج أمنا نفسها بجمع قطع الصحن الذي أسقطته.

"مرحباً، يا بيف"، قال أحد الرجال من الباب الخارجي. كان الاثنان يرتديان بذلة وأزرارهما الأمامية مفكوكة. كلاهما يعتمر قبعة بحواف خاصة بالملابس الصيفية. كان كبيري الجسم، أكبر من أبي، ولكن ليسا أطول منه. إنهما الرجلان اللذان كانا يلاحقاننا في الفورد السوداء، وكانا في الزقاق خلف منزلنا حين ظننتُ أنني كنت أحلم. يمتلك الرجل الأضخم والأكبر وجهاً دهنياً ناعماً محمرّاً بحاجبين ثقيلين وعنق سميك يصل إلى ذقنه. كان الشخص الراكب، والذي أشار إليّ. إنهما من الشرطة.

ألقى والدنا نظرة خلفه نحو أمنا. ابتسم كما لو أن الشرطيين اللذين يعرفان اسمه وأين نعيش مضحكان.

"ما سبب كلّ هذه الفوضى يا أولاد؟" قال أبي بطريقة مبالغ بها. تحرك الرجلان إلى المدخل. كانا ضخمين بحيث لا يستطيعان الدخول وهما إلى جانب بعضهما فاستدار كل واحد قليلاً.

"لا يوجد أية فوضى، يا بيف"، قال رجل الشرطة الكبير ودخل أكثر، ملقياً نظرة وراء والدنا على أي شيء آخر كان داخل غرفة جلوسنا. بدا كأن فمه على وشك الابتسام ولكن ليس بشكل كامل. الرجل الآخر أصغر وأنحل ولكنه ضخم بوجه عريض وعينين زرقاوين مشدودتين. قيل لي إن هذه النظرة تعني أن الشخص هو من أصل فنلندي. كان ينظر إلى الداخل أيضاً. "من يوجد أيضاً هنا، يا بيف؟" قال رجل الشرطة الأكبر. تراجع والدي خطوة إلى الوراء وأبعد يديه عن جانبيه ونظر في الغرفة بنفسه.

"نحن فقط"، بدا مسترخياً حيال ما كان يحدث.

"لديك مسدس، أليس كذلك؟"، مدّ رجل الشرطة الكبير يده الضخمة ولمس كتف والدي. دخل الاثنان إلى غرفة جلوسنا الآن. بدت ممتلئة، ذهب كلّ فراغها. ستة أشخاص. لم يكن هناك أبداً ستة أشخاص فيها من قبل. استطعت سماع رجل الشرطة الأكبر سناً يتنفّس.

"أنا متأكد من أنه ليس عندي". نظر والدي أمامه كما لو أن المسدس سيكون هناك. "لا أملك مسدساً". كان في صوته المزيد من لكنته الجنوبية الآن.

"أليس في المنزل في مكان ما؟" كانت نظرة رجل الشرطة تدور في المكان. كبّرت عدستاه عينيه الزرقاوين الشاحبتين.

"كلا، سيدي، ليس في المنزل"، هزّ والدي رأسه.

"هل زرت مؤخراً نورث داكوتا، يا بيف؟" لم يتصرف رجل الشرطة الكبير على نحو جدي، كما لو أنه في محادثة عادية. خطا عابراً والدي نحوي، حيث كنت في المدخل. عبرني مائلاً ونظر عبر الردهة إلى الحمام وإلى غرفة نوم والديّ. حدق رجل الشرطة الأطول والأصغر بوالدي كما لو أن هذه وظيفته.

"كيف أحوالك، يا ولدي؟" وضع رجل الشرطة الكبير يده الكبيرة على كتفي. فاحت منه رائحة السيجار والجلد. كان يرتدي بوطاً مطاطياً عليه طين. خرجت بعض نثرات الطين منه ولوثت أرضيتنا النظيفة.

"جيد"، قلت. ثمة شارة ذهبية مثبتة على حزام بنطلونه تحت معطفه، وبطنه مشدود تحت قميصه الأبيض. لديه دبوس ذهبي أصغر في طية صدر سترته.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

قال بطريقة وديّة: "هل أنتم ذاهبون في رحلة؟"

نظرتُ إلى أمنا. قالت: "ذاهبون إلى سياتل بالقطار اليوم. كي يشاهدا جديهما".

قال أبي: "لم أذهب إلى نورث داكوتا".

أبقى رجل الشرطة الكبير يده على كتفي. نظر نظرة تقييمية إلى المطبخ حيث كان الصحن المكسور على مشمع الأرضية. "هل هذه سيارتكما الشيفروليه التي في الخارج؟"

قال والدي: "نعم، سيارتنا. لم أملكها منذ فترة طويلة".

"ولكنك كنت تملكها منذ يومين، أليس كذلك؟"، قال رجل الشرطة. لم أرغب بالحركة ويده عليّ.

"آه، نعم"، قال والدي. ابتسم لأمي كما لو أن هذه مسألة مسليّة. ملامحه حية على وجهه، عيناه متوثّبتان، وبدا كأن فمه يتحرك قبل أن يتحدث، وثمة قرص من البصاق على زاويتي شفتيه. لعق واحدة وحرّك عضلات فكه. كانت كلتا يديه تتأرجحان على جانبيه كما لو أنه على وشك القيام بشيء غير متوقع.

"اذهبا أيّها الولدان واجلسا في غرفتيكما"، قالت أمنا.

نهضت بيرنير على الفور، التقطت حقيبتها الصغيرة، وسارت نحو الردهة ولكن رجل الشرطة الكبير رفع يده وقال: "أظنُّ أنه من الأفضل أن يبقيا". شدّني نحوه فشعرتُ بمسدسه تحت معطفه. توقفت بيرنير ونظرت إلى أمنا. صنع فمها خطاً مجعّداً، مما عنى أنها متضايقة.

"افعلا كما قيل لكما"، قالت أمي. عادت بيرنير بتصلب إلى الأريكة

وجلست عليها واضعة حقيبتها على ركبتيها.

سار الشرطيّ الكبير إلى البيانو الكبير وانحنى كي يلقي نظرة متفحّصة على أمر تسريح والدي وصورة الرئيس روزفلت والمترونوم.

"هل ما زلت تملك بزة القفز المظلّي؟"، دفع رجل الشرطة نظارته إلى الأسفل إلى قمة أنفه ونظر بتمعن إلى أمر التسريح وكأنه أعجبه.

قال والدي: "كلا، حصلت على درج ملابس أفضل. فأنا أعمل في مجال بيع المزارع الآن". لم أمتلك فكرة لماذا كذب في هذا.

"ما اسمك يا سيدة؟" سأل الشرطي الكبير وهو ينظر إلى بيرنير بينما رجل الشرطة الآخر أبقى عينيه على أبي.

"بيرنير بارسونز"، قالت بيرنير. بدا من الخطأ سماعها تذكر الاسم داخل منزلنا.

قال رجل الشرطة: "هل ذهبْتِ في رحلة إلى نورث داكوتا مؤخراً؟"، سألها الشرطيّ.

"كلا"، هزّتْ رأسها.

"لا تتحدثي معه"، قالت أمي، فجأة غاضبة. بالرغم من أنها بقيت في مكانها إلى الطاولة. "إنها طفلة".

"أكيد أنه ليس عليك التحدث معي"، ابتسم الشرطيّ لأبي بطريقة جعلت خديه، خدي الشرطي، الأحمرين ينتفخان وحاجبيه يرتفعان. دفع نظارته إلى الخلف فوق أنفه ووضع إبهاميه تحت حزامه ورفع بنطلونه، كاشفاً عن جوارب بيضاء فوق بوطه الملوث بالطين. أطلق تنهيدة. "ربما نستطيع أن نخرج يا بيف ونتحدث أكثر قليلاً. يستطيع بيشوب أن يسلي الجميع إلى أن

https://telegram.me/maktabatbaghdad

نعود". هزّ رأسه للشرطي الآخر، الذي ابتعد عن الباب.

"حسناً"، قال والدنا. كانت لكنته الجنوبية مميّزة جداً. كان ما يزال يؤرجح ذراعيه إلى الأمام والخلف وينظر من جانب إلى آخر كما لو أن الجميع يراقبونه. لم تكن هذه طريقة جيدة لرؤيته هكذا. بدا يائساً. لقد تذكرت هذا على الدوام.

مدّ الشرطي بيشوب يده إلى الخلف ودفع فاتحاً باب المنخل. كان ضوء الشمس قد تغلغل بين الأشجار وأدفأ الجوّ في الخارج، وقطرات مطر الليلة الماضية تلمع على مرجنا. كان اللوثريون يسيرون إلى الكنيسة. سار والدنا نحو الباب مع الشرطي ذي الكرش الكبير الذي يوجّهه، يده على الجزء الضيّق من ظهر والدنا. "ما الذي سنتحدث عنه؟" قال والدنا وهو يخطو نحو الرواق. مرر يده في شعره ونظر حيث كان بوطه ذاهباً.

"حسناً، سنخترع موضوعاً ما"، قال الشرطي الكبير، وهو يتبعه.

صاحت أمنا: "يجب ألا تقول أي شيء".

"أعرف ذلك"، قال والدنا.

أغلق الشرطي الآخر بيشوب الباب الزجاجي الأمامي. لم أستطع أن أرى أي شيء آخر جرى في الخارج، ثم صرنا أربعتنا وحيدين سوية في منزلنا.

(30)

ربما أمضينا خمس دقائق، أو خمس عشرة دقيقة، في المنزل مع رجل الشرطة بيشوب. رنّ جرس الكنيسة اللوثرية عدة مرات أخرى. أغلقوا أبوابهم واستهلّوا خدمتهم.

كانت الشمس فوق السقف، وصار الجو حاراً وهادئاً في غرفة الجلوس. في الحالة العادية نشغل مروحة العليّة، ولكن لم يتحرك أيّ منا. وضعتُ حقيبتي على الأرض وجلستُ على مقعد البيانو. أبقت أمي عينيها عليّ، كما لو أن هناك شيئاً يجب أن أفكّر به لم أعرف ما هو. تساءلتُ ما الشيء الذي طلبتْ من والدي ألا يتحدث عنه. افترضتُ أن الشرطيين سيغادران بسرعة وسنتحدث عن الأمر. فاتنا القطار الآن.

وقف الشرطيّ الشاب وظهره إلى الباب الأمامي، ويداه في جيبي معطفه. كان يمضغ علكة، وفي نقطة معيّنة نزع قبّعته وحكّ جبينه بمنديل أبيض

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أخرجه من جيبه. شعره قصير، أبيض وأشقر تقريباً وبدا أصغر وهو يضع قبّعته. اعتقدتُ أنه في الثلاثين، بالرغم من أنني لم أعرف عن أعمار الناس. شعره ووجهه العريض وعيناه الضيّقتان لا ينسجمون مع بعضهم بعضاً، ولكنهم ملائمون لشرطيّ. بدا كمثل نوع الفتى الذي يمكن أن تحبّه بيرنير. في عينيه توحّش كمثل عيني رودي.

"هل تذهب إلى المدرسة؟"، سألني. واصلت أمي التحديق بي لكنها لم تتحدث. لم أعرف ما الذي أرادتني أن أفعله أو لا أفعله. بيرنير متشنجة في ثيابها. وضعت حقيبتها الخضراء على الأرض وتنهدت بعمق كي تشير إلى أنها فاقدة للصبر.

قلت: "نعم".

مسح عينيه بمنديله، طواه ووضعه داخل معطفه، ثم أعاد قبعته إلى رأسه. جعلته القبعة يبدو شاباً صغيراً جداً على ارتدائها.

قلت: "ميريويزر لويس".

قال: " أنت في المدرسة المتوسطة؟"، بدا مندهشاً. "لا تبدو كبيراً بما يكفي". نظرتُ إلى أمي. لا أعرف ما الذي كان يدور في ذهنها. قال بيشوب: "لقد ذهبتُ إلى هناك منذ خمس عشرة سنة. لدي بعض الأولاد الآن". نظر إلى أمي وترك عينيه تستقران عليها. قال لها: "هل أنت معروفة جيداً في غريت فولز؟" نقلت أمي عينيها إليه، ثم إلى يديها المطويتين على قمة الطاولة. فجأة وجّهت نظرتها إلى النافذة الأمامية حيث من المحتمل أن ترى أبي والشرطي الآخر. "هل أنتما الوالدان الطبيعيان لهذين الولدين؟" قال بيشوب، حين لم تجب على السؤال الأول. اتكأ على عضادة الباب،

عيناه على أمي كما لو أنها غريبة المنظر بالنسبة له، ولا بدّ أنها كانت هكذا.

قالت: "هل هذا من شأنك؟"

قال بيشوب: "كلا. لن أقول هذا". شدّ شحمة أذنه اليسرى وابتسم. نقلت أمي عينيها إلى النافذة ثانية.

ضحك رجل الشرطة في الفناء الأمامي، كما لو أنه هو وأبي يستمتعان بنكتة. استطعت سماعهما عبر الباب الزجاجي. جعلني هذا أفكر أنّ كلّ شيء على ما يرام الآن. قال رجل الشرطة: "آه، هذا قابل للفهم يا بيف. هذا عملنا".

قال بيشوب: "أنتما الاثنان لا تبدوان كلصّي مصارف، بل كشخصين يعملان في بقالية".

لم أستطع أن أحصل على نَفَس لرئتي عندئذ. فُتح فمي كي أتحدث ولكن الكلمات لم تخرج. أطبقتُ فمي وحاولت أن أتنفّس نفساً كاملاً. لم أرغب بالنظر إلى بيرنير.

قالت أمي: "هذا ليس من شأنك أيضاً".

قال بيشوب: "أنت هنا مخطئة".

كان شخص ما يتحدث في الجانب الآخر من الباب. سُمع وقع أقدام ثقيلة على ألواح الرواق. بقيت أمي حيث هي إلى طاولة غرفة الطعام. بدأ قلبي يقرع في صدري. أردتُها أن تُعلن أن لا أحد هنا لصّ مصارف. بدلاً من ذلك، حدقت بي فحسب. قالت لي ولبيرنير: "أنتما الاثنان لا تذهبا إلى أيّ مكان. ابقيا في المنزل فقط. أتفهمان؟ لا تغادرا مع أحد عدا الآنسة رملنغر. هل هذا واضح؟" انتقلت يداها من يُسْراها تحمل يُمْناها إلى يمناها

https://telegram.me/maktabatbaghdad

تحمل يسراها.

فُتح الباب الأمامي فجأة ودخل الشرطي الكبير بخطوات واسعة حاملاً قبعته القشية بيده. كان رأسه تقريباً أصلع ومستديراً وفيه بقع حمراء. استطعتُ أن أرى والدنا في الخارج في المرج ويداه خلف ظهره، يبتسم نحو الباب الأمامي ويهزّ رأسه ويصيح شيئاً. اعتقدت أنه يصيح بي، ولكنني لم أستطع فهمه.

"ألن نذهب إلى سياتل؟" قالت بيرنير. كانت ما تزال تجلس على الأريكة بفستانها ذي الدوائر الواسعة. لم يكن بوسعها أن ترى من الباب.

قالت أمنا: "افعلا ما أقوله فحسب".

"سأطلب منك أن تقفي الآن يا سيدة بارسونز"، قال الشرطي الكبير. كانت مناداتها بالسيدة بارسونز غير متوقعة وصادمة.

حدث الكثير من الحركة في الغرفة آنذاك، الكثير من الفوضى: أحذية وكراس تحتك بالأرض، مادة تحتك بمادة، تنفّسٌ، والجلد يحتكُّ بالجلد. أخرج بيشوب زوجاً من الأصفاد الفضية، وتحرك هو والشرطي الأصلع حول طاولة غرفة الطعام ووضعا أيديهم على كتفيْ أمي. "هيا قفي يا نيفا"، قال الشرطي الكبير. وضع قبعته على الطاولة. لم تقف أمنا أو تتحرك، بل تصلّبت ولم تتفوه بكلمة، رغم أن شفتيها انفرجتا. رجلا الشرطة على الجانبين رفعاها من ذراعيها وأداراهما إلى الخلف وشدّا يديها خلف ظهرها. لم تقاوم، ولكن يديها ارتجفتا، طرفت عيناها باستمرار خلف نظارتها، ثم نظرت إلى الأعلى. أخذ الشرطي الكبير الأصفاد وركّبها بحرص على رسغي أمي.

"لا تشدّهما كثيراً على السيدات"، ابتسم حين قال هذا.

واصل أبي حديثه في الخارج لوحده. "قد يكون هذا أكثر سوءاً الآن". خرج بعض اللوثريين من بناء كنيستهم وراقبوا. قال رجل يعتمر قبعة راع بقر شيئاً ما لم أستطع سماعه. صاح أبي: "حسناً، حسناً. غادر المعرض المدينة. غادر المعرض المدينة".

"لدي طفلان هنا"، قالت أمنا للشرطيين، اللذين بدآ يحركانها بارتباك حول طاولة غرفة الطعام، ويداها خلفها. ولأنها صغيرة، لم تصل يداها بسهولة إلى خلف ظهرها. ليس بسيطاً وصف ما رأيته. كانت رائحة سيجار الشرطي الكبير تملأ الغرفة، وكأنه يدخن. كان يتنفّس بتصلّب. لم تتحرك قدما أمي برغبة، ولكنها لم تصارع أو تقول أي شيء سوى أن لديها طفلين. صارت عيناها مثبتتين أمامها - ليس عليّ - كما لو أن ما تفعله صعب الأداء.

"آه، نعم، أعرف أنه لديك"، قال الشرطي الكبير، وهو يحركها تقريباً بشكل لطيف. "أعرف ذلك".

"أخبرونا إلى أين أنتم ذاهبون"، قالت بيرنير. بدت هادئة، لكنها مصدومة مثلي. لم نعرف ماذا نقول أو نفعل. "سنكون هنا حين تعودان"، قالت. كان الشرطيان يقودان أمي عبر الباب الأمامي ووالدنا على الرصيف، يتحدث كرجل مجنون. راقبتُ أنا وأختي كل شيء. ليس هذا حدثاً تستطيع تخيّل حدوثه.

نهضت عندئذ عن مقعد البيانو. بدا الوقوف وكأنه الشيء الذي يجب أن أفعله. كان قلبي ما يزال يخفق، ولكنني شعرتُ بالهدوء في الوقت نفسه،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كما لو أنه لا شيء حولي.

"تذكّرا ما قلته لكما"، قالت دون أن تنظر حولها. وصلوا إلى المدخل، وهي تحدق بقدميها، تهبط الدرجات الأمامية بحذر، ورجلا الشرطة يمسكان ذراعيها وهكذا بدت أصغر. "لا تذهبا إلى أي مكان إلى أن تأتي ملدريد كي تأخذكما".

استدار الشرطي الضخم إلى الخلف عند الدرجة الأخيرة وقال: "أحضرْ لي قبعتي يا بنيّ". كانت قبعته ما تزال على طاولة غرفة الغداء.

دخلتُ الغرفة، التقطت القبعة القشية الصغيرة التي كانت خفيفة على نحو مدهش وتفوح منها رائحة التعرق والسيجار. سرتُ إلى المدخل وسلّمته إياها. وضعها على رأسه الأصلع باليد التي لم تكن تمسك ذراع أمي.

قال: "سيأتي أحد ما كي يعتني بكما أيها الولدان".

لمع وجه أمي واستدار ناظراً إلي. جاءت بيرنير إلى الباب. في عين ذاكرتي، كان وجه أمي محاطاً بالظلمة. "اتركهما لوحدهما"، قالت في صوت غاضب. "لقد قمتُ بترتيبات لهما". كانت تخاطبني.

"إنها قضية أحداث"، قال الشرطي الكبير وجعل قبضته على ذراعها أكثر شدة. "لا علاقة لك بالأمر الآن".

حدقت فيه: "إنهما ولداي".

قال: "كان يمكن أن تفكري بهذا. إنهما تحت وصاية ولاية مونتانا الآن".

حرّك الاثنان أمي إلى الممرّ الاسمنتي حيث أبي، ويداه مكبلتان خلف ظهره، يضحك ويصيح. قطع من قصاصات الورق الأبيض عالقة على الممرّ الاسمنتي من البارحة.

"هل ستحضرون لي محامياً؟"، قال أبي. بدا في معنويات مرتفعة. "لا أعتقد أنني أعرف واحداً".

بدأ الشرطي بيشوب يقوده نحو سيارة الشرطة ويفتح الباب الخلفي. قال: "لن تحتاج إلى واحد يا بيف".

"تعرف أنه ليس عليك أن تفعل هذا، أنا لا أخمّن". كان أبي ينظر إلى الخلف إليّ. لا أخمّن. لم أسمعه يقول هذا من قبل أبداً.

"أنت مخطئ هنا"، قال بيشوب.

وفيما كانت أمي تُوضع في المقعد الخلفي لسيارة الشرطة، انزلقت نظارتها عن جانب من وجهها وأذنها فقام الشرطي الكبير الذي أمسك يدها بإعادتها إلى مكانها. نظرتْ إلى الخلف إليّ ثانية من باب السيارة المفتوح وصاحت: "ابْقَ في المنزل يا ديل. لا تذهب مع أحد سوى ملدريد. اهربْ إذا تطلّب الأمر".

"لن أذهب"، قلتُ. اعتقدت أنني رأيتُ دموعاً في عينيها.

كان والدنا يقف عند الطرف البعيد من السيارة، في الشارع، يُجْبَر على الدخول من الباب. فجأة نظر من فوق سقف السيارة. عثرتْ عليّ عيناه المتوحّشتان، وصاح: "لقد أخبرْتك. ما من شيء مميّز في أولئك القردة". وضع الشرطي بيشوب يده بشدة أكبر على قمة رأس أبي ودفعه بقسوة في المقعد الخلفي، حيث كانت والدتنا. قال والدنا شيئاً آخر، لكنني لم أستطع سماعه. أغلق بيشوب الباب. كان المزيد من الناس يراقبون وهم واقفون على درجات الكنيسة بعد أن خرجوا. كان مشهداً، أسوأ شيء يمكن أن يحدث، بأسوأ طريقة ممكنة.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

سار بيشوب نحو باب مقعد السائق في سيارة الشرطة. جلس الشرطيّ الأكبر والضخم في مقعد المسافر. كان وجه أمي هناك في المرآة الكاشفة للخلفية تتحدث بغضب ـ كما بدا ـ مع والدنا الذي يجلس إلى جانبها. لم ترني. دار محرك سيارة الشرطة واندفعت ببطء نحو زاوية الحديقة. وقفتُ في المدخل الأمامي وراقبت كل هذا وهو يجري. حدث الأمر. اعتُقل والداي وأُخذا بالسيارة كما لو أنّ الأمر عاديّ بالنسبة لي. توهجت الشمس في جداول منفصلة عبر أوراق أشجار البطم وكان الجوّ ثقيلاً وهادئاً. تصاعد أثر رائحة مازوت من فناءات الشحن. وفي سنترال، ارتفع صوت صفارة إنذار الشرطة مرة، وتسارع المحرك وانطلقت السيارة. ابتعدتْ سيارات أخرى في الشارع من الطريق. ثم عدتُ إلى الداخل بدلاً من أن أقف وأراقب وأشكّل مشهداً لجيراننا، الذين لا أعرفهم. لم أستطع في الحقيقة التفكير بماذا أفعل. لم أستطع أن أقف هناك. ثم انتهى ذلك الجزء من هذا.

(31)

ستظنُّ أن مراقبتكَ لوالديك وهما يُقيّدان، ويُدعيان بلصّي مصارف في وجههما ويُقادان بالسيارة إلى السجن، فيما تُتْرك أنت في الخلف، يمكن أن تجعلك تفقد عقلك، وأن تجري في غرف منزلك متشنّجاً ومُعْوِلاً وتُسلم نفسك لليأس، وأن لا يستقيم أي شيء بعد ذلك. قد يكون هذا صحيحاً بالنسبة لشخص ما. ولكنك لا تعرف كيف تتصرف في موقف كهذا إلى أن يحدث. أستطيع أن أقول إن معظم هذا ليس ما حدث، بالرغم من أن حياتنا تغيرت إلى الأبد.

حين دخلتُ إلى المنزل، كانت بيرنير قد ذهبت إلى غرفتها وأغلقت الباب. وقفتُ وحيداً وسط غرفة الجلوس ونظرت حولي، فيما قلبي يخفق بسرعة وقدماي تخزانني. فحصتُ الصور التي على الجدار، تلك التي كانت في

https://telegram.me/maktabatbaghdad

المنزل والقليلة التي لنا، صورة الرئيس روزفلت وأمر تسريح والدي. كان هناك حقيبتي التي فيها مقتنياتي؛ وحقيبة أمي؛ وحقيبة بيرنير التي عليها ختم التمساح. تركت نظرتي تجرد رفّ كتب أمي الصغير، ولغز شلالات نياغارا على طاولة لعب الورق، والبيانو المخدوش والقطع القليلة التي أحضرناها إلى غريت فولز من جناح مونتغمري للأثاث حين كنتُ في الحادية عشرة. لم يكن أي منها له قيمة. السجادة الفارسية الملوثة على الأرض، جهاز التلفزيون، جهاز تسجيل أبي، ورق الجدران ونموذجه المتكرر لزورق مبحر، السقف المبقّع بالتجهيزات الضوئية التي تشبه الفاكهة والميدالية التي أعجبت أبي. أنا مسؤول عنها حالياً، على الأقل. أحتاج إلى تقييم الأشياء على نحو ملائم، إلى أن أكون هادئاً ومنظّماً.

لم أفكر بوالديّ في تلك اللحظة، أو بطريقهما عبر النهر إلى الجسر. لم أتساءل عن المصرف الذي من المفترض أنهما سطيا عليه. من ناحية أخرى، لم يبد محتملاً أنهما لم يقوما بالسطو عليه، بما أنهما اعتُقلا من أجل ذلك ولم يقولا إنهما بريئان. افتقرتُ إلى فكرة متطوّرة عن السطو على مصرف والناس الذين فعلوا ذلك. لم يبد بوني وكلايد مثل والدينا، وكان الأخوان روزنبرغ، اللذان سمعت عنهما، مختلفين تماماً. والحقيقة، حين فكّرت بوالدينا في تلك الساعات الأولى، لم أفكر إذا كانا قد سطيا على مصرف أم لا؛ بل فكرت أكثر بأنهما تخطّيا جداراً أو حدّاً، وتُركتُ أنا وبيرنير في الجانب الآخر. أردتُهما أن يرجعا. حياتهما ما تزال حياتنا الحقيقية، الحياة الكبيرة. ما نزال نعيش بينهما. ولكن عليهما أن يعودا عبر الجدار كي تستمر الحياة. ولسبب ما، بدا كأنه مثير للشك أنهما سيعودان. ربما كنت ما أزال

أعاني من صدمة.

ما فكّرتُ به على الفور هو النقود التي تحت مقعد السيارة. شعرتُ بالذعر من أن أحداً ما، وخاصة الشرطة، قد يعثر عليها. إنّ المصرف الزراعي القومي، الذي كان اسمه مطبوعاً على الكم الذي يغلّف الأوراق النقدية، لم يعْنِ أيّ شيء لي. ذكر الشرطي الكبير نورث داكوتا، ولكنّ أبي أنكر الذهاب إلى هناك. ذلك أنه اشترى الشيفروليه منذ وقت ليس ببعيد، وهكذا ربما كانت النقود هناك طول الوقت ولا علاقة لها به أو بالسطو. لم أقم بأي ربط حتى الآن. ربما كان هناك رزم أخرى في السيارة. ويجب إخراجها منها بالرغم من أنني لا أعرف أين أضعها في حال عاد رجال الشرطة وفتّشوا المنزل، كما يفعلون حين يُسرق شيء ما.

خرجتُ من باب المطبخ ثم عبرتُ الفناء. زحفتُ من باب المقعد الخلفيّ الدافئ للبيل الاير، الذي لم يكن مقفلاً، وغصتُ بين الوسائد إلى أن شعرتُ بملمس الرزمة، باردة ومربوطة بإحكام. أدخلت يدي حتى الكوع، متحسساً براغي وقوالب الشاسيه والغبار والسخام. عثرتُ على علبة غير مفتوحة من علكة كبش القرنفل وزر، وظرف فارغ من مستشفى القديس باتريك، تركتُها كلّها هناك. لم أعثر على رزمة نقود أخرى هناك أو تحت المقعد الأمامي أو في علبة القفازات، وقررت أنه لا يوجد أي منها. وضعت التي عثرتُ عليها تحت مقدمة بنطلوني كما فعلتُ في المرة السابقة وزحفتُ خارجاً وأسرعتُ عائداً إلى المنزل عبر الفناء، آملاً ألا يكون رجال الشرطة بانتظاري. حالما صرتُ في الداخل وضعت الأوراق المالية (لم أفكّر بإحصائها، وكانت الأوراق في الأعلى من فئة العشرين) تحت صينية الآنية

https://telegram.me/maktabatbaghdad

في درج المطبخ مما جعل الصينية تتوضع مرتفعة مانعة إغلاق الدرج. وهكذا بعد أن فعلتُ هذا أمسكت الرزمة ونزعت غلافها وأخذته إلى المرحاض وأغرقته في الماء. كان هذا الشيء الصحيح الذي يجب فعله. كان والداي سيعتقدان أن هذه فكرة ذكية. أعدت الرزمة إلى الدرج، صنعتُ رزمتين من الأوراق ووضعتها إلى جانب بعضها مما جعل الدرج ينغلق بحيث لا يلفت الانتباه.

بعد ذلك عدتُ إلى الغرفة. (لم يصدر ضجيج عن غرفة بيرنير، ولم أرغب بالتحدث معها). أغلقتُ بابي وأنزلت الستار. أطفأت الضوء العلويّ واستلقيتُ في ثيابي كما فعلتُ في اليوم السابق. استلقيتُ هادئاً وراقبتُ صدري يرتفع ويهبط، شعرت بخفق قلبي في داخله، لاحظتُ تنفّسي وحاولت أن أنظّمه بأخذ شهيق عميق. قالت أمي إنه إذا فعلتُ هذا يمكن أن أعود إلى النوم إذا استيقظتُ في الليل بدماغ مزدحم، الأمر الذي يحدث لها غالباً كما قالت. اعتقدتُ أنني إذا نمتُ من الممكن أن تنتهي كلُّ هذه الحوادث حين أستيقظ. أو ربما كانت حلماً، وأنني سأستيقظ على متن القطار المتجه إلى سياتل، منطلقاً مع بيرنير ومع أمي إلى حياة جديدة حيث ستكون هناك مدرسة جديدة وسأتعرف على أشخاص جدد. كانت الثانية عشرة والنصف ظهراً. كانت ساعتي "البيبي بين" متأخرة عشر دقائق. رنّ جرس الكنيسة اللوثرية مرة أخرى. بدأ كلب يعوي في شارع آخر. الشمس مشرقة في الخارج، ولكن في غرفتي ظلال وبرودة. الطيور تصدح. وفي مكان ما سمعت شيئاً يقطر ويقطر. وكما هو متوقع، لم أعان من الأرق. نمتُ لوقت طويل.

(32)

كان الصوت حيّاً في المنزل حين استيقظتُ. افترضتُ أنهم الشرطة، يتحدثون مع بيرنير ويبدأون البحث عن النقود. هدأ قلبي. ولكنه بدأ يخفق فجأة. سيكون درج المطبخ أول مكان يفتشونه.

فتحتُ باب غرفة نومي فجأة، ناوياً أن أخيف أيّاً من كان هناك، وأجعله يهرب. ولكنها كانت بيرنير، في الردهة تتحدث بالهاتف، واقفة إلى جانب المقبس الصغير خارج غرفة نوم والدينا، تلبس بيجامتها التي عليها صور فيلة زرقاء، وحافية القدمين، تلف وتفك سلك الهاتف عن إبهامها، دافعة إصبعاً في شعرها الكثيف ومبتسمة لشيء تسمعه. كان صوتُها أعمق. وضعت مساحيق التجميل ثانية وأحمر الشفاه. "آه، نعم"، كانت تقول. "لا أعرف. هذه فكرة جيدة". بدا صوتُها كصوت أمي. لم أعرف مع من تتحدث، ولكنني افترضتُ أنه رودي باترسون، الشخص الوحيد الذي

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أعرف أنها تعرفه، وأخبرتني بما فعلاه.

أراحنى أن رجال الشرطة لم يكونوا هناك. خامرني شعور قوي بأنهم سيعودون في الحال. هذا ما قاله المحقق الأكبر في السن. ذهبت إلى النافذة الأمامية ونظرتُ إلى الخارج. كان شارعنا والحديقة خاليين في ضوء الشمس الرطب. أُغلقت الكنيسة اللوثرية، وسقط الظلّ على مرجنا على نحو جميل، وفي الحديقة، كان الفتى الأصم السمين الذي من أعلى الشارع، والذي شاهدتهُ من قبل، يرمي عصا لكلب لابرادور أسود يركض، ويلتقط العصا، ثم يحضرها ويرميها عند قدمي الفتى. ربت على رأس الكلب وقال له شيئاً ما. لم يكن هناك سيارات شرطة. كان الفتى يستدير أحياناً بشكل سريّ تقريباً وينظر إلى بيتنا.

سرتُ إلى نافذة المطبخ ونظرتُ إلى حيث كانت سيارة والدنا. لكنها لم تكن هناك. كان الفراغ الذي احتلته إلى جانب الكاراج كمثل صندوق من الهواء كانت فيه الشيفروليه منذ لحظة ثم اختفت. فتحت على الفور درج الآنية متوقعاً ألا أعثر على أي شيء. ولكن كانت هناك الرزمتان من فئة العشرين دولاراً تحت الصينية البلاستيكية، مما جعلني أدرك بأنني لم أكن أحلم وأن هذه الأحداث تحصل حقاً.

جمعتُ قطع الصحن المكسور الذي أسقطتْهُ أمي من قبل ووضعْتهُ في سلة القمامة تحت المغسلة. كانت كلها قطعاً كبيرة ولم تتطلب مكنسة. بعد وهلة دخلتْ بيرنير إلى المطبخ. بدت في بيجامتها التي عليها صور الفيلة غير متضايقة، كما لو أن البقاء في المنزل بهذه الطريقة أفضل، وأنها كانت تنتظر هذا الوقت وتنوي أن تستغلّ معظمه.

"قطروا سيارته. جاءت شاحنة ضخمة"، قالت ونظرت من النافذة الأمامية. "كلب كبير ظريف". راقبتْ الفتى يرمي العصا في الحديقة. أردتُ أن أنقل النقود. لم أكن أريد أن أفعل بها أي شيء. "لا أعتقد أنه سيأتي أحد"، قالت بيرنير. حكت مؤخرتها تحت البيجاما، فيما كانت تنظر إلى الفتى والكلب. كان شعرها منفوشاً من النوم عليه. "هذا يعني أننا نستطيع أن نفعل ما نريده".

افترّت شفتاها عن ابتسامة وضيعة، ونظرت إليّ مغمضة نصف عينيها وتنفست بالطريقة التي تتنفّس بها حين تتصرف على أنها المتفوقة. "سأفعل ما أريده"، قالت. "إنّ كل ما تفعله هو ما ترغب به". أشارت بيدها إلى أذنها وصنعت دائرة، ثم أشارت إليّ. "أنت معتوه"، قالت. غالباً ما كانت تقول هذا.

"ما الذي ستفعلينه؟"

"لا أعرف". فتحت باب البراد، نظرت في الداخل وأغلقته. "سيكون شيئاً ما. اكتفيت من عدم فعل أيّ شيء. رودي يريد أن يتزوّج".

"لا تستطيعين"، قلت. أعرف أنك لا تستطيعين القيام بهذا. كنا في الخامسة عشرة. كانت قد أخبرتني أنها لا تريد الزواج. قالت هذا البارحة.

"سيسمحون لك في بعض الأمكنة. سنذهب إلى مدينة سولت ليك، في يوتاه. إنها أفضل من هنا. بالرغم من أنه ليس عضواً في الكنيسة الآن".

شعرتُ بالقرف من سماع هذا. فقد جعل كل ما يتعلق بي وكل ما فكرتُ به يبدو واهياً. واقفة في مطبخنا في بيجامتها، تتحدث عن الزواج من رودي، ألقت ظلاً عليّ وعلى كل ما فكرت به، كما لو أن مصيري

https://telegram.me/maktabatbaghdad

سيكون مثل مصيرها، وبوسعك أن تمزّق خططي كمنديل مبلل وتراقبها وهي تختفي.

غير أنني لم أشعر بتلك الطريقة عن نفسي وعن خططي. أستطيع أن أفكر بخطتي الآن. سأكون نفسي مهما حدث. هدأ قلبي عندئذ، واعتقدتُ أن هذه إشارة إيجابية. لو أنني شعرتُ في الحقيقة أن كل شيء ضاع وأن حياتي انتهت لأنني مرتبط بأختي، لما عرفت ماذا أفعل، باستثناء أنه كانت لدي فرصة ضئيلة جداً للانطلاق من تلك اللحظة.

"لن أتزوّج في البداية"، قالت بيرنير. استدارت ونظرت من النافذة ثانية ثم ابتسمت ابتسامة عريضة مشوهة. "طلبت أمي مني أن أعتني بك". بزغت الدموع من عينيها في الحال. ربما بكيت أنا أيضاً. كان لدى كلينا أسباب لذلك. ولكنها أوقفت بكاءها. "أكره جرأتهما اللعينة"، قالت.

"لست مضطرة للهرب"، قلت. "أنا..."، كان شعوراً رهيباً ذاك الذي اعترانا.

"نعم، أنا مضطرة"، قالت. "أنا...". أردت أن أضع ذراعيّ حولها. بدا كأنه الشيء الأكثر طبيعية الذي يجب فعله كي أكون مسيطراً على كل شيء. بدأ الهاتف يرنّ في الردهة رنيناً قويّاً ومزعجاً دمّر هدوء المنزل. وهكذا مرّت اللحظة، أنا وبيرنير تقريباً متشبثان ببعضنا، الهاتف يرنّ ، ولا شيء آخر ينتبه إلينا.

(33)

ما بقي من الأحد جزء ليس واضحاً جداً. أذكر كلَّ شيء وكيف شعرتُ بالحرية في المنزل وبالراحة لوجودنا فيه أنا وأختي فقط. أكلنا بعض الطعام من البراد، معكرونة باردة وتفاحة. أكلنا ونحن ننظر من النافذة الأمامية إلى الحديقة في ظل أواخر الأصيل. مرت السيارات. واحدة أو اثنتان أبطأتا وأشخاص في الداخل نظروا من النوافذ إلى بيرنير وهي تقف هناك. لوّح أحدهم بيده ولوّحنا له. لم أفهم ماذا يمكن أن يعرفه الجميع عنا. لقد فعلتْ أمنا عين العقل بمنعنا من الاختلاط، لأنه إذا جاء أي شخص - شخص ما من نادي الشطرنج - كي يحدق بنا بغباء، فإنني سأشعر بالذل. والأسوأ من ذلك هو أنني لم أفعل أي شيء شخصي يشعرني بالذل سوى أن لي والدين.

وقبل أن يخيّم الظلام، قمتُ أنا وبيرنير بنزهة في الحارة، مخالفين

https://telegram.me/maktabatbaghdad

توجيهات أمنا بأن لا نغادر المنزل. فعلنا ذلك لأننا كنا نستطيع. لم يلاحظنا أحد. كانت جميع منازل الجيران صامتة ومغلقة بعد ظهر الأحد. بدت الحارة أجمل مما اعتقدت.

عدنا وجلسنا على الدرجات الأمامية وراقبنا السماء وهي تصبح أرجوانية اللون والقمر وهو يطلع وبضعة أضواء تلمع في نوافذ جيراننا. رأيت طائرة ورقية عالقة عالياً بين أغصان شجرة في الحديقة. تساءلتُ كيف يمكن إنزالها. توقعنا أن تأتي سيارة في أية لحظة ويترجّل منها غرباء يطلبون منا الذهاب معهم إلى مكان ما، ولكن لم يأت أحد.

لم نتحدث كثيراً عن والدينا. افترضنا كلانا، فيما كنا جالسين على الدرجات نراقب الخفافيش وهي تدور حول الأشجار المظلمة أمام القمر المحدب، والنجوم الشاحبة المرئية في السماء الشرقية، أنهما اقترفا ما اتُّهما بارتكابه. سيكون الأمر درامياً جداً لو لم يكن هذا صحيحاً. تلاشيا بين عشية وضحاها، الأمر الذي لم يفعلاه أبداً من قبل. اختفى المسدس، والنقود موجودة، والهنود يتصلون بنا ويمرون في السيارة قرب المنزل. ربما أردتُ لوقت وجيز أن يكون هذا صحيحاً ـ سواء كنت أستطيع قول هذا أم لا ـ كما لو أن والدنا بسطْوه على مصرف زوّد نفسه بشيء ما كان يفتقر إليه. ما عناه الأمر لأمنا كان مسألة أكثر صعوبة. قد يكون صحيحاً أيضاً أن بيرنير وأنا، في بعد الظهر ذاك، ربما فقدنا جزءاً من عقلنا يجعلك واعياً بشكل كامل لما يحدث لك حين يحدث. لماذا إذاً أصبحنا هادئين، وقمنا بنزهة؟ لماذا فكرت إذاً أن والدي أصبح أكثر أهمية لأنه سطا على مصرف ودمّر حياتنا؟ إن هذا لا يُفهم في غالب الأحيان. لا أحد منا فكّر

بأن يسأل لماذا سطيا على مصرف، لماذا حدث وبدا هذا كفكرة جيدة. بالنسبة لنا، صار هذا لتوه حقيقة من حقائق الحياة.

حين دخلنا في النهاية، كان الظلام مخيّماً بشكل كامل. البعوض في الجو. ورفرفت الفراشات على النوافذ، وبدأت الزيزان صريرها. توقفت مواصلات يوم الأحد كلها في سنترال. أقفلنا الأبواب وأسدلنا الستائر وأطفأنا ضوء الرواق. مهما كان ما فكرت به بيرنير، اعتقدتُ أن شخصاً ما سيأتي ويأخذنا، الشرطة، أو مسؤولو الأحداث، وأن الشرطة ستفتّش المنزل. قررنا ألا نسمح لأحد بالدخول، كما لو أننا الزوجة والزوج اللذان يعيشان هنا.

ذهبتُ إلى المطبخ وأخرجت النقود وأخبرتُ بيرنير أين عثرتُ عليها. لا أعرف إن كانت قد رأتها البارحة، ولكنها قالت إنها لم ترها. قالت إنها تعتقد أنها نقود سرقها والدانا ويجب أن نخبئها أو نرميها في المرحاض ونتخلص منها. أحصيناها على طاولة الغداء وكانت 500 دولار. لكنّ بيرنير غيّرتْ رأيها وقالت إننا يجب أن نتقاسمها فيما بيننا ويقرر كل شخص ما الذي سيفعله بحصته. سيتم اتهامنا بأية حال، لأن النقود لدينا، وهكذا يجب أن نحافظ عليها. قالت إنه ربما هناك المزيد منها مخبأ في المنزل ويجب أن نعثر عليها قبل مجيء الشرطة. دخلنا إلى غرفة نوم والدينا وبحثنا في محفظة أمنا، وفي الأدراج وتحت الفراش، في خزانة ثيابهما وأحذيتهما وعلى رفوف الخزانة حيث هناك أحذية أقدم وكنزات وقبعة والدي الخاصة بسلاح الجو. لم نعثر على رزم نقود، لكن محفظة أمي احتوت على

https://telegram.me/maktabatbaghdad

30 دولاراً مطويين. عثرنا أيضاً على ما دعته بـ "كتابها اليهودي"، الذي رأيته ولكنني لم أعرف أي شيء عنه. كان صغيراً وكان فيه ما قالت إنه كتابة بالعبرية، وكان في درجها السفلي مع بعض الصور لنا ونحن أطفال ومنظار لوحات (فيو ماستر) فيه بطاقة عليها صورة تاج محل، ووصفة نظارتها وبعض أقلام رصاص الفنانين وقصائدها ودفتر يومياتها، الذي لم نكن حتى ذلك الوقت نجرؤ على قراءته. كان للكتاب اسم لم أستطع لفظه حين نطقته يبدأ بحرف الهاء. لم أطرح المزيد من الأسئلة عنه أبداً. وخطر لي أنه لا يوجد مكان في المنزل يستطيع المرء أن يخبئ فيه شيئاً حيث لن يعثر عليه أحد، وأن الشرطة محترفة في العثور على الأشياء. لم يكن لمنزلنا قبو، ولم أكن راغباً في الصعود ثانية إلى العلية لأنها وكر للثعابين والدبابير. لم نستطع أن نخمّن أين النقود، فتوقفنا عن البحث في النهاية.

في علبة المجوهرات الجلدية الخاصة بأبي والتي زُيّنت بحرف واحد هو "بي"، عثرتُ على خاتمه من أيام الثانوية، الكبير والذهبي بحجر أزرق مربّع منقوش عليه حرف دي صغير، من ديموبوليس، وبحصانين صغيرين واقفين على قوائمهما الخلفية على كل جانب. قال إن ديموبوليس تعني في اللغة اليونانية "حيث كان الناس يعيشون"، وقد أحبها لأنها أشارت إلى أن الجميع متساوون. ارتديت الخاتم فلم يدخل إلا في إبهامي وقررت أنني سألبسه، بما أنه من غير المحتمل أن أمتلك واحداً خاصاً بي الآن. كانت رتبة النقيب الذهبية الخاصة به هناك مع ساعته اليدوية، والبطاقة الزرقاء والبيضاء التي عليها اسم بارسونز وبطاقات كلبه المعدنية وعلبة ورقية تحتوي على شرائطه الخاصة بالحرب. ارتديت السترة فبدت كبيرة

جداً عليّ وكان الجو حاراً في المنزل بحيث لا يمكن لبسها. ارتديتها في أوقات أخرى، وأشعرتني بالأهمية وأحببتها. لم يكن في جيوبها نقود. وحين كان والدنا يرتديها في الصباحات ويغادر المنزل إلى القاعدة، كان دائماً في مزاج رائق. كان هذا منذ بضعة أشهر فحسب. تلاشى ذلك الوقت الآن، بصرف النظر عن أنه لم يمر سوى وقت قصير.

أخذت بيرنير زوجاً من بنطلونات أمي الصوفية السوداء التي لا ترتديها إلا في الشتاء، وحملتها كي تعرضها أمام مرآة الباب كما لو أنها مسليّة. كانا صغيرين جداً عليها، ولكنها جرّبتهما. وعثرت على حذاء أسود مسطّح من القماش طلبته أمنا من مكان بعيد وضغطت قدمها البارزة العظام والكبيرة فيه وسارت في أنحاء غرفتهما منتعلة نصفه، الكعبان يضربان، ويقولان إن أمنا تفتقر إلى الإحساس بالأسلوب، وهذا لم يكن صحيحاً. كان لديها أسلوب خاص بها. لا بدّ أننا كنا نعرف أن والدينا لن يعودا، ذلك أننا لن نجرب ثيابهما ونضحك ونحاكيهما لو كانت ستسنح الفرصة مرة أخرى لحياة سوية.

بعد التاسعة تماماً، قُرع الباب الخارجي. اعتقدنا بالطبع أن رجال الشرطة أتوا فأطفأنا ضوء غرفة النوم. زحفتُ في الصالة على يدي وركبتيّ، في سترة والدي القصيرة، ثم زحفتُ دائراً إلى المطبخ. لا أحد يستطيع رؤيتي عبر زجاج الباب الأمامي. ذهبتُ إلى نافذة المطبخ ونظرتُ من فوق حافة الشباك في الفناء الأمامي المظلم، حيث القمر معلّق فوق ظلة من الأوراق والأغصان، ومنصب كرة السلة في الجهة الأخرى من الشارع، يرمي الظلال على أضواء الشارع. كان رودي باترسون يقف

https://telegram.me/maktabatbaghdad

على الممرّ الأمامي، طويلاً وطويل الذراعين وينظر إلى السماء، يدخّن سيجارة ويحمل كيساً ورقياً، ينتظر أن يُفتح له. كان يتحدث مع شخص ما لم أستطع رؤيته. اعتقدت أنه كان يغني. لم يكن مصباح الرواق مضاء.

عرفت أنه قادم كي يأخذ بيرنير بعيداً معه، وأن كل شيء مخطط له، وأنني سأُتْرك في المنزل وحيداً كي أواجه ما يحدث وأعتني بنفسي. سيذهبان إلى مدينة سولت ليك أو سان فرنسيسكو. هذا ما قرّرتْهُ. لم أعرف ماذا أفعل، ولكنني لم أنْو إدخاله. أردت أن يظلّ الباب مقفلاً وأن أبقى في المنزل مع بيرنير. لم أعتقد أنه من الأفضل لها أن تهرب. وكان الأمر نفسه يصحّ عليّ.

جاءت إلى باب الرواق ونظرت إلى الزاوية، كما لو أنها لا تكترث بمن يراها. "من هذا؟" قالت.

قلت:"إنه رودي. لا يستطيع الدخول. طلبتْ أمنا ألا نسمح لأحد بالدخول".

"لقد نسيتهُ"، قالت وتحركت خارج الرواق. "طلبتُ منه المجيء. يستطيع الدخول. لا تكن غبيّاً. أنا وهو نحب بعضنا". ذهبت مباشرة إلى الباب الأمامي وأدخلت رودي باترسون إلى المنزل.

مهما كان ما شعرتُ به حين رأيتُ رودي باترسون يقف في الممرّ في ضوء القمر، فإنه حين دخل منزلنا غيّر كلّ شيء، على الأقل لبعض الوقت. كان من نوع الفتيان الذين يحدثون تأثيراً جيداً. فحين دخل من الباب، توقف الزمن وتوقفت حياتنا معه. اختفى كلّ شيء في الخارج، كما لو أنّ

المستقبل والماضي وصلا إلى نهايتهما على الفور ولم يكن هناك إلا ثلاثتنا.

صار رودي صاخباً على الفور حين دخل. سار في غرفة جلوسنا يدخن سيجارته ويفحص الأشياء، الأشياء نفسها التي قمتُ بجردها باكراً في ذلك اليوم: البيانو، الصور على الجدران، أمر تسريح والدي، حقيبة أمي وحقيبتي الصغيرة ومقتنياتي التي فيها. بدا أكبر وأضخم مما رأيته في المرة الأخيرة، حين لعبنا كرة السلة في الحديقة وجلستْ بيرنير كي تراقبنا. كان في السادسة عشرة من عمره فقط وله شعر فوضوي مجعّد وأحمر وذراعان طويلان بنمش أحمر ويدان كبيرتان وثمة شعر على قفاهما، وشاربه الصغير الذي لا تحبه بيرنير. ثمة شرايين في عضلاته ذات الرأسين تحت كمي قميصه، وبراجمه مخدوشة ومكشوطة، كما لو أنه يزحف على الصخور أو ربما يقاتل. يرتدي بنطلوناً أسود ضيّقاً متّسخاً بحزام عريض وإبزيم نحاسيّ وغمد سكّين صغير على الجانب وينتعل بوطاً يصل إلى الكاحل سميكاً وأسود، من النوع الذي يرتديه الرجال في القاعدة الجوية أو حيث يعمل والده في المصفاة. كان يشبه قليلاً الفتى الذي كانت أختي تلتقي به في الصيف والذي أحببتُه لأنه كان لطيفاً معي. حدث له شيء غير عادي منذ المرة الأولى التي رأيتُه فيها. لا أعرف ماذا.

ولكنني ما أزال أحبّه ورأيت الآن كيف أنّ أختي يمكن أن تقرّر الهرب معه. بدا غامضاً وخطيراً. وفكرت أنها ربما فكرة جيدة أن أهرب معهما أيضاً ولا أواجه الغد والمجهول الذي ينطوي فيه.

وفيما كان يطوف في الغرفة، واصل رودي الكلام. لم يدخل أبداً إلى منزلنا من قبل. ربما جعله هذا عصبيّاً ويتصرف بطريقة مبالغ فيها. كان

https://telegram.me/maktabatbaghdad

يشرب، أيضاً. في كيسه الورقيّ ثلاث زجاجات من بيرة بابست، وكيس سيلوفان فيه فول سوداني غير مقشور، كان يأكله ويترك القشور على لغز شلالات نياغارا الخاص بأبي. كان معه أيضاً نصف لتر من ويسكي إيفان وليامز في جيبه الخلفي، والذي أشار إليه باسم "بيت". أحدث حضوراً معتبراً في منزلنا، الذي كان يمرّ في حالة غريبة.

عرف رودي أن والدينا في السجن وأننا وحيدان. رودي هو الذي كانت تتحدث معه بيرنير حين استيقظتُ، وقد أخبرتْهُ بما حدث. قال إن والده وزوجة والده لم ينسجما مطلقاً وأن المورمون مجانين. لم يؤمن بما آمنوا به. ابتكر المورمون لغة سرية، كما قال، يتحدثون بها فيما بينهم فقط. خططوا لاستعباد الكاثوليك واليهود، وسيعيدون الزنوج إلى أفريقيا أو يعدمونهم. ستُحرق واشنطن العاصمة إلى أن تستحيل رماداً. وإذا تركتَ الكنيسة المورمونية فإنهم يصطادونك ويعيدونك بالأغلال. أخرج "نصف اللتر"، شرب جرعة منه، لعق شفتيه، ثم سلّمه بشكل صادم لبيرنير، التي تناولت جرعة، ثم ناولتني إياه وتناولت واحدة. ابتلعتُ جرعتي على الفور، وكان عليّ أن أضغط أسناني كي لا أختنق. ضاقت حنجرتي واحترقتُ حتى معدتي، وتألمت هناك أكثر. تناولت بيرنير جرعة أخرى. لقد فعلتْ هذا من قبل. لم تعبس، وفيما بعد ربتت على شفتيها بأصابعها كما لو أنها أحبّته. ثم أعطاها رودي سيجارة، أشعلها لها ودخنتها وحملتها بعيداً عنها بين إبهامها وإصبعها الوسطى. كان هذا في غرفة الجلوس في منزلنا! منذ اثنتي عشرة ساعة كان والدانا هنا. كانت قواعدهما تحكم سلوكنا وتحدد كل ما نفعله. الآن رحلا، وكذلك

قواعدهما. كان شعوراً يسبب الدوار. شعرتُ بأنه خطرت لي فكرة سيئة حول ما ستكون عليه بقية حياتي.

جلستْ بيرنير على أحد كراسي غرفة الجلوس وراقبت رودي فحسب. كان سلوكه نوعاً من الأداء. سار في أنحاء الغرفة قائلاً إن والديه هدداه بأن يضعاه تحت الوصاية القانونية، وهذا أسوأ شيء يمكن أن يحدث. هذا يعني إرسالك إلى ميتم كبير في مدينة مايلز ويمكن أن يتبناك الغرباء ويجعلون منك ملكية خاصة لهم. وفي هذا السن لن يتبناه أحد، وهكذا سيكون سجيناً متروكاً مع الرفقة السيئة لأبناء مزارع وضيعين مات آباؤهم وأمهاتهم أو هجروهم، أو أولاد هنود قذرين آباؤهم منحرفون. إن حياتك ستُدمّر حتى لو بقيتَ على قيد الحياة. ظننتُ أن هذه هي النهاية التي كانت أمي خائفة منها والسبب الذي جعلها تطلب مني ومن بيرنير بأن لا نغادر مع أي أحد إلا الآنسة رملنغر.

فاحت رائحة سجائر رودي والويسكي والبيرة في غرفة الجلوس التي كانت نظيفة قبل وقت قصير. سنضطر إلى تنظيفها ثانية غداً. ذهبتُ وشغّلت مروحة العلّية، التي بدأت قعقعتها وسحبتْ بعض الدخان بعيداً. كانت جميع الأبواب والنوافذ مغلقة.

كنت ما أزال ألبس سترة سلاح الجو القصيرة الخاصة بأبي، وقال رودي إنه يودّ أن يجرّبها. خلعتُها، وارتداها، ولاءمته أكثر مني. كان لها أيضاً تأثير فوريّ فيه. سار في غرفة جلوسنا مرة أخرى بسيجارته وبيرته، كما لو أنّه ضابط، ومنزلنا منطقة لشن الحرب التي سيخوضها في الحال.

"أنا مستعد لإطلاق النار على كثير من الشيوعيين الآن"، قال بصوت

https://telegram.me/maktabatbaghdad

رسمي مصطنع كما فعل من قبل. اعتقدتُ أنه بدا سخيفاً قليلاً. كان جزء من حضوره الضخم قد بدأ يتلاشى، لكن حبي له استمرّ. ربما كنتُ ثملاً قليلاً أيضاً.

"هل لديكما أية موسيقا نستطيع الاستماع إليها؟"، قال رودي، معجباً بنفسه في مرآة الزجاج المدخنة المعلقة فوق الأريكة وكانت في المنزل حين أتينا إليه.

"لديه بعض الأقراص"، قالت بيرنير، قاصدة أبي.

"أودّ أن أستمع إلى واحد"، قال رودي. وضع يديه على ردفيه كصور الجنرال باتون التي رأيتها في موسوعة دليل العالم.

ذهبتْ بيرنير إلى الفونوغراف وأخرجتْ واحداً من أقراص والدنا القديمة المطاطية من الخزانة ووضعته في القرص الدوّار. كان هو الذي يقوم بأمور كهذه فقط.

في الحال بدأت فرقة غلين ميلر عزف إحدى الأغاني المفضلة لوالدي، "الإبريق البني الصغير". كان والدنا يحترم كثيراً غلين ميلر، لأنه مات في خدمة وطنه.

بدأ رودي بالرقص على الفور لوحده. دار وانزلق عبر غرفة الجلوس، مبتسماً وحانياً ركبتيه ورافعاً وخافضاً ذراعيه ودائراً في دوائر، البيرة في يد، وسيجارته في أخرى.

"يجب أن ترقص معي"، قال لي. رقص، وضع ذراعيه حولي وشدني نحو الأعلى من حيث كنت أجلس على مقعد البيانو. رقص معي نحو الخلف، دوّرني، صفّق بأصابعه، دفعني وشدّني، خطا على قدمي ببوطه

الأسود الكبير، مبتسماً وتفوح منه رائحة الويسكيّ والسجائر، يداه المكشوطتان تمسكان بين الحين والآخر كتفيّ ووسط ظهري. لم أرقص أبداً من قبل. ولم أعتقد أنني أرقص الآن في الحقيقة. لقد رقص أبونا وأمنا في ذاكرتي، ولكن ليس مؤخراً. إن الفرق بينهما في الحجم لم يجعل الأمور سهلة. كانت أمي تحب فنّ الباليه الروسي وتكره "أذواق قاعة الرقص الهابطة"، التي كان أبي يتقنها.

كانت بيرنير تعبس في وجهي وسيجارتها في فمها بينما كنت أنا ورودي ندور. استمتعتُ بذلك. قالت: "توقّفْ عن الرقص مع حبيبكَ، وارقصْ مع حبيبتك".

"أعطيتُ الفتى شيئاً مثيراً جداً الآن"، قال رودي، منقطع النَفَس ولكنه كان يتسم بوحشية. أفلتني وبدأ يرقص بالطريقة نفسها مع بيرنير، التي لم ترقص أفضل مني. كان رأسي يدور وشعرت بألم في معدتي قليلاً. جلستُ على الكرسي التي كانت تجلس عليها بيرنير، بينما كانا يرقصان حولي.

بعد "الإبريق البني الصغير"، كانت الأغنية التالية "ستار دست"، التي كان يستمع إليها أبي بانتظام. رقصتْ بيرنير ورودي بتصلّب على بعد ذراع في البداية. حافظ على تعابير جدّية كما لو أنه يركّز على حركة القدمين. بدتْ بيرنير ضجرة. ثم اقتربا أكثر، وكان واضحاً أنهما كانا قريبين هكذا من قبل. ظهر وجه بيرنير فوق كتف رودي وأغمضت عينيها. كانا تقريباً في الارتفاع نفسه ومتشابهين بطرق كثيرة، أكثر من التشابه بيني وبينها. كان كلاهما منمّشاً وعظامه كبيرة. حذاء بيرنير

https://telegram.me/maktabatbaghdad

التنس الأبيض ينزلق دائراً فوق السجادة في خطوة غير منسجمة مع بوط رودي، كلاهما يحمل سيجارته، ورودي يحمل بيرته. تناولتُ جرعة أخرى من ويسكي إيفان وليامز، التي كانت على الأرض، وعانيتُ مرة ثانية من ألم المعدة، ولكن النتيجة لم تكن سيئة كما في المرة الأولى وهدأتني من فورها، لكنني لم أدرك أنني كنتُ هادئاً. جلستُ على كرسي الذراعين الأخضر وراقبتُ بيرنير ورودي يرقصان معاً: رودي في سترة والدي الخاصة بسلاح الجوّ، وبيرنير تتمسك بعنقه. انتابني شعور بأن أحداً ما سيدخل من الباب الأمامي ويعثر علينا ندخن ونشرب ونواصل هذه الطرق التي يجب ألا نواصلها. ولكنني لم أكترث. كنتُ سعيداً. كنتُ سعيداً لأن بيرنير سعيدة. كان من الصعب دوماً جعلها مسرورة. في تلك اللحظة فحسب بدا وكأنني أشاهدُ والديّ يرقصان، وعاد كلّ شيء إلى سابق عهده.

بعد أن رقصا على إيقاع أغنية أخرى لغلين ميلر، احمرّ وجه رودي. كان يتعرّق وهو يرتدي سترة والدي. توقّف فجأة عن الرقص، خلع السترة ورماها على الكرسي، واستأنف السير قائلاً إنه لن يبقى فترة طويلة. وقفت بيرنير في وسط الأرضية تراقبه. قال إنّ لديه خطة للحصول على بعض المال في تلك الليلة، ولكن من الأفضل ألا يخبرنا الآن. (افترضتُ أنه سيسرق). قال إنه يمكن أن يذهب إلى سجن دير لودج إذا قُبض عليه، لأنه في السابعة عشرة. الناس يراقبونه، بينما في كاليفورنيا هناك الكثير من الناس بحيث لن يبين كما هو الأمر في غريت فولز، التي قال عنها إنها

"حفرة في الجحيم"، ويكرهها.

سأل بيرنير إن كان هناك ما يؤكل في المنزل، فكل ما تناوله هو الفستق الذي "أحضره" من بقالية الإيطالي، والبيرة والويسكي التي اشتراها من هندي بنقود أخذها من محفظة والده. قالت بيرنير إنه يوجد شرائح لحم بقر مجمّدة في الثلاجة، وقد أحضرها والدنا من القاعدة. تستطيع أن تطبخ بعضها. قال إن هذا سيكون رائعاً.

جلستُ أنا ورودي لبعض الوقت عندئذ في غرفة الطعام تحت الضوء العلويّ والستائر مسدلة بحيث لا يستطيع أن يرانا أحد من الخارج. كانت عائلتنا تجلس هناك منذ يومين. دخّن رودي وشرب بالتناوب من بيرته ومن زجاجة الويسكي. وضعت بيرنير شرائح بقر مجمدة في مقلاة كي تطبخها على "الويستنغهاوس"، وكان هكذا يسمّيه والدي. لم أرها أبداً تطبخ أيّ شيء ولم أعتقد أنها تعرف أن تطبخ. التقط رودي كتاباً عن رفّ أمّنا في غرفة الجلوس، قصائد آرثر رامبو، قرأ منه بيتاً أو بيتين. "في أراض حارة ومستنقعيّة، في خدمة الاستغلال الأكثر وحشية، صناعية وحارّة..." لقد تذكرت هذا. ما يزال رودي ودّياً وغامضاً بالنسبة لي. شعره الأحمر المجعّد وذراعاه المعرّقان عملا لصالحه في كونهما يبدوان غير عاديين. لم أعتقد أنه كان أذكى مني. لم يكن يلعب الشطرنج، هذا ما عرفته عنه. ولم يكن يعرف أيّ شيء عن أمكنة أخرى على الخريطة الكروية، وكنت أعرف. لم يكن لديه خطط للذهاب إلى الجامعة، بل كان يخطط للهرب. كنتُ متأكداً تماماً من أنه لم يقرأ تايم أو لايف أو مجلة ناشيونال جيوغرافي ولكن هذا لا يعني أنه يفتقر لذكائه الخاص. أضفْ إلى ذلك أنه يضع مدية

https://telegram.me/maktabatbaghdad

في حزامه ويرتدي بوطاً طبيّاً ويشرب ويدخّن ويخطط للحصول على ماله ويعرف عن المورمون، وفعل ما فعله هو وبيرنير في سيارة أبيه قرب المطار البلدي. كان هذا شيئاً ما.

قال رودي ونحن جالسون إلى المائدة إنه يتطلع إلى قدوم الشتاء في مناخ جديد، سيكون كاليفورنيا، حيث تعيش أمه الحقيقية. قال إن والده أخبره إنه كان يجب على الأرجح ألا يولد أبداً، أو على الأقل كان يجب أن يُولد لشخص ما لديه الكثير من الصبر. أطفأ سيجارته في زجاجة بيرته وأشعل أخرى (لم يكن في منزلنا منافض)، وتنبأ بأن المطاف سينتهي به في السجن. لم يبد كأنه تذكّر أن والدينا في السجن في هذه اللحظة وأننا ربما نشعر بعدم الارتياح نتيجة لذلك. قال إنه لم يصنع أصدقاء أثناء الوقت الذي قضاه في غريت فولز، وثمة خلل في بلدة لا تستطيع أن تصنع أصدقاء فيها. كانت هذه تجربة بيرنير وتجربتي، أيضاً، ولكنني اعتقدتُ أن الأمر كان يتعلّق بخوف أمّنا من الاندماج. نظر بحدة عبر الطاولة إليّ، ثم تذكّر فجأة الموقف الرهيب الذي أواجهه أنا وبيرنير، وقال إننا لم نفعل أي شيء سمع عنه يجعلنا نستحق هذا المأزق، والذي لم يكن أي شيء كما ظننتُ بأية حال. شعرتُ من قبل أنه لو أنّ والديّ سطيا على مصرف - مهما كانت الأسباب التي يمتلكانها من أجل هذا - فإن الخطأ هو خطأهما. كان هذا واضحاً بما يكفي. لم يذكر رودي التطوّع في المارينز أو التزوّج من بيرنير، الذي تم التحدّث عنه من قبل.

عادت بيرنير من المطبخ بشريحة لحم البقر في صحن أبيض وضعته أمامه. وضعت فيه شوكة وسكّيناً. لم يكن هناك سوى الشريحة. بدت

قاسية ومتخشّبة ومتغضّنة عند الحوّاف المحترقة حيث كانت سميكة. لم تبد شهية للأكل. وضعت بيرنير يديها على خصرها، دفعت ردفها جانباً وعبست وهي تنظر إلى الشريحة كما لو أنها كرهت شكلها. "لم أطبخ أي شيء إلا الحساء من قبل"، قالت. سحبت كرسياً وجلست مقابل رودي وواصلت تجهمها من الشريحة. ورغم أن مروحة العلّية تعمل، كان المنزل حاراً. كانت شفة بيرنير العليا مبللة. وكان رودي يتعرّق. انتشرت رائحة شريحة البقر المحروقة في الجو حولنا.

"تبدو عظيمة"، قال رودي. كان ما يزال يضع السيجارة في فمه. ظننت أنه كان يأكل ويدخن في الوقت نفسه. قطع الشريحة ولكنه لم يكن قادراً على أن يقطع كثيراً. جلسنا نراقبه. وضع السكين جانباً، وأخرج مديته ذات القبضة الحمراء من غمدها وقطع الشريحة بسهولة.

"إنها رائعة"، قال وأكل قطعة استطعت أن أرى أنها ما تزال متجمدة في الداخل. مضغ بقوة، واضعاً سيجارته على حافة صحنه. خرج الدخان من أنفه فيما كان يمضغ. شرب جرعة كبيرة من بيرته. ثم قطع قطعة أخرى، ولكنه استدار في كرسيه قبل أن يأكلها ونظر في الغرفة حوله، حيث كنا نرقص ونشرب الويسكي. كانت سترة والدي على الكرسي، وكان لغز شلالات نياغارا على طاولة لعب الورق وفوقه قشور الفول السوداني. حقيبتي التي فيها مقتنياتي وحقيبة أمي من الصباح كانتا في المكان نفسه طول اليوم، منذ أن جاء رجال الشرطة. بدا كأن رودي يريد أن يرى أن كل شيء متشابه.

استدار إلى شريحته فيما كنت أنا وبيرنير نراقبه وقطع قطعته إلى نصفين.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

جرّ بوطه على الأرض، كما لو أن الأكل يتطلب جهداً. أخذ سحبة أخرى من سيجارته، رفع ذقنه، أخرج سحبة دخان من فمه واستنشقها بأنفه على الطريقة الفرنسية، ثم وضع قطعة الشريحة الصغيرة في فمه بالشوكة ومضغ، مبتسماً وهو يفعل ذلك. "أعتقد" ـ تنحنح وبلع ـ "أننا نستطيع نقوم بالأمر بشكل جيد أيضاً إذا ما تشرّدنا. هذه وجهة نظري". لم أعرف بماذا كان يفكّر. لم أعرف ماذا تعني "إذا ما تشردنا".

قالت بيرنير:"أين يعتقد والداك أنك موجود الآن. هل يظنان أنك هربت؟"

قال رودي، وهو يمضغ بقوة: "على الأرجح. إذا انتشلني أحد من نهر ميسوري، فإنهما لن يأتيا حتى لرؤية جثتي". بدت هذه الكلمات كأنها تثيره، ونهض عن كرسيّه، مدية صيده في قبضة وسيجارته في الأخرى، ونفّذ ثلاث أو أربع طعنات في الجو فوق الطاولة. وفي كل مرة يطعن الفراغ يقول:"آه، آه، آه!" وعيناه تنظران شزراً كأنه يضرب شخصاً يكرهه. لم يكن هذا مؤثراً جداً.

عاد إلى الجلوس، قطع قطعة أخرى من شريحته وأكلها، متنفّساً بصوت مسموع. نظر إليّ وابتسم. ابتسامته ودّية. "هل تريد بعضاً من هذا، يا ديل؟ إنها فعلاً جيدة". دفع صحنه نحوي، والسكين والشوكة ما تزالان فيها. أبقى مدية صيده أمامه في حال أنه احتاج إلى طعن بعض الأشياء ثانية.

"لستُ جائعاً"، قلتُ، بالرغم من جوعي.

استدار وأعاد مديته إلى غمدها الصغير دون أن يمسح دهن اللحم وقال:

"لقد شبعتُ الآن". تناول قطعتين ونصف. مسح فمه بقفا يده ثم أطفأ سيجارته بكعب بوطه، لعق عِقب السيجارة ووضعها في جيب قميصه. سعل كي يغطي التجشؤ. "أستطيع أن أنام فوراً"، قال. غطّى فمه ثانية. "يجب أن أحصل على بعض النقود".

"من أين ستحصل على هذا؟"، قالت بيرنير. لم تتحدث كثيراً. كنا نراقب رودي كما لو أنه حيوان في قفص.

"إذا أخبرتكما ستصبحان شريكين، وستذهبان إلى السجن". نهض وعاد إلى غرفة الجلوس، رابتاً على بطنه كما لو أنه أكل وجبة من ثلاثة صحون بدلاً من قطعة من لحم البقر المثلج. وضع سيجارة جديدة بين شفتيه وأشعلها من علبة ثقاب ورقية أخرجها من الجيب نفسه. بدا كأنه يبحث عن شيء ما. ذكّرني بوالدي حين جاء من رحلة عمله. كنت أنا وبيرنير ما نزال جالسين إلى الطاولة، نراقبه كالمشاهدين. ربما كان لرودي قلب طيّب وعانى لأن والديه لم يحباه. لن يؤذي أحداً. ولكنه بدا غير موثوق وغريب الأطوار. فمه، حين لا يبتسم، يغوص نحو أسنانه الصغيرة ويجعله يبدو ماكراً، كشخص يجب ألا نعرفه، حتى ولو لم نكن شركاءه. كان رودي شخصاً أستطيع تخيله تحت تصرف قانون الولاية، مسجوناً في مشهد طبيعي فارغ كنسته الريح حيث هناك أسلاك شائكة وأشياء مريعة تحدث له، والهرب مستحيل. كنت ما أزال أرتدي خاتم والدي الخاص بالتخرج. حصانان ذهبيان على قائمتيهما الخلفيتين. تمنيت لو كان سحرياً ويجعل والدي يظهر ويسيطر على الأمور التي تحدث لي ولبيرنير. بالطبع، كان هو سبب كل هذا.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

"هل تريد أن تبقى هنا الليلة أم لا؟" قالت بيرنير بصوت وقح، وهمجيّ. لم يكن هذا شيئاً تستطيع قوله.

قلت: "هذه ليست فكرة جيدة".

"لا أعتقد أنها جيدة أيضاً"، كان رودي ما يزال يفحص الأشياء في غرفة الجلوس، دون أن يبدي أي اهتمام بدعوة بيرنير. أكيد أنه كان يبحث عن شيء ما يستطيع بيعه في حانوت قريب من القاعدة. ولكن لم يكن هناك شيء في منزلنا للبيع. سترة أبي القصيرة. أشرطة غلين ميلر. المترونوم، الذي لن يتعرف عليه. ربما كان يبحث عن النقود التي معنا لكنه لم يسمع بها. "سيأتي أحد ما للبحث عني. لن يكون جيداً إذا بقيتُ هنا". عبس في وجهي كما لو أننا اتفقنا، ووضع إبهاميه تحت حزامه.

قالت بيرنير مستاءة: "أنت هنا الآن. ما الفرق؟"

"الفرق هو أنه لم يأت أحد". فحص مرة ثانية أمر تسريح أبي من سلاح الجو، المؤطر إلى جانب صورة الرئيس روزفلت، الأمر الذي فعله الشرطي أيضاً. إذا كان يريد الصور، يستطيع أخذها. أردته أن يغادر قبل أن يأتي أحد ما.

"إن أبي يكره روزفلت"، قال رودي. يلفظ اسمه "رو"، كي تتناغم مع زو (حديقة الحيوانات). نظر إلي كما لو أنه يريد رأيي. "يعتقدُ أنه خان البلاد. زوجته شيوعية وتشعر بالأسف على الجميع، وخاصة الزنوج". لم أسمع تلك الكلمة تُنطق كثيراً. فتى في المدرسة والده طبيب تفوّه بها. لم يتفوه بها والدنا أبداً. لم يكن يكره الناس، ولم نفعل نحن.

"هل أنت باق هنا أم ذاهب؟"، قالت بيرنير بحدة. نهضت والتقطت

صحن رودي عن الطاولة.

"أنا لدي نوبة ليلية اليوم"، قال، كما لو أنه يريد أن يكون مسترخياً حيال الأمور. ظننتُ أنه سينزل صورة الرئيس روزفلت ويأخذها معه. سار إلى الطاولة في نهاية الصوفا، التقط كيسه الورقي بما تبقى من بيرة وسار إلى الباب الأمامي. عبرتْ سيارة منزلنا وأطلقت بوقها. كانت الساعة بعد الحادية عشرة. صاح أحدهم في ليل الصيف الدافئ: "أنتم أيّها السجناء، أنتم أيّها السجناء". أطلقت السيارة بوقها ثانية. ضحك أحدهم. ثم أسرعت السيارة واندفعت بعيداً بصخب.

"لن نراك أبداً مرة أخرى، أهذا هو الأمر؟"، عبست بيرنير، حاملة صحن رودي. "ليس عندي مشكلة في هذا".

"سأعود وأنت تعرفين هذا"، قال رودي. أراد أن يظهر كرجل ناضج أمامنا. وكما قلت، إن شعره الأحمر وسجائره وذراعيه المكشوطين وبراجمه عملوا لصالحه. "أنا وأنت سنخرج من هنا من أجل أمر جيد. أنا رجل يحترم كلمته".

"لستَ رجلاً. أنت في السادسة عشرة"، قالت بيرنير.

"لن أكون الأسبوع القادم. لن يكون عليك الانتظار طويلاً كي تعرفي كل شيء عن هذا"، تلاشت ابتسامة رودي. وقف ممسكاً قبضة الباب الزجاجي، كما لو أنه يعتذر، وكنا نصدر الحكم عليه. وهذا ما كنا نفعله. "عليك فقط أن تصبري". شد الباب إلى الخلف.

قالت بيرنير:" إلى هنا وصلت الأمور حتى الآن". استدارت وسارت إلى المطبخ.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

"لا تدع أي شخص آخر يدخل إلى هنا يا ديل؟"، قال رودي، متجاهلاً لها. "سيأتون كي يأخذوكما إذا استطاعوا".

قلت: "لقد نبّهتنا أمي إلى هذا من قبل".

أخرج رودي سيجارته من فمه، تنحنح، نفخ الدخان في الغرفة، وألقى نظرة سريعة حوله، مندهشة تقريباً، إلى أي شيء قرر ألا يأخذه، ثم خطا خارج الباب وأغلقه بشدة. كانت بيرنير قد بدأت بجلي الصحون في المغسلة. توقعتُ أن هذه آخر مرة سأشاهد فيها رودي باترسون، وأسعدني ذلك، فهو لم يساعد في أيّ شيء، وبالرغم من عدم توفّر طريقة لمعرفة ما الذي حدث فيما بعد، فقد تبيّن أن هذا صحيح.

(34)

في تلك الليلة، ليلة الأحد، رتّبتُ أنا وبيرنير المنزل، جلينا الصحون، أزلنا أعقاب السجائر وقشور الفول السوداني وزجاجات البيرة، ونظّفنا الطين الذي لوّث الأرض من أحذية رجال الشرطة، ذلك أن هذه الأشياء جعلت المنزل يولّد شعوراً بأنه سيئ. أزلنا لغز شلالات نياغارا، ونقلنا طاولة الورق ووضعنا الخريطة الكروية على خزانة ثيابي، علّقنا سترة سلاح الجوّ الخاصة بأبي في الخزانة ووضعنا حقيبة أمي وحقيبة بيرنير حيث كانتا، ووضعنا حقيبتي في غرفتي.

لم نتحدث كثيراً. استنتجتْ بيرنير أنها لن ترى رودي ثانية، وأن المرء يكون محظوظاً إذا خرج أشخاص مثله من حياته، على الأقل في تجربتها (التي لم تكن شيئاً). لم يحبّها، ولم تكن تحبّه أيضاً من أجل الحبّ. قلتُ إنني أحببته جيداً بما يكفي، ولكنها ستكون أفضل إذا لم تهرب معه وبقيتْ هنا إلى

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أن يعود والدانا. كنت أحاول أن أؤكد نفسي كرجل المنزل، متولياً مسؤولية أشياء لم يكن أحد قادراً على السيطرة عليها.

بردت غرفتي بعد أن ذهبت الشمس من فوق السقف. شغّلتُ مروحة العلّية واستلقيتُ في ضوء القمر المكسّر وركّزت على والديّ. أردتُ أن أُهدئ قلبي ذلك أنه خفق بقوّة طيلة اليوم، كما لو أنني أجري وأدور في مسار.

كان والداي يتغيّران ثانية في تفكيري، يعبران معاً، ليس كما لو أنهما عثرا على الحب ثانية، بل كما لو أنهما كانا شخصاً واحداً فحسب وتخلّيا عن ما يميّزهما عن بعضهما. لم يكن هذا صحيحاً؛ كانا من كانا. وإذا كان اليوم صادماً ومشوّشاً لي، فقد كان أكثر سوءاً لهما. لكنّ الشعور بهذه الطريقة، أنهما أقلّ تميّزاً في ذهني، أراحني. وكما قلتُ، ربما فقدتُ جزءاً من ذهني في ذلك اليوم. إن فقدانك لعقلك ليس أبداً ما تفكرّ أنه سيحدث على الأرجح.

لم أعرف ما الذي من المفترض أن نفعله في صباح اليوم التالي، أو طول اليوم التالي. لو جاء أحد ما، سنبقى في المنزل فحسب. إذا جاءت ملدريد رملنغر، ستخبرنا ما الذي سنفعله. رنّ الهاتف عدة مرات وأنا في السرير. خرجت بيرنير مرة للرد عليه، متوقعة أنّ رودي هو المتصل ولكن لم يردّ أحد حين رفعت السماعة. ثم لم تجب ثانية.

في نقطة ما نمتُ تقريباً، وقلبي ما يزال يخفق على نحو غريب، ثم شعرتُ أن بيرنير أتت إلى الغرفة وصعدت إلى سريري، للمرة الثانية في أسبوع واحد. وكما قلت، لم ننم في السرير نفسه منذ أن عشنا في غريت فولز. ولكنني

اشتقتُ إليها حين نقلها والداي إلى غرفتها الخاصة، شعرتُ بالسعادة لأنها عادت. لم أذهب إلى فراشها أبداً. كانت ستغضب أو تسخر مني. ولكنني شعرت بسعادة غامرة لأنني لستُ وحيداً.

كانت تبكي وتفوح منها رائحة الدموع والسجائر. لم تكن ترتدي أية ملابس، وكان هذا صادماً. كان جلدها بارداً، وضمتني إليها وأنا أرتدي بيجامتي. جعلها البكاء أكثر برودة. تناولتْ يدي ووضعتها على بطنها. قالت: "دفّئني. لا أستطيع النوم". استنشقتْ بأنفها وتنهّدت. "شربتُ تلك الويسكي. إنها تبقيك مستيقظاً". اقتربتْ مني. شممتُ رائحة الصابون والفيكس ومعجون الأسنان والدخان في شعرها. ضغطتْ وجهها المنمّش على عنقي، خداها رطبان وباردان، وأنفها مسدود.

"كنت نائماً"، كذبتُ.

"عدْ إلى النوم، إذاً. لن أزعجك". صفر قطار في الليل. كان ذراعاي مطويين. أمسكتْ يدي.

"سأهرب لوحدي"، همستْ، أقرب إلى أذني. تنحنحتْ وبلعت وسحبت ما في أنفها إلى الخلف. قالت: "أنا مجنونة، لا أكترث بما أفعله".

لم تقل أي شيء لبرهة. استلقيتُ إلى جانبها، وأنا أتنفّس. ثم قبّلتني، فجأة، على عنقي، تحت أذني واقتربت مني. لم أكترث بتقبيلها لي. جعلني هذا أشعر بالأمان. حرّرتُ يدي وحركت يدها، التي كانت فظة وكبيرة العظام. "أردتُ أن أفعل الأمر الليلة مع رودي"، قالت. "ولكنني سأفعل الأمر معك".

"حسناً"، قلت. أردتُ أن أفعل ذلك. لم أكترث.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

"لن يستمر طويلاً. فعلنا ذلك من قبل في سيارته. يجب أن تعرف عن الأمر، بأية حال".

"لا أعرف عن الأمر مطلقاً"، قال.

"إذاً هذا جيد. لن يهم الأمر. ستنسى".

"حسناً"، قلت.

همست: "أعدكَ، ليس الأمر مهماً".

كان هذا الكلام كافياً، لا يتحمل التكرار، ولم يعن ما فعلناه سوى القليل، إلا بالنسبة لنا، وفقط في ذلك الوقت. فيما بعد في الليل استيقظتْ بيرنير ونهضت ونظرتْ إليّ وقالت (لأنني كنتُ مستيقظاً)، "أنت لست رودي".

"كلا. أنا ديل"، قلتُ.

قالت: "حسناً إذاً، أريد أن أودّعك فحسب".

قلت: "وداعاً. إلى أين أنت ذاهبة؟"

ابتسمت لي ـ أختي ـ ثم نامت ثانية وذراعاي حولها كي أحميها من البرد والخوف.

(35)

كان من الغريب الاستيقاظ في المنزل ووالدانا ليسا فيه. لقد استيقظنا في المنزل من قبل حين كان والدانا غائبين لمدة قصيرة، حين ذهبا كي يقوما بالسطو على المصرف، ولكن هذه المرة، في يوم الاثنين، كان كلُّ شيء مختلفاً. كانا في السجن، هذا ما افترضناه، ولم نمتلك فكرة عما سيحدث لنا.

نمتُ حتى الثامنة، إلى أن غمر ضوء الشمس غرفتي واستيقظتُ متعرّقاً. كانت مروحة الردهة تعمل ثانية. لم تكن بيرنير في سريري، فالأغطية إلى جانبي كانت باردة كما لو أنها غادرت منذ فترة. صوت هدير السيارات من شارع سنترال عبر الجدران. أقلعت طائرة فوق الهضبة في المطار. خطر لي أن بيرنير ذهبت، وأنني سأشقُّ طريقي في النهار وحيداً.

كانت في المطبخ، حين ارتديتُ ثيابي. أعادت طبخ شرائح لحم البقر من ليلة أمس وأكلتْ جزءاً منها وتركتْ قطعة في صحن لي، أكلتُها مع الحليب

https://telegram.me/maktabatbaghdad

البارد. كانت رائحة البيرة والسجائر ما تزال تفوح من المنزل. واعتقدت أننا يجب أن نخرج القمامة قبل أن تزداد الحرارة.

ارتدت بيرنير شورت البرمودا، الذي نادراً ما لبسته من قبل وأظهرت ساقيها المنمّشتين الخاليتين من الشعر وقدميها الطويلتين. انتعلت حذاء التنس وبلوزة بحار بعد أن استحمّت. مشّطت شعرها ورفعته بشريطة مطاطية حمراء. لم نتحدث عما حدث في الليل. لم تبد مستاءة من الأمر، ولا أنا. لم نكن نفس الشخصين السابقين، وكان هذا جيّداً من وجهة نظري.

"يجب أن نزورهما"، قالت بيرنير، غاسلة صحنها وصحني في المغسلة، محدقة من النافذة إلى الفناء الجانبي، إلى شبكة البدمنتون، ومنزل الجار، وأحد أعمدة حبل الغسيل. "إذا لم نذهب سيُنقلان إلى مكان ما، ولن نراهما أبداً". بأصابعها المبللة التقطت جريدة ورمتها على الطاولة حيث كنت أجلس. "ترك لنا أحدهم هدية ظريفة من تحت باب المنخل في الرواق".

كانت صحيفة تربيون لذلك اليوم، مطوية كي تبرز صورتين لوالدينا، منفصلين، إلى جانب بعضهما، التُقطتا في السجن. "سجن مقاطعة كاونتي"، برقم تحتهما. كان شعر والدنا الأسود غير مرتّب، لكنه يبتسم. وكان فم أمّنا متوتّراً ومُداراً إلى الأسفل بطريقة لم أرها أبداً من قبل تظهر بها. ترتدي نظارتها وعيناها قريبتان من بعضهما ومفتوحتان بشكل واسع وتحدقان نحو الخارج، كما لو أنها تنظر إلى مشهد مريع. العنوان الرئيسي كالتالي :"لصّا مصرف نورث داكوتا". إن من ترك الصحيفة ثبّت إليها رسالة على قمة الصفحة مكتوب عليها:"اعتقدت أنكما ستحبان رؤية هذه. أنا متأكد من أنكم فخوران بهذا جداً".

فوجئتُ أن أحداً ما فعل هذا. ارتجفتْ يداي حين رأيتها. سرق والدانا المصرف الزراعي القومي في كريكمور، في نورث داكوتا، يوم الجمعة الماضي في الصباح، كما روت القصة. استُخدم مسدّس، وسُرق مبلغ 2500 دولار، وهرب والدانا إلى غريت فولز واعتُقلا في منزل مستأجر في الجانب الغربي من البلدة. إن والدنا الذي وُضع اسمه بين علامتي اقتباس ("بيفرلي"، مثل اسم أمي "نيفا")، وُصف على أنه من "سكان ألاباما المحليين" الذي سُرح من سلاح الجوّ وقد راقبته شرطة غريت فولز لبعض الوقت مشتبهة بتورطه في جرائم تشمل هنوداً من محمية روكي بوي. وُصفت أمنا بأنها من ولاية واشنطن وأنها مدرّسة في فورت شو. لم تُعتقل من قبل، ولكن يجري الآن تحقيق حول جنسيتها. سيُرحّل الاثنان إلى نورث داكوتا الأسبوع القادم. لم يُذكر أيّ من الولدين.

كانت تُنشّف المغسلة من الماء. "إنهما كذّابان، مثل الجميع"، قالت.

لم أستطع تذكّر أي شيء كذبا علينا فيه. ثم فكرت بالمسدس. كانت قراءة هذه التفاصيل في الصحيفة مفاجأة مريعة، وسيئة بقدر المعرفة عنها. "سيُرحّلان"، كانت كلمة أعرفها من التلفزيون، وتعني أنهما لن يعودا. وكانت رزمة النقود هي التي سرقاها على الأرجح، ويجب ألا نحتفظ بها.

"إذا ذهبنا إلى السجن، سيمسكون بنا"، قالت بيرنير كما لو أنّها تصرّح بحقيقة. سارت إلى النافذة الأمامية التي تطلّ على الشارع والحديقة. كان ضوء الصباح حادّاً ومتألقاً على ظهر سيارة مصفوفة أمام الكنيسة اللوثرية. سحبٌ رقيقة تسرعُ فوق الأشجار في السماء الواسعة. "علينا أن نذهب بالرغم من ذلك. حتى ولو كانا كاذبين".

https://telegram.me/maktabatbaghdad

قلت: "نعم. أريد ذلك". لم أرغب بأن يتم تسليمي لسلطات الأحداث، ولكن لم يكن هناك خيار. لم يكن بوسعنا عدم الذهاب لرؤيتهما. "ما الذي سنفعله بعد أن نراهما؟" أرادت بيرنير أن تكون مطمئنة أننا سنهرب.

قالت: "سنذهب ونتناول العشاء في فندق رينبو وندعو جميع أصدقائنا ونقيم حفلة كبيرة".

لم تكن بيرنير تمزح أبداً، ولهذا قال والدنا إنها مثل أمّنا ليس فيها "عظم فكاهيّ". ولكن أن تقول إننا سنذهب إلى فندق رينبو وندعو أصدقاءنا جعلني أعتقد أنها ربما كانت تقوم بالمزاح طول الوقت، ولم يعرف أحد ذلك. لم يكن هناك شيء بسيط حيال بيرنير. استدارت إلى النافذة، طوت ذراعيها ونظرت إليّ، محدقة بقسوة في جبيني بالطريقة التي تفعل بها ذلك حين تريدني أن أعرف أنني لستُ ذكيّاً جداً. ثم ابتسمت. قالت: "لا أعرف ما الذي سنفعله. ما يفعله أطفال يُزجُّ والداهما في السجن. ننتظر حدوث شيء ما".

"آمل ألا يحدث شيء"، قلتُ.

قالت بيرنير: "ليس عليك الذهاب للبحث عنه. يعثر عليك حيث تختبئ".

من المحتمل أن بعض الناس يُولدون عارفين للأمور. فقد كانت بيرنير تعرف أن كل ما حدث في النهار والليلة الأخيرين حدث لنا، وليس فقط لوالدينا. كان يجب ألا أعرف هذا. كنت أصغر بكثير منها، بالرغم من أننا في العمر نفسه. مع مرور الأعوام، لن أعرف العالم جيداً بقدر ما عرفتْهُ هي، وهذا جيد وسيء في آن واحد معاً.

(36)

كان السجن يقع خلف مبنى محكمة مقاطعة كاسكيد، في سيكوند أفينيو نورث. عبرناه في السيارة قبل يومين مع والدنا. وعبرته على دراجتي في الطريق إلى حانوت الهوايات. كان بناء حجريّاً ضخماً مؤلفاً من ثلاثة طوابق بمرج واسع ودرج أمامي اسمنتي، عمود سارية، ورقم 1903 محفور على الأحجار فوق المدخل. أشجار بلّوط قديمة تظلّل الأعشاب. وعلى السقف المرتفع ينتصبُ تمثال لامرأة تحمل ميزاناً، عرفتُ أنه يرمز إلى العدالة. وحين تعبر بناء المحكمة ترى أحياناً سيارة الشريف، وشرطة يرافقون أشخاصاً مكبّلين إلى داخل وخارج البناء.

قمتُ أنا وبيرنير بجولة كاملة في الشارع قبل أن ندخل. أردنا أن نعرف إن كان بوسعنا رؤية نوافذ زنزانة من الشارع، لكننا لم نستطع. حين دخلنا إلى ردهة الاستقبال التي تُردِّدُ الصدى، كان أمامنا مباشرة لافتة مكتوب

https://telegram.me/maktabatbaghdad

عليها: السجن في القبو ـ ممنوع التدخين. لم يكن أحد آخر في الردهة. نزلنا مجموعة متواصلة من الدرجات إلى باب معدنيّ مدهون عليه بالأحمر كلمة "سجن". دخلنا من هذا الباب الذي أفضى إلى صالة تنتهي بمكتب مضاء وراء نافذة زجاجية. شرطي يرتدي بزة يجلس إلى مكتب خلف النافذة، يقرأ مجلة. خلفه، وكان هذا غير متوقّع، ترى الباب ذا القضبان والذي خلفه ممرّ اسمنتي تصطفّ فيه الزنزانات في جانب واحد. مقابل الزنزانات حائط طويل بنوافذ لها قضبان حديدية في الأعلى تسمح بدخول ضوء شاحب بدا منعشاً ومريحاً، بالرغم من أنه يجب ألا يكون المرء في مكان سيء كهذا. إن والدينا هناك في الداخل.

حين سرتُ أنا وبيرنير من منزلنا عبر جادة سنترال بريدج، عابرين مستودع ميلوكي رود، إلى مركز البلدة ثم إلى السجن، كان الصباح متألّقاً ودافئاً والسحب الرقيقة الغربية نفسها التي انبسطت فوق الجبال، تتجه شرقاً إلى السهوب. فاحت رائحة عذوبة من النهر في نسيم الصباح الحامي. مرة ثانية، كان الناس يركبون الزوارق فيه، في أواخر الصيف. أحضرنا كيسين ورقيين فيهما مستلزمات ظننا أن والدينا سيحتاجان إليها في السجن، أحضرنا موسى الحلاقة الخاص بوالدي، ولوح صابون، ومعجون أسنان وفرشاة أسنان، وأنبوب بارباسول، وزجاجة ولدروت، ومشطاً وفرشاة شعر. أحضرت بيرنير أشياء لأمّنا.

حين عبرنا نهر ميسوري كان هناك كثير من مواصلات صباح الاثنين. عبرتنا سيارة مرتين اعتقدت أن فيها ولداً أعرفه من المدرسة. لن يعرفنا أحد أنا وبيرنير، نحن الولدين اللذين يعبران الجسر، ويحملان كيسين ورقيين،

الشخصين اللامرئيين. ثانية، لو أنني اعتقدت أن شخصاً ما تعرّف عليّ وعرف أنني ذاهب إلى السجن كي أزور والديَّ المسجونين، فإنني لن أحتمل هذا. يمكن أن أقفز في النهر وأُغرق نفسي.

كان الشرطي الذي خلف الزجاج رجلاً كبيراً مبتسماً بشعر أسود قصير مفروق بعناية، بدا سعيداً لرؤيتنا. أخبرتْهُ بيرنير عبر الفتحة الخاصة بالحديث من نحن وأن والدينا سجينان، ونريد أن نزورهما مما جعل الشرطي يبتسم ابتسامة أعرض. غادر مكتبه ودار قادماً من خلال باب معدنيّ إلى جانب نافذته إلى الغرفة حيث كنا. كانت هذه نهاية الصالة فحسب وفيها كراس بلاستيكية مثبتة إلى الأرض، مدهونة باللون البني. كانت تفوح منها رائحة المعقّم الصنوبريّ، بالإضافة إلى شيء حلو مثل العلكة. كان السجن مكاناً تشمّه أكثر من أي شيء آخر.

قال الشرطي إنه يحتاج إلى رؤية "أغراضنا"، وكانت هذه كلمة يستخدمها والدي أحياناً. أريناه الكيسين فضحك وقال إنه جميل أن نحضر هذه الأشياء، ولكن والدينا لا يحتاجان إليها وقوانين السجن تمنع الهدايا. قال إنه سيحتفظ بها ونستطيع أخذها حين نعود إلى المنزل. كان رجلاً ضخماً، مدوّر الوجه يملأ بزّته البنية. كان أعرج مما اضطره إلى مدّ يده ولمس ساقه فوق الركبة عند كلّ خطوة. وفي كل مرة يفعل ذلك تصدر ساقه صوت طقطقة معدن. افترضت أن ساقه خشبية. إصابة حرب. عرفتُ عن هذا. لا يمكن أن يعمل في الشرطة إلا إذا وافق على أن يصبح سجّاناً. توقعتُ أن نرى بيشوب ورجل الشرطة الآخر ذا الوجه الأحمر اللذين اعتقلا والديّ، وأنهما سيتعرفان علينا ويتحدثان معنا. ولكنهما لم يكونا موجودين، مما

https://telegram.me/maktabatbaghdad

جعل تجربة زيارتنا أكثر غرابة.

حالما أخذ السجّان، الذي لم يقل لنا اسمه، كيسينا وجعلنا نفتح جيوبنا ونخلع أحذيتنا للتفتيش، عاد إلى مكتبه وجاء بمفتاح معدني كبير. بمفتاح آخر أصغر، فتح الباب الذي خرج منه والمكتوب عليه "قسم الزنزانات" وقادنا إلى الخلف. خلف الباب المعدني الأرض مدهونة بالأصفر الشاحب وشعرتُ من خلال حذائي أنها أكثر قسوة وأبرد من أرض بيتنا. بدا كأن كعبي حذائي يلتصقان بها. هكذا يشعر أي شخص مسجون في الداخل: إن سبب وجود السجن مناقض لسبب وجود المنزل.

بينما كنا نسير إلى السجن، تحدثتُ أنا وبيرنير عما سنقوله لوالدينا. ولكن حالما صرنا في الداخل، وفتح الشرطي الباب ذا القضبان خلف مكتبه مستخدماً مفتاحه المعدنيّ الكبير، لم نتحدث. تنحنحت بيرنير عدة مرات ولعقت شفتيها. ظننتُ أنها كانت تتمنى لو أنها لم تأت.

وراء الباب الأول ذي القضبان فراغ كبير بما يكفي فقط لثلاثتنا كي نقف فيه، وباب آخر له قضبان، يجعل الخروج مستحيلاً. في الداخل فاحت رائحة المعقّم الصنوبري نفسه ولكن ربما مع روائح طعام وبول، كغرفة الفتيان في المدرسة. تردد صدى صوت فتح الباب على الاسمنت. خرطوم مياه أسود ملفوف تحت صنبور في الحائط الطويل، والأرضية، التي لم تكن مدهونة هناك، رطبة ولامعة.

لم يكن أحد مرئيّاً في صفّ الزنزانات. صوت رجل - ليس صوت أبي - يتحدث بالهاتف في مكان ما. خارج النوافذ المرتفعة ذات القضبان مقابل الزنزانات، رُميت كرة سلّة نحو الهدف والأقدام تخبط. أحد ما - رجل

ـ ضحك، وارتدّت الكرة عن لوح معدني كمثل الذي في الحديقة حيث لعبتُ أنا ورودي باكراً في الصيف. وباستثناء الضوء اللامع الأخضر الذي يرشح من الخارج، كان الضوء الوحيد يأتي من لمبات مرتفعة في السقف الاسمنتي محمية بسلال من الأسلاك بالكاد تترك أي ضوء يصل إلى الأرض. المكان كمثل كهف مظلم. اعتقدتُ أنه منعش، غير أن وجود والدينا في الداخل خفف هذا الشعور.

"ليس لدينا الكثير من الزوار اليوم"، قال الشرطي الأعرج وهو يدخلنا من الباب الثاني ذي القضبان. لم يكن يحمل مسدساً. "يراجعون باكراً يوم الاثنين. اكتفوا من ضيافتنا. عادة ما نراهم ثانية". بدا مبتهجاً. كان هناك مذياع صغير على مكتبه، واستطعت سماع أغنية لإلفيس بريسلي بصوت منخفض. قال الشرطي: "نحن نعتني عناية خاصة بأمكما. والدكما بالطبع، رجل قوي". بدأ يقودنا في الممر الاسمنتي، الذي لمع في الضوء الأخضر والظلال. الزنزانات الأولى التي عبرناها فارغة ومظلمة. "لا نتوقع أن يظل والداكما معنا هنا طويلاً"، قال، ساقه تتكتك وتُرفع. كان يرتدي سمّاعة ملأت أذنه اليسرى. "سيُرحّلان إلى نورث داكوتا يوم الأربعاء أو الخميس".

ثم على نحو غير متوقّع كنا أمام زنزانة مشغولة، وهناك كان والدنا، جالساً في الظلمة الجزئية على سرير معدني نقال بفرشة عارية غطاؤها الأبيض يتساقط في قطع على الاسمنت. شيء ما جعلني أعتقد أنه مزّقها بنفسه.

"ينبغي ألا تكونا هنا أيّها الولدان"، قال أبي بصوت مرتفع، كما لو أنه يعرف أننا قادمان. نهض عن سريره. لم أستطع رؤيته جيداً ـ خاصة وجهه ـ بالرغم من أنني رأيته يلعق شفتيه كما لو أنهما جافّتان. كانت عيناه

https://telegram.me/maktabatbaghdad

مفتوحتين أكثر من المعتاد. واصلت بيرنير السير ولم تره. ولكن حين سمعت صوته قالت: "آه، آسفة"، وتوقفت وشاهدته أيضاً.

"لقد وثقتُ بالحكومة كثيراً. هذه هي مشكلتي الكبيرة"، قال، كما لو أنه كان يقول هذا لأحد ما من قبل. لم يقترب من القضبان. لم أعرف ما الذي عناه. احتوى وجهه على تعبير قلق مستنفد، وبدا أشدّ نحولاً، رغم أنه لم يمرّ سوى يوم واحد على وجودنا جميعاً في المنزل. كانت عيناه محمرتين وناتئتين كما يحدث حين يحاول العثور على شخص كي يسرّه. وصارت لكنته أكثر جنوبية مما كانت عليه. قال: "لم أفكِّر أبداً بقتل أيّ شخص، إن كان يوجد أي اعتبار لهذا، بالرغم من أنني كنت أستطيع". نظر إلينا، ثم جلس على سريره النقّال وبخفّة جمّع قبضتيه بين ركبتيه، كما لو أنه يُظهر أنه صبور. كان يلبس كما كان حين جاء رجال الشرطة: بنطلونه الجينز وقميصه الأبيض، حزامه الذي من جلد الأفعى أُخذ منه وكذلك بوطه. كان يرتدي جواربه المتسخة فحسب. لم يكن شعره ممشّطاً ولم يحلق ذقنه وبدت بشرته رمادية، تماماً كصورته في الصحيفة.

انتابني شعور من الهدوء عندئذ. ليس ما ستتوقّعونه. شعرتُ بالأمان معه حيث كان. نويت أن أسأله عن النقود. من أين أتت.

"أحضرنا لك بعض الأشياء الخاصة بالحمام، ولكنهم لم يسمحوا لنا بإدخالها"، قالت بيرنير بصوت مرتبك نبرته أعلى من المعتاد. يداها خلفها. لم ترد أن تلمس القضبان.

"لدي مرحاض هنا". نظر والدي إلى الجهة الأخرى من المكان الذي يجلس فيه، إلى مرحاض بلا غطاء، كان منظره ورائحته كريهين. حكّ

أحد رسغيه، ثم حكّ رسغه الآخر ولعق شفتيه ثانية كما لو أنه لا يعرف أنه يفعل ذلك. حكّ خدّيه براحتي كفّيه وأغمض عينيه، فتحهما.

"متى سيطلقون سراحك؟"، قلت. كنت أفكر أن بيرنير قالت إنهما كاذبان ويمكن أن يتذكرا أموراً أخرى. نورث داكوتا. بزة قفزه المظلّي الزرقاء.

"ما الأمر، يا بنيّ؟" ابتسم لي ابتسامة باهتة.

"متى سيسمحون لك بالعودة إلى المنزل؟"، قلتُ بصوت مرتفع.

"ربما يوماً ما"، قال. لم يبد مهتماً بالمسألة. حكّ يده عبر شعره كما فعل يوم السبت في السيارة.

"لا تتضايق حيال هذا الأمر. ألستَ مستعداً للذهاب إلى المدرسة؟"

"نعم، مستعدان"، قلت. بدا كأن لديه انطباعاً بأنه أمضى في السجن أكثر مما يجب. كان يعرف من قبل متى تبدأ مدرستنا.

"هل لعبتَ أنت وبيرنير الشطرنج معاً؟" لم يتحدث معها بعد.

"أين أمي؟"، سألتْ فجأة. اعتقدنا أنهما في الزنزانة نفسها. ثم قالت: "هل سرقتما مصرفاً؟"

"إنها في مكان ما هنا". حرك والدنا إبهامه نحو جدار زنزانته، كما لو أن أمنا خلفها. قال:"إنها لا تتحدث معي وأنا لا ألومها". هزّ رأسه. "لم أدعم نهايتي جيّداً. آمل أن لا يبدو هذا شيئاً عادياً لكما". لم يجب على سؤال بيرنير عن السطو على المصرف. أردته أن يجيب، لأنني تذكرت أنه قال من قبل:"أستطيع أن أحاول القيام بذلك".

قالت بيرنير:"لا يبدو ذلك".

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ابتسم لنا في الضوء الباهت. ستعتقد إذا زرْتَ والدك في سجن أنه سيكون لديك الكثير كي تقوله له. كانت بيرنير قد خططت لتسأل إن كانا يحتاجان إلى أيّ شيء، وإذا كان يجب أن نتصل بأحد ما، ومن سيكون هذا. عائلته؟ مدرسة أمي؟ كانت المشاعر التي انتابتني مخالفة لكلّ ما توقعت أن أشعر به. أوقف السجن كلّ شيء، وكان هذا ما يهدف إلى فعله.

"يجب أن نذهب ونرى أمكما الآن"، قال الشرطي من خلفنا. كان مذياعه ما يزال دائراً في نهاية صفّ الزنزانات. رأى أنه ليس لدينا المزيد كي نقوله ولم يرد أن يربك أحداً. بدأ شخص ما يتحدث خارج النوافذ العالية ذات القضبان. ارتدّت كرة السلة مرة أخرى وتوقفت. "هناك ذلك القمر الصناعي، في الأعلى هناك"، قال صوت رجل. "من قال؟" أجاب أحدهم. ثم قفزت الكرة مرة ثانية.

"إن السجن ليس مكاناً لكما كي تأتيا إليه أيها الولدان"، قال أبونا مرة ثانية، ناظراً إلى الأعلى إلينا بطريقة بدت قلقة. كان شريان في جبينه مرئياً.

قال الشرطي: "هذا صحيح. لكنهما يحبانك".

"أعرف ذلك. أحبهما"، قال، كما لو أننا لسنا هناك.

"هل تريد منا أن نتصل بأحد ما؟"، قالت بيرنير.

هزّ والدي رأسه وقال: "لننتظر بخصوص هذا الأمر. أنا أتحدث مع محام. يجب أن نذهب إلى نورث داكوتا في الحال".

لم تقل بيرنير أي شيء ولا أنا. كنت ما أزال أرتدي خاتمه من أيام الثانوية في إبهامي. وضعت تلك اليد خلفي، كي لا نتحدث عنه.

"أتمنى لو أملك بعض الوسائل لأجعلكما سعيدين أيها الولدان الآن"،

شابك والدنا يديه معاً وضغطهما. "أي شيء جيد أستطيع فعله هنا؟"

"يعرفان هذا، يا بيف"، قال الشرطي. كان يجب أن أسأل عن النقود عندئذ لكنني نسيت.

رنّ هاتف، صوته الحادّ تردد صداه في صف الزنزانات. وقفتُ أنا وبيرنير هناك بضع ثوان أخرى. لم نعرف ماذا كان من المفترض أن نقول أيضاً. كان من المفترض أن نأتي فحسب.

وضع الشرطي يده على ذراعي والآخر على ذراع بيرنير وحركنا من حيث كنا نقف. كان يعرف كيف يعمل كلّ شيء.

"وداعاً"، قالت بيرنير.

"حسناً"، قال أبي. لم يقف.

"وداعاً"، قلت.

"وداعاً، يا ديل، يا بُنيّ"، قال. غير أنّه لم يجب عن السؤال حول سرقة المصرف.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

(37)

كانت زنزانة أمّنا في الطرف البعيد من صف الزنزانات غير المضاءة ولم تكن مختلفة عن زنزانة والدنا، سوى أن لافتة معدنية عُلِّقتْ على القضبان بسلسلة معدنية نحيلة كُتب عليها:"انتحار"، مدهونة بالأحمر بأحرف كبيرة. وأثناء سيرنا أخبرنا الشرطي أنه لا توجد منشآت خاصة لـ"الإناث". إن أفضل ما يمكن أن تقدمه المقاطعة هو بعض الخصوصية.

كانت أمنا جالسة على سرير كذلك الذي في زنزانة والدنا، ولكنه لم يكن ممزّقاً ومفتوحاً وقطعه متناثرة. كانت إلى جانب امرأة أخرى، تتحدث بصوت هادئ. كان هناك سرير آخر. ولم يكن المرحاض مبقّعاً ومتّسخاً كمرحاض أبي.

"جاء ولداك لزيارتك، يا نيفا"، قال الشرطي بصوت متفائل. حثّنا للتقدم نحو الأمام، ثم توقف في الخلف إزاء الحائط بحيث نكون تقريباً وحيدين

معها. قال: "هيّا، إنها سعيدة لرؤيتكما".

"آه، يا عزيزيَّ"، قالت أمي ووقفت على الفور حاملة نظارتها في يدها. ارتدتها حين وصلت إلى القضبان. بدت صغيرة. كان جلدها مبقّعاً وقمة أنفها محمرّة. ترتدي حذاء التنس دون أربطة وفستاناً فضفاضاً أخضر داكناً ومزرراً من الأمام بأزرار بيضاء وبدون حزام. لم يبد كأن لها صدراً تحته. خلف نظارتها عيناها عريضتان ومحدّقتان. ابتسمت لنا، كما لو أننا بدونا غريبين لها. تحركت عيناها بشكل طبيعي إلى لافتة: انتحار. لا بد أن لها علاقة بالمرأة الأخرى، هذا ما اعتقدته. قالت: "كيف جئتما إلى هنا؟ طلبتُ منكما أن تنتظرا ملدريد".

قالت بيرنير: "لم نعرف إلى أي مكان نذهب. جئنا فحسب. رأينا أبي. لم يقل الكثير".

مدّت أمّنا يديها عبر القضبان. لم أسلّم عليها بعد ولكنني أمسكت يدها اليمنى وبيرنير اليسرى. ضغطت يدينا. بدت أكثر تعباً مما كانت عليه حين تحدثت معي في غرفتي في الليلة قبل الأخيرة. لاحظتُ أنها خلعت خاتم زفافها، مما أجفلني. المرأة الأخرى ترتدي الفستان الأخضر نفسه وكذلك حذاء التنس، وهي طويلة وضخمة، وبوسعك أن تلاحظ ذلك حتى وهي جالسةٌ. نهضت عن السرير النقال حيث كانت تجلس واستلقت على الآخر وأدارت وجهها إلى الحائط. أنّت حين استقرت.

قالت بيرنير: "أحضرنا لك بعض الأشياء الخاصة بالحمام، ولكنهم لا يسمحون لك بالحصول عليها. اعتقدنا أنك ستكونين مع أبي".

"حسناً"، قالت أمنا، وهي ما تزال تمسك بيدينا وتنظر إلينا، مبتسمة. لم

https://telegram.me/maktabatbaghdad

تكن تتحدث بصوت مرتفع. "أشعر بخفة شديدة هنا. أليس هذا غريباً؟"

"نعم، يا سيدتي"، قلتُ. بدا صوتها طبيعياً كما لو أنها تستطيع أن تخرج فوراً وتتجول وتتحدث معنا. كانت صدمة أكبر رؤيتها، أكثر من رؤية والدنا، الذي لم يبد خارج المكان في السجن. شعرتُ بأنني غير مُتضمّن، ولم أشعر بالخفة حيال الأمور. تساءلتُ أين خاتم زفافها، ولكنني لم أرغب بالسؤال.

"متى ستخرجين؟"، قالت بيرنير بصوت سلطويّ. كانت تبكي وتحاول ألا تبكي.

قالت أمنا: "لا بدّ أنني شعرتُ ببعض الإحباط. كنت أنا وصديقتي نتحدث عن هذا لتوّنا". نظرت حولها إلى المرأة الكبيرة التي تدير وجهها إلى الحائط وتتنفّس بعمق، وتضع قدماً فوق أخرى. قالت: "حاولتُ أن أتصل بكما أيضاً. يسمحون لي بإجراء مكالمة واحدة. لم تردّا على الهاتف. خمّنت أنكما في مكان ما". طرفت عينها خلف النظارة نحونا. فاحت منها رائحة تعرّق. كانت هذه هي الرائحة التي تصدر عنها دوماً. كانت رائحة النظافة من فستان سجنها في الجوّ.

"ما الذي من المفترض أن يحصل لنا الآن؟"، قالت بيرنير، والدموع تنسكب على خديها، فمها مضغوط ومغلق، ذقنها يرتعش. خارج السجن، السيارات تتحرك في الشارع. سُمع صوت بوق سيارة. كان الخارج قريباً جداً من حيث كنا. لم أرد أن تبكي بيرنير. لن يساعد هذا في أي شيء.

"إلى أين نحن ذاهبان؟"، قلت. كنت أفكر بالآنسة رملنغر، التي ستأتي إلى منزلنا كي تأخذنا.

"ستريان. ستكون مفاجأة. سيكون هذا رائعاً". ابتسمت أمنا عبر القضبان وهزت رأسها. "سأنقذكما. ملدريد قادمة. أنا مستغربة أنها لم تأت بعد".

دخل شابٌّ في بذلة لونها بني خفيف يحمل محفظة أوراق عبر البابين المقضّبين، وقد أدخله شرطيّ آخر. جاء في اتجاهنا ولكنه توقف عند زنزانة والدنا. امتدت إحدى يدي والدي إلى الخارج، وأمسكها الرجل وصافحها. ضحك والدي وقال:"حسناً. حسناً". إن رؤية ذلك الرجل يتحدث مع والدنا جعلتني أدرك أن والديّ لا علاقة بينهما الآن. ربما لهذا شعرت أمي بالخفّة. غادرها شيء ما، ثقل.

"ألا تعتقدان أنكما يجب أن تذهبا إلى المنزل؟"، قالت أمنا من خلال القضبان. شعاع من شمس أواخر الصباح اخترق زنزانتها. أفلتت يدينا وابتسمت. لم نمكث هناك دقيقتين. لم نقل أيّ شيء أحدث فرقاً. لا أعرف ما الذي توقّعناه.

"ألا تحبابننا؟"، قالت بيرنير، مقاومة دموعها. نظرت إلى بيرنير وأخذت يدها. بدت يائسة من كلّ شيء.

قالت أمنا:"بالطبع أحبكما. يجب ألا تقلقا من هذا. تستطيعان الاعتماد على ذلك". مدت يدها الصغيرة كي تلمس وجه بيرنير، ولكن بيرنير لم تقترب. تركت أمنا يدها هناك في الجو للحظة.

"هل ستنتحرين؟" سألتُها. كانت العلامة الحمراء هناك. لم أستطع تجاهلها. لم أتفوه أبداً بتلك الكلمة قبل أن أقولها لأمي.

"بالطبع كلا". هزّت رأسها. نظرت إلى الأعلى نحو النوافذ خلفنا.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كانت هذه كذبة. لقد انتحرتْ في سجن ولاية نورث داكوتا وربما على الأرجح ذكرت ذلك من قبل في السجن في ذلك اليوم. قالت: "قلتُ لكما، اعترتني مشاعر ضعف أمس".

الرجل الذي في البذلة الرمادية الخفيفة، الذي كان يتحدث مع والدنا، قال: "حسناً. كن قوياً هنا فحسب. سأتبادل كلمة مع نصفك الأفضل الآن". أغلق محفظته. كان يعرض بعض الأوراق ويجعل أبي يوقّعها.

"رفعتْ قضية فدرالية ضدي". تردد صدى صوت أبي في خط الزنزانات.

"هذا صحيح. كثير من الناس أيضاً". ضحك الشاب وبدأ يسير نحونا، بوطه يضرب بقوة على الاسمنت.

اقترب الشرطي من بيرنير ومني من الخلف وقال: "هذا محامي والدكما. من الأفضل أن نجعله يتحدث مع أمكما على انفراد. تعالا إلى زيارتهما فيما بعد. سأسمح لكما".

نظرت بيرنير إلى الرجل الذي يقترب وعلى الفور توقفت عن البكاء. ابتسمت أمنا لنا. كانت الدموع في عينيها. رأيتها.

"قررتُ أن أكتب شيئاً". هزّت رأسها وكأن هذه أنباء أحبُّها.

"ما هذا؟"، سألتها. وضع الشرطي يده على كتفي. كان يدفعني بعيداً.

قالت: "أنا غير متأكدة ماذا سيكون بعد. ستكون ملهاة مأساوية، مهما كانت. سيكون عليك أن تخبرني ما الذي تفكر به. أنت ولد ذكيّ".

"هل سطوتما على مصرف؟"، سألتْها بيرنير. لم تعترف أمّنا بهذا. حركني الشرطي أنا وبيرنير بعيداً عن زنزانتها كي تتحدث مع المحامي. لن تمكث

هناك وقتاً طويلاً. لم أرها أبداً بعد ذلك، بالرغم من أني لم أعرف أن هذا سيحدث في ذلك الوقت. كنت سأقول أكثر مما قلته لو عرفتُ ذلك. شعرتُ بالأسف لأن بيرنير سألتها عن المصرف، لأنّ هذا أحرجها.

XXX

في طريق خروجنا من السجن، مررنا ثانية قرب زنزانة أبي. كان يستلقي على سريره الممزق بقدميه اللتين ترتديان الجوارب، يحمل حزمة أوراق، ويقرأ. لا بدّ أننا عبرنا ضوءه لأنه استدار، نصف ناهض وفغر فاه لنا. "هل رأيتما أمّكما؟" طلب منا الشرطي مواصلة السير.

قلت: "نعم، سيدي"، ونحن نعبر باب زنزانته.

قال: "هذا جيد إذاً. أعرف أن هذا جعلها سعيدة. هل قلتما لها إنكما تحباها؟"

لم أقل هذا، ولكن كان يجب أن أقوله.

"فعلنا"، قالت بيرنير.

"جيد"، قال.

هذا كل ما كنا نمتلك الوقت لقوله. اعتقدتُ مرات كثيرة، بما أنني لم أره أبداً بعد ذلك أيضاً، بأن ذلك كان أفضل من قول الحقيقة.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

(38)

إن ما يشكّل مقياساً جيداً لكوننا بلا أهمية، ولنوع المكان الذي تشكّله غريت فولز، هو أنه لم يأت أحد لتفقّدنا، أو لأخذنا أو نقلنا إلى مكان آمن. لا سلطات أحداث، ولا شرطة، ولا أوصياء كي يتولوا المسؤولية عن رفاهنا، ولم يفتش أحد المنزل حين كنتُ فيه. وحين لا يفعل أحد هذا، أو يُنتبهُ إليك، فإن البشر والأشياء يُنسون بسرعة حينئذ ويندفعون بعيداً. وهذا ما حدث لنا. كان أبي مخطئاً حيال أمور كثيرة؛ لكنه لم يكن مخطئاً حيال غريت فولز. لم يرد الناس أن يعرفونا في هذه البلدة، ولا مانع لديهم إذا اختفينا.

سرتُ أنا وبيرنير إلى المنزل في يوم الاثنين ذاك سالكين طريقاً آخر. شعرنا بأننا مختلفان الآن، ربما شعر كلانا بأنه أكثر حرية بطريقته الخاصة. سرنا إلى سنترال عابرين مكتب البريد ونحو النهر في الأسفل، على طول البارات والحوانيت، وزقاق بولنغ، والريكسال، وحانوت الهوايات حيث اشتريت

قطع الشطرنج ومجلات النحل. كان الشارع يعجّ بضجيج المواصلات. ولكن، مرة ثانية، لم أشعر بأن أيّ شخص حدق بنا. لم تبدأ المدرسة بعد. ولم نكن خارج المكان. فتى وأخته يسيران عائدين عبر الجسر في النسيم الدافئ، النهر جميل وكريه الرائحة في أواخر الصباح في آب\أغسطس. لن يفكر أحد بولدين سُجن والداهما، يحتاجان إلى العناية والحماية.

توقفنا على الحاجز وسط الجسر وراقبنا البجع ينحدر ويحلق فوق تيار النهر. عامَ الإوزّ فوق الضفة القريبة حيث غشاوة من الغبار الأصفر اهتزت على السطح. راقبنا شخصين يجذفان في زورق مع التيار نحو مدخنة المصهر وجسر الشارع الخامس عشر. في الطريق ارتدت بيرنير نظارتها وهي صامتة، لم تتحدث عن أمنا وأبينا. على الحاجز، وفيما نهر ميسوري ينزلق تحتنا، ارتفع شعرها ونزل في هبوب النسيم الجاف، ويداها تمسكان الحاجز الحديدي، كما لو أن الجسر يمكن أن يصبح قطاراً ويندفع بعيداً. كنا في الخامسة عشرة. ولكن أعمارنا لم تكن تهم في الحقيقة. كانت هذه هي الحقائق الصارمة التي نواجهها، ولا أهمية للعمر هنا.

غريبٌ الشيء الذي يجعلك تفكّر بالحقيقة، ونادراً ما يكون منخرطاً في أحداث حياتك. توقفتُ عن التفكير بالحقيقة لبعض الوقت آنذاك. بدا من المستحيل العثور على نقاطها الأروع في الوقائع. وإذا كانت هناك خطة مخبأة، فإن الحياة لم تلق عليها ضوءاً كاشفاً. غير أنه من الأسهل بكثير التفكير بالشطرنج، فالشخصية الحقيقية للرجال تبقى دوماً بالطريقة التي صُمِّمت لها، وثمة قوة عليا تحرك كل شيء موجود. تساءلتُ، في تلك اللحظة فقط، إن كنت أنا وبيرنير شخصيتين صغيرتين، ثابتتين تأمرهما قوى أكبر منهما.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

قررت أننا لسنا كذلك. وسواء أحببنا هذا أو عرفناه، فنحن مسؤولان عن أنفسنا الآن، وليس أمام خطة أكبر. وإذا كنا شخصيتين ثابتتين بشكل حقيقي، فإن هذا سيُكشف فيما بعد.

كان من عادة ذهني، في تلك الأعوام أن أفهم أن كل موقف تنخرط فيه الكائنات البشرية يمكن أن يُقلب على رأسه. ذلك أن كل شيء يؤكد الآخرون أنه حقيقيّ قد لا يكون كذلك، وأن كلّ عمود إيمان يستند العالم إليه قد يكون على وشك الانفجار أو لا. فمعظم الأشياء لا تبقى كما هي لفترة طويلة. غير أن معرفة هذا، على أيّ حال، لم تجعل مني متشائماً، ذلك أن التشاؤم والارتياب يعنيان الإيمان بأن الخير غير ممكن؛ ولكنني أعرف أن الخير ممكن، وهذه حقيقة. وببساطة أنا لا أسلّم بأي شيء جدلاً وأحاول أن أكون مستعداً للتغيّر الذي سيأتي بسرعة.

كنت آنذاك في طريقي كي أعرف كيف أُخضعُ شيئاً لآخر، وهذا درس تُعلّمك إياه لعبة الشطرنج، وتفعل هذا على الفور تقريباً. ذلك أن الأحداث المؤثرة لحياة والدينا بدأت بالتحوّل إلى أحداث ثانوية إزاء الأحداث التي بدأت بدفعي إلى الأمام منذ ذلك اليوم في آب\أغسطس. كان هذا البوح يدور حتى الآن حول تعلم هذه الحقيقة غير البسيطة، وحول رؤية والدينا بشكل أكثر وضوحاً. أعتقد أنه لهذا شعرتُ بالحرية حين وقفتُ أنا وبيرنير على الجسر في ذلك اليوم، ولهذا خفق قلبي بقوة من الانتعاش. ربما كانت هذه هي الحقيقة الخادعة والسبب في أنني رميت خاتم أبي في النهر ولم أفكر فيما بعد بهذا الخاتم كثيراً.

كان بقاؤنا على الجسر في ذلك الصباح أفضل بكثير من التفكير بنفسي

في المنزل، وأنا أراقب من المدخل بيرنير تسير، بعد وقت قصير، مبتعدة في شارعنا المظلّل وخارج حياتي، نحو أي مكان ستأخذها إليه حياتها. إن التركيز على رحيل بيرنير يجعل هذا كلّه يبدو كأنه عن الخسارة، ولكنني لا أفكّر بالأمر بهذه الطريقة حتى اليوم، أفكر بأنه عن التقدّم والمستقبل اللذين ليس من السهل دوماً رؤيتهما حين تكون قريباً منهما.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الجزء الثاني

https://telegram.me/maktabatbaghdad

(39)

قادت ملدريد رملنغر سيارتها الفورد البنية القديمة والمتعرضة لصدمات عديدة إلى منزلنا، اجتازتْ الممرّ مباشرة وصعدت الدرجات وقرعت الباب الأمامي، الذي كنتُ أنتظر خلفه لوحدي. دخلتْ وطلبتْ مني أن أحزم حقيبتي، ولكن لم يكن عندي واحدة بالطبع. كان ما يزال لدي الحقيبة الصغيرة التي تحتوي على بعض مقتنياتي فقط. سألتني أين أختي بيرنير فقلتُ لها إنها غادرت البارحة. نظرتْ ملدريد في غرفة الجلوس وقالت إن هذا خيار بيرنير أينما كانت، ولا نملك الوقت للذهاب والبحث عنها، لأنّ مسؤولي الأحداث الذين يمثّلون ولاية مونتانا سيجيئون إلى هنا في القريب العاجل، بحثاً عن بيرنير وعني كي يضعونا تحت الوصاية القانونية. وإنها لمعجزة أنهم لم يأتوا من قبل، كما قالت.

جلستُ إلى جانبها في السيارة، وساقت ملدريد خارجة من غريت فولز

في وقت متأخر من صباح 30 آب\أغسطس، 1960، متجهة إلى الشمال على الطريق السريع 87 في الاتجاه الذي أخذني فيه أبي أنا وبيرنير منذ مدّة قصيرة، حين رأينا المنازل الهندية والعربة المقطورة حيث تُذبح الأبقار، وحيث عرف للمرة الأولى أنه سيواجه هو وأمي المشاكل.

لم تتحدث ملدريد كثيراً في البداية، حين كانت غريت فولز تستقر في المشهد الطبيعي الذي خلفنا. لا بدّ أنها شعرتْ بأنني أفهم بدقة ما الذي يحدث لي، أو ربما لم تكن هناك طريقة أخرى لشرحه، ويجب أن نكون هادئين، وألا أسبب أية مشكلة لأي شخص.

عالياً في الأرض الطويلة الضيقة والمرتفعة في شرق وغرب هايوودز، لم يكن هناك سوى القمح الأصفر الحارّ والجنادب والأفاعي التي تعبر الطريق السريع والسماء الزرقاء المرتفعة، وكانت جبال "مخلب الدب" هناك في الأمام، زرقاء وضبابية وثمة ثلج يلمع على قممها. إنّ هافر، في مونتانا، هي البلدة الأبعد في الشمال. وكان والدنا قد قاد إلى هناك سيارة دودج في أوائل الصيف كي يوصلها لزبون، وركب "الإنترماونتن" عائداً إلى غريت فولز. وصفها بأنها "مكان مهجور، في أسفل ثقب كبير. ظَهْر الماوراء"، حيث، كما قال، صادف بارجة أميرال الأسطول البولوني، وكانت هذه واحدة أخرى من نكاته المبتذلة. لم أستطع تصوّر لماذا ستأخذني ملدريد في سيارتها إلى هناك. على الخريطة كانت هافر بعيدة شمالاً بقدر ما تستطيع التقدم في مونتانا، بعيداً في شمال البلاد كلها. وكانت كندا فوقها فحسب. ولكنني كنت ما أزال واثقاً أنّ البالغين يقومون في الغالب بأشياء غريبة يتبيّن في النهاية أنها صحيحة، وبعدها يعتني شخص ما بك. إنها فكرة مجنونة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وكان ينبغي أن تبدو مجنونة لي آنذاك، مفترضاً كل هذا الذي حدث لأسرتنا. ولكنني شعرتُ بأنني أفعل ما خطّطتهُ أمي لي، ولبيرنير، أيضاً، هذا إذا وضعنا شخصيتي في عين الاعتبار، هذا كل ما كنت أحتاج إلى التفكير به.

في هافر، التي تقع في السطح السفلي لهضبة طويلة، والتي فيها فناءات شركة الخطوط الحديدية الشمالية الكبيرة، ونهر بني ضيّق، وخط جروف يمتدّ على الجانب الشمالي من الطريق السريع، نظرت إليّ ملدريد من فوق مقعد السيارة وقالت لي إنني نحيل جداً ومريض وربما مصاب بفقر الدم، ويجب أن آكل شيئاً ما لأننا يمكن ألا نعثر على الطعام في بقية اليوم. ملدريد امرأة ضخمة متسلطة بردفين مربعين، وشعر مجعّد أسود قصير، وعينين سوداوين صغيرتين غاضبتين، تضع أحمر شفاه أحمر اللون، عنقها سمين، ومسحوق البودرة على وجهها يموّه بشرة سيئة. كانت تفوح منها ومن سيارتها رائحة التبغ والعلكة، ومنفضتها مليئة بأعقاب السجائر التي عليها آثار أحمر الشفاه والكبريت ومغلفات حبوب النعناع، بالرغم من أنها لم تدخن أثناء قيادتها للسيارة. قالت أمي إن ملدريد عانت من مشاكل زوجية وتعيش الآن وحيدة. كان من الصعب بالنسبة لي أن أرى كيف سيتزوجها رجل (وقد انتابني هذا الشعور أحياناً حيال أمّنا). كانت ملدريد ضخمة ودميمة ومتسلّطة، ترتدي فستاناً حريرياً أخضر بمثلثات حمراء صغيرة وكرات حمراء ضخمة مطبوعة عليه، وجوارب صلبة وتنتعل حذاء أسود ثقيلاً، وبدت غير مرتاحة في هذه الثياب. على النافذة التي خلفها على علاقة من السلك يتدلى لباسها الأبيض الخاص بعملها كممرضة وقبعتها،

والذي بدا ملائماً لها أكثر.

في هافر، سقنا في البداية نازلين الهضبة إلى فيرست ـ الشارع الرئيسي ـ وعثرنا على حانوت سندويش مقابل المصرف ومتجر جي إن. جلسنا إلى الطاولة في الداخل، وأكلتُ رغيف خبز بارداً وفطائر مع الزبدة والمخلل والليموناضة، وشعرتُ بالتحسّن. دخّنت ملدريد بينما كنت أتناول طعامي وراقبتني وتنحنحت كثيراً وتحدثت عن نشوئها في مزرعة أبقار في ميشيغان وأنّ والديها كانا يعملان سبعة أيام في الأسبوع، وعن ذهاب أخيها إلى هارفارد (الذي سمعتُ عنه)، وكيف هربتْ مع فتى من سلاح الجوّ و"هبطت" في مونتانا. نُقل الفتى في النهاية، وبقيت هي في غريت فولز، ودرست التمريض، وتزوّجت من رجل آخر قبل أن تكتشف أنه ليس لها، وحينها اتخذت رملنغر اسماً لها. قالت إنها في الثالثة والأربعين، لكنني ظننتُ أنها في الستين أو أكثر. وفي نقطة معيّنة استدارت في مقعدها وقرصت شحمة أذني وسألتني إن كنت أعتقد أنني مصاب بالحمّى أو حدث لي مكروه. لم يكن فيّ شيء من هذا، غير أنني شعرتُ بالقلق حيال إلى أين نحن ذاهبان. قالت إنني يجب أن أنام في المقعد الخلفي بعد الغداء، وكان هذا ما جعلني أعرف أننا لسنا ذاهبين إلى هافر فحسب في ذلك اليوم بل إلى أبعد من ذلك.

من هافر، سقنا شمالاً، عابرين جسراً خشبيّاً فوق سكك الحديد وعلى طول طريق سريع ضيّق انعطف في زاوية في أعلى خط الجرف المتدرج عالياً بما يكفي كي يجعلني أنظر إلى الخلف إلى البلدة التي بدت منخفضة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وكريهة وجرداء في ضوء الشمس الحارق. كنت أبعد إلى الشمال أكثر مما سبق وشعرتُ بأنني عار ومعزول، ومن المستحيل الوصول إليّ. واعتقدتُ أنه أينما كانت بيرنير فهي في مكان أفضل من هذا، ولكنني لم أستطع أن أطرح أي سؤال لأنني أدركتُ أن الجواب يمكن أن يكون شيئاً غير مستحبٍّ بالنسبة لي، بعده لن أعرف ماذا أقول أو أفعل حيال حياتي، وسأضطرّ إلى مواجهة حقيقة أنني ارتكبتُ خطأ في البقاء وعدم الذهاب مع أختي (بالرغم من أنها لم تطلب مني ذلك).

الأرض في شمال هافر متشابهة مع التي كنا نعبرها. كانت أرضاً زراعية جافة ورتيبة، بحراً من القمح الذهبيّ يذوب في السماء الحارة التي لا تشوبها شائبة ولا يعبرها سوى أسلاك الكهرباء، فيها منازل أو أبنية قليلة جداً تشير إلى أنّ الناس يعيشون في هذا المكان أو يحتاجون إلى الكهرباء. هضاب خضراء منخفضة تقع بعيداً أمامنا في المسافة المتلألئة. كان من غير المرجّح أننا ذاهبون إلى هناك، بما أنني ظننتُ أن تلك التلال في كندا، وهي كلّ ما يقع أمامنا كما أعرف من ذكرى الخريطة الكروية في غرفتي.

لم تتحدث ملدريد كثيراً مرة ثانية، ساقت فحسب. دخنت سيجارة واحدة، لكنها لم تستمتع بها فرمتْها من الفتحة. كانت حدآت معلّقة في السماء، منحنية وبلا حراك. اعتقدتُ أنه إذا ضاع شخص حيث نحن، فإن الحدآت ستكون الطريقة الوحيدة للعثور عليه، لكنه لن يعيش.

في نقطة معيّنة، أخذت ملدريد نَفَساً عميقاً وزفرته كما لو أنها قرّرتْ شيئاً ما كانت صامتة حياله. لعقتْ شفتيها وقرصتْ أنفها ونظّفت حنجرتها الجافة ثانية متنحنحة.

"يجب أن أخبرك ببعض الأمور الآن يا ديل"، قالت، وهي تقود بيديها، قدماها اللذان بالجوارب على الدواسات، حذاؤها الأسود مخلوع ومدفوع جانباً، وتحدق بحدّة إلى الأمام. عبرنا سيارتين فقط منذ أن انطلقنا من هافر. لم يبد أن هناك طريقاً مرئياً حيث كنا ذاهبين. "أنا أقلّك إلى ساسكاتشيوان كي تعيش فترة مع أخي، آرثر"، قالت هذا على نحو مفاجئ، كما لو أن قوله غير ممتع. "لن يستمر هذا إلى الأبد. ولكن الآن فقط. أنا آسفة". لعقت شفتيها ثانية. "هذا ما تريده أمك. فلا تحمّل نفسك الخطأ حياله. أنا خائبة الأمل من أن أختك هربت. كان بوسعكما أن تشكلا معاً فريقاً جيداً".

نظرتْ إليّ وابتسمت ابتسامة خفيفة، شعرها القصير يتطاير من هواء السيارة الحارّ. لم تكن أسنانها مستقيمة ولم تبتسم كثيراً. شعرتُ كما لو أنّ بيرنير إلى جانبي وملدريد تخاطبنا كلينا.

"لا أريد أن أفعل هذا"، قلتُ بيقين مطلق. شقيق ملدريد. كندا. أكيد أن هذا ما شعرتُ به. ليس عليّ أن أفعل أيّاً من هذا. يجب أن أقول لا.

ساقت ملدريد لبعض الوقت دون أن تتحدث، تاركة الطريق السريع يُنهب تحتنا. من المحتمل أنها كانت تفكّر، أو ربما تنتظر فحسب. أخيراً قالت: "إذا أعدتكَ سيعتقلونني بتهمة اختطافك ويسجنونني. حينها سيتعذر الوصول إلى الكائن البشري الوحيد الذي يستطيع مساعدتك، والذي ليس مجرماً، ويرغب بأن يعمل معروفاً أخيراً لأمك المسكينة. إنهم يبحثون عنك كي يأخذوك إلى الميتم. من الأفضل لك أن تفكّر بهذا. أنا أحاول إنقاذك. كنت سأنقذ أختك لو كانت أكثر ذكاء".

بدأت حنجرتي تضيق، ودخل هذا الضيق إلى صدري وآلمني، وفجأة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

لم أعد قادراً على تنفس ما يكفي من الهواء، رغم أن السرعة كانت ستين ميلاً، ورائحة القمح الحارّ تندفع من النوافذ. شعرتُ بإلحاح كي أدفع الباب وأقذف نفسي على الطريق المندفع. ولكنني لن أفعل هذا. لم أكن عنيفاً ولا أفعل الأشياء بشكل مفاجئ. بدا لي الطريق الأسود كأنه حياتي تندفع بعيداً عني بسرعة رهيبة، ولا أحد يوقفها. ظننتُ أنني إذا تمكّنتُ من تجميع شجاعتي وبدأت السير قد أصل إلى المنزل، وأعثر على بيرنير أينما كانت. عثرتْ أصابعي على قبضة الباب، ضغطتْ عليها، مستعدة لدفعه. قالت بيرنير إنها تكره والدينا لأنهما يكذبان، ولكنني رفضتُ أن أكرههما وصرتُ الشخص المخلص الذي بقيَ وفعل ما أرادته أمّنا، مما جعل مني الشخص الذي تحدث له أمور سيئة الآن. لم يكن بوسعي قول ما أتوقعه، أو ماذا هي خطة أمي بالنسبة لي. شرحتْ كلّ شيء لملدريد وليس لي. ولكنني لم أكن أتوقّع هذا. شعرتُ بأنني خُدعتُ وهُجرتُ، وأن إخلاصي لم يُحْتَرم، وأنني هنا الآن مع هذه المرأة الغريبة، حيث الحدآت فحسب ستجدني إذا ما تولّيت المسؤولية عن حياتي. كان الشيء الأسوأ كوني صغيراً. عرفتُ لماذا كافحتْ بيرنير كي تكون أكبر وهربت. فعلتْ هذا كي تُنقذ نفسها.

آلمني غياب الهواء من صدري كما يحدث حين تشرب مياهاً باردة جداً وتشعر بالشلل. ولكن البكاء سيكون علامة هزيمة كبيرة. ستعتقد ملدريد أنني مثير للشفقة. أغمضتُ عينيّ بإحكام، أمسكتُ مقبض الباب الساخن، ثم أفلته وتركت الهواء الساخن من الخارج يغمر دموعي. لا أظنّ الآن أن السبب كان ما قالته ملدريد - إنها تقلّني بالسيارة إلى كندا كي تضعني تحت رعاية غرباء - بقدر ما كان تراكم كلّ ما حدث في حياتي في فترة الأسبوع

السابقة، وأنني حاولتُ أن أسيطر ولكنني فشلتُ. إنّ ملدريد تحاول أن تساعدني، وتساعد أمي فحسب. كان شعوري لدى سماع ما سمعتهُ نوعاً من الحزن أكثر من أي شيءآخر.

"أنا لا ألومك"، قالت ملدريد في النهاية. لا بدّ أنها عرفت أنني كنت أبكي. "إن معرفة أن الأمر ليس ناجماً عن خطأ اقترفته أنتَ لا تمنح أية راحة. يمكن أن تحب الأمر أكثر لو كان كذلك". عدّلتْ ساقيها الكبيرتين في مقعدها، رفعتْ ذقنها وجلستْ مستديرة إلى الأمام كما لو أنها شاهدتْ شيئاً ما في أعلى الطريق. توقفت عن البكاء. "سنعبر الحدود الدولية إلى كندا هنا"، قالت، راجعة إلى الخلف في مقعدها. "سأقول لهم إنك ابن أخي، وإنني أقلّكَ إلى ميديسين هات كي أشتري لك ثياب مدرسة. إذا أردت أن تقول لهم إنني أخطفك سيكون هذا هو الوقت المناسب"، لعقت شفتيها. "لكننا نحب أن نبقى خارج السجن".

أمامنا، حيث كان الطريق السريع كمثل خطّ قلم رصاص فحسب في المسافة، تبدّى لنا مرتفعان أسودان منخفضان في الأفق، فوقهما سماء زرقاء لم يكن فيها غيوم تتحرك. ولو لم أنظر حيث كانت ملدريد تنظر لما رأيتُ المُرْتَفعين. كانت كندا هناك، غير قابلة للتمييز. السماء نفسها. ضوء النهار نفسه. الهواء نفسه. ولكنها مختلفة. كيف صار ممكناً ذهابي إلى هناك؟

كانت ملدريد تفتّش في محفظتها الجلدية اللمّاعة الكبيرة والحمراء التي على أرض السيارة وتواصل القيادة. وبسرعة تجسّد المرتفعان الأسودان في شكلين مربّعين منخفضين لبنائين إلى جانب بعضهما على مرتفع في السهب. ثمة سيارة مصفوفة إلى جانب كل بناء. لا بدّ أن الحدود تبدأ هنا. لا

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أعرف ما يمكن أن يحدث هناك. قد يأخذني أحد ما ويضعني تحت الوصاية، يكبّلني، ويرسلني إلى الميتم أو إلى المنزل الفارغ.

سألتني ملدريد: "بماذا تفكّر؟"

نظرتُ أمامي إلى السماء فوق كندا. لم يسألني أحد أبداً بماذا أفكر بشكل مباشر. لم يكن يهم في عائلتنا بماذا أفكّر أنا وبيرنير، لكننا كنا دوماً نفكّر. ما الذي لديّ كي أخسره؟ كانت الكلمات التي قلتُها بصمت، كان هذا ما فكّرتُ به، بالرغم من أنها كلمات سمعتُ أشخاصاً آخرين ينطقونها في نادي الشطرنج. لن أقولها لملدريد، ولكنني صُدمتُ حين شعرتُ بأن ما أفكر به صحيح. ما قلتهُ: "كيف تعرفين ما الذي يحدث حقاً لك؟"، كان هذا ما كنتُ أنا مصنوعاً كي أقوله.

"آه، لا تعرف أبداً"، كانت ملدريد قد أمسكت رخصة القيادة في اليد التي تمسك بها عجلة القيادة. كنا نقترب من كبينين خشبيين مبنيين إلى جانب بعضهما، يتفرع الطريق السريع بعدهما. قالت ملدريد: "هناك نوعان مختلفان من البشر في العالم، في الواقع هناك أنواع كثيرة. ولكن على الأقل هناك نوعان منهم من يفهم أنك لا تعرف أبداً، ومنهم من يعتقد أنك تعرف دوماً. أنا في المجموعة السابقة. إنها أكثر أماناً".

خرج رجل ضخم يرتدي بزة زرقاء من كبين خشبي على اليمين كنا نقترب منه. كان يعتمر قبعة شرطي على رأسه ولوّح لنا نحو الأمام. ثمة راية حمراء لم أعرفها- كان فيها راية إنكليزية صغيرة في زاويتها اليسرى- رفرفت على عمود إلى جانب الكوخ. ثمة لافتة تحت الراية مكتوب عليها "أنت تدخل كندا. بورت ويلو كريك، ساسكاتشيوان".

كان الكبين الآخر الذي إلى جانبه أميركياً. كان علم النجوم والخطوط يرفرف فوقه، بالرغم من أنني اشتبهت أنه ليس ذا الخمسين نجمة الذي يضم هاواي. كانت الحدود للدخول والخروج. كنت خارجاً، مما جعلني أشعر بالأهمية. رجل أصغر بلا قبعة، في بزة زرقاء مختلفة يحمل شارة ويضع مسدساً في حزامه، خرج من الكبين الأميركي إلى النسيم. راقب ملدريد وهي تصفّ. ربما كان يعرف عني ويستعد للقبض على كلينا. نظرتُ مباشرة إلى الأمام، وجلستُ هادئاً. ولسبب ما لم أستطع تفسيره، أردتُ أن نعبر كلانا، وشعرتُ بالانتعاش وبالخوف من أن نُمنع. بالنسبة لنوعي الناس الذين ذكرتْهُم ملدريد يجب أن أكون في المجموعة الأولى أيضاً. وإذا لم أكن فيها لماذا كنت حيث كنت، فيما كل شيء سبق أن فهمته يتلاشى خلفي؟ لم يكن هذا ما توقّعت أن أشعر به. استيقظتُ في سريري وحيداً، راقبتُ أختي وهي تسير خارجة من حياتي، ربما إلى الأبد. كان والداي في السجن، وليس هناك أحد كي يعتني بي أو يبحث عني. ما الذي لدي كي أخسره؟ ربما كان هذا السؤال الصحيح الذي يجب أن يُطرح. والجواب هو: القليل جداً.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

(40)

يمرّ الطريق السريع إلى كندا عبر أراض زراعية بلا نهاية، لا يمكن تمييزها بالنسبة لعيني عما في الطرف الآخر السفلي من الحدود، ولكنّك تشاهد منازل وأهراء وطواحين هواء ودليلاً على وجود الناس أكثر. فالتلال الخضراء التي رأيتُها لأول مرة من شمال هافر كانت، كما قالت ملدريد، هضاب الأرز. قالت إنها كجبال الألب، اندفعت إلى السهوب بنفسها منحرفةً بشذوذ في الوقت الذي كانت فيه أنهار جليد في السهوب. كان لها غابتها المعزولة الخاصة وحياتها الحيوانية. أما الناس الذين يعيشون هناك فلا يحبون الغرباء. على أي حال، إن البلدات التي عبرناها- غوفنلوك وكونسول ورافينغراك وروبسارت- بدت كأية بلدات عادية في مونتانا. واعتقدتُ لو أنّ المرء نشأ في مكان له مثل هذا الاسم الغريب- ساسكاتشيوان (الاسم الذي نادراً ما سمعته من قبل)- سيشعر عندئذ على الدوام بأنه غريب. لا شيء في الحياة قد يكون سويّاً بشكل كامل كما كان الأمر بالنسبة لي وأنا أعيش في غريت فولز.

وفيما كنا نسوق نحو الشمال تحت شمس أواخر النهار المنخفضة ذكرت لي ملدريد ما تعرفه عن كندا وشعرتُ بأنه مفيد. كانت إنكلترة تملك كندا وفيها أقاليم، وليس ولايات اتحاد، ولم يكن هناك عملياً فرق، باستثناء أن كندا فيها عشرة أقاليم. إن الناس يتحدثون الإنكليزية عموماً، ولكن بطريقة مختلفة لم تقدر على وصفها، ولكنني سأنتبهُ إلى ذلك وأستطيع أن أتعلمها. قالت إن لهم عيد شكر خاصّاً بهم، لكنه ليس يوم الثلاثاء وليس في تشرين الثاني\نوفمبر. قاتلتْ كندا إلى جانب أميركا في الحرب العالمية نفسها التي قاتل فيها والدي وتورطت فيها قبلنا، بسبب طاعة كندا لملكة إنكلترة، ولديها سلاحُ جوّ قويّ مثلنا. قالت إن كندا ليست بلاداً قديمة كبلادنا وما تزال تملك شعور الريادة، ولم يفكر أحد فيها في الحقيقة كبلاد، وفي بعض الأجزاء يتحدث بعض الناس الفرنسية، والعاصمة تقع في الخلف في الشرق، ولا أحد يحترمها كما نحترم واشنطن، العاصمة. أضافت أن العملة الكندية هي الدولار ولكن لونه مختلف عن لون دولارنا، وأن لكندا هنودها أيضاً إلا أنها عاملتْهم بطريقة أفضل من معاملتنا لهم، وكندا هي أكبر من أميركا، لكنها عموماً فارغة والحياة فيها صعبة ومغطاة بالجليد طيلة الوقت.

كنت وأنا في السيارة أفكر بهذه الأمور وكيف يمكن أن يتكشف أنها صحيحة لدى عبور كوخين مبنيين وسط اللامكان. شعرتُ بأنني أفضل مما كنت عليه سابقاً في هذا اليوم حين لم أكن أعرف إلى أين أنا ذاهب. بدا وكأن الأزمة قد عدّت أو تم الهرب منها. ما جربته كان الراحة، وكل ما تمنّيتهُ هو لو أن أختي بيرنير بقيت كي تشهدها معي.

عبرنا المزيد من حقول القمح، وكان هواء بعد الظهر عذباً وبارداً. رأيتُ جدوال مفردة من الغبار حيث المزارعون يشغّلون الحصادات في المسافة.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

شاحنات القمح تصفّ في الأرض المحصودة، تنتظر كي تنقل القمح بعيداً. أشكال صغيرة بعيدة تتحرك حول الشاحنات فيما الحصادون يفرغون الحمولات وتنطلق الشاحنات. وحالما خرجنا من الهضاب، لم يكن هناك معالم. لا جبال ولا أنهار ـ مثل "الهايوودز" أو "مخلب الدب" أو "ميسوري" ـ تخبرك أين أنت. وكان هناك أيضاً أشجار أقلّ. منزل وحيد أبيض منخفض بمصدّ للريح وهري وجرّار يمكن أن يُرى عن بعد، ثم فيما بعد منزل آخر. إن مسار الشمس هو الشيء الذي سيخبرك أين أنت، هذا وأي شيء تعرفه شخصياً عن الأمر: طريق، خط سياج، الاتجاه المنتظم الذي تهبّ منه الريح. وحالما اختفت الهضاب خلفنا غاب الشعور بنقطة متوسطة يمكن العثور عليها، يمكن انطلاقاً منها أن تحدد نقاطاً مرجعية أخرى. يستطيع المرء أن يضيع بسهولة أو يفقد صوابه هنا، بما أن الوسط هو جميع الأمكنة وكلّ شيء في آنٍ واحد معاً.

أخبرتني ملدريد بعض الأمور عن أخيها، آرثر رملنغر، أنه أميركي، عمره ثمانية وثلاثون عاماً، وقد عاش في كندا لعدة أعوام لأنه اختار ذلك. كان الوحيد في عائلتها الذي درس في الجامعة، وكان يأمل أن يصبح محامياً، ولكن لأسباب مختلفة لم يُنْه دراساته وخاب أمله بأميركا. يعيش إلى الشمال من حيث كنا، في بلدة فورت رويال الصغيرة، في ساسكاتشيوان، حيث يدير فندقاً. كانت مصادفة، أنها هي وهو يعيشان على طرفي الحدود. نادراً ما تراه، الأمر الذي لم تعتبره مهماً. كانت تحبه. وكان سبب موافقة أخيها على أن يتولى مسؤوليتي، كما قالت، هو أنني أميركي وليس لدي مكان أذهب إليه، وأنه يريد أن يقدم لها هذه الخدمة. سيؤمن لي عملاً. ليس لديه أولاد وسيهتمّ بي وببيرنير أيضاً، لو لم تهرب. كان رجلاً غير عاديّ، كما سأرى. كان مثقّفاً

وذكيّاً. سأتعلم أموراً كثيرة منه وسأحبّه.

قررت ملدريد أن تدخن سيجارة أخرى وأخرجت بعض الدخان من منخريها بحيث اندفع خارجاً من النافذة. ساقت لساعات، فقط كي تقلّني بعيداً عن حيث كنت مُبتلى. لا بدّ أنها مرهقة. حاولتُ أن أتصوّر إلى أين نحن ذاهبون: فورت رويال، ساسكاتشيوان. بدا الاسم أجنبياً. استطعتُ فقط أن أتصور السهوب نفسها حولنا، حيث لم يكن هناك مكان لي.

"كم سأمكث مع أخيك؟" سألتها كي أجعل نفسي أقول شيئاً ما فقط.

جلستْ ملدريد بشكل منتصب وأمسكت العجلة بقبضتيها. قالت: "لا أعرف. سنرى. لا تمض الوقت وأنت تفكر أيها العجوز الكئيب". كانت سيجارتها في طرف فمها، وتتحدث من الطرف الآخر. "ستكون حياتك مثيرة بطرق كثيرة قبل أن تموت. ولهذا لا تنتبه إلا إلى الحاضر. لا تُغْفل التفاصيل، وكن متأكداً من أنك دوماً تحصل على شيء لا تهمك خسارته. هذا مهم". لم تكن هذه النصيحة مختلفة جداً عما قاله والدنا دوماً لبيرنير ولي في اليوم الذي لم نذهب فيه إلى معرض الولاية. فهمتُ أن هذا ما اعتقده البالغون، بالرغم من أنه نقيض الطريقة التي رأت بها أمّنا الأمور. فقد أغفلتْ دائماً أشياء كثيرة، وفهمتْ العالم من زاويتها فقط. نفخت ملدريد خدّيها وهوّت نفسها بيدها، مما عنى أنها تعاني من الحرارة في ثوبها الحريري الأخضر. "هل فهمتَ هذا؟" مدّتْ يدها وربتتْ بإصبعها الناعم على ركبتي بالطريقة التي تقرع بها باباً. "هل فهمت؟"

قلت: "أعتقد أنني فهمت"، بالرغم من أنه في الحقيقة لم يبد كأنّ ما وافقتُ عليه يهم. كانت هذه هي المرة الأخيرة التي تحدثتُ فيها أنا وملدريد عن مستقبلي.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

(41)

نزل تشارلي كوارترز عن رفراف شاحنته حاملاً علبة معدنية صغيرة عرفتُ فيما بعد أن فيها بيرة ومكعبات ثلج. انتظَرنا في بلدة ميبل كريك، ساسكاتشيوان، كي يقلّني في سيارته أنا وبيرنير بقية الطريق إلى حيث يعيش شقيق ملدريد. وتشارلي هو الرجل الذي يقوم بجميع أعمال شقيقها، كما قالت، ولم تكن تحبّه. كان خلاسّياً، وبغيضاً. بعد أن تنتهي من تسليمي ستسوق عائدة إلى غريت فولز عبر ليثبريدج، ألبيرتا، كي لا تلفت الانتباه على الحدود حيث عبرنا من قبل. فقد راقبنا الشرطي الأميركي على الحدود وسيتساءل لماذا عادت لوحدها.

وضع تشارلي كوارترز علبته على ظهر السيارة وجاء إلى نافذة ملدريد واتكأ على كوعيه. نظر إليّ بابتسامة غير ودّية على شفتيه العريضتين. نظرتُ إلى نباتات ذيل الحصان المائية في الغرب، كانت السماء خلفها أرجوانية

وذهبية وخضراء لامعة، وتتحول إلى خضراء في الأقاصي العليا. حاولت ألا أبدو خائفاً، غير أنني كنت خائفاً.

دفعته ملدريد إلى الخلف براحة كفّها. صدرت عنه رائحة غريبة، حموضة وحلاوة شعرتُ بها في أنفي، من ثيابه وربما من شعره. كان قصيراً وعريض الصدر وغبي المنظر وعضليّاً، برأس أكبر من المعتاد. يرتدي بنطلوناً قماشياً متّسخاً، وبوطاً مطاطياً أسود أدخل طرفي بنطلونه فيه، وقميصاً أرجوانياً ممزّقاً كوعاه مثقوبان وثمة جيب ممزق. كان شعره الدهني الأسود مربوطاً إلى الخلف بمشبك شعر نسوي من الألماس المزيّف، وله عينان زرقاوان ضيّقتان وأذنان كبيرتان. بدت أسنانه ضخمة وصفراء حين ابتسم ابتسامته غير الجذابة. بدا كقزم. لقد رأيت صورة للأقزام في موسوعة دليل العالم (التي تركتها في غريت فولز). لكنه كان أطول من قزم، بالرغم من أن ساقيه مقوّستان. بدا متباهياً وفظّاً، كما كان بعض الأقزام كما سمعت.

مد يده في سيارة ملدريد وأخذ سيجارة من نوع تاريتون من علبتها التي على لوحة القيادة ووضعها خلف أذنه.

"اعتقدتُ أن لدينا علبتين في الحمولة". نظر إليّ ثانية، كما لو أنه يعرف أنني لن أحب أن يتم التحدث معي كحمولة. تحدث في دفقات.

قالت ملدريد بحدة:" انتبه إلى هذا فقط، أو سأذهب إلى هناك وأعثر عليك".

واصل تشارلي الابتسام، وكان عليها أن تدفعه إلى الخلف مرة ثانية. تساءلت إن كانت هذه الطريقة الوقحة في الكلام هي الطريقة التي يتحدث بها الكنديون. "هل يجب أن يأكل؟"، سأل تشارلي.

قالت ملدريد: "كلا. أوصِلْه إلى هناك واجعله يأوي إلى الفراش فقط".

https://telegram.me/maktabatbaghdad

رجلان ضخمان في أفرول له مئزر ويعتمران قبعتي مزرعة قشيتين خرجا من باب الفندق في الجهة الأخرى من الشارع. البلدة فارغة والشارع مظلل عند الغروب. كُتب على اللافتة التي فوق الباب الأمامي للفندق "ذ كوميرشال". بانت أضواء منخفضة في الداخل حين فُتح الباب. وقف الرجلان على الرصيف وتحدثا وهما يراقباننا. ضحك أحدهما من شيء ما، ثم سارا إلى سيارتي بيك آب منفصلتين، رجعا بهما إلى الوراء عن مكان الصفّ، وساقا ببطء في اتجاهين مختلفين. كانا كنديين، أيضاً.

"هل حدثت مشكلة معه؟" قال تشارلي، مبتسماً كما لو أنني أسلّيه.

"إنه بخير"، مدت ملدريد يدها وأمسكت ذراعي ونظرت إليّ. "إنه مثل بقيتنا، ألستَ كذلك؟"

"هل هو يتيم؟"، قال تشارلي كوارترز، ناظراً في المقعد الخلفي إلى بذلة ملدريد البيضاء المعلقة في النافذة. مد يده ولمسها.

نظرتُ مباشرة من الزجاج الأمامي إلى أربع رافعات حبوب طويلة، نصفها في الظل، رُسمت ظلالها إزاء السماء المنارة. كانت طيور السنونو تنحرف في الشفق. لمبة وحيدة مشعلة متدلية حيث أنبوب القمح معلق إلى المنصة الأقرب، كومة من القمح مضاءة على الأرض تحتها. لم أكن قد ربطتُ هذه الكلمة بالميتم بعد.

حدقت ملدريد مباشرة في وجه تشارلي الخبيث وقالت: "له أب وأم، ليس مثلك. إنهما يحبانه. يكفيك أن تسمع هذا عنه".

"يحبانه حتى الموت"، قال تشارلي، ووقف منتصباً، منسحباً إلى الخلف إلى الشارع، ونظر إلى السماء التي كانت زرقاء في الغرب، ومظلمة في الشرق. نباتات ذيل الحصان المائية ذابلة وبانت نجوم باهتة. هذا هو الرجل

الذي سأغادر معه. وتشير الاحتمالات كلّها إلى أنني سأُترك وحيداً وأُنسى.

قالت ملدريد لي عندئذ: "إن ما سأفعله الآن هو أنني سأكتب لك رسائل تصلك عن طريق أخي. سأحاول أن أعرف ما أستطيعه عن أهلك وأرسل ذلك إليك. تذكّرْ ما قلتهُ لك عن عدم إغفال التفاصيل. ستكون بخير. أعدك". مالت نحوي بشكل غير متوقّع وشدت وجهي إلى فمها، أمسكت عنقي وقبّلتني تماماً على عظم فكي. ضغطتني بشدّة حين لم أردّ لها القبلة. فاحت منها رائحة السجائر والفاكهة التي في محفظتها، وعلبة الماكياج وعلك النعناع الذي تمضغه. ضغط كتفاها الاسفنجيان إزاء أذني. همست: "لديك وقت. إن دمار حياتهما لا يعني أن حياتك يجب أن تتدمّر. ستكون هذه بداية لك. لقد قامت أختك ببدايتها".

"لم أرد بدايةً"، قلتُ، وقد ضاقت حنجرتي مرة أخرى من غضبي منها لأنها قالت ذلك. "لا نستطيع أن نختار بداياتنا دوماً". مدت يدها وفتحت بابي، دفعته إلى الخلف ووجهتني في تلك الجهة. "والآن هيّا. إننا نؤجل ما هو محتّم هنا. هذه مغامرة. لا تخفْ. ستكون بخير".

لم أشعر بالرغبة لقول أي شيء آخر لها، حتى لو كان بوسعي. كانت حقيبتي التي فيها مقتنياتي من أجل الذهاب إلى سياتل على أرض المقعد الخلفي. مهما كان ما اتفقت ملدريد مع أمي لفعله، فقد فعلته الآن. ولكن ما أردتُ فعله هو أن أعود إلى السيارة وأجعلها تسوق بنا بعيداً قدر ما تستطيع. إلا أن هذا لم يكن في خطة أمي حين كانت ما تزال تستطيع أن تخطط لي. وهكذا فعلتُ ما طُلبَ مني أن أفعله، من أجل أمي بقدر ما هو من أجل أي سبب آخر. بقيت ولداً جيداً إلى النهاية.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

(42)

"هل سمعْتَ كلَّ شيء عنّي؟"، سألني تشارلي كوارترز. كنا في سيارته القديمة إنترناشنال هارفستر المندفعة والتي تصدر ضجيجاً في الظلمة. لم أستطع أن أرى إلا الحصى البيضاء التي ترصف الطريق في الضوء الأمامي والغبار المتصاعد، والقمح الكثيف مزروعاً حتى الحواف. الجو بارد بسبب غياب الشمس، وهواء الليل لذيذ كالخبز. عبرنا باص مدرسة فارغاً يهتزّ في طريقه. مرت أضواؤنا الأمامية على صفوف من مقاعد التلاميذ. بعيداً في الحقول، كان الحصاد مستمراً بعد أن خيّم الظلام. أضواء شاحنات باهتة تتحرك، غبار يرتفع. النجوم تملأ السماء على نحو كامل.

قلتُ إنني لم أسمع أيّ شيء عنه.

"لا يهمّ"، قال. بندقية (ليفر أكشن) كانت على المقعد بيننا، قريبة من ساقيه. فاحت رائحة البيرة والبنزين ورائحة العفونة الحامضة والحلوة

القوية التي لا أعرفها من سيارته. هناك جثة حيوان في صندوق الشاحنة، ولكنني لم أعرف ما هو. قال تشارلي: "إليك ما سيحدث. سأكون مسؤولاً عنك هنا. ولكنك ستعتني بنفسك إلا إذا احتجتك. لديك عمل كلّ يوم. تنام في الكوخ، قرب مقطورتي. تأكل في الفندق الذي يملكه آ. ر. ستذهب إلى هناك وتعود لوحدك. ولكن في بعض الأيام سآخذك في الرولز. ولا تسبب لي أية مشكلات".

دفع تشارلي المقعد إلى الخلف كثيراً بحيث أن قدميه بالكاد وصلتا إلى الدوّاسات، كان يضع يداً واحدة على العجلة، ويدخن سيجارة ملدريد التي وضعها خلف أذنه، ويشرب زجاجة بيرة أخرى من علبة عادية. وقف غزال على حافة الطريق السريع، صدره مرتفع بين سنابل القمح، عيناه الخضراوان تتوهجان في الأضواء الأمامية. وجّه تشارلي العجلة نحوه، ولكنه تحرك دون جهد إلى الخلف. "اللعنة"، قال تشارلي. "كان بوسعي الحصول عليه". نظر نحوي نظرة خبيثة، كما لو أنه يحاول أن يخيفني، وقد أمتعه هذا. "كم تعتقد أن عمري؟"، قال والسيجارة مشدودة بين أسنانه.

"لا أعرف"، قلت. لم أعلّق على القيام بالواجبات. لم أتوقع أن يكون لدي أي منها. لا أمتلك أية فكرة ماذا سأرى حين تشرق الشمس.

"لا يهمك؟"

"كلا"، قلت.

"خمسون! ولكنني أبدو أصغر". تحدث بتلك الطريقة الوقحة. "تعتقد أنني هندي، أعرف هذا من قبل".

قلت: "لا أعرف".

https://telegram.me/maktabatbaghdad

قال: "خلاسي. لا تعرف هذا أيضاً، أليس كذلك؟"

"كلا"، قلت. ذكرتْ ملدريد أنه خلاسي، ولكنني لم أعرف معنى الكلمة ولا كيف تُكتب.

"إنه خط دم الملوك القدامى". رفع تشارلي ذقنه المغضّن وأخرج الدخان من جانبي فمه وهو يتحدث. "كوثبيرت غرانت، كل الطريق إلى الوراء. خط الشهداء". نخر في الجو البارد. "إن الهنود مختلفون تماماً. هناك الكثير من المرض العقلي، والإفراط في تناول الكحول وزواج الأقارب. إنهم لا يقبلوننا. يريدون أن يقتلوا الخلاسيين إذا سنحتْ لهم الفرصة".

ضغط فجأة على الفرامل. وضعت يديّ على لوح القيادة في الوقت المناسب لكنني اندفعت من مقعدي على ركبتيّ وبدأ قلبي يخفق. توقفنا في زقاق الحصى اللامعة بين حقول القمح. "أحتاج إلى ذلك. هل تحتاج إلى ذلك؟"، قال تشارلي. أطفأ المحرك قبل أن أجيبه وخرج من الباب، مباعداً ما بين ساقيه أمام الشاحنة. كان قد أخرج عضوه هناك حيث أستطيع أن أراه وتبول في جدول قويّ على التراب، مركزّاً بوحشية. أردتُ ذلك. لم أمتلك الأعصاب كي أقول هذا لملدريد، بالرغم من أنها ممرضة ولا بد أنها شهدت أموراً كهذه. ولكنني لم أعتقد أنني أستطيع فعل ذلك أمام تشارلي، على الطريق السريع. لم أستطع مع أبي. كنت فتى بلدة. وهكذا جلستُ في الشاحنة المتكتكة، الأضواء الأمامية تضيء تشارلي والدائرة المتسعة للبول على الأرض، غبار الطريق يتبدل عبر الباب المفتوح، محضراً رائحة البول الحامضة. "ما الذي حدث لك؟"، نادى من الطريق. أصدر صوت شهيق خفيفاً قبل أن يتوقف. "هل طُردت من هناك؟ هل ارتكبت جريمة؟"

كرهتُ أن أنظر إليه وأرى أعضاءه الخاصة. قلت: "كلا". لم أرد أن أقول إن والديّ سُجنا في غريت فولز. أمي لم تردني أن أكون في الميتم. تريدني أن أكون هنا في كندا.

بصق تشارلي في دائرة البول، ثم امتصّ لعابه، ونظف أنفه. "الأسرار جيدة"، قال وهو يرفع سحابه. "إن هذا المكان جيد للاختباء". كان البعوض والبرغش يخرج من القمح إلى حرارة الضوء الأمامي. دخل بعضه إليّ في الشاحنة ثم سقط وميض سريع منتفض لجناح عبْر الضوء، وذهب ثانية. باشق أو بومة، شدتها الحشرات. جعلتْ قلبي يخفق بشدة. لم يرها تشارلي. "هل تعرف أي شيء عن آ. ر؟" كان ما يزال في الخارج على الطريق، يتحدث، ويحدق في الظلام فوق مخروط الضوء الأمامي. اعتقدتُ أنه عنى شقيق ملدريد.

"قالت ملدريد إنه أخوها". لم أعتقد أنه استطاع سماعي.

ضغط ببوطه المطاطي الأسود على الحصى وهو يسير. "ستظنّ أنه غريب". لم يبد أنه يفعل أي شيء الآن. "بماذا تريدني أن أناديك؟"

"ديل"، قلت.

"كم لديك من الأعوام يا ديل؟"

عرفتُ ماذا يقصد فقلت: "خمسة عشر، ستة عشر تقريباً".

جاء تشارلي إلى الباب وجلس في مقعد السائق ترافقه رائحته الحيوانية. "هل أنت وحيد؟" أدار محركَ الشاحنة الذي أصدر زئيراً. أعتمت الأضواء الأمامية ثم اشتد نورها.

قلت: "مشتاق إلى والديّ، وأختي".

https://telegram.me/maktabatbaghdad

"إلى أين ذهبتْ؟ إلى ميتم ما؟" أغلق تشارلي الباب ورفع نافذته. كان البعوض يطنّ حولنا.

قلت: "لقد هربتْ.

"هذا أفضل لها". كان صامتاً، يداه على عجلة القيادة. "لا تعرف أي شيء عن أي شيء، أليس كذلك؟"

"كلا"، قلت.

"ما الذي تريدني أن أخبرك؟"

"لماذا سيستقبلني أي شخص هنا؟" ثانية، ما قلته كان ما أفكر به فحسب، كما مع ملدريد.

ما سقط على الأضواء الأمامية قبل لحظة صار مرئياً الآن. بومة: وجه ملتو أبيض، جناحان مفرودان، قدمان شوكيتان تتشبثان، عيناها عازمتان على شيء خلف حافة الضوء. ثم رحلتْ. لم أر بومة أبداً من قبل؛ سمعتها فقط من غرفتي في الليل في غريت فولز ولكنني أعرف ما هي. ثانية، لم يبد كأن تشارلي انتبه.

قال تشارلي: "إن آ. ر مميّز. إنه أميركي. عاش هنا وقتاً طويلاً. ربما هو وحيد ويحتاج إلى رفقة. لا أعرف. دعني أتحسس يدك".

عثرت يده الفظة القاسية الكبيرة بشكل صادم على يدي وأمسكتها وضغطتها أربع أو خمس أو ست ضغطات متعاقبة. كان يده سميكة وغير حادة الأظافر، وصلبة كبنطلونه القماشي. حاولت أن أسحب يدي ولكنه شدّها وضغط بشدة أكبر. "هل حاولتْ تلك الممرضة العجوز أن تضاجعك؟"، قال، كما لو أنه على وشك أن يضحك.

لم أستطع النظر إليه. قلت: "كلا".

"أرادت ذلك. شعرتُ بهذا. أرادت أن تضاجعني أيضاً. كان بوسعنا أن نفعل ذلك معاً. لن تريد أن يفعل معكِ أي شخص هذا بتلك الطريقة. انتظر فتاة جميلة ما. رأيتُ الأمور باكراً جداً. وها أنذا هنا". صارعتُ حتى حررت يدي ودفعتها تحت ساقي حيث لا يستطيع الوصول إليها. لقد أخافني. "حسناً، ها أنت هنا يا ديل". أطفأ محرك الشاحنة التي أصدرت جلبة. شعت الأضواء الأمامية على الطريق. احتشدت الحشرات. "ليس لديك أي اهتمام بهتلر على ما أعتقد، أليس كذلك؟"

"كلا"، قلت. كان كلّ ما أعرفه عن هتلر هو ما رواه والدي. وقد دعاه: شيغلغروبر. أدولف الصغير، مركّب ورق الجدران".

كان والدي يكرهه.

خفف تشارلي من السرعة وقال: "أنا مهتم به. لقد خاض صراعاته. يُساء فهمي طيلة الوقت، أيضاً". رفع إصبعين قصيرين وثخينين تحت أنفه، بدت عيناه فجأة متوحشتين. استدار نحوي وصاح: "انظر إلى هذا، أترى؟ يبدو كهذا، إيه؟" له شاربه الجميل الصغير. كلا، كلا، كلا! انتباه! انتباه!

قال والدي إن هتلر مات، وزوجته معه. انتحرا.

قال تشارلي، مسرّعاً المحرك ثانية: "كان فناناً جيداً بالمناسبة. أتخيّل نفسي شاعراً. ولكن ليس علينا أن نتحدث عن كل هذا الآن".

ضغط على دوّاسة البنزين، واندفعنا بعيداً في الظلام. كانت كندا حيث أنا الآن. كانت خطة أمي.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

(43)

لا تبدو الأحداث المغيّرة للحياة ما هي عليه غالباً.

أيقظتني أصوات. رجل يضحك، ثم تمتمة صوت ثان، ثم الصوت المعدني لغطاء محرك سيارة يتم إغلاقه. ثم المزيد من الضحك. "أتمنى فقط أن تخبرني امرأة شيئاً واحداً لا أعرفه من قبل"، قال صوت بدا كصوت تشارلي كوارترز. كانت هذه الأصوات في مكان ما خارج الغرفة التي أنام فيها، غرفة تذكرت دخولي إليها، ولكنني لم أتعرف عليها. رائحة التربة الباردة وشيء ما له رائحة قويّة ومعدنيّة وحامضة زادا من كثافة الجوّ. قماشة قطنية رقيقة رمادية بحافة بيضاء وُضعت على النافذة إلى جانب سريري، والذي هو مجرد سرير معدنيّ نقّال قابل للطيّ، خفّفتْ ما كان يجب أن يكون ضوء الصباح. لم أعرف أين كان ضوء الصباح، أو إلى أين سقنا في الليلة الماضية، أو إن كانت وجهتي هنا.

نهضتُ. كانت الغرفة صغيرة ومنخفضة ومظللة بالأخضر، كما لو أنّ الماء يتراقص خلف الستارة. كان رأسي يؤلمني. وظهري وساقاي كذلك. كنتُ أرتدي ثيابي الداخلية وثيابي وحذائي وجواربي مكومة على الأرضية المفروشة بمشمّع في نهاية السرير. كانت ذاكرتي محطّمة إلى قطع: أضواء أمامية لشاحنة تعبر بناء أبيض صغيراً؛ ينفتح باب؛ ضوء مصباح يدويّ يدور في غرفة فيها سرير معدني؛ تشارلي كوارترز يبول على الحصى المضاءة بقوة، محدقاً بشكل مقصود إلى الأسفل؛ بومة تندفع بوجهها كما في حلم؛ حديث عن هتلر والفتيات الفلبينيات؛ أنا أقاتل كي أبقى مستيقظاً، ولكنني أفشل.

سحبتُ القماشة جانباً ونظرت من النافذة المغبرة. كان أحد ألواحها الزجاجية مكسوراً، السطح الأملس مفتت عند حافة الشباك. في الخارج دغل زنابق، وخلفه بقعة من الأعشاب ما تزال قطرات الندى تتلألأ عليها. وراء ذلك، شارع إسفلتيّ ضيّق محفّر، ورصيف اسمنتي محدّب ومعشوشب، مربع من سماء زرقاء بشكل كامل، كمثل حاجز.

مقطورة بيضاء قديمة على عجلات مطاطية تتوضع على طرف شارع محفّر، مقطورة مستطيلة بسقف منبسط تتسع لشخص واحد كي يعيش فيها. هوائيّ تلفزيون مائل على جانبه على السقف. إلى جانب المقطورة بناء من المعدن المموج كالهنغار مفتوح وعلى سطحه مقياس الريح. في ما وراء ذلك، رافعة حبوب طويلة خشبية بسقف مائل. كان هناك كتابة فاهية عالياً على صندوق التخزين، الكتابة هي: ساسكاتشيوان بول، وتحت ذلك: بارترو.

كانت سيارة تشارلي كوارترز البيك آب المنبعجة مصفوفة خارج المقطورة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وتشارلي يقف أمامها، يتحدث مع رجل يحمل قبعة قشيّة، ويضع سترة بنية فوق ذراعه، ويرتدي قميصاً أزرق باهتاً. كان تشارلي ما يزال يلبس بوطه المطاطي الأسود، وقد أدخل نهايتي بنطاله فيه، وقميص الفلانيل نفسه. وفي كل مكان كان فناء المقطورة مليئاً بالقطع المعدنية الصدئة، والإطارات والبراميل الفارغة، والدراجات الهوائية، وأقفاص الحيوانات، ودراجة نارية قديمة، وسيارة ستودبيكر خضراء على ألواح خشبية نوافذها مفكوكة. كانت أدوات الخردة المعدنية مثبتة أو ملحومة معاً كي تصنع أشكالاً غريبة وتنطلق بين الأعشاب لوحدها. عجلة دراجة هوائية مثبتة إلى شفرة حصد. مكبس قشّ مزوّد بعجلة قيادة ومرآة، مزولة مصنوعة من حافة عجلة. دواليب هواء لمّاعة، ألعاب دوّارة ملصقة على عصي خشبية بين الأشياء المتناثرة التي تجزئ ضوء الشمس. عمود سارية خشبي موقت بالراية نفسها التي على الحدود تتكئ على جانب المقطورة.

استدار تشارلي، وذراعاه القصيران القويّان يومئان بحيويّة أولاً إلى المقطورة، ثم إلى النافذة التي كنت أنظر منها. اعتقدتُ أنه كان يتحدث عني، وأنّ الرجل الذي يرتدي القميص الأزرق ويصغي يجب أن يكون آرثر رملنغر، شقيق ملدريد. سمعتُ تشارلي يصيح، كما لو أنه يريد أن يسمعه الآخرون. "لا شيء يُعتمد عليه حولي". تراجع إلى الخلف وضحك. نظر الرجل الآخر إلى البناء حيث كنتُ، وضع يداً على ردفه وقال شيئاً وهزّ رأسه. استدار تشارلي ومشى عابراً الأعشاب نحوي.

ارتديتُ قميصي وبنطلوني بسرعة. لا أريد أن أكون في الثياب الداخلية إذا كان تشارلي قادماً كي يأخذني. ارتديت حذائي دون جوارب. بحثتُ عن

باب كي أخرج. كان هناك سرير معدنيّ آخر فارغ في الغرفة. وفي الظلال في كل مكان كُدّستْ علب كرتون، بالكاد تفسح مجالاً للسريرين. لم يكن هناك مصباح. سمعتُ صوت تشارلي سابقاً في الخارج: "على أيهما ترغب أن تنام؟ أسألك هذا..."، لم أعرف مع من يتحدث.

أسرعتُ عبر باب منخفض إلى المطبخ الصغير والخالي من الهواء وغير المرتّب. كان المزيد من العلب مكدساً هناك، وثمة موقد حديديّ، وجهاز تلفزيون قديم بشاشة مكسورة، وما بدا ككلب محشوّ أو ذئب موضوع على قمة براد من البلوط بمزلاجات مرتخية. أدخلتُ قميصي تحت بنطلوني وخرجتُ من باب إلى أرضية ردهة متسخة ذات باب له نافذة، ثم يميناً إلى ضوء الشمس العنيف. مما أذهلني، وصعق عينيّ، وأجبرني على إغماضهما، تماماً حين انعطف تشارلي في زاوية المنزل. بقع خضراء، ثم فضيّة، ثم حمراء سبحت في بصري. ضغطتْ فروة رأسي على جمجمتي. لم أعرف ما الذي سيحدث. ولكنني اعتقدتُ أنه مهم. كنتُ بعيداً عن غريت فولز.

"حسناً، ها هو هنا"، نادى تشارلي بصوت مرتفع. أجبرت نفسي على فتح عينيّ. كان البناء الجصّي الأبيض حيث نمتُ هو الذي عبره ضوء السيارة في حلمي. يتوضع منبسطاً على الأرض، قشور الجص متآكلة، الشرائح الخشبية والجصّ الداخلي مرئيان. رفعتُ سحاب بنطلوني. كان رباط حذائي غير مربوط. غطّيتُ عينيّ، التوى وجهي. "آ. ر هنا". كشف تشارلي عن أسنانه المربعة الكبيرة، مبتسماً وكأن هذا غير ممتع لي وممتع له. "تعال إلى هنا الآن. يريد أن يراك". استدار وسرتُ خلفه عبر الأعشاب، وعبرنا الشارع المحفّر نحو المقطورة والمنزل الحديدي، حيث الرجل الذي

https://telegram.me/maktabatbaghdad

يرتدي قميصاً أزرق يتحدث من نافذة سيارة بويك كستنائية اللون ولامعة، لم أرها من قبل، مع شخص في داخلها.

استغليت الفرصة لإلقاء نظرة حولي. كانت بلدة، ولكن ليس كبلدة سبق أن رأيتُها، حتى حين أخذَنا والدي أنا وبيرنير إلى محميّة الهنود في بوكس إلدر ورأينا منازلهم. بضعة منازل خشبية رمادية كانت مبعثرة في ما تبقى من عدد من شوارع البلدة. هناك آثار تشير إلى مواضع المنازل: مربعات أساس آجرية فارغة، مباني ملحقة خشبية ساقطة، مدخنة منتصبة، وأرض محفورة حيث وُجد شيء لكنه لم يعد موجوداً. وبدت المنازل الخمسة أو الستة التي ما تزال منتصبة فارغة، تتدلى أبوابها الخارجية مفتوحة على مفصلات، فناءاتها تحتلها الأعشاب، بعضها لا سقوف له، وبعضها الآخر مسقوف بالألواح ومصلّح كيفما اتفق، مداخنها متفتتة ومداخلها متهدّمة. ليس هناك أسلاك كهربائية ممدودة إلى أيّ مكان عدا المقطورة البيضاء والبناء الحديدي والمنزل الذي كنتُ أنام فيه، وإلى منزل آخر حيث في السقف ثغرة يمكن أن يدخل منها المطر. وقفت امرأة ضخمة ترتدي فستاناً رمادياً فضفاضاً على الدرجات الخلفية هناك، وراقبتنا عبر المسافة. حبل غسيل دائريّ معلّق في الفناء. شراشف بيضاء وملابس نسائية داخلية تتحرك في النسيم الدافئ.

وعلى ما بدا كطريق سريع معبّد عبرت شاحنتا حبوب كبيرتان تهتزان بصخب وسريعتان صفّاً مهدّماً من الأبنية التجارية ذات الأسطح المنبسطة مقابل رافعة الحبوب. بدت تلك الأبنية مهجورة، ونوافذها وأبوابها الخارجية مفقودة. لم يكن هناكُ بشر. على حافة البلدة، والتي صارت

مرئية حين سرتُ عابراً إلى البناء المعدنيّ، حاجز من أشجار القيقب وحور لومباردي (عرفت هذه من مونتانا) زُرع كي يصدّ الريح، ولكنه مات. وراء هذه وحافة البلدة هناك حقول حبوب محصودة منقطة ببالات القشّ، وفي المسافة القريبة، طاحونة رياح بدون شفرات، ومضخة نفط سوداء تغوص بصبر. إلى أبعد، امتدت الأرض غير مسطحة بل ملتفة، دون جبال أو هضاب، وتقريباً لا أشجار أخرى بقدر ما أستطيع أن أرى. كان الأفق يحطّم خط البصر في مسافات بعيدة جداً فحسب.

"حسنا، ها هو ذا". كان تشارلي ما يزال يصيح. تبعتهُ عبر مساحة الأعشاب نحو المقطورة والبناء الحديدي حيث صفّت البويك الجديدة. في ظلال البناء المعدني سيارة جيب بغطاء قماشيّ، ومقطورة صغيرة محملة بما بدا كالإوزّ ولكنه مصنوع من الخشب، وكومة من المعاول. قال تشارلي: "لقد أيقظتُ الطفل الصغير. إنه متعلم على المعاملة الجيدة في الولايات المتحدة. لن يبقى على قيد الحياة هنا". نظر حوله إليّ. كان تشارلي أكثر غرابة في ضوء النهار: رأسه الدائريّ أضخم، وكتفاه ضيقان بشكل غير طبيعي، وساقاه مقوّستان إلى الأمام عند الركب حيث يصل بوطه، شعره الأسود ما يزال مربوطاً إلى الوراء بمشبك الألماس الصناعي. كان منظره مزعجاً في الجوّ المفتوح.

وضعتُ يديَّ في جيبيّ كي أتوقف عن تظليل عينيّ. آلمتاني. جنادب تتقافز في الأعشاب الشوكية وتزحف عبر الأرض على قدميّ، تخشخش كالثعابين، مما وتّرني. طيور صغيرة بنيّة رفرفت بين دواليب الهواء والمدوّمات، والمنحوتات المعدنية. أحرقت الشمس شعري وكتفيّ ووخزتْ

https://telegram.me/maktabatbaghdad

عينيّ، وكان الشعر على ذراعيّ بارداً وواخزاً. بدأتُ أتعرّق عند حافة شعري على جبيني.

الرجل الذي يحمل سترته البنية وقبعته القشية، والذي كان يتحدث عبر نافذة البويك ـ كان هناك امرأة في المقعد الذي يلي مقعد السائق، تضحك من شيء سمعتهُ لتوّها ـ نهض وبدأ السير إلى حيث كنتُ.

"لقد أيقظتهُ بصعوبة"، قال تشارلي بصوت ما يزال مرتفعاً ـ من أجل فائدة الرجل. "هذا هو السيد رملنغر. تستطيع أن تدعوه بـ "سيدي".

حميتُ عينيّ ثانية. توهجت الشمس خلف رأس الرجل. كنت مرتبكاً. هذا هو الرجل المسؤول عني. آرثر رملنغر.

"كنا بانتظارك"، قال الرجل. نظرتُ إلى الأعلى كي أرى وجهه. كان طويلاً وأنيقاً وله شعر أشقر رائع مفروق بحرص إلى الجانب اليميني، الجهة المعاكسة للتي أفرق شعري إليها. لم يكن يبتسم، ولكنه بدا مهتماً. لم أقل أي شيء. "قل لنا اسمك، لماذا لا تفعل؟"

"ديل بارسونز"، قلت. بدا اسمي غريباً حين نُطق هنا.

نظر الرجل إلى تشارلي كوارترز وابتسم. "هل تعني كلمة ديل شيئاً آخر؟ إنها غير عادية؟"

"كلا يا سيدي"، قلت.

"تابعْ، تحدّثْ"، قال تشارلي كوارترز.

"ألم يكن من المفترض أن تكونا اثنين"، اقترب الرجل مني كما لو أنه يحتاج إلى رؤيتي بشكل أفضل. نظارة بإطار معدني تتدلى من خيط حول عنقه. يداه الكبيرتان ناتئتا العظام وأظافرهما مشذّبة. بدا مغتبطاً.

"هرب الآخر قبل أن يصل إلى هنا"، قال تشارلي.

"حسناً، هذا سيء جداً"، قال آرثر رملنغر. "تبدو متعباً. هل أنت منهك؟" هوّى وجهه بقبعته القشية.

"نعم، يا سيدي"، قلت. لم يذكر اسمه. لم يكن آرثر رملنغر اسماً ينسجم مع شكله. بدا كاسم رجل أكبر سنّاً.

"والناس يبحثون عنك، هل هذه قصتنا؟" انتقلت عيناه إلى تشارلي، ثم عادتا إليّ. أرادني أن أتحدث أكثر، ولكنني لم أشعر بالراحة كي أتحدث.

"لا أعرف"، قلت. دوّر نسيم دافئ المدومات في الفناء المعشوشب. أصدرت صوت طقطقة خفيفاً، رفرفة.

"لا يستمتع بالحديث"، قال تشارلي. استدار ونظر إلى الأدوات التي تدور. بدت كأنها تجعله سعيداً.

قال آرثر رملنغر: "حسناً. إذا جاءت الشرطة الخيّالة إلى هنا قل فقط إنك ابن أختي من الشرق. لا يعرفون أين تورنتو. هل تريدني أن أمنحك اسماً كندياً؟"

"كلا، يا سيدي"، قلت.

ابتسم، ثم تلاشت ابتسامته عن وجهه كما لو أنه غير متأكد من شيء يتعلق بي. كان لديه انبعاجٌ في ذقنه يتبدى حين يبتسم. بشرته ناعمة وشاحبة، وشكله غير عاديّ. "لا يوجد أيّ من هذه"، قال، وبدأ يدوّر قبعته في أصابعه، كما لو أنه يقيّمني. ارتفعت نظرتهُ فوق كتفي نحو الكوخ الجصيّ حيث نمتُ. "هل لاءمك منزلك الصغير هناك؟" تحدث بهذه الطريقة كما لو أن كل كلمة اختيرت بطريقة محددة.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كان خداي يتعرقان. نظرتُ حولي إلى المنزل المريع. كوخ من ألواح الخشب يتوضع في الأعشاب خلفه. عرفتُ أنه مرحاض. كلب أبيض ضخم يقف في الخارج، مواجهاً الباب، ويهزّ ذيله. وُضعت مدوّمة فضية إلى جانبه، مما عنى أن تشارلي يستخدم المرحاض. كان أبي يروي النكات والقصص دوماً عن المراحيض. إنها منتنة وتُستخدم أوراق دليل الهاتف للتنظيف ولا يكون لك خصوصية أبداً. لم أفكّر أبداً أنني سأضطر إلى استخدام واحد. لم أرد أن أعود إلى المنزل الجصّي. "لا أعرف"، قلت. "سأ..."

"تستطيع أن ترتّب الأشياء في الداخل كما تريد. إن بعض العلب الموجودة هي لي"، قال آرثر رملنغر، وهو ما يزال يدوّر قبّعته. "لن يكون من السهل أن يعثر عليك أحد هنا، إذا كان هذا هدفنا. لن يزعجك أحد". حكّ أذنه، التي كانت كبيرة، بقفا يده. بدا غير مرتاح الآن. "أعيش في فورت رويال على بعد أربعة أميال من ذلك الطريق الترابي"، استدار ونظر نحو الطريق السريع. "أي في الشرق. سنعثر لك على عمل في الفندق. هل كنت لوحدك من قبل؟"

"كلا يا سيدي"، قلت.

قال: "ظننتُ ذلك. أفترض أنك عملت بما يكفي".

"كلا يا سيدي"، قلت. لم أعرف ما الذي كان يعرفه آرثر رملنغر عني، ولكنني اعتقدت أنه يعرف كلّ شيء تقريباً ولكن ربما لا يعرف أنني أحب أن ألعب الشطرنج أو أنني مهتم بتربية النحل، أو أنني لم أعمل أبداً لأن أمي لم تردني أن أعمل لأسبابها الخاصة.

"هل تشعر أنك غريب هنا؟" نظر كما لو أنّ شيئاً حدث له لتوّه. تغضّن

حاجباه. لم ألتق أبداً بشخص مثله. قالت ملدريد إنه في الثامنة والثلاثين من عمره، ولكن وجهه وجه شاب وسيم. في الوقت نفسه بدا أكبر عمراً، كما يبدو من لباسه. لم يكن متناسقاً، كالأشخاص الذين اعتدتُ عليهم.

"نعم يا سيدي"، قلت.

أدار قبعته القشية إنشاً بعد آخر بأصابعه الطويلة، والتي كان في أحدها خاتم. قال: "حسناً، بعض الأمور التي تحدث لنا مؤسفة، يا ديل. لا نستطيع أن نفعل أي شيء حيالها". نظر فوق كتفيّ ثانية إلى المنزل الجصي. "حين أجيء إلى هنا..." توقّف فيما كان ينظر إلى المنزل، ثم بدأ ثانية. "لقد عشتُ في منزلك الصغير هناك. كنت أقف بين الأعشاب وأنظر إلى السماء وأتخيل أنني رأيتُ طيوراً ملونة براقة وأنني في أفريقيا والغيوم جبال". قميصه الأزرق، والذي بدا لي أنيقاً، بان عليه التعرق في أمكنة في الأمام. أبقى سترته البيج الجميلة على يده.

"إنه أميركي مثلك! ولهذا هو غريب"، قال تشارلي فجأة وضحك. كان يشير إلى آرثر رملنغر. كان يراقب الطيور البنية ترفرف حول حديقته التي من دواليب الهواء، ولكنه يصغي أيضاً دون أن يبدو عليه ذلك. بدأ بالسير بعيداً نحو المقطورة، والتي يوجد قطعة خشب تحت بابها كدرجة، بوطه المطاطي يضرب الأعشاب، جاعلاً الجنادب والطيور الصغيرة تتقافز إلى الأعلى. "أنتما متشابهان"، قال.

"ما الذي تستمتع بفعله يا ديل؟"، لم يكن لعيني آرثر رملنغر الزرقاوين لون تقريباً. ميّل رأسه ووضع إحدى يديه بارتباك في جيب بنطلونه كما لو أننا سنجري محادثة الآن. بدا كأنه يريد التحدث معي، ولكن لا يعرف ماذا

https://telegram.me/maktabatbaghdad

يقول. قالت ملدريد إنه غير عادي، وأكيد أنه كذلك.

قلت: "أحب القراءة".

زمّ شفتيه وطرفت عينه. بدا كأن هذا يهمه. "هل تخطط للذهاب إلى جامعة جيدة حين تكبر؟"

قلت: "نعم يا سيدي؟"

كان ينتعل بوطاً من جلد الظباء وكانت نهاية أحد ساقي بنطلونه مشكولة فيه. بدا بوطاً مرتفع الثمن. كان يرتدي ثياباً مرتفعة الثمن، مما جعله يبدو مختلفاً أكثر. حك بوز بوطه بالأرض الغبارية، ثم استدار ونظر إلى السيارة. كانت المرأة التي في الداخل تراقبنا. لوّحت بيدها ولكنني لم ألوّح لها. قال آرثر رملنغر: "ستتفاهم أنت وفلورنس على الأرجح، إنها رسامة ومتحمّسة لمدرسة نايتهوك الأميركية. إنها فنية جداً". هزّ رأسه. "لديّ لوحة لها على الجدار في شقتي. سأريها لك حين أشاهدك ثانية". ألقى نظرته على كل مكان حوله: الأعشاب الحارة، البناء المعدنيّ، المقطورة المنزلية المحطمة، بقايا البلدة التي لا يعيش فيها أحد. قال: "لا بدّ أنهم أحرقوا ما تبقى من هذا المكان الذي أنا منه".

قلت: "لماذا؟"

أضحكه الأمر على ما يبدو، لأن الانبعاج ظهر فجأة في ذقنه الناعم. ولكنه لم يضحك. "آه، هذا سيرعبهم"، قال، ثم ابتسم. "لا يوجد المزيد من احتمالات النجاح. إن الأميركيين جميعاً يخشون هذا. إنّ علاقتهم سيئة مع التاريخ هناك في الأسفل".

"كم سأبقى هنا؟" قلت. كان هذا أهم شيء أردت معرفته، ولهذا

اضطررت إلى قوله. لم يتناول أحد موضوع عودتي إلى غريت فولز. لم يذكر آرثر رملنغر والديّ، كما لو أنه لا يعرف عنهما، وأنهما لم يكونا مهمين.

قال: "حسناً. ابق قدر ما تريد". وضع قبعته القشية على رأسه. كان مستعداً للذهاب. للقبعة خيط جلدي يتدلى من الحافة شدّه تحت عنقه. جعلتْهُ يبدو مختلفاً على نحو كامل، وسخيفاً قليلاً. "يمكن أن تحب هذا المكان. بوسعك أن تتعلم شيئاً ما".

"لن أحبّه على الأرجح"، قلت، مما بدا وقحاً وغير ممتن، ولكنه كان الحقيقة.

قال: "إذاً أعتقد أنك ستعثر على طريقة للرحيل. سيمنحك هذا هدفاً ما". استدار وبدأ يسير عائداً نحو البويك.

"ديل، أنا سعيد جداً أنك هنا. سأراك في الحال". قال هذا دون أن يستدير. "سيخبرك تشارلي عن عملك".

قلت: "حسناً". لم أكن متأكداً إن كان قد سمعني، وهكذا قلتُ ثانياً: "حسناً".

هذا كل ما حدث في اللقاء مع آرثر رملنغر. وكما قلت، إن الأحداث المغيّرة للحياة يمكن أن لا تبدو كما هي عليه.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

(44)

في "وقائع الجريمة التي ارتكبها بارسون الضعيف"، والتي ألّفتها أمي كتبت كما لو أن بيرنير وأنا حاضران ونستطيع قراءة أفكارها في اللحظة التي كتبتها فيها، وكنا الشخصين المؤتمنين على أسرارها اللذين سيتسفيدان مما كانت تفكر به. يمثل سجلّها بالنسبة لي صوتها الأكثر صدقاً، ذلك الذي لم نسمعه أبداً نحن الطفلين، ولكنه الصوت الذي كانت ستعبّر به عن نفسها لو كان بوسعها أن تفعل ذلك بشكل كامل، دون الحدود التي فرضتها على الحياة. يصحّ الشيء نفسه على كل الآباء والأمهات وأطفالهم. فالبشر يعرفون جزءاً من بعضهم فحسب. لم تعش أمنا وقتاً طويلاً في سجن نورث داكوتا. ويستطيع أي شخص أن يقول ـ سواء بدا صادقاً أم لا ـ إنها قد بدأت بالانهيار حين كتبت هذا.

يا عزيزيّ،

لقد عبرتما حدوداً قومية الآن، الأمر الذي ليس مثل الخروج إلى الشارع، كما

تعرفان. إنها بداية جديدة، بالرغم من أنه لا يوجد هناك شيء يدعى البداية الكاملة. (أكيد أنها ناقشت هذا هي وملدريد). إنها البداية القديمة فحسب وقد وُضعتْ في ضوء مصباح جديد. أعرف كلّ شيء عن هذا. ولكن ستسنح لكما فرصة معاً في كندا ولن تتلطخا أكثر بوالدكما وبي. لن يكترث أحد بمن أين أتيتما أو ماذا فعلتما. لن تكونا منبوذين. لم أذهب إلى هناك أبداً، لكنها تشبه كثيراً الولايات المتحدة، وهذا أمر جيد.

أذكر شلالات نياغارا وأنا أنظر عبرها حين كنتُ فتاة مع والديّ. رأيتما الصورة. مهما كان فيها ما يفصل بين الناس، فقد أكّدته الشلالات (بالنسبة لي فعلت هذا على أي حال). نحن لا نميّز بانتباه كاف، كما تعرفان، بين الأشياء التي تبدو متشابهة ولكنها مختلفة. يجب أن تفعلا هذا على الدوام. آه، حسناً. ستعيشان آلاف الصباحات كي تفكرا بكل شيء. لن يخبركما أحد كيف تشعران. فأنتما مسبقاً تتخيلان العالم على أنه نقيضه، يا ديل. لقد أخبرتني هذا. هذه قوتك. وأنت يا بيرنير، تمتلكين ذوقاً لكل ما هو فريد، ولهذا ستكونين بخير. لقد عبر أبي الكثير من الحدود بعد أن غادر بولونيا، وقبل أن يصل إلى تاكوما، في واشنطن. كان يستمدُّ القوة من الحاضر دائماً.

اكتشفتُ برودة جديدة جداً في داخلي الآن. ليس سيئاً العثور على مكان بارد في قلبك. إنّ الفنانين يفعلون هذا. ربما لها أسماء أخرى... القوة؟ الذكاء؟ لقد رفضتُ ذلك من قبل، من أجل والدكما، أو حاولتُ ذلك. أنا أحاول أن أساعدكما من هنا فحسب، ولكنني في وضع غير مؤات. أنا متأكدة أنكما تتفهّمان...

قرأتُ هذه "الرسالة" مرات كثيرة، وفي كل مرة أدركت أنها لم تكن تتوقع أن تراني أنا وبيرنير ثانية. كانت تعرف جيداً أن هذه نهاية العائلة بالنسبة لنا جميعاً. إن هذا أكثر من محزن.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

(45)

قرأتُ مرة أن الوحدة تشبه كونك في صفّ طويل، تنتظر الوصول إلى المقدمة حيث هناك وعد بأن يحدث شيء جيد. لكنّ الصفّ لا يتحرك أبداً، وثمة أشخاص آخرون يأتون دائماً ويقفون أمامك، والمقدمة، المكان الذي تريد أن تكون فيه، تبتعد دائماً وتبتعد إلى أن تتوقف عن تصديق أن لديها شيئاً تقدمه لك.

إن الأيام التي تلتْ لقائي الأول مع آرثر رملنغر في الواحد والثلاثين من آب\أغسطس، 1960، ينبغي ألا تكون، إذاً، أيّام وحدة. ولولا أنها لم تنتهِ بكارثة، لاعتُبرتْ مليئة وغنية لفتى في مثل وضعي، مهجوراً، تلاشى كل ما كان يألفه، وليس أمامه من احتمالات مستقبلية سوى ما يراه مباشرة أمامه.

كانت واجبات عملي في البداية ـ قبل أن يصل هواة رياضة الصيد ويبدأ صيد الإوزّ ـ تتم كلّها في فورت رويال، ساسكاتشيوان، في فندق ليونارد،

الذي يملكه آرثر رملنغر. كان يعيش في شقة في الطابق الثالث، بنوافذ مطلة على السهوب تستطيع أن تشاهد منها (ما تخيلت أنه) مئات الأميال شمالاً وغرباً. كنتُ أذهب إلى عملي مشياً على الأقدام كل يوم، أو أسوق دراجة من دراجات تشارلي المحطمة، ذات الدولابين، جي. سي. هيغينز على الطريق السريع، حيث شاحنات الحبوب الكبيرة تنثر سجادة ذهبية من قشور الحنطة على جانب الطريق، والذي خلفه تمتدّ السكك الحديدية الباسيفيكية الكندية متوازية، كي تخدم رافعات الحبوب من ليدر إلى سويفت كرينت. وفي أيام متباعدة، كان تشارلي يأخذني في شاحنته، وغالباً مع المرأة السويدية، السيدة غيدنز، المقيمة الأخرى في بارترو، الصامتة والتي تنظر من النافذة، ويوصلني إلى ليونارد، حيث كان عملي تنظيف غرف النوم والحمامات وكنت أقبض مقابل هذا ثلاثة دولارات كندية في اليوم بالإضافة إلى وجباتي. كانت السيدة غيدنز تعمل في المطبخ، تحضر الطعام لغرفة الطعام في الفندق. وكنت أمضي نصف أوقات بعض الظهر وحدي وكنت إما أعود على الدراجة عبر الطريق السريع إلى بارترو، حيث لا يوجد شيء أفعله، أو أبقى وأتناول عشاء باكراً مع الحصادين وعمال السكك الحديدية في غرفة الطعام ذات الإضاءة السيئة وأعود مساء. منعني تشارلي بشكل محدد من أرفع يدي طلباً لتوصيلة على الطريق السريع. قال إن الكنديين لا يقلّون أحداً على الطريق وسيفترضون أنني مجرم أو ربما هندي وسيحاولون على الأرجح دهسي. ثم إن طلب التوصيلة سيكشفني ويجعلهم مشتبهين بي وسألفت انتباه الشرطة الكندية الخيالة، الأمر الذي لا يريده أحد. بدا كأنّ تشارلي نفسه يخفي شيئاً ولا يريد إشكالات من هذا النوع.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وبالرغم من أنني لم أقم بعمل التنظيف أبداً، باستثناء المساعدة في تنظيف منزلنا حين تطلب أمي هذا، اكتشفت أنني أستطيع القيام به. أطلعني تشارلي على خدع للدخول إلى الغرف والخروج منها بسرعة بحيث أستطيع أن أنهي تلك المطلوبة، والتي يبلغ عددها ست عشرة غرفة، بالإضافة إلى الحمامين المشتركين لكل طابق يستخدمه النزلاء، الذين كانوا يعملون على منصة نفطية، ومن عصبة فتيان السكك الحديدية وممثلي المبيعات وعمال حصاد القمح من الأقاليم الشمالية الغربية الكندية، الذين يعبرون السهوب كل خريف. كان كثير من أولئك النزلاء شبّاناً، أكبر بقليل مني. وكان كثيرون منهم وحيدين ويحنون إلى الوطن، وكان بعضهم الآخر عنيفاً ويحب شرب الكحول والقتال. ولكن لم يكترث أحد منهم كيف يترك غرفة أو ينام فيها، أو الحمام حيث ينظفون أنفسهم ويستخدمون المرحاض. كانت تفوح من غرفهم الصغيرة رائحة العفونة، من عرقهم وأوساخهم، وطعامهم ومن الويسكي ومن طين الحفر، ومن المراهم الموضوعة في الزجاجات والتبغ. وفي الأروقة كانت الحمامات قذرة ورطبة وتحتوي على الصابون، وملوثة من الاستخدامات الخاصة التي لا يزعج الرجال أنفسهم بتنظيفها أبداً، كما يفعلون في بيوت أمهاتهم. أحياناً كنت أدفع باب غرفة نوم حاملاً الدلو والممسحة والمكنسة والخرق ومواد التنظيف، فأرى أحد الفتيان وحيداً في غرفة فيها عدة أسرّة، يدخن أو ينظر خارج النافذة أو يقرأ الكتاب المقدس أو جريدة. أو تكون هناك إحدى الفتيات الفلبينيات جالسة إلى طرف السرير وحدها، ومرة أو مرتين دون ثياب، وأكثر من مرة في السرير مع أحد عمال النفط أو تاجر ما، أو مع فتاة أخرى تواصلان النوم في الصباح الطويل. وفي

كل مرة كنت لا أتفوّه بكلمة وأغلق الباب بحرص وأفوّت الغرفة في ذلك اليوم. لم تكن الفتيات الفلبينيات فلبينيات بالطبع، كما شرح لي تشارلي. كن فتيات من البلاكفوت أو الغروس فنتري، يرسل آرثر رملنغر التاكسي لإحضارهنّ من سويفت كرينت أو من ميديسين هات، كي يعملن في البار ليلاً ويلطّفن الجوّ ويجعلْن فندق ليونارد أكثر جاذبية للزبائن. بما أن النساء غير مسموح لهنّ بطريقة أخرى. وغالباً حين كنت أصل في الصباح إلى العمل، كنت أرى تاكسي سويفت كرينت مصفوفة في الزقاق إلى جانب الفندق، وسائقها ينام في المقعد الأمامي أو يقرأ كتاباً، منتظراً خروج الفتيات من الباب الجانبي، من أجل أن يوصلهن إلى منازلهنّ. قال لي تشارلي إن إحدى الفلبينيات فتاة بروتستانتية هوترايتية أنجبت طفلاً بدون زواج. ولكنني لم أر أبداً فتاة كهذه في فندق ليونارد ولم أعتقد أن فتيات من طائفتها سينحدرن إلى هذا الدرك، أو أن أولياء أمورهنّ سيسمحون بذلك.

لا أعني بهذا القول إنني انسجمت على الفور وبشكل كامل مع الحياة في فورت رويال. كنت بعيداً عن هذا. عرفتُ أن والديّ كانا في السجن، وأن أختي هربت، وأنني كنت مهجوراً بين غرباء. ولكن كان من الأسهل - أسهل مما تعتقدون - أن أصرف انتباهي عن هذا وأن أعيش في الحاضر، كما قالت ملدريد، كما لو أنّ كلّ يوم كان يشكّل وجوده الصغير الخاص.

كانت بلدة فورت رويال الصغيرة مكاناً حيوياً في أوائل الخريف واستفادت بشكل جيد بالمقارنة مع بارترو، حيث كنت أعيش، على بعد أربعة أميال، في مكان إقامة غريب وفارغ وشبحي باستثناء تشارلي في مقصورته والسيدة غدينز، التي نادراً ما تتحدث معي. كانت فورت رويال

https://telegram.me/maktabatbaghdad

جماعة سهوب صغيرة صاخبة على خط سكة الحديد والطريق السريع 32 بين ليدر وسويفت كرينت. لا بد أنها مختلفة قليلاً عن البلدة التي سطا فيها والداي على مصرف في نورث داكوتا.

هيمن فندق ليونارد على الطرف الغربي من الشارع الرئيسي وكان مبنيّاً من الخشب ومؤلفاً من ثلاثة طوابق ومربع الشكل ومدهوناً بالأبيض، سقفه منبسط ونوافذه غير مزيّنة، يقود إليه مدخل شارع صغير بلا سمات وينفتح على ردهة استقبال مظلمة، وغرفة طعام بلا نوافذ، وبار مظلم بلا نوافذ يتم الوصول إليه عبر دهليز ضيق في الخلف. كان على سقف ليونارد لافتة لا يستطيع المرء أن يراها من البلدة، ولكنني استطعت رؤيتها من الطريق السريع حين كنت أركب إلى العمل أو أعود. نيون أحمر كُتب عليه "فندق ليونارد" بأحرف قصيرة وكبيرة، وإلى جانبه المخطط الضوئي لكبير خدم يقدّم صينية مستديرة عليها كأس مارتيني. (لم أكن أعرف بعد ما هي المارتيني). كان هذا منظراً غريباً من الخارج في السهب. ولكنني أحببتُ رؤيته أثناء مجيئي وذهابي. أشار إلى عالم بعيد عن مكانه، ومكاني، ولكنه كان هناك أمامي كل يوم، كمثل سراب أو حلم.

في الحقيقة، لا يبدو ليونارد فندقاً بالمقارنة مع الرينبو في غريت فولز، أو الفنادق الرائعة التي رأيتها من قبل. لا يربطه سوى القليل ببلدة. ولم يكن ينزل فيه إلا بضعة أشخاص من المقيمين في البلدة، باستثناء الكحوليين والمتبطّلين والمزارعين النسيئي المزاج الذين استأجر منهم آرثر رملنغر أرضاً لصيد الإوزّ، والذين يشربون في البار مجّاناً. تحمّل فندق ليونارد بلية الاستهجان في فورت رويال، التي كانت في إحدى المرات بلدة زهد واعتدال. كان القمار

والفتيات متوفرين، ولكن معظم الناس الوقورين لم يأتوا.

كانت واجباتي تنتهي دوماً عند الثانية، وحين أبقى لتناول العشاء في السادسة، كنت أشاهد آرثر رملنغر، الذي يلبس دوماً بشكل جيد، مع صديقته السيدة، فلورنس لا بلانك، يتحدث ويمزح وينسجم مع الزبائن الذين يدفعون. قال لي تشارلي إنني يجب ألا أفتح حديثاً مع آرثر رملنغر بالرغم من أن لقاءنا الأول كان ودّياً. لم يكن من المفترض أن أطرح أسئلة أو أكون بارزاً أو حتى ودّياً، كما لو أنّ آرثر رملنغر يوجد في حالة نادرة لا يستطيع أن يشاركه فيها أحد. كنتُ زائراً ويجب أن أفهم أنني لا أتمتّع بوضع خاص أو امتيازات. أحياناً كنت أعبر آرثر رملنغر في غرفة الاستقبال الصغيرة أو وهو يصعد الدرج حيث أكنس أو أقوم بواجباتي في التنظيف بدلوي وممسحتي، أو في المطبخ وأنا أتناول طعامي. "حسناً. ها أنت يا ديل"، كان يقول، كما لو أنني كنت أختبئ منه. "هل تتدبّر أمورك في المأوى الذي تعيش فيه؟" (أو كلمات كهذه؛ كنت أعرف كلمة مأوى سابقاً من أبي). أقول:"نعم، سيدي". يقول: "أخبرني إن لم تكن هكذا". فأقول:"أنا أتدبّر أمري بشكل جيد"، فيقول آرثر:" رائع إذاً، رائع"، ويواصل طريقه. ولا أراه بعد ذلك لعدة أيام.

كان لغزاً بالنسبة لي لماذا لا يملك آرثر رملنغر أية رغبة بمعرفتي إذا كان يريد أن يتولى مسؤوليتي ومسؤولية رفاهي، الأمر الذي كان مهماً لفتى في عمري. بدا لطيفاً وغريب الأطوار حين التقيتُ به أول مرة، كما لو أنّ شيئاً ما كان يلهيه. ولكنه بدا أكثر غرابة الآن، الأمر الذي افترضتُ أنه يجب أن يكون عند معرفة أناس جدد.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

غالباً ما كنت أتجوّل في بلدة فورت رويال ملقياً نظرة على ما تحتويه في النهارات التي كنتُ أمضيها في البلدة، مبدّداً الوقت إلى أن أتناول طعامي ثانية، ثم أركب الدراجة بعد ذلك وأعود متعباً إلى بارترو قبل أن يصبح الطريق السريع المظلم غادراً بشاحنات الحبوب وفتيان المزرعة الخارجين للسهر. فعلت هذا لأنه كان جديداً بالنسبة لي أن أكون وحيداً دون عناية؛ وأيضاً لأن القليل الذي هناك جعل ما رأيته أكثر إدهاشاً، وقررت أن الطريقة لحماية نفسي من الوحدة والوقوع ضحية الأفكار المريضة والكئيبة هي أن أستقصي وأهتم بالأمور كما يفعل شخص وظيفته الكتابة عنها لموسوعة دليل العالم. ولكنني قمتُ أيضاً بجولاتي لأنه لم يكن هناك شيء آخر أقوم به، وقد ولّد اختياري للاستقصاء حرية محدودة لم أكن أعرفها أبداً حتى ذلك الوقت، بما أنني لم أعش إلا مع أختي ووالديّ فقط. وأخيراً، فعلتُ هذا لأنني في كندا التي لا أعرف عنها أي شيء: كم هي مختلفة عن أميركا، وماذا تشبه. أردتُ أن أعرف كلا الأمرين.

سرتُ على الرصيف الوعر في الشارع الرئيسي في سروالي الجديد وحذائي الذي اشتريته من البالة، شاعراً ألا أحد ينتبه إليّ. لم أكن أعرف سكان فورت رويال، أو لماذا كانت هناك بلدة، أو لماذا يعيش أي شخص فيها، أو حتى لماذا سُمِّيَتْ فورت رويال، عدا أنه ربما كان هناك موقع عسكري في زمن الرواد. كانت أعمالها تجري على طرفي الشارع الرئيسي، والذي هو الطريق السريع، وبدا كأنّ فيها ما يكفي من كل شيء لتأسيس بلدة. فشاحنات الحبوب والمزارع والجرارات كانت تعبر في الوسط كلّ يوم، وثمة حانوت للحلاقة، ومحلّ صيني يجمع بين خدمة غسيل الثياب والقهوة، وصالة

للبلياردو، ومكتب بريد بصورة للملكة معلقة على الحائط في الداخل، وقاعة اجتماعات، ومكتبان صغيران لطبيبين، ومنظمة أخوية نرويجية ومتجر وولورث، وصيدلية وصالة سينما وست كنائس (بما فيه كنيسة مورافية، وكنيسة كاثوليكية وأخرى لوثرية)، ومكتبة مغلقة، ومسلخ ومحل لإكسو موبيل. هناك بقالية تعاونية حيث اشترى تشارلي بنطلونه وثيابه الداخلية وحذاءه ومعطفاً، والمصرف الملكي ومركز إطفاء ومحلّ مجوهرات، ومحل لتصليح الجرارات وفندق أصغر اسمه "ملكة الثلوج"، وفيه بار مرخّص.لا يوجد مدرسة للطلاب، غير أنه كان هناك واحدة: تتوضع بشكلها المربع ذي الإطار الأبيض مقابل حديقة صغيرة بلا أشجار فيها صرح تذكاري لحرب وأسماء الرجال منحوتة عليه، وراية وسارية راية. هناك عشرة شوارع، غير معبدة فيها منازل بيضاء متواضعة حيث يعيش سكان البلدة. في هذه المنازل مروج نظيفة، وغالباً شجرة صنوبر وحيدة وحديقة صغيرة، فيما آخر أزهارِ البتونيا تتفتح في مساكب مربّعة، وترى أحياناً الراية الإنكليزية على ساربة محاطة بصخور مدهونة بالأبيض، أو بلوحة كاثوليكية تمثل ميلاد يسوع المسيح أعرفها من مونتانا. هناك أيضاً ملعب للبيسبول ترابيّ مسيّج، ومزلجة جليد للعبة الكرلنغ والهوكي في فصل الشتاء، وساحة معشوشبة للعب التنس دون شبكة، ومقبرة، في الجنوب حيث تبدأ الحقول وتتوقف البلدة.

تأملت أثناء جولاتي واجهة متجر المجوهرات حيث ساعات البولوفاز واللونجينز والإلجينز، والخواتم الألماسية الصغيرة والأساور والفضيات، وأجهزة السمع وألواح عليها أقراط لامعة. دخلتُ إلى الصيدلية المظلّلة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

واشتريتُ منبّهاً صغيراً من أجل الاستيقاظ باكراً وشممتُ عطور النساء ورائحة الصابون الطيبة والمياه الغازية والروائح الحادة للمواد الكيماوية من الغرف الخلفية وطاولة الزبائن. في بعد ظهر أحد الأيام، ذهبت إلى وكالة تشيفي وفحصتُ الموديل الجديد الذي لديهم، وهي سيارة إمبالا حمراء لامعة ذات سقف ثابت كان والدي سيقدّرها بشكل كبير. جلستُ لبعض الوقت في كرسي السائق وتخيّلتُ نفسي أقود بسرعة في السهوب المفتوحة، تماماً كما فعلتُ حين اشترى سيارة ديسوتو جديدة في الوطن وصفّها أمام البيت، وكانت الحياة بالنسبة لي ولبيرنير هادئة وبدون أحداث. جاء إليّ رجل مبيعات في ربطة عنق على شكل قوس ووقف قرب الباب، وأخبرني أنني أستطيع أن أقود التشيفي إلى المنزل إذا أردتُ ذلك، ثم ضحك وسألني من أين أنا. أخبرته أنني أميركي، وأنني أزور عمي في ليونارد، وأن أبي كان يبيع السيارات في "الولايات" (وهذا تعبير جديد بالنسبة لي). ولكنه لم يبد مهتماً بعد هذا وسار مبتعداً.

في يوم آخر، سرتُ إلى المكتبة المغلقة ونظرتُ عبر باب زجاجي سميك، إلى ممرات الرفوف الفارغة، والكراسي المقلوبة، ومكتب أمين المكتبة الطويل المرميّ بانحراف نحو الباب في الظلمة. قرأتُ اللافتة التي فوق مدخل السينما، التي لا تشتغل إلا في عطل نهاية الأسبوع ولا تعرض سوى أفلام رعاة البقر (الويسترن). استقصيتُ الأزقة الترابية خلف البلدة إلى فناء سكك الحديد المتفرّعة، وراقبتُ عربات نقل الحبوب والسوائل وهي تنطلقُ شرقاً وغرباً ـ كما فعلتُ من قبل في غريت فولز ـ وعمال توجيه العربات النحيلين ينظرون إليّ كما لو أنهم يعرفونني وهم ينزلقون عابرين

على أبواب عربات الشحن. سرتُ عابراً المسلخ، حيث كان "يوم الذبح" هو الثلاثاء، كما هو مكتوب على لافتة، وكانت بقرة محكوم عليها بالذبح تقف منتظرة في الزريبة الخلفية. عبرتُ ماسي - هاريس للتصليح حيث كان الرجال في الخلف في الجزء الرئيسي من المبنى، يلحمون عتاد المزارع بمشاعل وأقنعة. وكانت المقبرة تقع خلف حدّ البلدة، ولكنني لم أمش إلى هناك. لم أدخل إلى مقبرة من قبل أبداً ولكن لم أعتقد أنها مختلفة في كندا.

حين تكون عضواً في أسرة تنتظر في المنزل بعد مسافة قصيرة، فإن تجوّلك في البلدة يختلف عن تجوّل شخص لا ينتظره أو يفكر به أو يتساءل أحد ماذا يفعل أو إن كان بخير. قمتُ بهذه الجولات كثيراً في أوائل شهر أيلول ذاك، حين تغيّر الطقس، كما يحدث فجأة هناك، واختفى الصيف الذي أمضيته، ونشأ احتمال الشتاء بالنسبة لي وللجميع. تحدث معي عدد قليل جداً من الناس، لكن لم يبد أنّ أحداً على نحو محدد لا يرغب بالتحدث معي. كان جميع الذين عبرتُهم في الشارع تقريباً ينظرون في عينيّ ويسجّلونني كشخص تمت رؤيته، مصرّحين، كما اعتقدتُ، أن ذاكرة خاصة قد صُنعت ويجب أن أعرف هذا. لم يبد لي أي شيء في فورت رويال مميّزاً، إلا أنني كنتُ شخصاً قابلاً للتمييز بين أشخاص يعرفون بعضهم بعضاً ويعتمدون على تلك المعرفة. (كان هذا هو العنصر الجوهريّ الذي لم يفهمه والدي، والسبب في إلقاء القبض عليه بعد أن سطا على المصرف في نورث داكوتا). يمكن القول إنني قمتُ بجولاتي بالطريقة التي سيقوم بها أي شخص غريب في هذا المكان. وبالرغم من أنه كان مكاناً غريباً في بلاد منفصلة، فإنه لم يبدُ، أو يشعرني بأنه مختلف

https://telegram.me/maktabatbaghdad

عما أعرفه سابقاً. وإذا كان هناك أي شيء، فإن التشابه مع أميركا جعل أجنبيّته عميقة وجذابة لي مما جعلني أحبّه في النهاية.

عبرتني امرأة مع ابنتها حيث كنت أقف أمام واجهة الصيدلية، لا أفعل شيئاً سوى النظر باندهاش إلى الآنية الملوّنة والفناجين ومساحيق البودرة والهاونات والمدقات والموازين النحاسيّة المعروضة كلّها، جميع الأدوات التي يفتقر إليها الريكسال في غريت فولز، والتي جعلت المتجر في فورت رويال يبدو أكثر جدية. استدارت المرأة على الرصيف وقالت لي: "هل أستطيع أن أساعدك في شيء؟" كانت ترتدي فستاناً طُرّزتْ عليه أزهار حمراء وبيضاء بحزام جلدي أبيض وحذاء أبيض من الجلد يتماشى معه. لم يكن لديها لكنة، وانتبهتُ إلى هذا بسبب ما قالته لي ملدريد. كانت ودّية فحسب، وربما رأتني من قبل، وعرفت أنني غريب. لم أُخاطَب أبداً بهذه الطريقة، كغريب بشكل كامل. فقد كان كلّ ما يتعلّق بي معروفاً دائماً للراشدين في حياتي.

قلت: "كلا. شكراً لك". كنتُ واعياً أنه إذا لم تكن مختلفة بالنسبة لي، فربما بدوت مختلفاً عن الناس الذين هي معتادة على سماعهم، بالرغم من أنني لم أعتقد ذلك.

"هل أنت في زيارة هنا؟" ابتسمتْ ولكنها بدت مرتابة بي. ابنتها، التي من عمري ولها عقصات شعر شقراء وعينان زرقاوان صغيرتان وجميلتان منتفختان قليلاً، وقفت إلى جانبها ونظرت إلي بشكل ثابت.

قلت: "أنا هنا كي أزور عمي".

"من هو؟" تألقت عيناها اللتان كعيني ابنتها وهي تنتظر ردّي.

قلت: "السيد آرثر رملنغر. إنه يملك فندق ليونارد".

تغضّن حاجبا المرأة وبدا كأنها قلقت. تصلّبت في وضعيتها كما لو أنني شخص مختلف بسبب صوت اسم آرثر رملنغر. "هل سيسجّلك في المدرسة في ليدر؟"، سألت، كما لو أن الأمر يهمّها.

قلت: "كلا. أعيش في مونتانا مع والديّ. سأعود في الحال. أذهب إلى المدرسة هناك". شعرتُ بالتحسن لأنني كنت قادراً على قول إن أيّاً من هذه الأمور ما يزال صحيحاً.

قالت: "ذهبْنا إلى المعرض مرة في غريت فولز. كان جميلاً ولكنه كان مكتظّاً". ابتسمت ابتسامة عريضة أكثر، وضعت يدها حول ذراع ابنتها، مما جعلها تبتسم أيضاً. "نحن من كنيسة قدّيسي الأيام الأخيرة إذا أحببت المجيء".

"شكراً لك"، قلت. عرفتُ أن كنيسة قديسي الأيام الأخيرة تعني أنهم من المورمون، بسبب أمور قالها أبي، وبسبب رودي، الذي قال إنهم يتحدثون مع الملائكة ولا يحبون السود. واعتقدتُ أن المرأة ستقول شيئاً ما آخر لي، وتسألني عن أحوالي. ولكنها لم تفعل. سارت كلتاهما فحسب في الشارع وتركتاني أمام الصيدلية.

في أوقات بعد الظهر لا أبقى في فورت رويال أو أقوم بجولاتي وألهي نفسيّ، بل أركب الدراجة عائداً إلى بارترو مع علبة صغيرة من الطعام البارد في سلّتي. كنت آكل هذا الطعام في منزلي السيء قبل أن ينطفئ ضوء النهار. وكان من المزعج أن يأكل المرء وحيداً في أيّ من الغرفتين

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الباردتين اللتين بلا ضوء في كوخي، بما أنهما مليئتان إلى السقف بعلب كرتون تفوح منها رائحة الرطوبة والأوساخ الجافة المتراكمة لسنوات من استخدام الكوخ كمسكن لهواة رياضة صيد الإوزّ في الخريف والذين اقترب موعد مجيئهم. لم يكن هناك مجال لي تقريباً سوى السرير الحديدي الذي أنام عليه وذلك الذي خُصِّص لبيرنير، و"غرفة المطبخ"، ذات الأرضية المحفرة المغطاة بالمشمّع ومصباح سقفيّ واحد باهت، وغاز بعينين أسخّن عليه ماء المضخّة الذي تفوح منه رائحة القار من أجل حمامي المسائي. تفوح من كل شيء في المنزل رائحة الدخان القديمة والطعام الفاسد منذ فترة طويلة والمرحاض، وروائح بشرية أخرى منتنة لم أستطع أن أعثر على مصدر لها كي أزيلها، ولكنني استطعتُ تذوّقها في فمي وشمّها على جلدي وثيابي كلما ذهبت إلى العمل يومياً وقد جعلني هذا واعياً لذاتي. وفي الصباحات أنظّف أسناني عند المضخة الخارجية وأغسل وجهي بلوح صابون بالموليف اشتريتهُ من الصيدلية. وبعد أن برد الطقس، صارت الريح تلسع ذراعيّ وخديّ وتوتّر عضلاتي وتؤلمها إلى أن أنتهي. لو كانت بيرنير هنا لأصيبت باليأس مرة أخرى وهربت ثانية ولهربتُ معها.

غير أن إحضار الطعام معي والانتظار إلى المساء كي أتناوله تحت ضوء المصباح السقفي الشبيه بالموت سيرسلني مباشرة إلى تختي حيث سأتمدد بشكل بائس، محاولاً أن أقرأ إحدى مجلاتي عن الشطرنج في الضوء المريع، أو أتمنى لو كان بوسعي مشاهدة عرض على التلفاز المعطّل، بينما أصغي إلى الحمامات تحت سقوف القصدير والريح تهزّ ألواح رافعة الحبوب في

الجهة الأخرى من الطريق السريع، والسيارات القليلة والشاحنات التي تسافر على الطريق ليلاً، وأحياناً تشارلي كوارترز يسوق في وقت متأخر قادماً من بار الفندق، يقف بين الأعشاب أمام مقطورته، ويتحدث مع نفسه. (كنت في ذلك الوقت قد بحثت عن كلمة خلاسّي في موسوعة دليل العالم، في المجلد إم وعرفت أنه من دم هندي وفرنسي).

كان هذا يتآمر ضدي كل ليلة ويدفعني إلى أفكار بائسة حول والديّ وبيرنير، واليقين بأنني سأكون بين يدين آمنتين لو سلمت نفسي لسلطات الأحداث التي على الأقل ستضعني في مدرسة، حتى لو كان هناك قضبان على نوافذها، ولكن حيث يكون لدي أشخاص أتحدث معهم حتى ولو كانوا فتيان مزارع أفظاظاً وهنوداً منحرفين، بدلاً من أكون هنا، حيث إذا مرضتُ كما يحدث لي أحياناً في الخريف، فلن يعتني بي أحد أو يأخذني إلى الطبيب. لقد تُركتُ في الخلف بينما تقدّم كل شيء متجاوزاً لي. ولم يُذكر الأمر، لأنه لم يتحدث معي أحد سوى تشارلي، الذي كرهته، ولم يخصّني بأي انتباه أبداً، ولأنني لم أُدْعَ للتحدث مع أي شخص وبالتالي لم أعرف أيّ شيء عن مستقبلي. لم يُذْكَر بأنني سأعود إلى أي شيء عرفته من قبل أو أنني سأرى أبويَّ، أو يمكن أن يأتيا كي يعثرا عليّ. بالتالي، بدا لي، وأنا مرميّ في الظلمة في بارترو، كأنني لستُ من كنتُ من قبل: الفتى المتوازن الذي ربما كان في طريقه إلى الكلية، وخلفه عائلة وأخت. كنت الآن أصغر من وجهة نظر العالم وبلا أهمية، وربما غير مرئيّ. جعلني كلّ هذا أشعر بأنني أقرب إلى الموت من الحياة. وليس هكذا يجب أن يشعر فتيان في الخامسة عشرة من عمرهم. شعرتُ بأنني بسبب وضعي هذا

https://telegram.me/maktabatbaghdad

لم أعد محظوظاً، وعلى الأرجح لن أكون كذلك، بالرغم من أنني وثقتُ دائماً أنني كذلك. كان كوخي في بارترو في الحقيقة كارثيّاً. ولو كان بوسعي البكاء في تلك الليالي، لفعلتُ. ولكن لم يكن هناك أحد أبكي أمامه، وعلى أي حال كرهتُ أن أبكي ولم أرد أن أكون جباناً.

إذا لم أشغل نفسي بالتفكير بهذه الطريقة كل يوم وأتألم وأشعر بالهجر وأفسد اليوم التالي كلّه، وإذا عدتُ على الدراجة فحسب قاطعاً الأميال الأربعة إلى بارترو وتناولتُ علبة طعامي البارد في الخامسة بدلاً من بعد أن يخيّم الظلام، مدّخراً وقتاً كي أهتم بالأشياء التي في متناول يدي، منتبهاً إلى ما هو موجود حولي في بارترو (ثانية، كما نصحتني ملدريد، ألا أغفل التفاصيل)، فلربما كان بوسعي أن أحصل حينئذ على وجهة نظر أفضل في موقفي وأشعر بأنني أستطيع أن أدعم نفسي وأتحمّل.

لم يكن من مصلحتي أن أكون منبوذاً، حتى ولو انتابني كل ليلة شعور فارغ بعدم معرفة ماذا أو أين كنت في العالم، أو كيف هي الأمور، وكيف يمكن أن تسير معي. كان كل شيء سيئاً من قبل. هذه هي الحقيقة التي فهمتْها بيرنير وكانت السبب في هربها ومن المرجّح ألا تعود أبداً. رأتْ أنّ أيّ شيء هو أفضل من أن نكون الطفلين اللذين تُركا في الخلف لوالدين قاما بالسطو على مصرف. وقد قال لي تشارلي كوارترز إنني عبرتُ الحدود كي أهرب من الأمور، وربما كي أختبئ، وهو يرى أنّ كندا مكان جيد لذلك (بالرغم من أن الحدود بالكاد كانت حدثاً لاحظته). ولكن هذا عنى أيضاً أنني أصبحتُ شخصاً مختلفاً في السيرورة، الأمر الذي كان يحدث لي، وكنتُ بحاجة إلى قبوله.

وهكذ في الأصائل الطويلة الباردة تحت السماء المرتفعة، حيث بمقدور المرء أن يشاهد القمر في ضوء النهار، وقبل أو بعد أن أتناول وجبتي المسائية (إلى طاولة طعام صغيرة مكسورة كانت مرمية بين الأشواك، نصبتها مع كرسيّ محطّم أحضرته من داخل كوخي عند النافذة قرب دغل الليلك، حيث أستطيع أن أرى جهة الشمال)، في تلك الأيام كنت أقوم بجولة ثانية، في أنحاء بارترو. وبدا لي كأن لهذا الاستكشاف طبيعة مختلفة. فلو أنّ نزهاتي في فورت رويال هدفت إلى البحث عن اختلاف البلدة عن الحياة التي عرفتُها سابقاً، وإلى مصالحة نفسي مع الجديدة، لكانت جولاتي في أنحاء بارترو، على بعد أربعة أميال فقط، هي داخل متحف مكرّس لهزيمة الحضارة، أُفرغ كي يزدهر بعيداً في مكان آخر، أو ربما لن يزدهر أبداً.

ثمة ثمانية شوارع محفّرة فحسب، تقع في الشمال والجنوب، وستة تتجه غرباً وشرقاً. وهناك ثمانية عشر منزلاً فارغاً ومهجوراً، بلا نوافذ أو أبواب، وستائر ترفرف في الريح، ولكلِّ منزل رقمه، ولكلِّ شارع لافتة، بالرغم من أنه لم يتبق إلا بضعة أسماء على أعمدتها قابلة للتحديد. شارع ساوث أونتاريو. شارع ساوث ألبيرتا (حيث يتوضع كوخي). شارع ساوث مانيتوبا، حيث يقع مكتب بريد صغير وفارغ ومنزل السيدة غيدينز. وشارع ساوث لابرادور، الذي يصل بين البلدة وحقول القمح المحصودة، على طول صف ثلاثي ومربّع من أشجار الزيتون الروسية الذاوية وأشجار حور لومباردي وأشجار الكاراغاناس والكرز

https://telegram.me/maktabatbaghdad

حيث طيور الطيهوج في المروج تجثم في الأغصان مراقبة الطريق السريع والعقاعق تتشاجر في الخمائل على الحشرات.

توضّع هنا مرة أكثر من خمسين منزلاً، أحصيتهم أثناء سيري عابراً جميع الشوارع حاسباً الفراغات ومربعات الأسس. وفي الخلف بين الأعشاب المشوّشة والأفنية بقايا سيارات محروقة وصدئة وأجزاء أجهزة مقلوبة وحفر نفاية مليئة بالخزانات والمرايا المحطّمة وزجاجات دواء مفتوحة وأطر تخوت معدنية ودراجات ثلاثية العجلات وألواح كوي وآنية مطبخ وأسرّة أطفال ونونيّات سرير ومنبّهات وكلها نصف مدفونة ومتروكة في الخلف. وخلف البلدة، إلى الجنوب، في زاوية قائمة من الحقول وصفوف أشجار الزيتون، انتصبت بقايا بستان، ربما بستان تفاح، لم يُكتب له النجاح. كانت الجذوع اليابسة مجزومة، كما لو أنّ شخصاً ما نوى حرقها أو ادّخارها للموقد، ثم نسي. اكتشفتُ هناك أيضاً البقايا المفككة والصدئة لكرنفال: كراس حمراء ملبّسة بشبكة لرافعة دوارة (والتزر)، علبة أسلاك لعبة البوليت، ثلاث سيارات كهربائية، ومقعد عجلة فيريس، وكلها مبعثرة ومحطّمة، ولفافات سلاسل تروس مسننة وبكرات، بين الأعشاب مع كشك تذاكر خشبيّ مقلوب كان مرة مدهوناً بالأخضر والأحمر، مع لفافات من البطاقات الصفراء ما تزال في الداخل. لم تكن هناك مقبرة في مدى البصر.

اهتممتُ قليلاً بصندوقيْ خلايا نحل أبيضين يتوضّعان بوقار في الأعشاب الزاحفة خارج خط الأشجار حيث أضاءت الشمس طرفيهما. افترضتُ أنهما لتشارلي وأنه اعتنى بهما مرة. ولكن الخلايا، التي كانت

على الآجر، وتفتقر إلى قممها المسطحة المهمة، خالية من النحل. ألواحها الخشبية مرتخية المفاصل؛ العفونة تزحف من الأسفل، وطبقة دهانها الرقيقة أثّر بها الطقس فتشققت، أطر شمعها (والذي كنت أعرف عنه الكثير آنذاك) تستلقي بين الأعشاب إلى جانب قفازي عمل مهترئين. كانت الجنادب تصدر صريرها حولها في الغبار.

إلى أبعد - على بعد مائة ياردة في الحقل وراء حوض بركة جافّة - رأيت محطة الضخّ الوحيدة، ومحركها يهدر في نسيم بعد الظهر، مصدراً رائحة غازية كريهة فيما هي تعلو وتهبط، والأرض القاسية والمستديرة مشبعة وسوداء من النفط الذي ضُخّ وسُفح. مقياسان ضخمان بغطاء أبيض مثبتان إلى آلية المحرك يقيسان ما لا أعرفه. في أحد الأيام، ومن مسافة كوخي، راقبتُ رجلاً وحيداً يسوق عبر البلدة في بيك آب إلى موقع المضخة. نزل من السيارة وتجول في أرجاء المكان، فحص العدادين، وعدداً من الأجزاء المتحركة، ودوّن ملاحظات على محفظة أوراق ثم ساق مبتعداً في اتجاه ليدر ولم يعد أبداً (حسب علمي).

في أيام أخرى سرتُ إلى الصف التجاري الصغير، إلى المحلات التجارية التي ازدهرت مرة على الطريق السريع، مقابل الطريق الترابي إلى رافعات الحبوب ومسارات سكك الحديد الباسيفيكية الكندية. من سريري، كنت أسمع في غالب الأحيان سيارات الشحن في وقت متأخر من الليل، شاحنات الديزل الكبيرة تجتمع وتندفع، نوابض الدواليب تصرّ، صوت الفرامل وعربات النوم. هذه هي الأشياء التي كثيراً ما جرّبتها في غرفة نومي في غريت فولز. لم يكن هناك قطارات تتوقف في بارترو.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

فرغت رافعة الحبوب منذ وقت طويل. بالرغم من أنني كنت أحياناً أستيقظ قافزاً وأخرج في ضوء القمر في الجوّ البارد حافي القدمين في ثيابي الداخلية، آملاً أن أرى الأضواء الشمالية، التي تحدّث عنها والدي التي لم أشاهدها أبداً في غريت فولز، ولا في بارترو. تأرجحتْ الظلال الكبيرة لشاحنات الحبوب وعربات شحن السوائل والمقطورات الطويلة (الغوندولا) وتقافزت، وقدحت الشرارات من الفرامل، وكانت الأضواء باهتة وصفراء في عربات السكة الحديدية. وغالباً ما يقف رجل على المنصة الخلفية ـ بالطريقة التي رأيتُ بها صور السياسيين يلقون خطباً قوية للحشود الكبيرة ـ محدقاً في الخلف إلى الصمت المطبق وراءه، ضوء الذيل الأحمر لا يضيء وجهه تماماً، لا يعرف أن أحداً ما يراقبه.

فحصتُ الواجهات التجارية الصغيرة، المصرف الصغير جداً، وبناء الماسونيين الذي بُنيَ من أحجار المقالع سنة 1909، ومتجر أطلس للأحذية والأحذية متناثرة في داخله، وقاعة بلياردو مظللة، ومحطة للوقود بمضخات صدئة ذات رؤوس زجاجية، ومكتباً للضمان، وصالون تجميل بمجففات شعر فضية مرمية ومحطّمة، وأرضيات منقطة بالآجرّ وبالأثاث المحطم ورفوف البضائع، الضوء الباهت والبارد، الأبواب الخلفية المحطمة التي تسمح بدخول العناصر المخرّبة، وكل المؤسسات المفرغة من الاستخدامات البشرية. حين فحصتُ هذه الأشياء اكتشفتُ أنني فكرت دوماً بالحياة التي تلاشت هناك، ليس كحياة رُميتْ جانباً، وليس كمتحف على الإطلاق كما اعتقدتُ في البداية. امتلكتُ وجهات نظر أكثر إيجابية، مما جعلني أشعر أنه بالرغم من أنني لم أتعلّم كيف أندمج، فإن

الشخص ربما يندمج دون أن يدري. وأنا أقوم بهذا الآن. فالمرء يفعل هذا لوحده، وليس مع آخرين أو من أجلهم. ولم يكن الاندماج على الأرجح صعباً ومنطوياً على مجازفة ولا حاجة كي يكون مستمراً. وقد ولّدتْ هذه الحالة الذهنية حرية أخرى فيّ وكانت كمثل البدء بالحياة من جديد، أو كما قلتُ دائماً من قبل، أصبحتُ شخصاً آخر، ولكنه غير معرقل بل يتحرك، وهذه طبيعة الأشياء في العالم. يمكن أن أحبَّ ذلك أو أكرهه، ولكن العالم يتغيّر حولي بصرف النظر عن ماهية شعوري.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

(46)

حين تغيّر طقس الصيف إلى خريف، تغيّرتْ واجباتي اليومية أيضاً. اشتدّت الريح وهبّتْ علينا في أكثر الأحيان من الشمال، حاملة الغبار من الحقول. واندفعت سحب أضخم وأعرض بسرعة، وتساقط مطر رماديٌّ عبر السهوب نحو الشرق. صرتُ أرى تشارلي كوارترز أكثر، وبدأ يوصلني في سيارته بشكل أكثر انتظاماً مع السيدة غيدنز. وبعد منتصف النهار، كان يقلّني في شاحنته على الطرق الفرعيّة ويخرطني في أفعاله، والتي يتعلّق معظمها بإطلاق النار على الذئاب، ومراقبتها بالمنظار من مسافة بعيدة أولاً، ثم القيادة على الطرق المتعرجة لاعتراضها حيث يُخمّن أنها ستعبر الطريق. وشمل هذا أيضاً صبَّ الماء في أوكار سناجيب الغوفر لإخراجها، ونَصْبَ مصائده المتنوعة للأرانب والثعالب والغريرات وفئران المسك وأحياناً الغزلان الصغيرة، وفي بعض الأحيان وشق أو بومة أو باشق أو إوزّة

ـ وكان يطلق النار عليها كلّها أو يذبحها بمديته، ويرمي الجثة التي ما تزال تنتفض وترتعش وترفرف في صندوق شاحنته، كي تُسلخ وتُجفّف وتُمدَّد، وفي بعض الأحيان تُصبغ وتُحفظ في بنائه المعدني، ثم تُؤخذ إلى كندرسلي وتُباع في متجر بريتشمان، حيث سُمح لي بالذهاب. قال إنه أحياناً يشاهد غزال الموظ في المرج، يرتاح في حزام الشجر أو في التجاويف، وأنّ قرنيه لا يُقدّران بثمن، ولكن هذه الحيوانات لم تعد كثيرة. أشار إلى هذا العمل باسم "التحنيط والتصبير المتعب للحيوانات". أخبرني أن الخلاسيين يحافظون على حياتهم بنصب الأفخاخ للحيوانات، لكنّ تلك الطريدة بدأت بالاختفاء وصدرت قوانين إقليمية ضد الممارسات القديمة. من الضروري الآن العمل لدى أشخاص مثل آرثر رملنغر، الذي بدا كأنه يكرهه ويرفضه ولكنه معطى في حياته لن يتغيّر أبداً.

بدأتُ بالذهاب معه وتعلم قيادة الشاحنة، التي يشير إليها تشارلي باسم "النصف طن"، لأنه كلما اشتدّ البرد مع مرور الأيام وبدأت الهجرة الكثيفة للإوز والبط والكراكيّ البرية من الشمال (كان لاك لا رونج وريإندير مكانين يذكرهما كثيراً)، وتوقفت بين القمح أو الشقق أو برك الأخاديد في جنوب ساسكاتشيوان على بعد عدة أميال إلى الشمال من فورت رويال، كان من المتوقع أن ألعب دوري. مما كان يعني تعلّمَ إطلاق النار (لكن لم يُسمح لي بذلك)، ومرافقة تشارلي إلى الحقول لتحديد أمكنة الإوز المسائية ولمعرفة أين سيكون في اليوم التالي، ولحفر حفر الإوزّ، والذهاب في صباح اليوم التالي قبل طلوع الضوء لنصب أشراك الإوزّ الخشبي وتوزيع هواة رياضة الصيد على الحُفَر، وهكذا حين تنجلي الظلمة ويكشف الضوء الأول الأشراك،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

يتمكن الصيادون من إطلاق النار على الإوز وهو طائر في حشود من أعلى النهر باتجاه الحقول كي يأكل.

وظيفتي الأكثر أهمية هي الجلوس في الشاحنة مع المنظار، على بعد ألف ياردة من أشراك الإوز الخشبي، فيما الشمس الحمراء تتحرك في الأفق، وتشارلي يقعي في الحفرة مع هواة رياضة الصيد الذي يكون عادة أربعة منهم في كل حفرة. ينادي الإوزّ مستخدماً فقط صوته البشري كأداة له، وهو صوت غريب يصدره من حنجرته وهو فخور به، يجذب الإوزّ إلى الأشراك فيصبح صيدها سهلاً. (قال إنني لن أتعلم هذا أبداً، لأنه لا أحد إلا الخلاسيين يستطيع معرفته). من الشاحنة، وبمنظاري، أستطيع رؤية أشراك ثلاث حفر ومراقبة الإوز المصطاد والمصاب منه وهو يتساقط، وإحصاءه، للتأكّد أن كلّ صياد لم يتجاوز خمساً منها. وبعد أن ينتهي إطلاق النار، ويتناثر الإوز النافق والمحتضر على الأرض، وترتفع الشمس بحيث أنّ الطيور تتوقف عن الانجذاب إلى الأشراك، نعيد أنا وتشارلي هواة رياضة الصيد إلى فندق ليونارد في الشاحنة، ونعود في الجيب والمقطورة المسطحة ونجمع الأشراك والطيور المقتولة ونحضرها إلى البيت المعدني. وهناك، على لوح التنظيف، نقطع أجنحتها وأقدامها ورؤوسها بالفأس الصغيرة، وننتف ريشها بآلة النتف التي صنعها تشارلي، وننتزع أحشاءها، ونغلفها بورق اللحام، ونأخذها إلى الصيادين الذي سيغادرون في ذلك اليوم، أو نخزنها في ثلاجة تشارلي إلى الوقت الذي يكون فيه الصيادون مستعدين للذهاب إلى وطنهم، الذي هو عادة أميركا.

كانت هذه حياة جديدة بشكل كامل بالنسبة لي، أنا الذي رأيتُ قواعد

سلاح الجوّ والبلدات المرتبطة بها، والمدارس والمنازل المستأجرة مع والديّ وأختي، والذي لم يكن له أصدقاء أبداً، ولم يتكيّف أو يكون له واجبات أو مغامرات، ولم يُمْض يوماً واحداً لوحده في السهوب. وبالرغم من أنني لم أعمل ـ كما اعترفتُ لآرثر رملنغر ـ فقد اكتشفتُ أننى لا أتضايق من العمل وأنني جديٌّ ومثابر في القيام به على نحو جيّد، في كلٍّ من فندق ليونارد وفي حقول الإوزّ. ويجب أن أقرّ بأن واجباتي كانت محدودة، ولكنني شعرتُ بأنها محترمة. ففي فندق ليونارد غالباً ما رصدتُ تصرّف البالغين حين يكونون وحيدين أو يعتقدون أنه لا أحد يشاهدهم، وكان هذا جديراً بالمعرفة. وفي الحقول كنت أكتسب معرفة خاصة لا يمكن أن يأمل أولاد في عمري، أو ربما يعيشون حياتي، أن يحصلوا عليها، وكان هذا دوماً هدفي. وما كان أكثر أهمية، في كل يوم حين أنطلق إلى واجباتي اليومية، هو أنّ ذهني يترك خلفه الموضوعات التي تشغله عادة، كوالديّ ومصيرهما المحزن وجريمتهما، وشقيقتي، ومستقبلي الخاصّ. وهكذا في نهاية اليوم، حين آوي إلى فراشي، متعباً وفي الغالب متألم العضلات، يفرغ ذهني لوهلة، وأستطيع أن أنام مباشرة. بالرغم من أنني كنت لاحقاً أستيقظ وحيداً في الظلمة، وتلك الأفكار نفسها تخطر في ذهني ثانية.

كان تشارلي كوارترز أغرب مخلوق سبق أن تخيّلت أنني سألتقي به في حياتي. لم أحبّه، كما قلت، أو أثق به، ودوماً كنت أشعر بالخوف من شرّ مرتقب في حضوره. لم أنس أبداً حين أمسك يدي في الشاحنة المظلمة في الليلة الأولى. وكنت واعياً أنه يراقبني حين أخرج من كوخي، وأتناول

https://telegram.me/maktabatbaghdad

عشائي الذي أحضره إلى المنزل إلى طاولتي الصغيرة، وأقوم بنزهاتي، مكيّفاً نفسي وعاثراً على طرق لتدبّر أمري لوحدي. أحياناً حين نكون لوحدنا في الشاحنة، عابرين بحر حقول القمح، ألاحظ أنه يضع أحمر الشفاه. في مناسبة أخرى وضع كحلاً أسود على عينيه، وكان شعره الأسود أشدّ سواداً أحياناً، وبين فينة وأخرى يلطّخ اللون الأسود جبينه. لم أذكر هذا، بالطبع، وتظاهرتُ بأنني لم ألاحظ. ولكنني كنت متأكداً من أن آرثر رملنغر يعرف عن هذا وربما لم يكترث. شعرت أن كليهما غريب بقدر ما يمكن أن يكون المرء غريباً. كنتُ متنبّهاً أيضاً على الدوام لدخول تشارلي المفاجئ إلى المرحاض المشترك الذي خلف منزلي، والذي فيه فتحتان إلى جانب بعضهما، وكيس من الليمون وحزمة من النشرات عن التعاونيات القديمة في ساسكاتشيوان. لم يكن هناك مزلاج أو قفل، وهكذا كان عليّ أن أغلق الباب مستخدماً مسماراً وخيطاً قويّاً من السيسال قمت بتركيبه، والذي يمكن أن أمسكه بشدّة حين أكون "على العرش"، كما كان أبي يقول. جعلني هذا التوتّر حذراً بشكل طبيعي، وهكذا اكتشفت أنني لا أدخل المرحاض إلا حين يكون تشارلي بعيداً عن مقطورته، أو في وقت متأخر من الليل حين أكون خائفاً من الثعابين، وأحاول دوماً أن أستخدم حمام الضيوف في الطابق العلوي في فندق ليونارد.

وفي الحقيقة، إن هذه المخاوف من تشارلي (والذي كان اسمه الحقيقي كما عرفت هو تشارلي كونتن) لم تتكشف أبداً عن أي شيء. وكان في معظم الأوقات يتصرف كأن شيئاً يلهيه حين أكون موجوداً، كما لو أن الأشياء التي تزعجه هي في ذهنه ولا يمكن إصلاحها. لم أعرف أبداً أو أسأل ما

هي. كان يقول دائماً إنه لا يغفو أبداً. فحين كنت أنظر أحياناً من نافذتي في منتصف الليل ـ عواء الذئاب عادة يوقظني ـ أرى مصباحاً مضاء دائماً في المقطورة، وأتصوره في الداخل يستلقي مستيقظاً فحسب، يصغي إلى جرس الريح الخاص به. قال مرة إنه أصيب بـ"التهاب سيئ في الأمعاء" في طفولته يواصل إزعاجه ويمنعه من الحياة الكاملة. كنت أشاهده أحياناً خارج مقطورته يطعم الطيور التي تحلق حول منحوتاته ومدوّماته الفضية. كان دائماً يعدّل مراوحها كي تواجه الريح على نحو أفضل، ويخرج أحياناً مجموعة من روافع الأثقال الحديدية التي يحتفظ بها في بنائه المعدني، ويقوم بعمليات الرفع والقرفصة والالتواء على الأعشاب. وفي أوقات أخرى يخرج كيساً من مضارب الغولف الخشبية وسلة خوخ فيها كرات. يضع الكرات على أكوام عشب ويضرب كل واحدة نحو الطريق السريع والسكك الحديدية، ويجعلها تقفز مجتازة الطريق الترابي، أو يجعلها تقعقع على جوانب رافعة الحبوب، أو يرميها بعيداً عن البصر في الحقول. لا بد أن لديه مؤونة لا تنتهي من الكرات، بما أنني لم أره أبداً يستعيد واحدة منها. عموماً كانت مسؤوليته التي تولاها على مضض هي أن يعلّمني ما أفعله حين يأتي هواة رياضة الصيد. كانت هذه على ما يبدو خطة وضعها آرثر رملنغر كي يجعلني أنشغل إلى أن يفكر بماذا يفعله بي. غير أنني كنت مهتماً بالتعلّم، بما أنني لم أكن أتعلّم أيّ شيء آخر وشعرتُ بالكآبة من هذا. سألتُ تشارلي عن الذهاب إلى المدرسة، وإذا كان سيُسمح لي، بما أن باص مدرسة أصفر يمر في بارترو كل صباح، متجهاً غرباً، كُتب على جانبه: وحدة مدرسة ليدر رقم 2، كمثل أي باص مدرسة أميركي. كان كل بعد ظهر يعود إلى فورت

https://telegram.me/maktabatbaghdad

رويال، ووجوه الطلاب تحدق من النوافذ، وغالباً ما كان يعبرني وأنا أسوق دراجتي القديمة ذاهباً إلى العمل أو عائداً منه. لم يومئ أحد في الداخل أو يلوح بيده أو يغيّر تعابيره حين شاهدني، لكنني رأيت مرة فتاة كنيسة "آخر القديسين" الجميلة والشقراء والمنتفخة العينين، التي تحدثت أمّها معي في الشارع. لم يبد أنها تعرّفت عليّ. وبدأتُ أشعر بالتحسّن مع مرور الوقت، وبأنني أكثر تكيّفاً مع المكان الذي كنت فيه (كما قال رملنغر)، وكلّما مرّ الباص انتابني شعور متجدد بأنني تُركت في الخلف، وأنني لن أجلس أبداً في غرفة مدرسة أخرى، أو أتعلم جيداً أو أتطوّر جيداً كما كنت آمل؛ وأنني من الممكن (والذي كان بطرق ما الجزء الأسوأ) بالغتُ في تقدير أهمية المدرسة في الخطة الكبيرة للأشياء.

حين سألتُ تشارلي عن المدرسة تجاهلني. علمتُ من السيدة غيدنز - من محادثة مقتضبة تبادلتها معي - أن مدرسة كاثوليكية للفتيات العاصيات تقع في أسفل الطريق السريع نحو ليدر، في بلدة بيردتيل، ساسكاتشيوان، على بعد بضعة أميال فقط. فكرت أنني من الممكن أن أذهب إلى هناك على دراجتي وأحضر أيام السبت، بما أن المدرسة مستمرة طيلة الأسبوع كما قالت. ولكن حين ذكرتُ هذه المدرسة لتشارلي قال إنه لا يقبلون إلا الأطفال الكنديين في المدارس الكندية، وإنني يجب ألا أرغب بأن أصبح كندياً لأي سبب. حدث هذا في واحد من آخر أيام السماء الزرقاء الدافئة، حين تدلى خط غيوم طويل وحليبي لما يمكن أن يكون العاصفة الشتوية الأولى فوق ألبيرتا، التي لا تبعد إلا خمسين ميلاً. كنت أنا وتشارلي نجلس على كرسييه المصنوعين من الألمنيوم القابلين للطي والخاصين بالسهب على

نتوء صخريّ، نراقب في الأسفل سرباً كبيراً من الإوزّ حطّ مقابل حقل شعير فوق ضفاف نهر ساسكاتشيوان. كان المزيد من الإوزّ ينحدر، ويأخذ مواقعه كي يأكل. وكان فصل اصطيادها يبعد أسبوعاً فقط. جلسنا هناك كي ندرس حركة الإوزّ، ونحدد الحقولِ التي يستخدمها، ونعرف عدد الطيور الحاضرة، حيث كانت المياه موجودة أو ناشفة، أو أين يمكن أن تُحفر الحفر من أجل أفضل صيد بالبنادق. وبالرغم من أنني لم أكن مرتاحاً من حضوره، فقد كنتُ راغباً بأن يطلعني تشارلي على ما يعرفه بما أنني لا أعرف شيئاً عن الصيد أو الصيادين أو هواية إطلاق النار على الإوز.

كان تشارلي قد فكّ شعره الأسود ويرتدي قميصاً تحتانياً داخلياً يكشف عن ذراعيه القصيرين المعضّلين ويجعل يديه وجذعه الكبير يظهران أكثر ضخامة وأكثر قوة. هناك وشمان على ساعديه الاثنين: واحد يظهرُ وجه امرأة مبتسماً لها شعر نجمة سينمائية غزير كشعر تشارلي، وعليه كلمة أمي مكتوبة تحته. الآخر رأس جامِوس أزرق بعينين حمراوين محدّقتين، لم يكن معناه ظاهراً. كان تشارلي يضع بندقيته القديمة على ركبتيه حيث يجلس، وثمة سيجارة بين أسنانه، وينقّل منظاره على سرب الإوز الطويل المبعثر في المسافة فوق النهر المتلألئ، وأيضاً على قيّوطين يرصدان الإوزّ من قمة هضبة ويتحركان ببطء إليه.

"إن الكنديين رجال جوف"، قال، بعد أن أعلن أنني يجب ألا أكون كندياً، وكان هذا شيئاً لم أفكر به. رغبتُ بالذهاب إلى المدرسة فقط وألا أُتْرَك في الخلف. واعتقدتُ أن المدارس الكندية ستعلّمني الموضوعات نفسها كالمدارس الأميركية. بدا الأطفال في الباص كلهم مثلي. يتحدثون

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الإنكليزية، ولهم والدان، ويرتدون الثياب نفسها. أضاف تشارلي: "أما الأميركيون فهم رجال ممتلئون... بالخداع والخيانة والدمار". أبقى منظاره مثبتاً على عينيه، سيجارته تنفث دخاناً ملتفاً في الجو الدافئ. "أنت ابن لصّيْ مصارف، أليس كذلك؟"

شعرتُ بالأسف لأنه يعرف هذا. لا بدّ أن آرثر رملنغر أخبره. ولكنني لم أنكر ذلك. واعتقدت أن ما قاله عن الأميركيين ليس صحيحاً، حتى ولو كان والداي لصيّ مصارف.

قلت بتردد: "نعم".

"لا أعتقد أن هذا سيء". أخفض منظاره ووسّع حدقتي عينيه نحوي، مما جعل رأسه، بعظام خديه البارزين وحاجبيه الثقيلين وفكه الأسفل الكبير، يبدو غرائبياً. كان يضع أحمر شفاه قرمزيّاً في ذلك اليوم، ولكن لا مساحيق على العينين. إحدى عيني تشارلي الزرقاء الغامقة ـ اليسرى ـ فيها لطخة دم دائمة في بياضها. لم أكن متأكداً إن كان يرى بتلك العين أم لا. قال: "عاش والداي في منزل أرضيته ترابية في لاك لا بيتشي، ألبيرتا، وكلاهما مات من مرض السلّ. كان السطو على مصرف سيشكل خطوة كبيرة لهما إلى الأعلى".

"أعتقد أن هذا سيء"، قلتُ، مشيراً إلى والديّ كونهما لصّين وليس إلى والديه الميتين. ما حدث لوالديّ بدا كما لو أنه حدث منذ وقت طويل، بالرغم من أنه لم يمض سوى خمسة أسابيع على زيارتي أنا وبيرنير لهما في السجن في غريت فولز.

سعل تشارلي في يده وبصق شيئاً صلباً، تفحصه ورماه بعيداً. قال: "يدخل

شيء فيّ حين أذهب إلى الأسفل هناك، ثم يخرج شيء مني حين أعود إلى هنا. لا يعني هذا أنني لا أستطيع الذهاب إلى هناك بعد الآن". روى لي أنه سافر إلى أميركا كثيراً في الماضي، ذهب إلى لاس فيغاس وكاليفورنيا وتكساس. ولكن لم يحدث أيّ شيء ـ لم يقل ماذا ـ وهكذا لم يستطع أن يعود. قال: "كل شيء مُستَنْفد هنا. يظنون جميعهم أن الحكومة خدعتهم. ولكن هذا لم يحدث. إن هذا المكان ينتظر الانفجار". اعتقدت أنه عنى المكان الذي كنا فيه فقط، وليس كندا كلّها، التي لا يعرف عنها أي شيء على الأرجح. وضع منظاره على الأرض قرب كرسيه. كان الجو، على بعد مائتي ياردة تحتنا، كثيفاً بإوز أسود وأبيض وبصرخاته الحادة، يتجمّع ويرفرف ويلعب مع بعضه أو ضد بعضه، طائراً وحاطّاً. قال: "ستتمنّى الرحيل من هنا بعد ستة أسابيع. هذا أكيد. سيتحول الجو إلى سيبيريا. إن الشمال هو الاتجاه الخاطئ للذهاب، إذا أردت رأيي".

"لماذا لا يتحدث السيد رملنغر معي أبداً"، سألتهُ، لأن هذا ما أردتُ معرفته.

رفع تشارلي بندقيته عن ركبتيه وأسندها إلى كتفه بحرص، وهو ما يزال جالساً على كرسي السهب. اعتقدتُ أنه كان يقوم بالرصد، الأمر الذي كان يفعله غالباً. قال: "لا أتدخل في عمله".

أرجع ظهره إلى الخلف على شرائط البلاستيك الممطوطة كي يوازن نفسه وسدَّد فوهة البندقية إلى أحد القيّوطين اللذين كان يراقبهما. كان على بعد مائة ياردة، يهبط أرضاً مرتفعة مكشوفة حيث لا ينمو الشعير، باتجاه المرتفع الثاني الذي يمكن أن يعبره دون أن يُرى ويقترب من الإوزّ. وقف القيّوط

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الآخر بعيداً، قرب كومة من الحجارة المجموعة من الحقل المنظف. كان هذا القيّوط الثاني ثابتاً، يراقب الأول بصمت. لم أتحدث عندئذ.

أخفض تشارلي بندقيته، حدّق عبر المسافة، أخذ نَفَساً عميقاً وزفره، عضَّ عقب سيجارته، سدّد البندقية من جديد، تراجعَ إلى الخلف على كرسيّه بارتياح، لقّم، تنفّس ثانية، ثم من خارج أنفه، بصق سيجارته جانباً، تنفس مرة أخرى، ثم أطلق رصاصة مصمّة للآذان. كنت أجلس إلى جانبه تماماً.

أصابتْ الطلقة الأرض خلف القيّوط الأول. ورأيتُ من المكان الذي كنا فيه سحابة الغبار والقش تعلو. بدأ القيّوط الثاني بالجري على الفور، قائمتاه الخلفيتان الطويلتان ترفسان دائرتين نحو مقدمته. نظر إلى الخلف وبدا قادراً على الجري إلى الأمام وجانبياً في وقت واحد. أصدر سرب الإوزّ تحتنا أنيناً واحداً مدوّياً وثاقباً ومذعوراً ملأ الجوّ. طارت الإوزات كلها على الفور ولكن ليس بسرعة عن بقايا الزرع في هياج كبير، ألف إوزة أو ربما أكثر (لا يحصى عددها، في الحقيقة) بدأت ترفرف بأجنحتها وتصيح وتنهض وتتحرك بعيداً في حدث صاخب واحد.

توقف القيّوط الذي أطلق عليه تشارلي النار كي يراقب الإوزّ وهو يرتفع ويدور فوق وحول نفسه. أدار رأسه ناحيتنا، (نقطتان غير قابلتين للتمييز، وشاحنة تشارلي على بعد مائة ياردة خلفنا). لم يجمع تلك الحقائق مع بعضها، لم يربط بين النقطتين، وصوت الطلقة، والغبار المرتفع، والتحليق المفاجئ للإوز. نظر إلى الخلف إلى العمود الكبير الدائر في الجوّ حوله، ثم حك ساقه اليسرى الخلفية خلف أذنه اليسرى، رافعاً رأسه كي يحظى بزاوية جيدة للمكان الذي يحكّه، انتفض، نظر خلفه إلينا، ثم ركض في الجهة التي

سلكها القيّوط الأول، لا شك، كما اعتقدت، نحو المكان الذي كانت فيه الإوزات الأخرى.

"سأعثر على ذلك الكلب الشيطان مرة ثانية، سترى"، قال تشارلي، كما لو أن عدم إصابته للقيّوط لم تهمه وكان هذا تمريناً فحسب. أخرج الطلقة الفارغة، مدّ يده إلى حيث سيجارته تصدر دخاناً على الأرض. قال: "لقد حصل العالم على رقمه، في شخصي. يظنّ أنه آمن. إن موته وموتي رفيقان. هذا مضحك. أعرف ذلك، ولكنه لا يعرف".

قلت: "ماذا عن السيد رملنغر؟"

"أنا لا أتدخل في عمله. قلتُ هذا من قبل". وضع تشارلي السيجارة بين شفتيه وبدا متضايقاً. "إنه غريب. إنه لا يعرف قيمتنا، أليس كذلك؟"

لم أفهم ما عناه هذا ولم يسأل ثانية. وكما قلتُ، لم يشعرني تشارلي كوارترز بالراحة. بدا كأنه متورط في الحياة كثيراً عبْر الموت. ظننتُ أن هذا يعني أنه لا يكترث بالأمر كثيراً. لو منحته الفرصة كي يكشف لي المزيد عن الأمر، أو يخبرني (الأمر الذي نويت ألا أفعله أبداً)، كان سيقوم بذلك. حينئذ سيكون هذا كل ما تعلمته.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

(47)

في اليوم الذي لا يأخذني فيه تشارلي إلى السهب كي يعلّمني عن الإوزّ، وحين لا أبقى في فورت رويال وأظلُّ وحيداً في كوخي دون يأس متواصل، أجرّب وهْم كوني شخصاً عاش تقريباً حياة سعيدة ولم يتم التخلي عنه، ما يزال يعيش وجوداً له معنى، على حد تعبير والدي.

وفي الحقيقة، لم يبد كأنّ الزمن يمرّ. ربما كنتُ وحيداً في بارترو لمدة شهر، أو ستة أشهر أو أكثر، وكانت الأمور متشابهة، في اليوم الأول أو في المائة، وهكذا فإنّ عالماً صغيراً غير دائم صار مُشكّلاً لي. عرفتُ في النهاية أنني سأذهب إلى مكان آخر، إلى مدرسة كندية، أو ربما إلى ميتم، أو بوسيلة ما سأعبر الحدود نحو أي شيء ينتظرني، وأن هذه الحياة الحالية ونماذجها اليومية وأعمالها الروتينية وأشخاصها لن تستمر إلى الأبد أو حتى لفترة أطول. ولكنني لم أفكر بهذا بقدر ما يمكن أن يتصوّر المرء. وكما قلتُ كان

هذا إطاراً ذهنياً سيوافق عليه والدي.

كان الحدث الذي استبدل مرور الوقت، يوماً بعد آخر، هو الطقس. فالطقس يعني أكثر من الزمن في السهوب، ويقيس التغيّرات في الذات التي تحدث بشكل غير مرئي. اختفت أيام الصيف، التي كانت حارة وجافة واتسمت بهبوب الريح والسماوات الزرقاء الغامقة منذ أن غادرتُ غريت فولز، وخيّمتْ سحبُ الخريف. في البداية غيوم قطنية بيضاء صغيرة، ثم الغيوم الرخامية، ثم غيوم ذيل الفرس المشعرة ببرد جديد يقطع خلفها. كانت الشمس تغيب في الجنوب وتشرق في زاوية جديدة عبر الأشجار الذاوية حول بارترو وتشعّ على الجدران الداخلية البيضاء لفندق ليونارد. مرة تساقط المطر فجأة لعدة أيام. وبعد كلّ تساقط للمطر ـ صحائف من المطر التي تدفعها الريح من السحب الرمادية المنخفضة ـ تزداد برودة الهواء وثقله فيخترق السترة ذات المربعات الحمراء والسوداء التي اشتراها لي تشارلي من حانوت التعاونية والتي تفوح منها رائحة العرق، بالرغم من أنها جديدة. لم يبق إلا بضعة أيام دافئة. ظهرت الديدان الصوفية بين الأعشاب، ونسجت عناكب صفراء وبنية أعشاشها وبيوتها من أجل الذباب في الإطارات المهترئة لنوافذ منزلي. وكان بقّ أشجار القيقب بين أغطيتي. وعبرت أفاع سوداء وخضراء غير مؤذية الرصيف. وخرجت القطط من الرافعة التي في الجهة الأخرى من الطريق السريع، وتنقلت الفئران خلف الجدران. أما الجنادب الصفراء الهشة فقد توقفت عن الصرير بين الأعشاب.

كان الأطفال داخل باص المدرسة الكبير الذي يعبر كل يوم يرتدون معاطفهم وقبعاتهم وقفازاتهم. وبدأ الإوز والبط وطيور الكركي تملأ

https://telegram.me/maktabatbaghdad

السماوات بريشها الفضي الطويل المرتعش في ضوء الشمس المنخفض، صباحاً ومساء، صراخها البعيد يملأ الجوّ حتى في الليل. حين كنت أستيقظ ـ دائماً باكراً ـ كان الصقيع يصل إلى نصف نوافذي، فيما الأعشاب والأشواك حول كوخي متصلبة وتلمع في ضوء الشمس. وفي الليل، تغامر الذئاب في الاقتراب من البلدة، كي تصطاد الفئران والقطط والحمامات الجائمة في المنازل المهدمة وحفر القمامة. أما الكلب الذي رأيته في يومي الأول والذي تملكه السيدة غدينز، فقد كان ينبح غالباً حتى في الليل. مرة في غرفتي، تحت غطائي الخشن وشرشفي، سمعته ينبح ويضرب بابي وينشج. ثم عوت ذئاب كثيرة على نحو متواصل، فاعتقدت أنني لن أرى الكلب مرة ثانية. (لم تكن أمي تحب الكلاب، ولم يكن لدينا واحد أبداً). ولكنه كان هناك في الصباح، واقفاً في الشارع الفارغ، والثلج الذي تساقط يلمع على الأرض، والذئاب قد رحلت.

لا أستطيع أن أفسّر لماذا أحدث التغيّر في الطقس والضوء تحوّلاً فيَّ وجعلني أكثر قبولاً، أكثر من الوعي بمرور الزمن. ولكنها كانت تجربتي في كل تلك الأعوام منذ الأيام الأولى في ساسكاتشيوان. ربما كوني ابن بلدة (في البلدة يهم الزمن كثيراً) وُضعَ فجأة في مكان فارغ لا يعرفه، بين بشر لا يعرف عنهم سوى القليل، تركني أكثر خضوعاً لقوى العناصر التي حاكتْ التجربة التي أمرُّ فيها وجعلتها مقبولة أكثر. إزاء هذه القوى ـ الأرض التي تدور، والشمس التي تخفض زاويتها في السماء، والرياح المليئة بالأمطار والإوز الذي وصل ـ إنّ الزمن شيء مصنوع فحسب، وتنحسر أهميته، ويجب أن تنحسر.

في تلك الأيام الأولى الباردة كنت أرى أحياناً آرثر رملنغر في سيارة البويك، يسوق بسرعة كبيرة على الطريق السريع، متجهاً إلى الغرب، لا أعرف إلى أين، إلى مكان معيّن، كما افترضت. وكان رأس فلورنس مرئياً بشكل متكرر من المقعد الذي إلى جانبه. ربما كانا في طريقهما إلى ميديسين هات، البلدة التي سحرني اسمها. وفي أحيان أخرى كنت أشاهد سيارته إلى جانب مقطورة تشارلي، والاثنان يتباحثان، وغالباً بتوتر. وبعد مرور أربعة أسابيع بقيت أيضاً دون اتصال مهم مع آرثر رملنغر، الأمر الذي لم أكن أتوقعه كما قلت. لم أكن أريده أن يكون صديقي المفضل، فقد كان أكبر مني بكثير، بل أن يبدي رغبة بأن يعرف عني أكثر، وأن أعرف أموراً تتعلق به؛ ولماذا عاش في فورت رويال، وكي أستفسر عن الذهاب إلى الجامعة، وعن أمور مهمة حدثت له، وجميع الحقائق التي أعرفها عن والديّ وكانت هذه هي الطريقة، كما اعتقدت، لتعلم الأشياء في العالم. أكدت لي ملدريد أنني سأحبه وأتعلم منه بعض الأمور. ولكن اسمه ـ والذي بدا أكثر غرابة عليه من ملدريد ـ هو كل ما أعرفه؛ بالإضافة إلى كيف كان يلبس ويتحدث (من الكلام القليل الذي نطقه معي) وأنه أميركي من ميشيغان.

نتيجةً لهذا، بدأت تنتابني شكوك حول آرثر رملنغر، وتولّد لدي إحساس غير مريح بالانتظار شمل كلينا. أخبرتني ملدريد أيضاً أنني يجب أن أنتبه إلى التفاصيل في الحاضر حالما أصل إلى كندا. ولكنك حالما تفعل ذلك تظنّ أنك تتصور نماذج في الأحداث اليومية، ويمكن أن يشطح خيالك بعيداً فتصنع ما هو غير موجود. ما بدأت ربطه بشخصية آرثر رملنغر البارزة جزئياً (والذي

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كان كلّ ما أعرفه) هو أنه يجب أن يكون هناك "مشروع" مرتبط به، أمر ما مهمّ مخفيّ عني أتمنى أن يبقى هكذا، وهذا يجعله غير قابل للتنبؤ أو عادياً، الأمر الذي سألاحظه كما قالت ملدريد وتشارلي. أنا متأكد من أنني صرتُ أبحث بعد تجربة زجّ والديّ في السجن، عما يمكن ألا يكون جيداً، حيث لم يكن هناك شيء يمكن العثور عليه في معظم المظاهر.

ثمة أشخاص هكذا في العالم، أشخاص حدث لهم مكروه يمكن إخفاؤه ولكنهم لن يُنكروه، ويظلّ مهيمناً عليهم. بالنسبة للبالغين، كنت أعرف والديّ فقط في ذلك الوقت. لم يكونا بأية طريقة استثنائيين أو مهمين، أو بارزين بل كانا شخصين صغيرين. وقد ارتكبا خطأ. إن أي شخص باستثناء ابنهما يمكن أن يرى هذا من البداية. وبعد أن فحصتُ مسألتهما، وامتلكتُ الوقت كي أقرر ما هو الشيء الصحيح، صرتُ أرى احتمال وجود خطأ ما ثانية أينما نظرت. هذه وظيفة لديّ لما أدعوه التفكير المضاد، والذي لم أكن أبداً متحرراً منه بشكل كامل منذ صغري، حيث كان هناك الكثير من الأسباب للإيمان به.

في إحدى المناسبات، حين كانت السيدة غدينز منشغلة في مطبخ الفندق، أعطوني مفتاحاً وأرسلوني إلى الطابق الثالث كي أنظف شقة آرثر رملنغر، وأرتّب سريره، وأنظّف مرحاضه، وأنزل مناشفه، وأمسح السطوح التي توضّع عليها الغبار من السقف القصديري القديم والذي أدخلته الريح من تحت أطر النوافذ.

كان عدد غرفه ثلاثاً فقط، ومن المفاجئ أنها صغيرة على رجل لديه مقتنيات كثيرة ولا يرتّب أي شيء قبل أن يغادر. فحصتُ كلَّ ما وقعت

عيناي عليه، ونظرت أكثر مما يجب، بما أنني اعتقدت أنني على الأرجح لن أعرف أبداً آرثر رملنغر أفضل مما كنت أعرفه آنذاك. إن معرفة القليل والرغبة بمعرفة المزيد ولّدا لدي الشكوك كما سبق وقلت، والشكوك قد تكون مصدراً للفضول والشبهة.

كانت جدران غرفة نوم آرثر رملنغر الملبّسة بالخشب، وغرفة جلوسه وحمامه مظللين بستائر معدنية مسدلة وثمة مصباح طاولة مضاء فقط، وكان معلقاً على جدارنها أشياء غير عادية مختلفة: خريطة ضخمة مصفرة اللون للولايات المتحدة بدبابيس بيضاء مثبتة في مواقع مختلفة: ديترويت، كليفلاند، أوهايو، أوماها ونبراسكا وسياتل وواشنطن، غير أنه لا توجد إشارة إلى ماذا يدل هذا. ثمة لوحة زيتية مؤطرة معلقة إلى جانب نافذة غرفة النوم، تصور، كما عرفت، رافعة الحبوب في بارترو، مع السهب ممتداً إلى الشمال. قال رملنغر إن هذه اللوحة رسمتْها فلورنس وفق أسلوب مدرسة النايتهوك الأميركية، التي لم أفهمها ولم أستطع البحث عنها لأنني تركتُ المجلد إم من موسوعة دليل العالم في غريت فولز. في مكان آخر على الحائط صورة مؤطرة لأربعة ذكور شبان واثقين من أنفسهم يبتسمون وأيديهم على أردافهم، ويرتدون بذلات صوفية ثقيلة وربطات عنق عريضة، واقفين أمام منزل آجريّ مكتوب فوق أبوابه العريضة كلمة إمرسون. هناك صورة أخرى لشاب نحيل جميل الوجه ومبتسم بشعر أحمر (آرثر رملنغر، ملتقطة قبل سنوات، عيناه الشاحبتان لا يمكن أن يخطئ بهما المرء). كان يقف واضعاً ذراعاً طويلاً فوق كتفي امرأة نحيلة ترتدي بنطلوناً فضفاضاً، وتبتسم أيضاً، كلاهما إلى جانب ما دعاه والدي سيارة فورد من الأربعينيات. هناك

https://telegram.me/maktabatbaghdad

صورة سيتعرف عليها أي شخص كعائلة، تقف في خط مستقيم، ملتقطة قبل سنوات كثيرة: امرأة ضخمة شعرها أسود مربوط بإحكام إلى الخلف، ترتدي فستاناً لا شكل له، خشنَ القماش وباهت اللون، وهي تعبس إلى جانب رجل طويل برأس كبير وحاجبين ثقيلين وعينين غائرتين، ويدين ضخمتين، وعابس أيضاً، فتاة سوداء الشعر أكبر سناً بابتسامة متحدية إلى جانب فتى طويل ونحيل شعرتُ أيضاً أنه آرثر رملنغر، يرتدي بذلة فتى صوفية بأربعة أزرار وبنطلوناً قصيراً جداً وبوطاً. لا بد أن الفتاة هي ملدريد ولكن لا يمكن التعرف عليها. كانوا يقفون أمام كثيب رمل كبير، في طرف الصورة بحيرة أو ربما محيط.

في زاوية الغرفة المتسخة ثمة حمالة ثياب منتصبة عليها أحزمة وحمالات بنطلون وربطات عنق قوسية الشكل معلقة بعلاقات نحاسية. الخزانة محشوة بالثياب: البذلات الثقيلة، سترات التويد، القمصان المنشاة، وعلى الأرض تتبعثر أحذية ضخمة تبدو غالية الثمن، حُشيت في بعضها جوارب. كان هناك ملابس نسائية أيضاً: ثوب نوم وشبشب وبعض الفساتين التي افترضتُ أنها لفلورنس. وفي الحمام إلى جانب فرشاة رملنغر المنقوش عليها بحروف فضية وأمشاطه وزجاجته من الويتش هيزل وعدة الحلاقة، هناك علب كريم بارد وزجاجة ماء مطاطية معلقة وقبعة حمام وصحن أزرق مزخرف فيه دبابيس.

على الحائط، فوق السرير الخشبي المُزْدوج والمزخرف، رفوف للكتب: كتب سميكة زرقاء حول الكيمياء والفيزياء واللاتينية، وروايات مجلدة لكبلنغ وكونراد وتولستوي، وعدة مجلدات بأسماء فقط على ظهورها:

نابليون، قيصر، يو. إس. غرانت، ماركوس أوريليوس. هناك أيضاً كتب أقل سماكة بعناوين مثل خيالة أحرار، ومسافرون أسرى، واليمين الأصولي، وعظماء الاتحاد، وأسياد الخداع، من تأليف جي. إدجار هوفر،الذي كنت أعرف اسمه من التلفاز.

في الزوايا المظلمة من الغرفتين ثمة مضارب تنس وشبكة بدمنتون مسندة إلى الحائط. ثمة جهاز تسجيل وصندوق خشبي على الأرض إلى جانبه يحتوي على أشرطة لفاغنر وديبوسي وموزارت، كما اكتشفت. ووُضعَ لوح شطرنج رخاميّ على قمة خزانة جهاز التسجيل، وقطع الشطرنج مصنوعة من العاج الأبيض والأسود منحوتة وثقيلة بشكل خادع إذا حملتها (كما فعلت). جعلني هذا أفكر بأنني أستطيع ذكر لعب الشطرنج حين أرى آرثر رملنغر، وأنه إذا حدث وعرفته بشكل أفضل يمكن أن نلعب ويمكن أن أتعلم استراتيجيات جديدة.

في هذا الصالون الصغير مقعد مستدير الذراع ثقيل بغطاء خشن، وكرسيان متقابلان مستقيما الظهر وطاولة منخفضة في الوسط، عليها زجاجة براندي فيها نصفها وكأسان صغيران، كما لو أن آرثر رملنغر وفلورنس لا بلانك يجلسان مقابل بعضهما، يشربان ويصغيان إلى الموسيقى ويتحدثان عن الكتب. ومقابل مضارب التنس والبدمنتون ثمة مجثم طائر خشبي طويل موضوع إلى جانب نافذة مظللة، بسلسلة نحاسية نحيلة حول القضيب ومربوطة بعقدة. ولكن لم تكن هناك علامة لطائر.

على الجدار خلف المجثم، لوحة نحاسية مؤطرة غير مرئية في الظلال نُقشت عليها الكلمات التالية: "إذا كان هناك عمل يجب أن تقوم به فقم به

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بكلّ قوتك وعنفوانك ذلك أنه ما من عمل أو أداة أو معرفة أو حكمة في القبر الذي أنت ذاهب إليه لا محالة". لم يكن لهذا علاقة بأي شيء فهمته. وعلى علّاقة خشبية إلى جانب اللوحة ثمة قراب مسدس جلدي ببنية من الأحزمة والمشابك المعقدة والذي عرفت من أفلام العصابات بأنه قراب كتفيّ، في داخله مسدس فضي ماسورته قصيرة وقبضته بيضاء.

أخرجتُ المسدس على الفور. (كنت قد أقفلت الباب). كان ثقيلاً على نحو غير متوقع نظراً لصغره. نظرت عبر الشق خلف الأسطوانة واكتشفت أنه مذخّر على الأقل بخمس رصاصات ذات قاع نحاسي، وأنه من نوع سميث وويسون. لم أعرف عياره. رفعتُ الفوهة إلى أنفي بطريقة رأيتها في السينما أيضاً. فاحتْ منه رائحة المعدن الصلب والزيت الحار المستخدم لتنظيفه. السبطانة الصغيرة ملساء ولامعة. سددته من النافذة إلى فناء السكك الحديدية الباسيفيكية الكندية، إلى السكك المليئة بعربات الحبوب الواقفة في الشمس. ثم تراجعت إلى الخلف بسرعة خشية أن أُرى. شعرتُ أن المسدس يرتبط مباشرة بالأهمية والمشروع اللذين عزوتهما إلى آرثر رملنغر، أكثر من أي شيء آخر في غرفه. كان مع والدي مسدس، لم أصدق أبداً أنه فقده، والآن اعتقدتُ أنه استُخدم في السطو. لم أر كيف أنه لوحده منحه أهمية أو جعله استثنائياً. فقد قدّمه له سلاح الجوّ مجّاناً، في النهاية. ولكن انتابني هذا الشعور حيال آرثر رملنغر، وخامرتني من جديد الشكوك التي كنت أشعر بها، بأنه شخص مجهول ولا يمكن التنبؤ بما يمكن أن يفعله. كان إحساساً مألوفاً في ذهني كمثل الإحساسات عن والديّ وسرقتهما وتأثيرها المريع عليّ وعلى بيرنير. لم يكن باستطاعتي قول المزيد عما فكرت به. ولكن

المسدس بدا شيئاً محدداً وخطيراً جداً. ذلك أن آرثر رملنغر لم يبد لي رجلاً سيملك مسدساً. بدا مثقفاً جداً، وربما كان هذا خطأي الجليّ. مسحتُ القبضة الصغيرة بقميصي كي أمحو آثار أُصابعي ووضعتُ المسدس في قِرابه. لم أنظّف أي شيء في الغرف كما طُلب مني أن أفعل وكان عليَّ أن أعود فيما بعد. ولكنني شعرت بخوف مفاجئ من أن يتم اكتشافي. وهكذا فتحت الباب المؤدي إلى الردهة ونظرت فلم أر أحداً، فنزلت الدرج بسرعة لتأدية واجباتي الأخرى.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

(48)

حين برد الطقس، وبدأ هواة رياضة صيد الإوز بالوصول في بداية تشرين الأول\أكتوبر (حين يُسمح للأميركيين بالصيد)، قال تشارلي إنه يريدني أن أخصّص كل وقتي لـ "عمل الإوز". كنتُ قد أمضيت شهراً في كوخي في بارترو، بالرغم، كما قلتُ، من أن الوقت لم يبد كأنه يمر أو يعني الكثير لي، ليس كما حدث منذ شهرين، حين كانت المدرسة ستفتح أبوابها بعد أسابيع، وكان كلّ ما تمنيته هو أن أستطيع التحكم بالمرور الطويل والبطيء للأيام، وأهزمه بالطريقة التي أتقن بها ميخائيل تال لغز شطرنج.

تكيّفتُ مع منزلي الصغير المؤلف من غرفتين بشكل أفضل من البداية. كان من الضروري استخدام المرحاض، الأمر الذي كنت أفعله فقط بعد تأكدي من أن تشارلي لا يراقبني، ثم لا أمكث فيه طويلاً. كان هناك كهرباء كافية لتشغيل جهاز التدفئة ومصباح السقف وللتزود ببعض الحرارة. لم أعد

أستطيع غسل وجهي عند المضخة بسبب الريح الباردة. ولكنني كنت أحضر مائي في الليل مستخدماً الدلو، وأستحم مستخدماً إناء قصديرياً أخرجته من حفرة قمامة وأفرك جسمي بخرقة قماشية ولوح صابون بالموليف أضعه في علبة تبغ لمنع الفئران والجرذان من العثور عليه.

جررتُ أحد السريرين من الغرفة الخلفية إلى المطبخ، غرفتي الوحيدة الأخرى. كانت الغرفة الخلفية في الجانب الشمالي من المنزل، والريح الجديدة الباردة تشق طريقها عبر الجص والألواح الخشبية وتصفر عبر الألواح الزجاجية المكسّرة، بحيث أن الغرفة، التي بلا ضوء، لا يمكن الدخول إليها في الليل. وفي المطبخ موقد حديدي قديم من نوع جي. سي. ويهرل بمفاصل مفكوكة، أضع فيه ألواح خشب متعفنة وقطعاً من الأخشاب المحطمة وأغصان الكاراغانا التي أجمعها أثناء جولاتي. كنت أغسل ملابسي وأغطيتي وآنية مطبخي عند المضخة وأكنس الأرض بمكنسة عثرت عليها، واعتقدتُ أنني أتكيّف جيداً مع الظروف التي لم أعرف مدتها واتجاهها. أردتُ أن أحلق شعري في حانوت الحلاقة في فورت رويال. كنت أحياناً أنظر إلى نفسي في مرآة الحمامات في فندق ليونارد واكتشفت أنني أشدّ نحولاً وشعري أكثر طولاً. لم يكن في منزلي مرآة، وكانت لدي فكرة محدودة جداً في الليل عن كيف أبدو. أتذكر حلاقة الشعر فقط حين أكون في السرير، وأنني يجب أن أقصّ أظافري كما كان أبي يفعل. ولكنني كنت أنسى في اليوم التالي.

نقلت عدداً من العلب الكرتونية المصفوفة على جدران المطبخ إلى الغرفة الشمالية الباردة ووضعتها إزاء النافذة وعلى طول الجدار كي أسد الشقوق

https://telegram.me/maktabatbaghdad

المنفتحة على الخارج. واشتريت من الصيدلية في فورت رويال شمعة أرجوانية لها رائحة الخزامى أشعلها في الليل، لأنني أعرف من أمي أن الخزامى يساعد على النوم ولأن الكوخ، سواء كان بارداً أو دافئاً، تفوح منه رائحة الدخان والعفونة والتبغ القديم والروائح البشرية من عقود من الحيوات التي عيشت هنا. سيتداعى الكوخ في القريب العاجل كمثل بقية بارترو. وكنت أعرف أنني لو رحلتُ وعدت بعد عام من المرجّح أن يكون هناك علامة صغيرة تدل عليه.

في أوقات المساء، حين أنهي وجبتي ومسيري وأتحمل كوني وحيداً (لم أشعر أبداً أن وضعي كان محمولاً في الحقيقة)، أجلس على سريري وأفتح قماشة الشطرنج على أغطيتي، أضع صفوفي المتهادية من رجالي البلاستيكيين وأخطط للنقلات والحملات ضدّ معارضين خياليين غير محددين. لم ألعب في الحقيقة مع أحد سوى بيرنير. آرثر رملنغر هو من فكرت به. استراتيجياتي تنطوي عادة على هجمات جبهوية متهورة. سأهزم خصومي بهجمات قائمة على التضحية على طريقة ميخائيل تال، الذي صار بطلي. تُنْهى اللعبة دوماً بسرعة البرق بسبب الخصم الضعيف. في أوقات أخرى، أقوم بحركات وانسحابات مخادعة (لم أحبها كثيراً)، وأطلق تعليقات وملاحظات ذكية حول ما كنا نفعله أنا وخصمي وما يبدو كأنه يخطط له بينما لا أكشف أبداً عن خطتي للنصر. أفعل هذا فيما أستمع إلى جهاز الراديو القديم، الذي توهّج ضوءه بخفوت خلف أرقامه، والذي خرجتْ منه في الليالي الباردة التي لا غيوم فيها أصواتٌ بعيدة بدت لي وكأن الريح تهب حول العالم دون احترام للحدود. دي موين. كانساس سيتي. محطة دبليو إل إس في شيكاغو.

كي إم أو إكس في سينت لويس. صوت زنجيّ خشن من تكساس. صوت الموقر آرمسترونغ ينادي الإله. أصوات رجال في ما اعتقدت أنه بالأسبانية. آخرون قررت أنهم فرنسيون. وبالطبع، هناك المحطات الواضحة من كالاجاري وساسكاتون، تبث الأخبار: قانون الحقوق الكندي، اتحاد الكومونولث التعاوني لتومي دوغلاس. وأسماء أمكنة: نورث باتلفيلد، إسترهيزي، أسينيبوا، بلدات لم أعرف عنها شيئاً ولكنني عرفت أنها غير أميركية. تساءلتُ إن كان بوسعي الإصغاء إلى إذاعة من نورث داكوتا، التي لم تكن بعيدة جداً، وأسمع عن محاكمة والديّ. لم أعثر أبداً على محطة كهذه، بالرغم من أنه أحياناً وأنا أستلقي على سريري في الظلام، مع تكتكة الويهرل، تظاهرتُ بأن الأصوات الأميركية التي أسمعها تتحدث معي، وتعرف عني، وستقدم لي نصيحة إذا كان بوسعي أن أبقى مستيقظاً طويلاً بما يكفي. كان هذا المذياع وشمعتي التي تصدر رائحة الخزامى الطريقة التي تساعدني على النوم في كثير من الليالي.

في مساءات أخرى، أفتح علبة كرتونية من العلب التي نقلتُها إلى غرفتي الشمالية، وألهي نفسي بأدلة حول كل ما حدث في المنزل في السنوات التي سبقت مجيئي إليه. ذلك أن التاريخ والذاكرة يبدوان غريبين في السهوب، كمرور الوقت، كما لو أن سكان بارترو لم يختفوا في الماضي بل في حاضر حيوي آخر، مما فسّر لماذا لم تكن هناك مقبرة فخمة، والكثير الذي تُرك في الخلف.

قال لي آرثر رملنغر إنه عاش في كوخي في أيامه الأولى، وأن كثيراً من المقتنيات الموضوعة في العلب ملك له. وفي العلب الناعمة الملمس التي

https://telegram.me/maktabatbaghdad

تفوح منها روائح قديمة عثرت على أدلة ترتبط بما سبق ورأيته في شقته. ففي علبة عُلّمت بإشارة إكس بقلم رصاص كتب رقيقة ومجلات صفراء ممزقة مخيّطة بخيوط قطنية، من الأربعينيات. إحدى المجلات تُدعى المفكرون الأحرار، وأخرى عنوانها العامل الحاسم. كان هناك كتابان سبق ورأيتهما في الشقة: «مسافرون أسرى» و«تحليل العالم». لم أمتلك فكرة عن موضوعهما. حين سحبت كتاب «المفكرون الأحرار»، أشار غلافه إلى مقال في الداخل من تأليف آ.ر. رملنغر، بعنوان «النزعة النقابيّة الفوضوية، الاستثناءات والامتيازات». قرأت الصفحة الأولى منها. تتعلق بشيء ما يُدعى «درس دانبري هاتر»، و«أخلاق العمل البروتستانتية»، وقرأتُ تفاصيل عن كيف أن العمال «لا يرفعون من سقف حريتهم الفردية». وتقول الصفحة الخلفية للقارئ إن آ.ر. رملنغر «شاب من هارفارد من الغرب الأوسط» يضع «ثقافته المصقولة» في خدمة حقوق الإنسان لجميع البشر. ومن المرجّح أن آرثر رملنغر نشر المقالات في مجلات أخرى، ولكنني لم أهتم بفتحها.

هناك علب أخرى لم يكن عليها الحرفان آ. ر، وعثرتُ في هذه على بوليصات تأمين على الحياة ورزم من الشيكات الملغاة وشهادة قيادة سيارة من ساسكاتشيوان لامرأة تدعى إستير ماغنوسون، ومجموعات من أعقاب أقلام الرصاص مثبت عليها ممَاح مطاطية، وحزم من المنشورات القديمة وبروشور «درب التبانة إلى بريطانيا»، كثير منه تالف ومقروض من الفئران. بعض النشرات تتعلق بـ «إنجيل الإصلاح الاجتماعي»، وشيء ما يُدعى «فرسان الهيكل الملكيون الزاهدون». هناك كتيّبات عضوية عن «نوادي بنّائي المنازل»، ونشرات عن «القمح والنساء»، و«دليل زراعة القمح».

ثمة كتيب واحد يتعلق بـ «الرابطة الكندية» كُتبَ في صفحته الأولى أن المهاجرين الأجانب لا يقومون بالواجب، والجنود العائدين من الجبهة يجب أن يحصلوا على «الخيار الأول من أفضل الوظائف». وفي الصفحة صورة من صحيفة بالأسود والأبيض تظهر صليباً ملتهباً وقلنسوات وأردية بيضاء مغطاة الوجوه، تقف مواجهة له. «فك الموظ، 1927» كُتب تحته بحبر فاه.

احتوت علبة أخرى على علب أفلام معدنية فيها بكرات أفلام، ولكن ما من إشارة إلى مضمونها. كان العلم الأميركي مطوياً فوق العلب المعدنية بالطريقة التي شرحها أبي لي ولبيرنير، «ثلاث طيات». ثمة علب أحذية ممتلئة بالرسائل ـ الكثير منها موجه إلى السيد واي. ليتون في موسبانك، ساسكاتشيوان، والختم الذي عليها من 1939 و1940، مربوطة بخيوط في حزم محكمة، بعضها عليه طابع أميركي أحمر سعره ثلاثة سنتات عليه صورة تعرفت عليها بأنها لجورج واشنطن. منحتُ نفسيَ الحق بقراءة إحدى هذه الرسائل على الأقل، بما أنه ما من أحد أرسل إليّ رسالة إلى كندا، ويمكن أن تجعلني قراءة رسالة شخص آخر أقدّر حضور الآخرين، الذي أطفأه حضوري في بارترو. تقول الرسالة:

ابني العزيز

نحن في دولوث، بعد أن سقنا إلى هنا أنا وأبوك من السيتيز التي كانت جميلة جداً، وفي الواقع (حديثة جداً). كان الجوّ هناك أكثر دفئاً من ثلاجة الأمير ألبرت القديمة، هذا مؤكد. لا أعرف كيف يعيش أي شخص هناك ـ

https://telegram.me/maktabatbaghdad

والريح. يا إلهي. تعرف الكثير- بالطبع، عن هذا. أحاول أن أنسى معظم الكندية التي تعلَّمْتُها في المدرسة في طفولتي - من أجل ذنوبي. كانت جاكلين تقول إنّ ترسيم حدود بين الاثنتين مثير للشفقة. ولكنني لست متأكدة. يجب أن يفكر أحد ما بشكل أفضل بكل هذه الأمور. إن تينيسي هي المكان الذي سأموت فيه بسعادة.

أعرف (أو سمعتُ) أنك تفكر بالبحرية الملكية الكندية، وهذه جسارة غير مسبوقة (إذا كنت تحب المياه). أتمنى لو تفكر بهذا أكثر. اتفقنا؟ ليس لدينا سوى القليل الذي نربحه من معركة كبيرة الآن. يمكن أن يحدث الأسوأ. وأنت بالطبع لا تفكر بهذا. فكرة من أمك فحسب.

لدي بطاقة بريدية سأرسلها. تظهر "سحر أميرنا" في رحلته المشهورة إلى ساسك في 1919 (منذ عشرين عاماً! يا إلهي!). لن تذكر هذا. ولكن والدك وجدك وأنا أوقفناك عند السكك الحديدية في رجينا في أسوأ بدلة لديك، وكنت تلوّح براية كندية صغيرة. أعتقد أن هذا سبب كونك وطنياً. أكيد لا يوجد سبب كي تكون بخلاف ذلك. اعتنِ بنفسك الآن. انتظرْ بطاقتي، التي لن يسعها الظرف، دون أن يخرّبها. يرسل لك والدك أطيب تحياته، وهذا أكثر مما سبق ورأيت.

حب وقبل

والدتك

بَحثْتُ عميقاً في العلبة من أجل البطاقة البريدية التي تُظهر "الأمير الساحر" كي أتعرّف عليه، فلم أجد في قاعها سوى المزيد من الحزم المربوطة: بطاقات

عيد ميلاد وقصاصات صحف جافة بصور رجال فريق مبتسمين في ثياب الهوكي. وفي القاع عدة صور فالتة لنساء عاريات بشكل كامل يقفْنَ قرب قواعد تماثيل منمّقة بأزهار مرتبة وطاولات عليها كتب. النساء بدينات ويبتسمْنَ بسعادة كما لو أنهنَ يرتدين ثياباً. لم أر أبداً صوراً كهذه، بالرغم من أنني عرفتُ من أشياء قالها الفتيان في المدرسة إنها موجودة ويمكن شراؤها من الآلات في معرض الولاية. أمضيتُ بعض الوقت متفحّصاً بعناية كل واحدة وأخيراً وضعت الثلاث في مجلد موسوعة دليل العالم (بي)، بما أنني عرفتُ أنني سأنظرُ إليها ثانية. رغبتُ بأن أنظر إليها ثانية، وفعلت ذلك. احتفظتُ بها لسنوات.

في قاع العلبة أيضاً، عثرتُ على نظارة بإطار من الأسلاك وخاتم ذهبي عادي. الخاتم داخل علبة أسبرين من نوع تاير فيها حبتا أسبرين مهترئتان وحلية هي سوار نسخة طبق الأصل من برج إيفل في داخلها أيضاً. عرفت أن هناكِ خاتماً في الداخل قبل أن أراه. لا تسألوا كيف عرفت. إنه على الأرجح خاتم زفاف، قلت لنفسي. فهمت بالطبع أنه كان يمثل حصيلة خسارة في ماضي شخص ما لم تكن جيدة.

لم أفحص معظم العلب بشكل كامل. كان في إحداها صحف رجينا، وفي أخرى ملابس متسخة بالطين وأحذية قرضتْها الفئران، وفي أخرى وثائق وإيصالات وأوراق كميات القمح وأجور الرافعات وشراء جرار واترلو بوي جديد. احتوت أخرى رزماً من المادة المطبوعة غير المفتوحة عن انتخابات 1948 في ساساكتشيوان، وتتعلق باتحاد الكومنولث التعاوني و"الضمان الاجتماعي". حاولت أن أتخيّل كم يختلط هنا الكثير من الناس والحيوات

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الأسروية، في منزلي، الكثير، الكثير، كما اعتقدت، كما لو أن الجميع يأملون المجيء فيما بعد من حاضرهم كي يستعيدوا هذه الحيوات، ولكنهم لم يفعلوا أبداً، أو وافتهم المنية، واختاروا أن يتركوا تلك الحياة خلفهم من أجل شقٍّ نحو واحدة جديدة في مكان آخر.

تساءلتُ، على أي حال، ما الذي عناه آرثر رملنغر حين قال لي إن الأميركيين لا يستطيعون أبداً أن يتركوا مكاناً كبارترو قائماً، وإنهم سيحرقونه كتوبيخ للتقدم. وفيما كنت أصنّف العلب على الحائط الذي تدخل منه الريح الشديدة في مطبخي، اعتقدت أنه محق على الأرجح. إن والديّ، وهما شخصان بدون ممتلكات حقيقية، بدون استمرارية، لم يملكا منزلاً أبداً، وحملا القليل معهما، وأُخذت ممتلكاتهما القليلة (عدا بيرنير وأنا) ورُميتْ في مزبلة غريت فولز. كان آرثر رملنغر يشير إلى والديَّ اللذين لن يكترثا ببارترو حتى ولو لم يحرقاها. فقد كانا شخصين هاربين من الماضي، ولم ينظرا إلى الخلف إلى الكثير حين استطاعا ذلك، لأن حياتهما كلّها كانت تكمن دائماً في مكان ما في المجهول.

(49)

كنت أتعلم في هذه الأثناء أموراً كثيرة في الوقت نفسه: كيف أختار موقع حُفَر صيد الإوزّ كي لا تكشفها شمس الصباح باكراً جداً وكي تبقى في مكان مرتفع من الأرض بما يكفي كي يستطيع هواة رياضة الصيد أن يروا ويكونوا مستعدين حين تأتي الأسراب قبالة النهر. تعلّمتُ نَصْبَ الأشراك الخشبية الثقيلة على يمين ويسار الحفر، وأن أترك مهبطاً حيث يمكن أن يحث الإوز كي يستقر، معتقداً أن كلّ شيء هو كما كان في الليلة السابقة، وغير بعيد عن بعضه كثيراً كي لا يلفت الانتباه إلى البنادق أو الوجوه البيضاء للصيادين الذين يكونون في غالب الأحيان متلهفين جداً. قال تشارلي إن الأميركيين في العادة إما سمينون وإما عجائز، أو كلا الأمرين، ولا يستطيعون تحمل البرد وتربة رجينا اللاصقة المتفتتة في الحفر، وهكذا فهم دائماً يقفون ويتسلقون خارجين في

https://telegram.me/maktabatbaghdad

اللحظات الخطأ. أضاف أن البط (ذو العين الذهبية، والبلبول ذو الريش الطويل، والبط البريّ ذو المنقار الطويل الأسود) يندفع دائماً في البداية، صارخاً على الحفر كأشباح خارجة من الظلام، منخفضاً ومنحدراً ومصدراً أزيزاً. إن إطلاق النار عليه يروّع الإوزّ، الذي يمتلك حاسة سمع مرهفة، ولهذا فإن هذا مثبّط. أنا نفسي يجب أن أكون حريصاً في إعادة موضعة الأشراك، بما أنّ هواة الصيد يطلقون النار على كلّ ما يعتقدون أنهم يرونه أو يسمعونه. وقد قُتل بعض الأشخاص، وأصيب تشارلي نفسه بالرصاص وفيه ندوب. ولهذا لم يكن يُسمح بتذخير البنادق إلا بعد إشارته، بالرغم من أنه ما يزال هناك "منتهكون للسماء"، يشكلون خطراً. وكنت مسؤولاً عن إبلاغه عن أي هاو للصيد يبدو ثملاً بالرغم من أنهم جميعاً يشربون حتى وقت متأخر في البار في الليلة السابقة، وكان بوسعي أن أشم أو أن أتوقع أن أشم رائحة الكحول. كان عليّ أيضاً أن أبلّغ عن أي شخص تبدو عليه أعراض المرض أو يعاني من مشكلة في السير أو يتنقل في المكان أو غير حذر في معالجة بندقيته. سيتأكد تشارلي من التراخيص ويجيز متى يبدأ إطلاق النار ومتى ينتهي، حالما ترتفع الشمس ويستطيع الإوز أن يرى الأرض. وكما قلتُ في السابق، كنت أبقى في الشاحنة وأرصد بالمنظار الطيور التي تسقط أو تعرج، وأحافظ على جدولي، بما أن الشرطة يكونون دوماً متواجدين ويراقبون بمناظير أكثر قوة مقسّمين الإوز المتساقط على عدد الصيادين ويأتون كي يفحصوا حين لا يتطابق الجدول. وبعد ذلك سيصدرون إحالات إلى المحكمة، ويصادرون البنادق، ويرون من الثَّمِل، ويغرّمون

تشارلي، ولكنهم يغرّمون آرثر رملنغر أكثر، ويجبرونه على دفع مبالغ كبيرة كي يتجنب انتباهاً أكبر إلى عمله في البلدة: الفتيات الفلبينيات، عش القمار مقابل غرفة الطعام، وأي شيء آخر يمكن أن يقوم به لا تجيزه البلدة. كان آرثر رملنغر يمتلك رخصة لـ "خدمة الدليل"، بالرغم من أنه هو نفسه لا يقوم بهذا العمل ولا يعرف أي شيء عن الصيد أو عن الإوزّ، ولا يكترث بهما. فقد كان هو المالك الذي يقوم بالحجز، ويحفظ الحسابات، ويستقبل هواة رياضة الصيد في الفندق، ويقبض النقود منهم، ويدفع جزءاً منه لتشارلي، الذي يخصص حصة صغيرة لي. وكان هواة رياضة الصيد يدفعون بقشيشاً كلَّ يوم حين ينتهي الصيد، وغالباً بالعملة الأميركية، وكان الجميع راضين.

في يوم من أيام أوائل تشرين الأول\أكتوبر الدافئة الأخيرة، بعد أن أمضيتُ أنا وتشارلي الصباح في الاستطلاع وحفر الحفر في الحقول، التي عادة ما يأتي إليها الإوزّ، ركبتُ دراجتي القديمة على الطريق السريع من بارترو باتجاه بلدة ليدر، التي تبعد عشرين ميلاً إلى الغرب. كنت مصمّماً على العثور على المدرسة الخاصة بالفتيات العاصيات التي تحدثت عنها السيدة غدينز. كانت بيردتيل تبعد ستة أميال عن الطريق الترابي، وأردتُ أن أعرف إن كان بوسعي التسجيل كطالب في نقطة ما في المستقبل، ربما في الشتاء، حين تنتهي واجباتي في صيد الإوز وأبقى لوحدي. لم أفهم ما الذي تعنيه فتاة منحرفة. ظننتُ أن هذا ربما يعني فتاة تمرّ في طريقها إلى مكان آخر، الأمر الذي كنت أفعله. ولم أصدق

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أيضاً أنّ هناك مدرسة للفتيات فقط. سيُسمح بتسجيل بضعة فتيان على الأقل، كما شعرت، حتى في كندا. أخبرتني السيدة غدينز أن الراهبات يدرن المدرسة. ومن تجربة أمي في مدرسة "سيسترز أوف بروفيدنس"، اعتقدت أن الراهبات طيبات وكريمات وسيجدن فرصة لمساعدتي، وهذه مهمتهنّ وسبب تخلّيهن عن الزواج والحياة العادية. ولن يهمهنّ أنني أميركي. لن أكشف أن أمي يهودية، أو أنها هي وأبي في السجن في نورث داكوتا. فقد بدأت الحياة تتطلّب الأكاذيب كي تكون قابلة للعمل، وكنت راغباً بأن أكذب كذبة، أو أكثر، إذا كان هذا يعني أنني أستطيع الذهاب إلى المدرسة وألا أبقى متخلّفاً عنها أكثر.

بدأت أعتقد أيضاً أنه سيكون من الممتع أن يتواجد المرء في جوّ فيه فتيات. إن بيرنير، بالطبع، فتاة. ولكننا في معظم حياتنا عاملنا أنفسنا على أننا الشخص نفسه لأننا كنا توأمين. وذلك الشيء نفسه لم يكن ذكراً أو أنثى، وإنما شيء فيما بين ذلك شملنا نحن الاثنين، بالرغم من أن هذا لم يستمر بالطبع. وفي مناسبتين، أخذني تشارلي إلى مطعم اللحوم الصيني في الشارع الرئيسي، وفي المرتين شاهدت أولاد المالك الصيني، جالسين إلى طاولة في مؤخرة المحلّ يكتبون وظائفهم المدرسية. انتبهت بشكل خاص إلى الابنة الجميلة ذات الوجه المستدير التي اعتقدتُ أنها ربما في سني. وفي كل مرة كانت تنتبه إليّ، ولكنها بالكاد تعبّر عن الأمر. ومنذ ذلك الوقت، حين كنت أقوم بنزهاتي حول بارترو، أو أسيّر قطع شطرنجي وحيداً في كوخي، كنت أستمتع بفكرة خيالية بأننا يمكن أن نكون صديقين. بوسعها أن تزورني. ويمكن أن نتنزّه في البلدة الفارغة

معاً، ثم نلعب الشطرنج. (شعرتُ بأنها تعرف أن تلعب أفضل مني). تخيّلت حتى أنني يمكن أن أساعدها في وظائفها. لم يكن هناك أبداً أي شيء في أفكاري أكثر من هذا. لم أعرف أبداً اسمها ولم أتحدث معها. وُجدت صداقتنا في ذهني فحسب. إن هذه الأشياء الحقيقية لا يمكن أن تحدث أبداً، ولم تحدث. وبسبب كوني وحيداً تمكّنتُ من معرفة حقيقة الحياة المحزنة هذه، وتخيّل أنها وأشياء أخرى كثيرة يمكن أن تكون مختلفة.

كان الطريق السريع والسهب إلى الغرب من بارترو لا يختلفان عن الطريق الترابي المتجه شرقاً إلى بورت رويال. وبالرغم من أنني ذهبتُ راكباً دراجتي، فقد شعرت بأنهما جديدان، كأرض لا أشاطر أحداً فيها. كانت أرضاً زراعية متموجة وعارية ببالات من القشّ مبعثرة إلى حافة الأفق، ونقاط سوداء، ومضخات نفط، وفوقها الخيوط المتلألئة لإوزات جديدة في السماء، ودخان رمادي أبيض على طول الأفق حيث كان مزارع يحرق الخنادق.

حين وصلتُ إلى لافتة بيردتيل، لم يكن هناك دليل على وجود بلدة. كان خط السكك الحديدية الباسيفيكية الكندية يمر موازياً للطريق السريع، كما في بارترو وفورت رويال. ولكن لم يكن هناك معبر من حيث كانت بلدة هناك، أو فاصل من أشجار الكاراغانا أو طاحونة هواء أو صومعة أو مربعات أساس كي تحدد مواقع المنازل. لم أعتقد أن السيدة غدينز ستسبب لنفسها المشاكل بالكذب عليّ. جلستُ ونظرتُ إلى السماء وفي كل الأنحاء حولي حيث لا توجد مدرسة، ثم قررت

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أن أسوق دراجتي ميلاً آخر إلى لافتة بيردتيل المقابلة، إذا كانت هناك واحدة. وحين وصلت إليها، كان إلى جانبها لافتة أخرى مكتوب عليها "مدرسة شقيقات الاسم المقدس". وثمة سهم يشير إلى الجنوب إلى طريق حصوي يلتقي مع الطريق السريع من الحقول. ثمة صليب مسيحي مرسوم فوق اسم المدرسة. وعلى قمة التل حيث أشار السهم، كان هناك منزل مهجور، وخلفه اختفى الطريق في السماء الزرقاء. ربما كانت هناك مدرسة في أية مسافة، بعد عشرة أميال. اجتزت مع تشارلي في السيارة أميالاً كثيرة في السهب ولم أر أية لافتة تشير أين يعيش البشر أو أين عاشوا. لكنّ المدرسة ما تزال هدفاً مهماً بالنسبة لي. أستطيع مواصلة طريقي إلى أن أشاهد بناء مدرسة وأرى ما يمكن أن أفعل.

وجّهتُ عجلتي الأمامية بصعوبة على الطريق الترابيّ. تمايلت دراجة تشارلي القديمة واهتزّتْ فوق الأحجار والحصى، ولم تكن قيادتها سهلة إلى أعلى التل. ولكن حالما صعدتُ المرتفع حيث يتوضع المنزل الفارغ، وصرت قادراً على رؤية أميال حولي، شاهدتُ المدرسة، أو ما يجب أن يكون المدرسة، متوضعة مباشرة في أسفل الطريق ومرئية بشكل واضح في سفح التل من الطرف الآخر. كانت بناء كبيراً مربعاً من الآجرّ الأحمر، مؤلفاً من أربعة طوابق، يتوضع لوحده في مكان منخفض في السهب، لا يختلف كثيراً عن كيف ستبدو ثانوية غريت فولز لو كانت هناك. ولكنني عرفتُ في اللحظة التي رأيتُ فيها البناء ما عنته كلمة "عاصيات". عنت ما سأكونه أنا وبيرنير لو أنّ السلطات المسؤولة عن الأحداث أتت وأخذتنا. أيتام. الأيتام يُقبلون في مكان كهذا فقط.

اقتُطع مربّع الأرض الذي بُنيت عليه المدرسة من أرض المرعى قرب الجدول الجاف الضيق. القمح ينمو في المنبسط المرتفع فوقها. أشجار طويلة وضعيفة مزروعة في المرج وثمة أشكال بين الأعشاب هنّ الفتيات العاصيات كما اعتقدت. جعلت شمس تشرين الأول\أكتوبر الحادة ـ التي وخزت عنقي المتعرق ـ المدرسة تبدو فارغة وهادئة. استدرتُ تقريباً وتوجهت إلى الطريق السريع. لن يكون أبداً مكاناً بأشجار بلوط كبيرة وملعب لكرة القدم وفتيان في عمري كي يقبلوني، كما حدث في غريت فولز. لن يكون هذا أبداً ما أردته. كانت كندا.

غير أنني اجتزتُ هذه المسافة البعيدة. وهكذا تركت الدراجة تنزل الهضبة الوعرة. خمّنت أن الساعة هي الواحدة. دار باشقان ببطء عالياً في السماء. وحين بدأت أدعس الدواسة حيث أصبح الطريق منبسطاً على مستوى المدرسة رأيت بعض الفتيات الجالسات على الأعشاب، يتحدثن في أعداد صغيرة، وعدداً منهن يسرْن في محيط المرج، وقد لاحظْن وجودي. واعتقدت أن قلة محدودة من الناس ستركب الدراجة قاطعة المسافة كلّها إلى هنا، بما أنه ما من شيء يفعله المرء سوى العودة.

راهبة طويلة في رداء طويل بغطاء أبيض للرأس وقفت على درجات المدرسة، كي تشرف على الفناء. كان هذا بعد الغداء. كانت تتحدث مع فتاة تضحك. رأتني الراهبة وبدأت تراقبني عبر مسافة المرج.

في المكان الذي تتاخم فيه أرض المدرسة الطريق، انتصبت بوابة طويلة بقضبان حديدية لوحدها دون سياج مثبت إليها، وقد كان هذا غريباً بما أن أي شخص يمكن أن يغادر كما يريد. لم يكن هناك شبه مع الميتم.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الطريق يدخل في الأراضي إلى أبعد. واستطعتُ أن أرى السيارات المصفوفة إلى جانب البناء. البوابة ذات القضبان مربوطة بالسلاسل ومقفلة، وعالياً فوقها، هناك راية تصل بين أعمدة البوابة الآجريّة، وهي معدنية بتمثال ذهبيّ للمسيح، ذراعاه ممدودان، يرحب بالناس عبر البوابة في حال حدث وفُتحت.

جلستُ على دراجتي متعرقاً، رغم أنّ ريحاً باردة هبت عليَّ طول الطريق الذي نزلته. عليّ أن أصارعها حين أسوق عائداً. لم يكن هناك أي فتى ذكر في أي مكان داخل البوابة أو يعمل في المرج. لا بدّ أن هناك فتى في مكان ما، كما اعتقدت. لم يكن هناك أمكنة لا تريد الفتيان أو لا تحتاج إليهم.

سارت فتاتان داخل الفناء إلى حيث كنت أجلس على دراجتي خارج البوابة، وأنا أنظر إلى الداخل فحسب. كانت إحداهنّ طويلة ونحيلة وبشرتها قبيحة وفمها متغضّن جعلها تبدو كبيرة في السن. الأخرى ذات حجم عاديّ، شعرها بنيّ ووجهها مربع غير جميل، ولديها ذراع أصغر، بالرغم من أنه ليس أقصر، من ذراعها الآخر. ابتسامتها جميلة، أسعدتني رؤيتها، وقد قدّمتها لي بشكل مدرّب عبر قضبان السياج. كانتا ترتديان فستانين أزرقين فاتحين متشابهين ولا شكل لهما وأحذية تنس بيضاء وجوارب خضراء تصل إلى الكاحل. كلمتا "الاسم المقدس" مخيّطتان بالأبيض على جيبٍ صدريٍّ. كانت مثل الملابس التي ارتدتها أمي في السجن في اليوم الأخير الذي شاهدتها فيه.

"ما الذي تظنّ نفسك فاعلاً هنا؟"، قالت الفتاة الطويلة التي تبدو

أكبر سناً بطريقة فظّة غير ودّية كما لو أنها تريدني أن أرحل. ارتخى جسمها الطويل حين تحدثت. رفعت شفتها، كما لو أنها توقعت مني أن أقول شيئاً ما ذكياً، كرد عليها، كما ستفعل بيرنير.

"جئت كي أرى المدرسة فقط"، قلتُ وشعرت بأنني مميّز كوني هناك. لم أكن في أميركا. وما من مبرّر لمجيئي إلى مدرسة لا أعرف عنها شيئاً. اعتقدت أنني يجب أن أركب دراجتي وأرحل.

"لا يُسمح لك بالدخول إلى هنا"، قالت الفتاة الظريفة ذات الذراع النحيل. ابتسمت لي مرة أخرى، لكنّ الابتسامة لم تكن ودّية. كانت ساخرة. أحد أسنانها الأمامية الجانبية غير موجود وثمة فراغ أسود داخل فمها، مما دمّر ابتسامتها الجميلة. لكلتا الفتاتين أظافر معضوضة وخدش على الذراعين وآثار حصبة حول فميهما، وشعر على ساقيهما، مثلي. لن يكون من الممكن أبداً أن أكون صديقاً لهما.

بعيداً خلف الفتاتين كانت الراهبة الطويلة تنزل الدرجات الأمامية من حيث تقف. انتفخ جلبابها حول كاحليها في النسيم. وقفت فتيات أخريات في الفناء ونظرْن إلى ثلاثتنا عند البوابة، كما لو أنّ إزعاجاً يحدث. تأرجح ذراعا الراهبة وهي قادمة نحونا، ساقاها الطويلتان تتقدمان بخطوات واسعة. أردتُ أن أغادر قبل أن أتبادل كلمات معها وتتصل بالسلطات. نظرت الفتاتان حولهما ولكن لم يبد كأنهما تكترثان بها. ابتسمتا لبعضهما بطريقة وضيعة أسرّتهما.

"هل لديك حبيبة؟" قالت الفتاة الأكبر. وضعت يديها عبر القضبان وهزّت أصابعها نحوي فتراجعت إلى الخلف. إن الفتاة الصينية في

https://telegram.me/maktabatbaghdad

فورت رويال لن تهزّ أصابعها لي.

قلت: "كلا".

"ما اسمك؟"، قالت الفتاة الأصغر ذات الذراع النحيل.

أمسكت مقود الدراجة ووضعت قدمي على الدواسة، مستعداً للانطلاق. "ديل"، قلت.

"هيّا من هنا! ابتعد من هنا!"، بدأت الراهبة بالصياح وهي تسير بخطواتها الواسعة فوق المرج، وثمة حزام خرزيّ حول خصرها، وصليب كبير يتأرجح من جانب إلى آخر، وجهها الأبيض المغسول وفمها وعيناها وخداها وجبينها تكسوهم بإحكام مادة بيضاء منشّاة.

صاحت: "قدْ بعيداً أيها الفتى. قدْ بعيداً".

نظرت الفتاتان إليها وتبادلتا نظرات قاسية.

"أيها الرجل، اذهب بعيداً. ما الذي تظنّ أنك تفعله هنا؟" صاحت الراهبة. بدا وكأنها فكرت بأن شيئاً كريهاً على وشك أن يحدث أو حدث سابقاً.

"تلك العاهرة العجوز"، قالت الفتاة الأكبر وبدت طبيعية في قول هذا.

"نكرهها، ونتمنّى أن تموت"، قالت الفتاة الأصغر. كان لها عينان سوداوان صغيرتان وضيّقتان، وحين قالت هذا، وسّعتْهما وكأنها صُدمت من نفسها.

"إن ديل هم اسم قرد في المكان الذي جئتُ منه. شونافون، ساسكاتشيوان"، قالت الفتاة الأكبر، غير منزعجة من الراهبة التي

كانت تقترب بسرعة. مدّتْ الفتاة فجأة ذراعها الطويل أكثر عبر الفجوة بين القضبان وأمسكت رسغي بشدة، حاولتُ أن أفلت منها لكنني لم أستطع. بدأت تشدّني، بينما ضحكت الفتاة الأخرى. كنت أميل جانبياً، ساقي اليمنى وكعب حذائي يسندانني فقط، ولكنني بدأت بالسقوط.

"لا تلمسهما"، كانت الراهبة تصيح. لم أكن ألمس أحداً.

"إنه خائف منا"، قالت الفتاة الأصغر وسارت مبتعدة، تاركة الفتاة الأكبر ممسكة بي من خلال القضبان. كانت تحدّق بي، وتعذّبني، وتستمتع بذلك. خدشت بأظافرها الصغيرة الحادة جلد رسغي، كما لو أنها تريد تمزيقه.

"أفلتيه يا مارجوري"، صاحت الراهبة، وكانت قد وصلت تقريباً إلى البوابة. "سيؤذيكِ". لم تستطع أن تتحرك بسهولة بسبب تنورتها الثقيلة.

سُحبْتُ عن دراجتي نحو قضبان البوابة. قلتُ: "توقّفي. ما من داع لهذا".

"ولكنني أريد ذلك". كانت مارجوري تشدّني إزاء القضبان كي تفعل شيئاً ما لي، كي تضربني كما ظننت. كانت أقوى وأكبر من بيرنير. وكان وجهها هادئاً ولكن عينيها الزرقاوين الضخمتين كانتا تركزان عليّ بحدّة، وعضلات فكها مشدودة كما لو أنها متوترة. كانت أصغر مني، في الرابعة عشرة، كما اعتقدتُ لسبب ما. قالت: "أريد أن أصنع منك رجلاً. أو أسبب لك مشكلة".

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وصلتْ الراهبة وأمسكت على الفور بكتف مارجوري وشدّتها إلى الخلف، لكنّ مارجوري ظلت ممسكة بي. أمسكت الراهبة ذقن الفتاة وأدارت وجهها جانباً بعيداً عن البوابة. "خطأ، خطأ، خطأ"، قالت بغضب عبر شفتيها الشاحبتين المتصلّبتين. رداؤها الأسود صعّب كلّ شيء عليها. تفحّصتني عينا الراهبة عبر القضبان. قالت:"لماذا أنت هنا؟" كان وجهها يحمرّ. "لا تنتمي إلى هنا. هيا اذهب". كانت أيضاً في عزّ الشباب. وجهها ناعم وصاف، بالرغم من غضبها. لم تكن أكبر سناً من مارجوري بالنسبة لي.

بدأ جرس بالرنين في المدرسة. كنت طول الوقت على دراجتي القديمة لكنني لم أسقط بعد. ما تزال قبضة مارجوري المحكمة على ذراعي ولا تعبير على وجهها. مددت يدي اليسرى تحت أصابعها الفظة، حيث كانت الخدوش تنفتح في جلدي. رفعتُ بقوة أحد أصابعها ثم واحداً آخر. لم أرد أن أوذيها. ثم حررت نفسي. تعثرت إلى الخلف بعيداً عنها على دراجتي ثم سقطتُ على الحصى وفقدتُ نَفَسي.

"من أنت؟" كانت الراهبة تحدّق إليّ عبر القضبان. وجهها مغسول ولامع وغاضب. أحكمت قبضتها الآن على كتفي مارجوري. وبدأت مارجوري تبتسم لي وأنا على الأرض، كما لو أنني فعلت شيئاً مسليّاً.

"ما اسمك؟" قالت الراهبة.

لم أرغب بأن أقول أي شيء عن نفسي. بدأت بالنهوض ورفع دراجتي عن الحصى.

قال مارجوري:"اسمه ديل. إنه اسم قرد".

"لماذا أنت هنا؟"، قالت الراهبة، وما تزل تمسك بكتفي مارجوري.

"أريد أن أذهب إلى المدرسة فحسب". شعرت بأنني سخيف وأنا أركع على الأرض، مصغّر الحجم وأنا عليها.

"إنها ليست لك". كانت لكنتها مختلفة عن أي شخص آخر سبق أن سمعته. تحدثت بسرعة وبصقت كلماتها عليّ. عيناها السوداوان المسطحتان غاضبتان، غاضبتان مني. "أين تعيش؟"

قلت: "في بارترو. أعمل في فورت رويال". كانت جميع الفتيات في ساحة المدرسة يسرن إلى الدرجات الأمامية، ينظّمن أنفسهنّ في صف كي يدخلْن إلى الداخل. راهبة أخرى، قصيرة وضخمة، كانت على قمة الدرجات الآن، يداها مطويتان أمامها. مارجوري ما تزال تبتسم لي عبر القضبان كما لو أنني مثير للشفقة.

قالت لي على نحو حالم: "أردتُ أن أقبّلك. لم ترغب بأن تقبّلني، أليس كذلك؟"

"هيّا إلى الداخل"، قالت الراهبة، وأفلتت كتفي مارجوري ودفعتْها بعيداً. استدارت مارجوري إلى الخلف على نحو دراميّ وضحكت بصخب وبدأت تتحدث كي تلحق بصديقتها.

قلت: "أنا آسف".

"لا أريد أن أراك هنا مرة ثانية"، قالت الراهبة الشابة عبر البوابة. هزّت رأسها لي وحرّكتْ وجهها إلى الأمام وحدقت بي كي تتأكد من أنني فهمت. "إذا جئت إلى هنا، سأتصل بالشرطة. سيأخذونك بعيداً. هل ستتذكر هذا؟"

https://telegram.me/maktabatbaghdad

قلت:"نعم. أنا آسف". أردت أن أقول شيئاً آخر ولكنني لم أعرف ماذا أقول. لم أكن أعرف ما هو اليأس، ولكنني شعرتُ به. كانت الراهبة الشابة قد ابتعدت، عباءتها السوداء الثقيلة تتأرجح في ضوء الشمس. أوقفت دراجتي على عجلتيها، وأدرتها على الحصى ثم ركبتها وانطلقت نحو أعلى الهضبة في الريح نحو الطريق السريع وبارترو.

(50)

قادت فلورنس لا بلانك سيارتها الصغيرة القرنفلية الميتروبوليتان إلى بارترو وتركت ظرف أوراق سميكاً على باب كوخي. كان مُرْسلاً من أميركا ومكتوباً عليه في أسفله بخطّ يد لم أعرف لمن: يُرجى إيصاله إلى ديل بارسونز. حدث هذا بعد مرور عدة أيام على ذهابي إلى مدرسة الفتيات العاصيات، وفي الأسبوع الذي كنتُ سأنتقل فيه من بارترو إلى فورت رويال لأنّ المزيد من هواة صيد الإوز بدأوا بالوصول. طُلب من تشارلي أن يمنح أحد الصيادين السرير الآخر في كوخي، وكان الرأي (رأي فلورنس كما علمتُ) أنه ليس "من الجيد" أن أنام وحيداً مع غريب كبير في السنّ. لمّح تشارلي إلى هذا بابتسامة ساخرة قائلاً إن صيادي الإوز العجائز قد "يصبحون مُثارين" بعد منتصف الليل. كان هناك حجرة صغيرة جداً في الطابق الثالث من ليونارد، في ردهة الطابق الذي تقع

https://telegram.me/maktabatbaghdad

فيه شقة رملنغر. خُصصت هذه الغرفة لي كي أنام فيها وأستخدم الحمام في الطابق الأرضي مع عمال منصة النفط وسكك الحديد، وأُعطيتُ إناء أبيض مطلياً بالمينا من أجل منتصف الليل. سيأخذني تشارلي في شاحنته من أجل واجبات صيد الإوزّ.

أصبح الجوّ أكثر برودة واشتدّت الريح، وشعرتُ بالسعادة لأنني لم أعد أسوق الدراجة إلى البلدة وتوقفت عن النوم في كبين مفتوح على الريح وعدم رؤية أحد. بهذه الطريقة سأمتلك الوقت حالما ينتهي تنظيف الإوز كي أقوم بمهمات لهواة الصيد للحصول على البقشيش وكي أتواجد في البار ليلاً. حين يكون وقتي مشغولاً فإنني أتوقف عن التفكير بوالدي والمدرسة وبيرنير، وكان هذا مهماً لي، لكنه يشعرني بالحزن في النتيجة.

كان احتكاكي بفلورنس لا بلانك قليلاً. قال لي تشارلي إنها تملك متجر بطاقات معايدة في "ذَ هات"، وهي أرملة، كانت مرة ملكة جمال محلية جرة بمفاتنها حين كان زوجها يدافع عن هونغ كونغ سنة 1941. اعتنت بأمها الكبيرة في السنّ. ولكنها كانت أيضاً فنانة واستمتعت بتناول الشراب في الفندق ولعب الورق في غرفة القمار، حيث لم يكن من المفترَض أن يُسْمح لها بالدخول. أحبها الجميع. وقد ناسبتها العلاقة مع آرثر رملنغر لأنه يمتلك النقود والخصال الحميدة ويتميّز بأناقته، بالرغم من كونه عاشقاً للعزلة وأميركياً وأصغر منها. كانت تعود إلى "ذَ هات" حين تتعب منه.

بين فترة وأخرى، حين أكون في كوخي، أنظر إلى الخارج وأشاهد فلورنس مع مسند اللوح الخاص بالرسام في مواقع مختلفة من بارترو،

مرة خلف البلدة، مقابل أشجار الكاراغانا التي يمكن أن تُرى من خلالها مضخات النفط وخلايا النحل البيضاء، وفي وقت آخر، تقف في الشارع وترسم مقطورة تشارلي ومنزله الحديدي. مُنعتُ من التطفل على عزلة آرثر رملنغر، ولكن لم تُذكر فلورنس، التي أظهرتْ لي الودّ من مسافة، فشعرتُ بأنني أستطيع التحدث معها. لم يأت أحد إلى بارترو. ولم أتحدث إلا مع عدد قليل جداً من الناس. اعتقدتُ أن هذا لن يزعجها. وهكذا حين رأيتها جالسة على مقعدها الخشبي في ثوب بنيّ وقبعة سوداء ناعمة، ترسم في الشارع الذي يمرّ أمام مكتب البريد الفارغ في بارترو، سرتُ عبر الأعشاب والأشياء المتناثرة حيث توضعت المنازل، كي أرى ما يفعله المرء كي يرسم لوحة حقيقية، إذ لم أكن أعرف إلا الرسم بالأرقام، الذي لا يصنع لوحة حقيقية أو فناً.

حين رأتني فلورنس قادماً ـ كان هذا في بعد الظهر الذي تركت فيه ظرف الأوراق ـ رفعتْ فرشاتها الطويلة ولوّحت بها إلى الأمام والخلف كبندول الإيقاع. اعتبرتُ هذا إشارة إلى أنها عرفتني بالرغم من أنها أبقت عينيها على لوحتها كما لو أنه من المهم أن تبقيها في مدى بصرها.

قالت دون أن تنظر إلي: "تركتُ لك طرداً غامضاً. أنت أطول مما كنتَ عليه الشهر الماضي. هل هذا ممكن؟" نظرتْ فلورنس إليّ وهي تبتسم. لم تكن ضخمة. فمها جميل وصريح وعريض الابتسامة وصوتها مبحوح يوحي بأنها تستمتع بنفسها. استطعت تخيلها وهي تضحك. كانت بين فينة وأخرى ترقص هي وآرثر رملنغر في البار على إيقاع موسيقا المونوغراف. لقد راقبتُها وهي تمسكه بتصلب على بعد ذراع في إحدى

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بذلاته الرائعة، وقد بدا جدياً وأدّى حركة المربّع بارتباك مما جعل الزبائن الآخرين في البار يضحكون، وكذلك هي أيضاً. وكما قلتُ، تحبُّ أن تلعب الورق أيضاً في ما دعته بـ "حفرة القمار"، في الغرفة التي تلي البار، حيث نادراً ما دخلتُ إليها. كان في شعرها الأشقر القصير المجعّد شعرات شائبة، و"تحمل بعض الوزن في جيبها"، كما يقول أبي عن بعض النساء. لا بد أنها في الأربعين من عمرها، واستطعتُ أن أرى كيف أنها كانت أكثر جمالاً ونحولاً وبلا نمش أثناء شبابها حين كان زوجها يقاتل في الحرب. في خديها شرايين نحيلة، وهي كما عرفتُ إشارة إلى حياة قاسية، عيناها المتألقتان تضيقان حين تبتسم بحيث تصبحان غير مرئيتين تقريباً. لم تطابق كونها السيدة الصديقة لآرثر رملنغر في وجهة نظري، ولكنها شخص اعتقدت أنني سأحبه. أسعدني أنها انتبهت إليّ منذ أسابيع.

وقفتُ جانباً خلف فلورنس، وهكذا استطعت أن أشاهد مباشرة ماذا تفعل. لم أر سوى لوحة رافعة الحبوب في شقة آرثر رملنغر، ولم أعرف ما هي مدرسة نايتهوك، أو أي شيء حتى الآن عن إدوارد هوبر، أو كيف يمكن أن يصنع المرء تخطيطاً قابلاً للمعرفة من علب معجون رسم. اعتقدت أن على المرء أن يقوم بتمارين عينين كما فعل أبي كي يستطيع رؤية الأمور بشكل مختلف.

كانت فلورنس ترسم في منتصف شارع مانتيوبا. ولم يكن في لوحتها إلا المشهد الذي يقع مباشرة بعد مكتب البريد الفارغ بالإضافة إلى منزلين محطمين خلف الصف التجاري حيث سرتُ وقد كان يعجّ بالحياة

حين كانت بارترو بلدة كاملة. لم تكن السماء فوق الأبنية قد رُسمت بعد كما لاحظتُ من القماشة الفارغة. لم تُرسم بعد رافعات الحبوب وحقول الحنطة التي ترتفع وتمتدّ وراء السكك الحديدية نحو الأفق. ولم أستطع تبين لماذا سيكون هذا موضوعاً للوحة، بما أنه متوفّر كي يراه أي شخص في أي وقت، ويخلو من الجمال، وليس كشلالات نياغارا في لوحة كنيسة فريدريك، أو ترتيبات الأزهار التي رسمها أبي بعدة رسمه الرقميّة. ولكنني أحببتها، وكان يجب أن أقول هذا كي أظهر لباقة. قلتُ - وتمنيت لو أنني اخترت كلاماً أفضل - هو: "لماذا ترسمين هذا؟"

كانت الريح تدفع الأعشاب الجافة إلى الأمام والخلف والنهار يصبح رماديّ اللون فيما خطّ جبهة هوائية باردة يغلق السماء الزرقاء إلى الشرق. كانت أدوات تشارلي الدوارة تدور بوحشية، وأسراب الإوز المتمايلة تسرع من الشمال، لاحقة أواخر الشمس. لم يبد كأنه يوم جيد للرسم.

قالت فلورنس: "آه. أرسم الأشياء التي أحبها فقط، الأشياء التي لن تصبح جميلة بطريقة أخرى". كانت تحمل باليتها الخشبي وإبهامها اليساري عالق فيه. عِقد من ألوان مختلفة عُصرت عليه. تمزج عقدتين أو ثلاثاً برأس فرشاتها، وتضع اللون تماماً على القماشة. ما كانت ترسمه هو ما رأيته بالضبط، وخمّنتُ أن هذا أسلوب مدرسة نايتهوك الأميركية وبدا عجيباً ومميّزاً. لم أفهم أيضاً ما عنتْهُ بجعل مكتب البريد جميلاً في لوحتها، بما أنه بدا مثل مكتب البريد الذي أستطيع رؤيته، ولم يكن جميلاً على الإطلاق.

قالت فلورنس: "لم أكن أبداً رسامة في الحقيقة. أختي ديناه - لور هي الرسامة. قبل أن تستسلم لقلب محطّم. كان أبي أيضاً رساماً، ينتمي إلى

https://telegram.me/maktabatbaghdad

المدرسة البدائية، بما أنه كان في الحقيقة قاطع ثلوج في سوريس، مانيتوبا. ربما لهذا السبب أنا أرسم هنا في شارع ساوث مانيتوبا". أدارت وجهها الممتلئ الدائري نحوي. عيناها الضيقتان بنيتان ومتلألئتان، يداها ذات الأصابع القصيرة قوية وحمراء من تعرضها للريح الباردة. "لا تعرف أين تقع مانيتوبا في العالم، أليس كذلك يا ديل؟ أم ماذا؟" تستمتع بنفسها بالطريقة التي اعتقدتُ أنها على الأرجح تفعلها دائماً.

"أعرف ما هي"، قلت. إنها محافظة. سرّني أنها تعرف اسمي. ولكنني لم أعرف عن كندا أكثر مما قالته لي ملدريد وتشارلي. فكّرتُ بقولها لي إنني صرتُ أكثر طولاً. سيسرّني كوني أطول، ولكنني لم أعتقد أن شهراً مدة كافية لحدوث هذا. ما شعرتُ به أكثر منذ قدومي هو أنني أكثر صغراً.

"ربما لا تعرف على الأرجح ما تعنيه كلمة ساسكاتشيوان"، قالت فلورنس، ناظرة من فوق باليتها إلى لوحتها.

قلت: "لا أعرف".

"حسناً. يسرّني أن أخبرك أنها تعني "النهر الذي يتدفّق بسرعة"، بالرغم من أنه لا يوجد الكثير من الأنهار حيث نحن الآن. إنها لغة شعب الكري، التي لا أتحدثها. تحتاجُ إلى خريطة وكتاب تاريخ فقط. سترى أن مانيتوبا، حيث وُلدتُ، ليست بعيدة جداً عن هنا، بلغة سبوتنيك". لفظتْ كلمة سبوتنيك بطريقة مختلفة عمّا سمعتُها في الراديو. نطقت "اليو" الطويلة كي تتناغم إيقاعياً مع كلمة "جذر" (رووت)، كما لفظ رودي كلمة روزفلت. سبووتنيك. واصلتْ تظليل

الواجهة البيضاء لمكتب البريد المهدّم كي تحاكي ما استطعتُ أن أراه من وضعه الحقيقي المتدهور. قالت:"بخلاف ذلك أستمتع بفعل الأشياء في الخارج. وأنا ضجرة، بالطبع. اعتدتُ دوماً أن أسوق السيارة عابرةً هذه البلدة الصغيرة قادمة من "ذَ هات" كي أقابل آرثر، في أيامنا الرومانسية الأولى. كان ما يزال الناس يعيشون في واحد أو اثنين من المنازل في ذلك الوقت. لقد أغرتني نوعاً ما". غضّنت حاجبيها وهي تنظر إلى اللوحة. "هل حدث هذا لك حتى الآن في حياتك؟ تسمع كلمة إلى الأبد، ثم فجأة تصنع معنى مختلفاً تماماً؟ هذا ما يحدث لي طول الوقت".

حدث هذا لي. حدث لي مع كلمة مجرم. فقد عنتْ دوماً شيئاً واحداً: بوني وكلايد، آل كابوني، الأخوان روزنبرغ. والآن تعني والديَّ. لم أرغب بقول هذا ولكنني قلت:"نعم. حدث".

"هكذا. هل تحبنا نحن الذين هنا؟" نظرتْ إليَّ فلورنس للمرة الثالثة كي تتأكد من أنني أنتبه إليها وهي تضع اللون بحرص على مكتب البريد. سرّها أن يُنْتَبَهَ إليها وهي ترسم كما ظننتُ. "إن الكنديين يريدون دوماً من الجميع أن يحبّوا هذا المكان، أن يحبونا نحن خاصة". قامت بضربة ريشة دقيقة على باب مكتب البريد، ثم أدارت رأسها جانبياً ونظرت إليه بتلك الطريقة. "ولكن حين تحبّنا نشتبهُ بأن هذا مغرض. يجب أن تكون أميركا مختلفة جداً. لدي شعور بأنه لا أحد يكترث هناك. لا أعرف الكثير عنها. إن القيام بأمور للأسباب الصحيحة هو المفتاح إلى كندا".

قلت:"أحبها". بالرغم من أنني لم أفكر بكندا بتلك المعاني المحددة.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

افترضتُ أنني لا أحبها، لأنني فيها ضد إرادتي، ولن يحبّ أحد ذلك. ولكنني لم أكن متأكداً من أنني أريد الرحيل الآن، بما أنه ليس لدي مكان أذهب إليه.

"حسناً..."، حدّبت فلورنس كتفيها، اتكأت إلى الأمام على مقعدها، حاملة باليتها بعيداً عنها، وبإبهامها القصير المطليّ ظفره بالأحمر وضعت لطخة على نحو خفيف على باب مكتب البريد فبدا أكثر شبهاً بالباب الرمادي الحقيقي الذي أستطيع رؤيته. قالت، مركزة: "هذا جيد. ليس مسلياً أن يكون المرء بائساً، على ما أظن". اتكأت إلى الخلف على مقعدها وفحصت ما فعلتْهُ. "نُقلتْ الحياةُ إلينا فارغة وعلينا أن نصنع الجزء الخاص بالسعادة". مسحت إبهامها مباشرة على ردائها البني، الأمر الذي فعلتْهُ مرات عدة من قبل، ثم جلستْ على مقعدها مستقيمة الظهر كي تُعجب بعملها. "هل المكان الذي تعيش فيه جميل؟ أو أين عشتَ من قبل؟ لم أزرْ الولايات المتحدة أبداً. لم أمتلك الوقت أبداً".

"أحببتُ مدرستي". كنت سأحبّها، كما اعتقدت.

"هذا ظريف إذاً"، قالت فلورنس.

"هل تعلمين لماذا استقبلني السيد رملنغر هنا؟" سألتُ. لم أتوقع قول هذا، لكنني شعرت بالراحة في التحدث مع شخص بدا كأنه يحبني.

نظرت فلورنس وراء طرف مسندها إلى الشارع الفارغ الذي يقود إلى الطريق السريع، حيث كان يعبر باص غري هاوند وهو أحد باصين يمران يومياً. عاودت النظر إلى لوحتها، فرشاتها ترتعش بين إبهامها وسبابتها. خيوط شعر أشقر تعلو فوق القفا الشاحب لعنقها وتحت قبعتها الناعمة.

لديها شامة هناك اعتقدت أن مشطها يلمسها دوماً. قالت فيما هي تدرس لوحتها: "هل أنت قلق من أنه لم يخصّك بأي انتباه؟"

"أحياناً". تمنّيت لو أني قلت هذا فقط لأنه كان حقيقياً.

"حسناً، لا تزعج نفسك من هذا الأمر"، قالت فلورنس وهي تغمس فرشاتها في علبة صفيح على الرصيف عند قدميها. "إن أشخاصاً مثل آرثر لا يرتبطون بشكل طبيعي مع العالم. ربما لم يلاحظ حتى أنه يتجاهلك. إنه ذكي جداً. درس في هارفارد. يمكن أنه يشعر أنه من المهم لك أن تتكيف مع كونك وحيداً. من ناحية أخرى، إن الناس لن يفعلوا أبداً ما تريدهم أن يفعلوه. إنه يسدي لك جميلاً. ربما أنت شيء جديد بالنسبة إليه". خصّتني بابتسامة ماكرة ونظرت إلى السحب. "أمقتُ دائماً السماء الرخامية". خطّت حرف إكس في الجو، مستخدمة فرشاتها، كما لو أنها تستطيع أن ترسم السماء، ثم أعادت فرشاتها إلى علبة الصفيح وتركتها.

كانت مضخة النفط تهدر بعيداً في حقل القمح الذي تهبُّ فيه الريح، في مكان ليس ببعيد، ذراعها يرتفع وينخفض بهدوء، كان هذا الضجيج الوحيد غير الطبيعي في الجوّ. توقّفتُ تقريباً عن سماعها في الليل، بالرغم من أنني أنام وأنا أصغي إليها.

وقفتُ خلفها ولم أقل أي شيء. انحنت فلورنس ووضعت باليتها على الرصيف وفتحتْ صندوق رسمها الخشبي، والذي كان فيه عدّة نحاسية لماعة وفراشي نظيفة وأنابيب ألوان فضية وسكاكين صغيرة وبعضُ الخرق البيضاء وزجاجات سوائل سوداء، وعلبة سجائر إكسبورت إيز

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وقارورة فضية صغيرة. عالياً في السماء، ظهر أثر لطائرة تندفع نحو الشرق خارج غيوم متنقلة، الشمس إزاء جناحيها. مرة أجلسني أبي في طائرة سكوربيون إف 89 في قاعدة الحرس القومي، وجعلني أضع خوذة الطيار وأحرك أجهزة التحكم وأتخيل أنني أستطيع التحليق بها. تساءلت ما الذي سيراه الشخص من طائرة هنا. العالم وهو ينحني؟ جبال روكي ونهر ميسوري؟ تلال سايبرس، نهر ساسكاتشيوان وفورت رويال وبارترو وغريت فولز وكل ما بينها؟ كلها في منظر واحد واضح.

"حدّثني آرثر عن الصعوبات، عن والديك المسكينين وغير ذلك"، قالت فلورنس. أخرجت إحدى الزجاجات السوداء وسكبت السائل من علبة الصفيح في شارع مانيتوبا، فتحتْ الزجاجة وصبّتْ سائلاً صافياً في العلبة. "ستكون لديك قصة حياة ممتعة كي ترويها. ستقع الفتيات الجميلات في غرامك. نحبُّ الرجال الذين لهم ماض غامض. لقد سُجن والدي في مانيتوبا مرة. ولكنه لم يسرق أي شيء، كما أعتقد".

وضعتْ فرشاتها في العلبة وهزتها ونظرتْ إلى لوحتها التي كان الجزء الوحيد المنتهي فيها هو مركز البريد. أضافت فلورنس وهي منشغلة بالتنظيف: "من ناحية ثانية أخرى، ربما كان آرثر يرى نفسه فيك، يراك كنسخة أنقى. لن أفكر بهذه الطريقة. ولكن الرجال يفعلون هذا. من ناحية رابعة يفعل البشر أشياء ويقولون أشياء ولا يعرفون أبداً لماذا. ثم ما يفعلونه يؤثر في حياة الناس، وفيما بعد يقولون إنهم كانوا يعرفون عن الأمر ولكنهم لم يكونوا. ربما لهذا السبب أرسلتْك أمك إلى هنا. يجب ألا يثبّطك هذا. أنا أم. هذا يحدث. كم عمرك، يا عزيزي؟"

"خمسة عشر عاماً"، قلت.

"ولديك أخت هربتْ؟"

"نعم، يا سيدتي"، قلت.

"وما اسمها؟"

"بيرنير"، قلت.

"فهمتُ". وضعتْ علبة الصفيح والفرشاة فيها على الأرض، تناولتْ سكّيناً وقماشة من صندوق الرسام، وبدأت تُزيل عقد الألوان عن الباليت وتمسح الألوان على القماشة. لم أنخرط في محادثة كهذه من قبل. ربما كانت محادثات بيرنير، أينما كانت موجودة، كهذه، كما اعتقدتُ: لماذا حدث ما حدث وماذا يمكن أن تفعله حيال ذلك؟ إن تبادل الحديث مع بالغين غير والديْ المرء مثمر أكثر.

سألتها: "كيف تعرّفْتِ على السيد رملنغر؟"

أسندت فلورنس الباليت المُنظَّف على ساق منصب ثلاثي القوائم تتوضع عليه قماشتها، وعصرت رأس فرشاتها بلطف بالقماش القطني الأبيض. ركعت على الرصيف كي تؤدي تلك الأفعال. بقيت واقفاً إلى جانبها. "إذا كنت أستطيع أن أتذكر إلى ذلك الحد". ابتسمت لي. دفعت الريح قبعتها القماشية، التي من المخمل الأسود الناعم، إلى الخلف عن جبهتها. اللوحة غير المنتهية، ما تزال على المسند، ميّلتْها الريح أيضاً. "لقد... قابلتُ آرثر في بار فندق بيسبورو في ساسكاتو، سنة 1950. كان لدي حبيب هو رسام فرنسي آنذاك، ملوّن مائي. جان بول أو جان كلود. ذهبنا إلى مباراة كرة القدم، التي كنت أستمتع بها دوماً. ولكنه

https://telegram.me/maktabatbaghdad

غضب مني، لشيء قلته، ورحل. وكان آرثر هناك في البار في تلك اللحظة. كان أشقر ووسيماً ومهذّباً وأنيقاً وذكيّاً وغريب الأطوار قليلاً بالنسبة لشاب أصغر، ولكنه رجل نبيل نوعاً ما وسريّ قليلاً. كان فيه صفة درامية مثيرة للانتباه. وبدا غاضباً وضجراً ولامنتمياً. كان مشوّشاً قليلاً، وهذا هو النوع الذي يجذب النساء دوماً. كان يعيش هنا لسبب ما ولم يكن يمتلك أية فكرة ما الذي سيفعله حيال نفسه. لم يكن معي أجرة السيارة إلى "ذ هات". كان بوسعي أن أركب الباص الأحمر إلى سويفت كرينت وأستقل باصاً آخر. ولكن كانت لديه سيارة جميلة، أولدزموبايل. لم يكن يملك الفندق آنذاك. كان يعمل هناك فحسب. وهذا ما حدث. ماذا قلت؟ 1950؟ كان في العشرين أو أكثر بقليل. كنت أكبر منه بقليل، وأشدّ نحولاً. كانت أمي ما تزال تعمل في لبكي، وكان لدي ولد واحد ما يزال في المنزل، والذي هو الآن في وينيبيغ. هذه قصة حياتي في لون حيٍّ". ابتسمتْ لي مرة أخرى، وعادت إلى ترتيب مواد الرسم في صندوقها، أظافرها الحمراء تتحرك بين المحتويات. حاولتُ أن أحظى بصورة أوضح عن آرثر رملنغر مما قالته وألائمها مع الرجل الذي بالكاد التقيتُ به، ولكنني لم أستطع. لم يبد مميّزاً لي، حتى عندئذ.

"سأنتقل إلى فورت رويال في الحال"، قلت، غير راغب بألا أقول أي شيء، بما أنني طرحت سؤالاً وأجابت عليه.

قالت فلورنس، وما تزال على ركبتيها:" كان هذا اقتراحي الذكي. يعتقد آرثر أن أمورك ممتازة هنا في كوخك الهندي. إنه لمثير أن يعيش المرء لوحده هنا، رومانسي جداً، ولكن المكان غير ملائم حين يأتي

الصيادون. لا أستطيع في الحقيقة أن أعتني بك، ولكنني أستطيع أن أنتبه إليك. ستشكرني أمك".

كان هذا صحيحاً. أعتقد أن أمي عرفت أن شيئاً من هذا القبيل سيحدث، وأنّ شخصاً سينتبه إليّ ويرى أنني جدير بشيء ما ولن يتركني أضيع. لم أعتقد أن الأشخاص الذين يستحقون شيئاً ما يمكن أن يضيعوا إلى الأبد، حتى لو لم يكن بوسعك أن تشرح كل شيء عن نفسك، لماذا كنت حيث كنت، إلخ؟ قلت: "لماذا السيد رملنغر هنا؟"

وقفت فلورنس بتصلب. لم تكن طويلة جداً ولا نحيلة مثل أمي. نفضت بنطلونها البني القصير وهزّت كل جسمها وربتت على ذراعيها وعلى قمة قبعتها العريضة، كما لو أنها شعرت بالبرد. كنت أرتدي سترتي التي عليها مربعات. صار الجوّ أكثر برودة الآن. "إنها كندا". ابتسمت. "لا نذهب دائماً إلى أمكنة أخرى"، قالت، "أحياناً يصل بنا المطاف إلى مكان محدد. هذا ما حدث لآرثر، وصل به المطاف إلى هنا. أنا لا أذهب إلى أميركا، أغادر باريس، هذا ما كان يقوله الفنان العظيم دو شامب، الذي لا بد أنه سيعدّ لوحتي سخيفة جداً". نظرتُ إلى لوحتها عن مكتب البريد والشارع الفارغ الذي يقود بعيداً، المشهد الذي أمامنا. قالت: "بالرغم من ذلك أحببتُها. لا أحبها كلها". تراجعتْ خطوة إلى الخلف ونظرتْ إلى لوحتها من طرف عينيها، ثم مباشرة.

"أحبها"، قالت. اعتقدتُ أنني لو انتقلت إلى فورت رويال سأرى فلورنس أكثر، ويمكن أن تتطور أحداث الحياة بطريقة أكثر إيجابية وتشمل آرثر رملنغر، الذي تمنيت أن أتعرف عليه بشكل أفضل.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

قالت فلورنس:"أعرف أن الجو هنا غريب جداً بالنسبة لك، يا عزيزي. ولكن يجب أن تتكيّف مع الوضع. اتفقنا؟ هذا هو الشيء الذي قلتهُ لأولادي. لقد تعبوا من سماع ذلك، ولكن هذا صحيح". مشتْ نحو سيارتها الميتروبوليتان. "إذا ساعدتني في حمل أمتعتي الفنية إلى سيارتي الصغيرة، سأقلّك إلى البلدة حيث تستطيع تناول العشاء. سيعيدك تشارلي. وقتك قصير هنا الآن. تستطيع الانتقال غداً". التقطت صندوق رسمها. أنزلتُ الكانفاس عن المسند، حملتُ علبتها القصديرية ومقعدها الخشبي والمسند، وسرنا إلى سيارتها. كان هذا يومي الأخير في بارترو.

(51)

كان هناك ثلاثة أشياء مهمة في ظرف الأوراق السميك المرسل إلى السيد آ. رملنبغر من أخته ملدريد، ولكنه موجّه إليّ. الشيء الأول هو رسالة من أختي، بيرنير، مرسلة إلى منزلنا الفارغ وقد عثرتْ عليها ملدريد هناك، بعد أن فحصتْ صندوق بريدنا في الأيام التي رحلنا فيها كلُّنا. كانت هناك رسالة قصيرة في الظرف الذي من ملدريد تقول فيها:

عزيزي ديل،

ما في الظرف له أهمية تدعو إلى الأسف. سأذهب بالسيارة إلى محاكمتهما في نورث داكوتا. ولكن أنت فقط ستعرف ما حدث. يعرفون أن لا علاقة لأمك بأي شيء. ولكنها اشتركت بالأمر بأية حال.

صديقتك القديمة ملدريد ر.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

مع رسالة ملدريد نسخة كاملة من صحيفة تريبون التي تصدر في غريت فولز، عدد العاشر من أيلول\سبتمبر، وهي التي جعلت الظرف سميكاً. على الصفحة الأمامية قصة أخرى عن والدينا أنا وبيرنير. تقول هذه القصة إن "رجلاً من ألاباما"، وزوجته التي "من مواليد ولاية واشنطن"، نُقلا في السيارة في 18 أيلول\سبتمبر، من سجن مقاطعة كاسكيد إلى مقاطعة جولدن فالي، نورث داكوتا، إلى السجن في بيلش، بعد التنازل عن حقوقهما. اتُهما بارتكاب سطو مسلّح على المصرف الزراعي القومي في كريكمور في نورث داكوتا، في آب\أغسطس، بعد ذلك قبض عليهما محققون من غريت فولز في منزلهما في الجادة الأولى ساوث ويست. الأنثى، جينيفا، "نيفا" (الاسم مكتوب خطأ) راشيل بارسونز، عُيِّنَتْ كمعلّمة صف خامس من قبل مجلس إدارة مدرسة فورت شو بمونتانا. وكان الذكر، "سيدني بيفرلي بارسونز"، عاطلاً عن العمل حين قُبض عليه، وهو متقاعد من سلاح الجوّ الأميركي، حيث كان متطوعاً حاصلاً على الأوسمة في الحرب العالمية الثانية وخدم كرامي قنابل. طفلا الزوجين ـ فتى وفتاة دون اسم ـ مفقودان ومن المفترض أن يكونا مع أقرباء غير محددين، والجهود تُبذل لإعادة الحَدَثين إلى سلطات مونتانا. قُدِّم طعن بالحكم من قبل الزوج "بأنهما غير مذنبين" في جلسة محاكمتهما الأولى في مقاطعة جولدن فالي. خُصِّصَ لهما محامٍ. إن نسبة الجريمة في غريت فولز في هذا العام ـ كما قالت القصة ـ شهدتْ حتى الآن ارتفاعاً بنسبة 4% عن 1959.

كانت الصورتان المنشورتان فوق القصة هما نفس الصورتين اللتين نُشرتا في العدد الذي تركه لنا جارنا في الصباح بعد أن تم اعتقال والدينا، وجعلتهما

يبدوان كشريرين قاسيين. كان هناك أيضاً صورة أخرى ـ اهتممتُ بها ـ تظهر والدينا فيما يقودهما ضباط في البِذلة الرسمية على درجات اسمنتية منحدرة نحو شاحنة سوداء صغيرة ومغلقة على جانبها نجمة. كانا مصفّدين، والدنا يرتدي بذلة محكوم مبهرجة ومخططة وكبيرة عليه وينظر إلى الأرض حيث يخطو كي لا يسقط. أمنا ترتدي الفستان الذي بلا حزام ولا شكل له الذي كانت ترتديه حين زرتها أنا وبيرنير والذي جعلها تبدو صغيرة جدّاً. كانت تحدق مباشرة في الكاميرا، وجهها الناعم نحيل ومركز وغاضب كما لو أنها تعرف من سيرى صورتها وتريدهم أن يعرفوا أنها تكرههم (وهذا لن يشملني أنا وبيرنير).

ما أزال أحتفظ بهذه الصحيفة حتى اليوم. أعدتُ قراءة القصة ودرستُ الصور مرات لا تُحصى كي أذكرهما. ولكن وأنا جالس في كوخي المعرض للرياح والذي تفوح منه روائح قديمة، على طرف سريري إلى جانب النافذة، حين رأيت الصورتين الثانيتين وقرأت القصة التي جعلت والدينا يبدوان كأي مجرمين طوال حياتهما لن ينتبه العالم إليهما إلا على نحو ضئيل، ثم ينساهما (كما لو أن هذه القصة هي كل ما في حياتهما)، اعتراني إحساس غريب في صدري، كألم دون تألّم. نما ذلك الإحساس في داخلي كما يفعل الجوع وبقي، مما دفعني إلى الظنّ لبرهة أنه قد يبقى لوقت طويل، فقط كي يسقمَ حياتي بطريقة أخرى. بالطبع، بدا والداي كما هما، بالرغم من ثياب السجن: والدي طويل، لكنه أشدّ نحولاً، وأنيق (حلق شعره ومشّطه لهذه الرحلة)؛ أمي فاقدة للصبر، مصممة ومتوترة. لكنهما لم يبدوا مألوفين لي. لا شيء حدث كان عادياً بأية طريقة. إن أية تغيرات قد حدثت فيهما ولهما

https://telegram.me/maktabatbaghdad

تحدت أية فكرة أمتلكها عن المألوف. بديا كشخصين أعرفهما، كنت أراهما ثانية من مسافة، من خط فاصل لا يمكن اجتيازه، أكبر بكثير من الحدود التي كانت تفصلنا آنذاك. أستطيع القول إن ألفتهما الحميمية كوالدين لي، وإنسانيتهما العادية المعمّمة توحدتا، وقامت صفة بتحييد الأخرى وجعلت الاثنين غير مألوفين بشكل كامل وغير عفويين ومختلفين بالنسبة لي. وهما ينزلان بحذر على تلك الدرجات الاسمنتية نحو سيارة بلاك ماريا التي ستنقلهما إلى نورث داكوتا وإلى مستقبلهما، صارا لغزاً بالنسبة لي، لغزاً أشترك به (أنا متأكد من ذلك) مع أطفال آخرين لمجرمين. لم يخفّف هذا من حبي لهما. ولكنني اعتقدتُ أنني لن أشاهدهما أبداً مرة ثانية حين رأيتُ الصورة. وهكذا فإن ما تحوّلا إليه في مدة قصيرة من الوقت هو شخصان صارا مفقودين بشكل كامل بالنسبة لي. كل ما بديا أنهما يمتلكانه هو بعضهما، ولكنهما جُرِّدا من هذه الملكية الآن أيضاً.

كان هناك أيضاً رضاً من نوع ما في كلِّ هذا، ربما كانت معرفته مفاجئة، ولكن لا بد أنه جعل ألمي الذي لا يؤلم يتلاشى أخيراً. قلقتُ بشكل متواصل على مصير والديّ في الشهر الأخير. كنت أستيقظ قلقاً. فقدتُ وزناً، وصرتُ أكبر سناً ورصانة. حلمتُ أحياناً بأنهما جاءا كي ينقذاني في سيارتهما، مع بيرنير، ولكنهما لم يستطيعا العثور عليّ فساقا مبتعدين. بتعبير آخر، إنّ كل ما قلته هو وداعاً لطفولتي بسبب سقوطهما المريع. والآن عرفتُ مصيرهما (تقريباً)، وبهذا أستطيع أن أبدأ التعرّف على شيء ما خاص بي، والذي لم يكن شيئاً سيئاً. كنتُ في غاية السرور لأن بيرنير لم تضطر إلى رؤية صورتهما أو تقرأ القصة. وكنت آمل أن ملدريد لم ترسل إليها الأوراق. وتبيّن فيما بعد أنها لم ترسلها.

(52)

عزيزي الفتى ديل،

أرسل إليك هذه الرسالة إلى غرينت فولز رغم أنني لا أظن أنك هناك ولكنني لا أعرف مكاناً آخر أرسلها إليه. ربما سيوصلها أحد ما إليك، ربما صديقة أمنا المضحكة، ملدريد التي لا أعرف كنيتها. كلّ ما آمله هو ألا تقرأ هذه الرسالة في سجن الأحداث في مكان ما، وهذه نتيجة مريعة إذا حصل ذلك. أتساءل إن كنت قد شاهدتَ والدينا المثيرين للشفقة، وما حدث لهما في هذه الأيام. أتساءل ما الذي حدث لأسماكي؟ أحبك كثيراً، كما تعرف! بالرغم من كل شيء. ما أزال أملك نصف النقود التي أعطيتها لي. فكرتُ بك وأنت تذهب إلى زنزانتهما في السجن وحيداً بعد أن هربتُ أنا من القفص. آسفة. آسفة. آسفة.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أين أنت؟ أنا أعيش في منزل مع أشخاص آخرين، مع فتاة هاربة أيضاً وهي لطيفة، وفتى أنيق هرب من البحرية الأميركية لأنه لا يحب القتال. رجلان وامرأتان أخريان لا يتواجدون دوماً هنا ولكنهم يعتنون بنا بشكل جيد ولا يطلبون الكثير من الانتباه مقابل ذلك. هذا المنزل في شارع طويل يدعى شارع كاليفورنيا (على نحو طبيعي). بما أنني في سان فرانسيسكو. نسيت أن أقول. لم أر ذلك النذل الخائن، العنكبوت الأحمر رودي. اتفقنا أن نلتقي في سان فرنسيسكو يوم السبت في حديقة تُدعى واشنطن سكوير. لم أره هو أو أمه. إذا رأيته قل له أن يعتني بنفسه. أنا لا أحبه. يستطيع أن يكتب لي أيضاً.

من الغريب أن نكتب رسائل لبعضنا كالبالغين، أليس كذلك؟ أتمنى لو تأتي إلى هنا إذا كنت قادراً على ذلك. سأظل أصدر لك الأوامر وأقول لك ما تفعله. ولكنك تستطيع أن تلعب الشطرنج هنا. فالناس هنا في حديقة واشنطن سكوير يلعبون أيضاً. تستطيع أن تتعلم أشياء وتكون البطل. عرفتُ أن أشخصاً آخرين (من الفتيان) يمكن أن يكون لديهم مشاكل مع آبائهم أيضاً، لا تتعلق بالذهاب والسطو على مصرف ـ ليس بهذا السوء ـ وربما ينتحرون. ولكن تتعلق بأمور أخرى. هل وصلتك رسالة منهما؟ أنا لم يصلني، بشكل طبيعي. أتساءل ما رأيهما بي عند هذه النقطة. هل يعرفان أنني هربت؟ إن المكان جميل هنا وليس بارداً وتشعر كما لو أن الأمور تحدث. أحب أن أكون لوحدي. أخبرت الناس عن والديّ، ولكن لم يصدق أحد ذلك. ربما يجب أن أتوقف أنا أيضاً عن تصديق ذلك، أو عن التحدث عن ذلك. أتمنى لو أستطيع رؤيتك، بالرغم من أنني حين غادرتُ اعتقدت

أنني لن أراك ثانية أبداً. أما الآن فأعتقد أننا سنرى بعضنا. فما أزال على الأرض نفسها مثلك، لكنني سعيدة لأنني لست في غريت فولز، والتي هي بلدة تافهة وستبقى هكذا.

يوماً ما سأخبرك كيف وصلتُ إلى هنا. فعلت ذلك دون أن أُقْتَل ودون أن تتم الاستفادة مني كثيراً أو أن أجوع حتى الموت.

عليّ أن أذهب الآن.

أحبك

بيرنير بارسونز

ملاحظة: فكرت ببعض الأشياء الجديدة. تستطيع أن تكتب لي على هذا العنوان، ويجب أن تفعل. أنا سعيدة لمرور الوقت، وهكذا ليس عليك أن تستعجل.

إذا رأيتني فإنك لن تعرفني. لقد قدحتُ أذنيَّ. أحلقُ ساقيّ وتحت إبطيّ وقصّرتُ شعري المعدني وصار جميلاً. لا يهمّني نمشي القديم. نما صدري قليلاً الآن. سألني الرجل الذي ندعوه العم بوب إذا كنت يهودية. قلت بالطبع. إن بشرتي لسوء الحظ نضجت. أعمل مرتين في الأسبوع كجليسة أطفال إذا كنت تصدق هذا عني. أستطيع أن أتذكر كوني طفلة أنا نفسي. ما تزال أنت طفلاً، وهذا يقلقني. سأعطيك المال المسروق الذي أعطيتهُ لي حين أراك.

من السيء جداً أن لنا والدين كاللذين لنا، لم نكن محظوظين. لقد دُمِّرت حياتنا الآن، وبالرغم من أنه ما يزال الكثير منها متروكاً كي يمتلئ. أحياناً

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أشتاق إليهما. لقد حلمتُ حلماً واحداً قتلتُ أحداً ما فيه، لا أعرف من هو، ثم نسيتُ كل شيء عن هذا. ثم بدأت عملية القتل التي رأيتها تظهر وعرفت أنني فعلتها وعرف أشخاص آخرون أيضاً. إنها مريعة بما أنني لم أقم بها ولكن الحلم ما يزال موجوداً لدي. صرتُ أستيقظ فيما بعد شاعرةً كما لو أنني أبكي وأجري في سباق. هل ترى هذا؟ بما أننا توأمان أعتقد أننا نشعر بالشيء نفسه ونرى الأشياء نفسها (العالم؟). آمل أن هذا صحيح. أذكر إحدى قصائد أمنا. أقرأ بصوت مرتفع للفتى الهارب من البحرية. " كان لدي مرة شباب جميل، بطوليّ، خرافي، يُخَطُّ على أوراق ذهبيّة، حظ جيد كي أدخره. عبر أية جريمة - "لا أذكرها كلها الآن. آسفة. كانت فرنسية. دائماً اعتقدت أنها عنها، على ما أظن.

أحبك ثانية

بيرنير راشيل بارسونز، توأمك

(53)

كان وقتي الذي بدأ في فورت رويال، في فندق ليونارد، مختلفاً في جميع النواحي عن الأسابيع التي قضيتُها وحيداً في بارترو، ومتفوقاً عليها. وشعرت ـ بالرغم من أن هذا لم يستمر طويلاً وانتهى بكارثة ـ كأنني أعيش حياة حقّاً، بدلاً من حياة في طريق مسدود، الحياة الجزئية لشخص ضائع في سهب فارغ يصنع لنفسه مأوى نوعاً ما ولكنه يبقى ضائعاً، ولا يمكن أن يكون أي شيء صحيحاً بالنسبة له ثانية.

بدأ المزيد من هواة رياضة الصيد بالوصول، خمسة أو ستة منهم في كل مرة: كانت سياراتهم الكبيرة ذات اللوحات الأميركية الملّونة تصفُّ في الساحة الترابية في الخلف، مليئة بعدة صيدهم التي لا تتسع لها الغرف الصغيرة. ومن حجرتي الصغيرة المدفأة مركزياً في نهاية ردهة شقة رملنغر، كنت أسمع أصوات الرجال عبر ألواح الأرضية والأنابيب يتحدثون مع بعضهم

https://telegram.me/maktabatbaghdad

في نبرات خافتة في وقت متأخر جداً من الليل. كنت أستلقي صامتاً في سريري الضيّق، محاولاً أن أفهم الأشياء التي يتحدثون عنها. وبما أن معظمهم أميركيون، شعرت بأنهم يمكن أن يقولوا أشياء سأعرفها، ويساعدوني على فهم أمور قد تكون مفيدة. لم أسمع الكثير أبداً ـ ذُكرت أسماء أشخاص مثل هرمان وونفريد، وسوني؛ وشكاوى عن إهانات وإصابات عانى منها شخص أو آخر. سمعتُ شخصاً ما يضحك.

بعد أن أذهب أنا وتشارلي إلى استطلاعنا عند الغروب ونقرر أين يجب أن تُحفر الحفر الجديدة (استأجرنا شابين أوكرانيين لحفرهما بعد أن يخيم الظلام وتغطية الأكوام بقش القمح)، أرجع عادة إلى فندق ليونارد كي أتناول عشائي في مطبخ الفندق، ثم أمضي بقية المساء قرب صندوق الفونوغراف في غرفة البار المليئة بالدخان والضجيج، أو أقف خلف لاعبي الورق في غرفة القمار، أو أتحدث مع الفتيات الفلبينيات اللواتي يقدمن المشروبات في ضوء البار الظلّي ويرقصن مع هواة الصيد وأحياناً مع بعضهنّ، واللواتي غالباً (كما قلت) يختفين مع رجل أو آخر ثم لا يظهرن بقية الليلة. لم أعد أنظف الغرف، ولهذا نادراً ما شاهدتهنّ يركبن التاكسي التي تنتظرهنّ ويعدن إلى سويفت كرينت.

كان الأميركيون الذين في البار عموماً ضخاماً وصاخبين في الحديث يرتدون ثياب صيد خشنة. يضحكون ويدخنون ويشربون ويسكي الشعير والبيرة ويستمتعون. وقد ظنّ كثير منهم أن وجودهم في كندا كوميدي جداً، ونكّتوا حول احتفالهم بعيد الشكر في تشرين الأول\أكتوبر والطرق الغريبة التي يتحدث بها الكنديون (لم أتبيّن ذلك، بالرغم من أنني حاولت) وكيف

أن الكنديين يكرهون الأميركيين ولكن كلهم يتمنون لو أنهم في أميركا وأن يصبحوا أغنياء. تحدثوا عن الحملة الانتخابية "هناك في الأسفل"، كيف يتوقعون أن ينتصر نكسون على كينيدي، وكم من المهم محاربة الشيوعيين. تحدثوا عن فرق كرة القدم في الأمكنة التي جاؤوا منها. (كان بعضهم من ميسوري، وآخرون من نيفادا، ومن شيكاغو). رووا النكات عن زوجاتهم وقصصاً عن إنجازات أولادهم، ووظائفهم في الوطن، وعن أحداث لافتة حدثت في رحلات صيد أخرى وكم من الإوز والبط والحيوانات الأخرى قد قتلوا. كانوا أحياناً يتحدثون معي، إذا انتبهوا إليّ، أو إذا أرسلوني في وقت أبكر من النهار في مهمة إلى الصيدلية أو دكان الأدوات من أجل قطعة ما من العتاد يحتاجون إليها. أرادوا أن يعرفوا إن كنتُ كندياً، أو إن كنتُ "ابن السيد رملنغر"، أو ابن صياد آخر كان هنا. قلتُ لهم إنني قادم في زيارة من مونتانا، وأن والديّ مرضا، ولكنني سأعود إلى الوطن في الحال ثم إلى المدرسة، مما كان يجعلهم غالباً يصيحون ويضحكون ويربتون على ظهري ويقولون إنني "محظوظ" لأنني أغيب عن المدرسة ويجب ألا أعود أبداً بعد أن صرتُ "دليل صيد" وأعيش حياة مغامرة يحلم بها الفتيان فحسب. بدوا كأنهم يعتقدون أن كندا، بالرغم من أنها كوميدية، غامضة ورومانسية، أما المكان الذي يعيشون فيه فهو مضجرٌ وتافه، ولكنهم ما يزالون يريدون العيش فيه.

وفي نهاية مساءات كهذه، قبل الثامنة مساء، حين يعبر تشارلي، بعد أن يفحص حفر البط، ويطلب من هواة الصيد أن يذهبوا إلى النوم، بما أننا سنستيقظ في الرابعة، كنت أصعد الدرج عائداً إلى غرفتي وأستلقي في

https://telegram.me/maktabatbaghdad

السرير، وأقرأ مجلة تشيس ماستر(معلم الشطرنج)، وفيما بعد أصغي إلى الصيادين يصعدون إلى غرفهم ويضحكون ويسعلون ويقرعون الكؤوس والزجاجات ويستخدمون المرحاض ويصدرون أصواتهم الخاصة ويتثاءبون، والأبواط تضرب الأرضية إلى أن تُغلق أبوابهم ويعلو شخيرهم. عندئذ أستطيع سماع أصوات رجال مفردين في الشارع الرئيسي البارد لفورت رويال، وأبواب السيارات تُغلق، وكلباً ينبح، وعمال السكك الجانبية الذين يشغّلون عربات القمح خلف الفندق، والمكابح الهوائية للشاحنات التي تقف على الإشارات الضوئية، ثم محركاتها الكبيرة تعود إلى الحياة وتتجه نحو ألبيرتا أو رجينا، المكانين اللذين لا أعرف عنهما شيئاً. كانت نافذتي تحت الإفريز، ولافتة ليونارد الحمراء تلون الجو الأسود في غرفتي، بينما في كوخي كان هناك ضوء القمر فحسب وضوء شمعتي والسماء المليئة بالنجوم والوهج في مقطورة تشارلي. ليس لدي مذياع الآن، وهكذا كي أدفع ذهني إلى النوم كنت أجرد مغامرات اليوم والأفكار التي رافقتْها. فكرت، كالعادة، بوالديّ، وفيما إذا كان من الصعب بالنسبة لهما أن يكونا مرتاحين في السجن، وما الذي سيفكرانه حولي الآن، وكيف كنت سأتصرف لو كنت حاضراً في محاكمتهما، وماذا كنا سنقول، وفيما إذا كنت سأخبرهما عن بيرنير، وفيما إذا كنت سأقول إنني أحبهما ويسمعني الآخرون. (كنت سأقول هذا). فكرت أيضاً بأصوات الصيادين الأميركيين الأجشة وإنجازات أولادهم، زوجاتهم المنتظرات على باب المطبخ، وجميع مغامراتهم، ولا شيء من هذا كله أثار عندي الحسد أو الاستياء. ليس لديّ إنجازات حتى الآن، وليس هناك أي شخص بانتظاري، أو منزل أستطيع

العودة إليه. لدي واجباتي اليومية فقط ووجباتي وغرفتي مع بعض المقتنيات. ولكنني، وعلى نحو مفاجئ، كنت أنام مرتاحاً من الشعور بالطريقة التي أشعر بها دائماً. قالت لي ملدريد إنني يجب لا أفكر بنفسي بشكل سيء، بما أن ما حدث لم يكن خطأي. وقالت لي فلورنس إن حيواتنا تُنقل إلينا فارغة ومهمتنا هي أن نصنع سعادتنا. وأمي، التي لم تأت أبداً إلى المكان الذي أنا فيه الآن، والتي لا تعرف أي شيء عن كندا سوى منظر عبر النهر، والتي لا تعرف حتى الناس الذين سلمتني لهم، شعرتْ بأنه من الأفضل لي أن أكون هنا بدلاً من سجن للأحداث في مونتانا. وكانت تحبني دون شك.

كتبتْ بيرنير أن حياتنا تحطّمت ولكن ما يزال لديها الوقت كي تستمر. ولم أستطع أن أقرر إن كنت حقاً سعيداً. ولكنني سعيد لأنني لا أخرج مائي في دلو، ولا أستحم مستخدماً المضخة والصفيحة الساخنة ولوح صابون، ولا أنام في كوخ متعفّن بارد مفتوح على الريح دون أن أرى أي شخص أعرفه، ولا أتقاسم المرحاض مع تشارلي كوارترز. وشعرت أنه من الممكن أن أموري تتحسّن، بعد أن اعتقدتُ سابقاً لبعض الوقت أن هذا لن يحدث أبداً. وهكذا كان ممكناً التفكير ـ وكان هذا مهماً لي ـ أنّ جزءاً ما من مركّبي البشري على الأقل كان ميالاً كي يعتقد أن الحياة قد تكون أفضل.

في المرة الأولى التي التقيتُ فيها بآرثر رملنغر وتبادلتُ معه كلمة سألني نصف مازح إن كنت أحبُّ تغيير اسمي، فرفضتُ، كما سيفعل أيّ شخص، وخاصة أنا، لأنني أردتُ التمسّك بهويتي وبما أعرفه عن نفسي حين تكون تلك النقاط في نزاع. ولكن في غرفتي التي تحت الإفريز، شعرتُ بأن آرثر رملنغر ربما يعرف شيئاً لا أعرفه، وهو أنه إذا كانت مهمة أي شخص في

https://telegram.me/maktabatbaghdad

العالم هي اكتساب التجربة، فقد يكون ضرورياً، كما ظننتُ سابقاً، أن يصبح شخصاً مختلفاً، حتى ولو لم أعرف، وحتى ولو اعتقدتُ ـ وقد علمتنا أمنا هذا ـ أننا كنا دوماً نسخة مخلصة ممن كنا حين بدأنا الحياة. إن والدي، بالطبع، كان يمكن أن يقول إن هذا الشخص الأول ـ الشخص الذي بدأتُ أكونه ـ توقف عن أن يكون له معنى وبحاجة إلى أن يفسح المجال لشخص سيتصرف على نحو أفضل. ربما كان هذا ما فكّر به عن نفسه آنذاك، لكنّ الأوان قد فات بالنسبة إليه.

(54)

بعد تكيّفي مع فورت رويال، البلدة التي فيها حياة حقيقية والجديرة بالاحترام، دخلتُ أكثر في جوّ آرثر رملنغر، كما قالت فلورنس إنه سيحصل، وكنت متلهفاً جداً كي يحصل، ولا أستطيع أن أقول لماذا لم يحصل من قبل. وفي أسابيع حياتي في بارترو، بدا آرثر رملنغر شخصاً مختلفاً كلما التقيتُ به، مما أربكني بشكل طبيعي وجعلني أشعر بأنني أكثر وحدة مما كنت عليه من قبل. تارة يُظهر الودّ والحماس، كما لو أنه ينتظر أن يخبرني شيئاً ما، لكنه لا يفعل أبداً، وطوراً يكون متحفظاً ومرتبكاً كما لو أنه يريد الابتعاد عني، وفي أوقات أخرى يكون متكبّراً ويتصرف بفوقية، مرتدياً دوماً ثيابه المرتفعة الثمن، التي كانت كما ظننتُ شرقية. بالنسبة لي، كان الشخص الأكثر تناقضاً الذي سبق وقابلتهُ في حياتي. جعله هذا يبدو ساحراً، وجعلني أريده أن يحبني، بما أنني لم ألتق أبداً من قبل بأشخاص غرباء، عدا أمي، وبما أنني لم أعثر أبداً على

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أي شخص مثير من قبل، عدا بيرنير، التي كانت مثلي أكثر من أي شيء آخر.

في إحدى المرات، بعد أن انتقلتُ إلى ليونارد وصرتُ ألتقي به أكثر، وأثناء تلك الأوقات التي كنا نخرج فيها في سيارته البويك وينطلق رملنغر بسرعات رهيبة على الطريق السريع الوعر مثيراً موضوعات تشغل ذهنه (أدلاي ستيفنسون، الذي كان يمقته، تدهور حقوقنا الطبيعية على يد القوى النقابية، قواه الخاصة الذكية في الرصد، التي قال إنها كان ينبغي أن تمنحه حياة كمحام مشهور)، فجأة انطلقت البويك في سرعة تسعين تقريباً مثيرة الغبار، وكان هناك على الرصيف في الأمام ستة طيور تدرج ملّونة، تتجول دون اكتراث خارج القمح وتنقر الحصى وبذور القمح التي تُسقطها الريح من الشاحنات التي تكون في الطريق إلى الرافعة في ليدر. كنت أتوقع منه أن يضغط على الفرامل أو ينحرف فأمسكتُ جانبي مقعدي، ولكن يديّ طارتا إلى لوحة العدادات، وانضغطتْ قدماي بشدة على أرضية السيارة، وانحبست ركبتاي متوقعاً انقلاب البويك الكبيرة أو انزلاقها أو انحرافها إلى الأرض المحصودة أو طيرانها وانقلابها أية مسافة يمكن أن تدفعنا إليها سرعة تسعين ميلاً في الساعة، وبعد ذلك سنموت. ولكن آرثر لم يفكر بالفرامل، ولم يتغير أي شيء في ملامحه أيضاً. ساق مباشرة نحو طيور التدرج، التي اصطدم أحدها بالزجاج الأمامي، ودُفعَ اثنان في الجوّ، وتحوّل الرابع والخامس إلى ريش على الطريق السريع، السادس لم يُمسّ، ولم يلاحظ مرور السيارة. قال: "ترى الكثير من هذه الطيور هنا". لم ينظر في المرآة. كنت مندهشاً.

فيما بعد، حين عبرنا في بلدة ليدر الصغيرة، في ساسكاتشيوان، وصفّ السيارة ودخلنا إلى مقهى "المودرن" لشراء السندويش ثبّت عليّ آرثر عينيه الزرقاوين الصافيتين عبر الطاولة، وانفرجت شفتاه الرقيقتان عن ابتسامة

خفيفة كما لو أنه ينطق كلماته بصمت قبل أن يلفظها، ولكنه لم يبتسم. كان يرتدي سترته الجلدية البنية ذات الياقة الفرائية، التي تشبه سترة رامي القنابل التي أحضرها والدي من الحرب، غير أنّ سترة رملنغر أجمل. منديله الحريري الأخضر مشكول في ياقته، نظارته الخاصة بالقراءة تتدلى على سلسلتها إزاء صدره، شعره الأشقر ممشط بحرص، أصابعه النحيلة المشذبة والتي عليها شعر خفيف في قمتها تناور في حمل شوكته وسكينه كما لو أن طعامه له أهمية كبيرة له. لم يقدّم سبباً واضحاً لتجاهله لي في تلك الأسابيع، ولن يقدّم سبباً الآن، كما افترضت، لتوقّفه عن ذلك. كانت الأمور هكذا فحسب.

"كم مضى الآن على وجودك هنا، يا ديل؟" قال آرثر رملنغر وابتسم لي ابتسامة عريضة كما لو أنني شخص أدرك أنه يحبّه.

قلت: "خمسة أسابيع".

"وهل تستمتع بعملك؟ هل تحصل على شيء ما منه؟". تحدث بطريقته الدقيقة التي تضمنت تحريك فمه بحماس، كما لو أن هناك فاصلاً بين الكلمة والكلمة التي تليها، ويستمتع بسماع كلّ واحدة. كان صوته على نحو غير متوقع أنفياً صادراً عن رجل يبدو أنيقاً ومهذباً. هذه أمور فيه جعلته عتيق الطراز، رغم أنه ليس كبيراً في السن.

"نعم، سيدي"، قلت.

غرز شوكته في قطعة لحم الخنزير المقلية التي طلبها. "أخبرتني ملدريد أنك ربما مضطرب". قطع في حافة سميكة وصغيرة ووضع ذلك في فمه، أسنان شوكته مقلوبة بطريقة لم أر أي واحد يأكل يقوم بها أثناء الأكل. كان يساريّاً مثل بيرنير. قال: "هذا جيد بشكل كامل إذا كنت مضطرباً. أنا مضطربٌ أيضاً، وأُقاد بسهولة، أو كنت مرة هكذا. كلنا هنا مضطربون، إنه ليس وجوداً

https://telegram.me/maktabatbaghdad

طبيعياً هنا. أنا وأنت متشابهان في هذا".

"كلا، ليس هذا صحيحاً". تضايقتُ لأنّ ملدريد قالت له شيئاً كهذا، ولأنها عرفت ذلك. لم أرد أن أكون هكذا.

"حسناً". بدا مسروراً، مما ناسب ملامحه الجميلة. "لم تكن أبداً لوحدك من قبل، ومررت في تجربة لا شبيه لها".

كان هناك عدة أشخاص في المقهى، مزارعون وأبناء بلدة، وضابطا شرطة يرتديان معطفين بنيين ثقيلين عليهما أزرار نحاسية، يأكلان إلى طاولة الغداء. انتبها إلينا. كان يعرفان من هو آرثر رملنغر، كما تعرفه المرأة المورمونية في الشارع في فورت رويال. كان معروفاً جداً فحسب.

لم يكن من المفترض أن أطرح أسئلة بل أن أنتظر أن تُقال لي الأمور. ولكنني أردت أن أعرف لماذا قاد سيارته نحو طيور التدرج وقتلها. كان هذا صادماً. إن أبي لن يفعل هذا أبداً، لكنني اعتقدت أن تشارلي كوارترز سيفعل ذلك. لم يبد أن رملنغر فكّر بالأمر. "إنها ليست مهمة بسيطة أن يعيش المرء هنا"، قال، وهو يمضغ بهدوء لحمه المدهن. "لم أحب المكان أبداً. إن الكنديين معزولون وباطنيون. لا يوجد تحفيز كاف". سقطت خصلة من شعره الأشقر على جبينه فأرجعها إلى الخلف بإبهامه. "إن الكاتب تولستوي، لقد سمعتَ به" - رأيتُ اسمه على الرفّ - "دفع للفلاحين كي يأتوا إلى هنا في القرن الماضي. أعتقد أنه فعل هذا كي يتخلص منهم. كانت هناك حضارة وجيزة، أدّى الناس المسرحيات والعروض والأوبرات الخفيفة. كان هناك جمعيات للنقاش، ومغنو جهير أيرلنديون جاؤوا من تورنتو كي يغنوا". تغضّن حاجباه الشقراوان، ابتسم ونظر حوله إلى الناس الآخرين في المقهى وإلى رجلي الشرطة. صدرت تمتمة أصوات وضجيج فضيّات على الصحون بدا كأنه يحبه. "الآن" - واصل

القطع والأكل والتحدث ـ "نحن نعود إلى عصر البرونز، الذي ليس كله سيئاً".
مسح شفتيه بمحرمته الحريرية، ثبت نظرته عليّ ثانية، وأدار رأسه في زاوية كي يشير إلى أن لديه سؤالاً. رأيت أن لديه علامة ولادة أرجوانية صغيرة على عنقه في شكل ورقة. "هل تعتقد أن لديك ذهناً صافياً، يا ديل؟"

لم أفهم ما الذي عناه هذا. ربما كان الذهن الصافي نقيض القَلِق. أردت أن يكون لديّ واحد. "نعم، يا سيدي"، قلتُ. طلبتُ سندويشة هامبرغر وبدأتُ بأكلها.

هزّ رأسه وحرك لسانه خلف شفتيه، ثم تنحنح. "إن العيش هنا ينتج فنتازيا يقين عظيم". ابتسم ثانية، ولكن الابتسامة تلاشت ببطء حين نظر إليّ. "يفعل الناس أموراً جنونية بسبب اليأس حين يتلاشى يقينهم. أنت غير ميال إلى فعل هذا، على ما أظن. لستَ يائساً، هل أنت يائس؟"

"كلاِ، يا سيدي". جعلتني الكلمة أفكّر بأمي في زنزانتها في السجن مبتسمة ويائسة. كانت يائسة.

تناول آرثر رشفة من قهوته، وهو يحمل الفنجان حول حافته ـ وليس من مقبضه المعقوف قليلاً ـ نافخاً على السطح قبل أن يحتسي. "هذا محلول إذاً. اليأس غير موجود". ابتسم ثانية.

دخلتُ إلى غرف آرثر رملنغر ورأيت صوره، شاهدتُ كتبه ولوح شطرنجه ومسدسه. بدا الآن وكأنه يمكن الاقتراب منه، كأن هناك لحظة يستطيع فيها أن يكون صديقي، وكان هذا ما أردته. لم أفكر أبداً بأن أسأل شخصاً لماذا هو على الأرض حيث هو. لم يكن هذا موضوعاً في أسرتي، التي عاشت دوماً تحت سلطة شخص آخر، ولكنني أردت أن أعرف عنه أكثر مما أردت أن أعرف عن طيور التدرج، بما أنه بدا غريباً عن المكان أكثر مني بكثير، وبما أنني تكيّفتُ

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بالرغم من كل شيء. لم نكن متشابهين كثيراً، لم أعتقد ذلك.

سألته: "لماذا حدث وأتيت إلى هذا المكان بالرغم من أنك لا تحبه؟"

شخر رملنغر، أخرج محرمته من ياقته ولمس أنفه الدقيق بها. تنحنح بالطريقة نفسها مثل شقيقته ملدريد. كان هذا هو التشابه الوحيد بينهما. "حسناً، السؤال الأفضل سيكون..." استدار ونظر خارج نافذة المقهى التي إلى جانبنا إلى الشارع حيث سيارته البويك مصفوفة إلى جانب الدودج الخاصة برجلي الشرطة. كلمة مودرن مكتوبة بشكل معكوس في الداخل بدهان ذهبي. الثلج قد بدأ بالتساقط. دفعت الريح ندف الثلج الصغيرة المحتشدة عبر الشارع كالضباب ودوّرتْها في شكل قمع حول السيارات والشاحنات التي تعبر، ومصابيحها الأمامية مضاءة في الظهيرة. بدا كأن آرثر نسي ما أراد قوله، السؤال الأفضل. نقر بظفر إبهامه خاتمه الذهبي. انشغل ذهنه بفكرة أخرى.

أخرج علبة سجائر من سترته، إكسبورت إيز، النوع نفسه الذي تدخنه فلورنس. أشعل واحدة ونفخ الدخان إزاء لوح الزجاج البارد، حيث سبح إزاء خلفية الثلج. شعر بحاجة لقول شيء ما، كي يكون فاتناً وأنيقاً ويتصرف كما لو أنه مهتم بي وبسؤالي. ولكن ما الذي يمكن أن يكون أكثر خرقاً للمألوف بالنسبة له؟ فتى في الخامسة عشرة مجهول بشكل كامل بالنسبة له. ربما بدا جيداً له أنني أميركي. ربما رأى نفسه فيَّ، كما قالت فلورنس. ولكن ماذا كان هذا يهم لرجل مثله؟

الطريقة التي دخّن بها رملنغر سيجارته ـ حملها بين أصابع يده اليسرى في حرف في، عيناه تتفاديان النظر ـ جعلته يبدو أكبر سناً، وبشرته أقل نعومة. كان منظره الجانبي زاويّاً أكثر مما حين نظر إليّ مباشرة. كان عنقه الذي عليه علامة الولادة أكثر نحولاً. هيمن بعض الفراغ للحظة. زاويتا شفتيه النحيلتين رمشتا

إلى الأعلى. "أنت الابن الصغير لسارقي مصرف وخارجين عن القانون"، قال ونفخ الدخان على الزجاج بعيداً عني. "لا تريد أن تتمحور حياتك حول هذا فقط، أليس كذلك؟"

"نعم، سيدي". قالت بيرنير إنه لم يصدق أحد قصة والدينا، وأنها ستتوقف عن تصديق ذلك بنفسها.

"تريد أن تركزّ على أمور أخرى". كان يتحدث بدقة كبيرة ثانية. "أكثر، بشكل مثالي".

"نعم، سيدي"، قلت.

لعق شفتيه ورفع ذقنه كما لو أنّ شيئاً تغيّر لتوّه ثانية في تفكيره. "هل تقرأ السير الذاتية؟"

"نعم، سيدي"، قلت. بالرغم من أنني قرأت فقط المصغرات منها في موسوعة دليل العالم. آينشتاين. غاندي. المدام كوري. كتبتُ تقارير مدرسية عنهم. ولكنه كان يعني السيّر الذاتية الحقيقية، السميكة على رف كتبه، التي لم يكن من المفترض أن أعرف عنها. نابليون. يو.إس. غرانت. ماركوس أورليوس. أردتُ أن أقرأ هذه، ويوماً ما شعرتُ أنني سأقرأها.

قال رملنغر:"إن فكرتي هي أن الناس الذين يحملون الكثير في الداخل، والذين عليهم أن يحملوا الكثير في الداخل يجب أن يكونوا مهتمين.بما يفعله الجنرالات العظام. يفهمون دائماً ما هو القدر". بدا مسروراً وتحدث بثقة أكبر. "يعرفون أن الخطط تنجح بشكل نادر جداً والفشل هو القاعدة. يعرفون ماذا يعني أن تكون ضجراً بشكل لا يمكن تصوره. ويعرفون كلَّ شيء عن الموت". نظر إليَّ نظرة متفحّصة عبر الطاولة. ضاقت المسافة بين حاجبيه. أراد أن يكون هذا الجواب عن لماذا هو هنا. كان مثل أبي. كلاهما أرادني أن أكون

https://telegram.me/maktabatbaghdad

جمهوره، أن أستمع إلى الأشياء التي يحتاجون إلى التعبير عنها. لن يجيب على سؤالي الآن.

أخرج رملنغر محفظته من سترته ووضع الفئة الورقية على الطاولة كي يدفع. كانت العملة الورقية حمراء، لا تشبه العملة الورقية الأميركية. فجأة صار متلهفاً للذهاب، للعودة إلى البويك والقيادة بسرعة هائلة في السهب، صادماً أي شيء يريد صدمه.

قال وهو يقف: "لا أحب أميركا كثيراً. ولا نسمع الكثير عنها هنا". رجلان يجلسان إلى الكاونتر نظرا إليه. كان طويلاً وأشقر وأنيقاً ومميّزاً. استدار أحد رجال الشرطة أيضاً ونظر. لم ينتبه رملنغر. قال: "غريب أن يكون المرء قريباً هكذا منها. أفكر بهذا طيلة الوقت". كان يعني أميركا. "120 ميلاً. هل يبدو هذا مختلفاً جداً لك؟ المكان هنا؟"

قلت: "كلا، يا سيدي".

"حسناً. ليس الأمر وكأن هناك سباقاً يجب أن نفوز فيه؟"

"كلا، سيدي"، قلت.

لم يقل أكثر من هذا. بدت فكرة أنه سيسافر إلى الخارج غريبة. وكما كان غير عادي ولا ينتمي إلى المكان، بدا أيضاً كأنه ينتمي إليه. كانت ما تزال وجهة نظري الطفولية هي أن الناس ينتمون إلى المكان الذي أجدهم فيه. غادرنا المقهى. لم أعد إليه أبداً.

(55)

لا أستطيع أن أجعل ما حدث تالياً يبدو معقولاً أو منطقياً، على أساس ما يعتقد أي شخص أنه يعرفه عن العالم. على أي حال، كما قال آرثر رملنغر، كنتُ ابن سارقيْ مصرف وخارجَيْن عن القانون، وكانت هذه طريقته في تذكيري بأنه مهما كانت أدلة حياتك، أو من تعتقد نفسك، أو ما ترغب بأن تحصل على الفضل من أجله، أو تستمد قوتك الحيوية وكبرياءك منه، فإنّ أي شيء أيّاً كان يمكن أن يتبع أي شيء أيّاً كان.

كانت المسألة هي أن تشارلي كوارترز نقل إليّ في الحال أخباراً مهمة عن آرثر رملنغر، عن جرائم ارتكبها وهربه اليائس من السلطات، عن مزاجه العنيف الذي لفت انتباهاً قليلاً. لم يكن تشارلي يحترمه، ولم يشعر بأي ولاء كي يخفي هذه المعلومات. ولم يكن رملنغر رجلاً يثمّن الولاءات، كما قال،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أو محترماً كثيراً في العالم. إن معرفة الحقيقة عن شخص كهذا لا يمكن أن تكون أبداً شيئاً سيئاً نظراً لما يمكن أن تنقذك منه.

كانت الحالة أيضاً (لم يكن بوسعي صياغة هذه الكلمات آنذاك وعرفتها فقط في جزء غير مبدع في نفسي) هي أن آرثر رملنغر نظر إليّ كما ينظر إلى الجميع: من وجود داخليّ كان وجوده فقط ولا يحمل أي تشابه مع وجودي. فوجودي ببساطة لم يكن حقيقة بالنسبة له، بينما كان وجوده أكثر مباشرة ومدفوعاً له، وكانت صفته الرئيسية هي أنه جسد غياباً، كان واعياً له وأراد أن يملأه إلى أبعد حد. (كان هذا واضحاً من اللحظة التي اقتربتُ فيها منه). وقد واجهه مرة بعد أخرى، إلى درجة أنه صار، في وجهة نظره، المشكلة الجوهرية لكونه نفسه؛ وكان، في وجهة نظري، ما جعله مثيراً ومتناقضاً: هذا الجهد غير الناجح كي يملأ غياباً. ما أراده (استنتجتُ هذا فيما بعد، بما أنه أراد شيئاً ما وإلا فإنني لن أكون هناك) هو برهان، مني أو من قِبلي، بأنه نجح في ملء غيابه. أراد تأكيداً بأنه فعل هذا ويستحق ألا يُعاقب أكثر من أجل الأخطاء الخطيرة التي ارتكبها. وحين تجاهلني في تلك الأسابيع التي أمضيتُها في بارترو، محاولاً ألا أصدق أنني سأكون وحيداً إلى الأبد، حدث هذا لأنه لم يكن متأكداً من أن بمقدوره الاعتماد عليّ كي أمنحه ما يريده، وأنني لن أفعل هذا إلى أن أتكيّف مع ظروفي الخاصة السيئة، وأضع مآسيّ الخاصة خلفي بما يكفي كي أستمتع بمآسيه. كان يريدني أن أصبح "ابنه الخاص"، ولو للحظة فحسب، بما أنه يعرف أية أمور سيئة ستحدث له. أرادني أن أفعل ما يفعله الأبناء لآبائهم: يشهدون أنهم ممتلئون، وليسوا مجوّفين، ليسوا حالات غياب جوفاء تُصدر رنيناً، وأنه

يمكن الاعتماد عليهم في أمر ما حين لا يستطيعون تقديم أيّ شيء.

كنت في الخامسة عشرة فقط آنذاك، واعتدتُ تصديق ما يقوله لي الناس أحياناً أكثر مما أصدق ما في قلبي. لو كنتُ أكبر سناً، في السابعة عشرة، وأكثر تجربة فحسب، لو كان لدي ما هو أكثر من الأفكار الأزلية عن العالم، لربما عرفتُ أن المشاعر التي تعتريني - الانجذاب إلى رملنغر، السماح لمشاعري عن والديّ بأن تذهب تحت أمواج تفكيري - تشير إلى أمور سيئة ستحدث لي أيضاً. ولكنني كنت صغيراً جداً وبعيداً جداً خارج حدود القليل الذي كنت أعرفه. فقد شعرتُ بشيء كمثل تلك المشاعر في الوقت الذي خطط فيه والداي لسطوهما وقاما به، حين قمنا بتنظيف المنزل، وانتظرتهما أنا وبيرنير كي يعودا، وفيما بعد حين كنت مستعداً كي أصعد إلى القطار إلى سياتل وأنسى المدرسة الثانوية. ولكنني لم أربط تلك المشاعر بمشاعري الآن، أو أعرف أنها عنت الشيء نفسه. فقد كنت أفتقر إلى مهارات من أجل ذلك النوع من الربط. والسؤال هو لماذا يحدث ونترك أنفسنا ننجذب إلى أشخاص لن يجدهم أي شخص آخر جيدين أو مفيدين، بل سيجدهم خطرين ولا يمكن التنبؤ بتصرفاتهم؟ فكرت مطوّلاً، في السنوات التي أعقبت ذلك، كم كان حظي سيئاً أنني صرتُ على صلة مع آرثر رملنغر في الحال بعد أن سُجن والداي. يجب على الجميع أن يحتاطوا، أن يفهموا الإحساس الذي ينتابهم حين تكون الأمور حولهم غير جيدة، وحين يكون هناك تهديدات، يجب عليهم أن يتذكروا أن هذا الإحساس انتابهم من قبل، وأنه يعني أنهم في فسحة فارغة وأنهم وحيدون ومكشوفون ومهددون، ويجب أن يحتاطوا.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ما فعلته بالطبع، بدلاً من أن أحتاط، هو أنني سمحتُ بأن "يأخذني" آرثر رملنغر، وفلورنس لا بلانك، كما لو أن كوني مأخوذاً من قِبلهما هو النتيجة الأكثر طبيعية ومنطقية لإرسال أمي لي بعيداً في أعقاب مصيبة حظها العاثر. استمرَّ الأمر وقتاً قصيراً فقط. ولكنني دخلتُ فيه بشكل كامل، كما يمكن أن يفعل طفل، بما أنّ جزءاً مني كان ما يزال طفلاً.

(56)

في الأيام الأولى من شهر تشرين الأول\أكتوبر، بعد أن استقريت في حجرتي الصغيرة في فندق ليونارد، صرتُ أقابلُ آرثر رملنغر كثيراً، كما لو أنني صرتُ فجأة فتاه المفضّل، ولم يكن يكتفي مني. واصلتُ أداء الواجبات المطلوبة مني، واستمتعتُ بها. كنت أراقب الإوز مع تشارلي في المساء، أستيقظ في الرابعة وأنقل هواة رياضة الصيد إلى حقول القمح المظلمة، وأنصب الأشراك، وأقوم بحديث عام مع الصيادين، ثم أتخذ موقعي كي أراقب بالمنظار الإوز المتساقط.

حين لا أنشغل بهذه الواجبات، يشغل آرثر رملنغر ساعاتي. وكنت سعيداً حيال ذلك، بما أنني لم أربط بين المشاعر التي ذكرتُها من قبل ولم أحترس (أو لم أحترس بما يكفي)، واعتقدتُ أنني أحبّه ووجدتهُ ممتعاً، ورجلاً شعرتُ أنني أستطيع أن أحاكيه في وقت لاحق. وكما قالت فلورنس، كان متعلّماً

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وحسن السلوك وصاحب تجربة وأميركياً، وبدا كأنه يحبّني. وكما قلتُ، اعتقدتُ أن أمي هدفت إلى أن يتولى أمري غرباء ووافقتُ على ذلك كطريقة كي أبدأ حياتي في اتجاه جديد.

طلب مني رملنغر أن أستخدم اسمه الأول وألا أناديه "سيدي" - وكان هذا جديداً عليّ. أخذني إلى مطعم اللحوم الصيني وعلمني استخدام عيدان الأكل الصينية وشرب الشاي. لمحتُ ابنة المالك، ولكنني توقفت عن التفكير بها أو تعزية نفسي بالآمال بأننا سنصبح أصدقاء. في ليال أخرى كنت أتناول العشاء في غرفة الطعام في ليونارد مع آرثر وفلورنس. أحضرتْ أزهاراً إلى الطاولة وعرفتني على الزبائن الآخرين كما لو أنني قريبهما ولدينا تاريخ معاً وكان آرثر مسؤولاً عني. بهذا المعنى عاملني كابن، كما لو أنني أعيش فعلاً في فورت رويال، في فندق ليونارد، وكان موقفاً قابلاً للفهم بشكل كامل أن يفعل فتى هذا.

في تلك المناسبات، كان آرثر يرتدي إحدى بذلاته التي من النسيج الصوفي الخشن وحذاءه الملمّع وربطة عنق أنيقة، ويتحدث أكثر عن مهاراته المتطورة جداً كراصد، والتي اعتقد أنها تناسبه في مجالات أخرى كثيرة في الحياة باستثناء إدارة فندق في مكان منعزل. قال إنني يجب أن أوسّع مقدراتي الخاصة كي أضمن مستقبلي. أخرج بارتباك دفتراً ورقياً صغيراً بصفحات مخططة بالأزرق، يبدو أنه نوى منحه لي، ونصحني بأن أدوّن أفكاري وملاحظاتي فيه، ولكن يجب ألا أطلع أي شخص أبداً على ما أكتبه. قال إنني إذا قرأتهُ بانتظام أستطيع أن أكتشف كم يحدث في العالم، "كمية كبيرة"، حين يبدو كأن لا شيء يحدث. بهذه الطريقة، أستطيع أن أقيّم وأحسّن المجرى القائم لحياتي. وقال إنه فعل هذا بنفسه.

أثناء ذلك الوقت، أخذني في عدة رحلات في سيارته: مرة إلى سويفت كرينت كي يدفع ديناً، ومرة أخرى طول الطريق إلى ميديسن هول كي يعيد فلورنس حين تعطّلت سيارتها. وفي مرة أخرى أخذني في سيارته متقافزاً في السهب عبر طرق خلفية إلى جرف طيني فوق نهر ساسكاتشيوان، حيث كانت معدية تُدفع يدوياً تتقدم ببطء عبر التيار في الأسفل. وفيما كان جهاز التدفئة شغالاً في البويك راقبنا النهر حيث آلاف الإوزات تعوم وتبربر فوق المياه المتوهجة وتنتشر فوق الضفاف الملتفة. حلقت نوارس بيضاء في الجو المضطرب فوقها. كان شعر رملنغر الأشقر محلوقاً دائماً وممشطاً بشكل أنيق وملمّعاً ومثيراً للإعجاب، نظارته تتدلى حول عنقه، وتفوح منه رائحة مشروب الروم. في السيارة، دخن وتحدث عن هارفارد والكمال الذي مثلته. (كنت أمتلك فكرة باهتة عن هارفارد ولم أكن أعرف حتى أنها في بوسطن). تحدث أكثر عن رغبته بالسفر إلى الخارج ـ كان مهتماً أيضاً بإيرلندة وألمانيا ـ وأحياناً عن الحدود التي تمتد أربعة آلاف ميل مع أميركا، والتي دعاها "حدود الولايات". قال إن الحدود لم تكن نقطة تقسيم طبيعية أو منطقية، ولم توجد في الطبيعة، ويجب التخلص منها. وقد صُنعت بدلاً من ذلك كي تجسّد اختلافات خاطئة تم الحفاظ عليها من أجل مصالح فاسدة. كان نصيراً حذراً لأن تكون كل الأشياء في الحياة طبيعية وفطرية. اقتطف كلام روسو: "إن الله يجعل كل الأشياء خيّرة، ولكن الإنسان يتدخّل فيها ويجعلها شريرة". كان يمقتُ ما يُدعى بـ "الحكومة الاستبدادية" والكنائس وجميع الأحزاب السياسية، وخاصة الديمقراطيين، الذين كانوا المفضلين لدى أبي (ولديّ) بسبب تعاطفه مع الرئيس روزفلت، والذي دعاه رملنغر "الرجل الذي على الكرسي"، أو "الرجل المشلول"،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الذي، كما اعتقدَ، أغرى البلاد وخانها وسلّمها لليهود والنقابات. لمعت عيناه الزرقاوان حين تحدث عن هذه الموضوعات. بدتا وكأنهما تجعلانه غاضباً، ثم أكثر غضباً. كان يمقت على نحو خاص نقابات العمال، التي دعاها بـ"الأنبياء المزيفين". كانت هذه هي المسائل التي كتب مقالاته عنها في النشرات والمجلات المخزنة في العلب الكرتونية في كوخي:" العامل الحاسم، المفكرون الأحرار. وعموماً لم أكن أتحدث حين أكون معه، كنت أصغي فحسب، بما أنه كان يسأل القليل أو لا شيء عني: اسم اختي مرة، أين وُلدت، إذا كنت أخطط كي أدرس في الجامعة، وكيف تكيّفت مع وظيفتي الجديدة. لم أتحدث عن والديّ أو أقول إن أمي يهودية. أعتقد أنه سيُدعى في الولايات المتحدة اليوم راديكالياً أو من دعاة التحرّر، وسيكون معروفاً أكثر مما هو الأمر في سهوب ساسكاتشيوان.

على أي حال، لم يبد أن أيّاً من أحاديثه جعله سعيداً، كما لو أن التحدث باستمرار كان أيضاً عبئاً يتحمله. يواصل الحديث بصوته الأنفيّ وفمه يتحرك بحماس، عيناه تطرفان منحرفتين بشكل رئيسي عني، كما لو أنني غير موجود. تارة يكون متحمّساً، وطوراً غاضباً، وقد شعرت بأن هذه طريقته في تكييف نفسه مع الغياب الذي يحتوي عليه. وكل ما أردتُ قوله هو أنني تعاطفتُ معه (بالرغم من كراهيته اليهود) وأحببتُ الوقت الذي أمضيتهُ معه، بالرغم من أنني نادراً ما شاركتُ أو فهمت الكثير. كان غرائبياً، بقدر المكان الذي كنا فيه. لم أعرف أبداً أي شخص كان هكذا، تماماً كما لم أعتد أبداً على التفكير بأن أي شخص كان مثيراً.

في تلك الأيام كنت أنام مرتاحاً في سريري وأشعر بالتفاؤل لكوني في

فورت رويال. كان لدي مشاعر انتماء ضئيلة والقليل الذي أشارك به خارج واجباتي. ولكنني تزوّدتُ بإحساسي الخاص بالانتماء والحالة السوية، لأن هذا كان (وهو) شخصيتي. حلقتُ شعري ودفعت الأجرة من النقود الكندية التي كنت أجمعها من البقشيش. كنت أستحم في حوض الاستحمام المشترك واستطعت أن أرى كيف أبدو في المرآة حين أريد. وضعت قطع شطرنجي فوق خزانة ثيابي وخططت لاستراتيجيات سأستخدمها إذا حدث ولعبت أنا ورملنغر. شعرتُ كأنني في الوطن في ليورناد وعاشرتُ هواة رياضة الصيد والتجار المتنقلين وعمال منصة النفط الذين يقون بعد أن تذهب فرق الحصد. صادقتُ عرضياً فتاة فلبينية اسمها بيتي أرسينولت. مزحتْ معي وضحكتْ وأخبرتني أنني أذكّرها بأخيها الأصغر، الذي كان صغيراً مثلي. قلتُ إنّ لدي أختاً أطول تعيش في كاليفورنيا.(ثانية لم أذكر أي شيء عن والديّ). كانت تأمل أن تذهب إلى كاليفورنيا في المستقبل، وقالت إنها لهذا السبب تأتي من سويفت كرينت كي تعمل "مضيفة" في ليونارد كل ليلة. كانت شاحبة ونحيلة ولها شعر أصفر مصبوغ وتدخن السجائر وبالكاد تبتسم بسبب أسنانها. كانت إحدى الفتيات اللواتي فتحتُ عليهنّ باباً ووجدتها تجلس إلى طرف سرير مظلل، وثمة فتى نائم إلى جانبها. لم أفكر أبداً بفعل أي شيء معها، ولم يكن لدى تصور كاف عما سأفعله. كانت تجربتي الوحيدة من هذا النوع مع بيرنير ولا أذكر الكثير عنها.

اكتشفتُ أنني لم أعد أفكّر ببارترو. كنت أذهب إلى هناك بالسيارة كلّ صباح مع تشارلي كوارترز وأنظف الإوزّ على لوح التنظيف في البرد الجاف خارج البناء الحديدي، مقابل كوخي. ولكن بدا وكأنني لم أكن هناك أبداً، لم

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أسر أبداً في الشوارع أو أقف خلف صفوف أشجار الكاراغانا وأنظر نحو ما ظننتُ أنه الجنوب وتساءلتُ إن كنت سأرى والديّ مرة أخرى. إن الزمن ينغلق على الأحداث إذا كنت لا تعرف عن الزمن. وكما قلتُ، لم يغْنِ الزمن لي سوى القليل هنا.

في تلك الأيام أخبرتني فلورنس لا بلانك بأنها تفكر بخطة حول مستقبلي. حدث هذا ونحن جالسان إلى طاولة غرفة الغداء، ذات الغطاء الكتاني الأبيض والمناديل المطوية والآنية التي أحضرتْها من ميديسين هات وزوّدَتْها بالأزهار كي تبتكر، كما قالت، وَهْمَ حضارة في السهوب، ولأنه كان عيد الشكر، أول عيد لي في كندا. قالت لو أنني كنتُ في المدرسة، كما هو مفترض، فإن هذا سيكون يوم عطلتي. بالطبع، لم أشعر وكأنه عيد شكر، بما أنه كان يوم الاثنين. ولكن فلورنس طبخت الديك الرومي وحضّرت الصلصة وهرستْ البطاطا وأعدت فطيرة القرع وأحضرتْ كل هذا في سيارتها، وأعلنتْ أننا يجب أن نحتفل بعطلتنا المشتركة معاً.

كان هناك أشخاص يتناولون الغداء آنذاك: بائع وشخصان مسافران شرقاً. عمال منصة النفط والسكك الحديدية وهواة الصيد يأكلون جميعاً في البار. جلس رملنغر وحدق بعيداً إلى اللوحة الضخمة على جدار غرفة الطعام، ضوء علويّ صغير مشعّ يشير إلى الأسفل نحوها. أظهرت اللوحة دباً بنياً يرتدي طربوشاً أحمر، يرقص داخل دائرة من الرجال الذين يصيحون. أعين الرجال وحشية ومثارة، أفواههم فاغرة وحمراء، يصخبون، أذرعهم القصيرة في الجو.

أخبرتني فلورنس، وخداها الحمراوان متألقان، أنها كانت تفكر بي

وبمصيبتي. وهي ترى أنني يجب أن أبقى في فورت رويال تحت رعاية آرثر أثناء الخريف، يجب أن أتعلم كيف أعتني بنفسي بشكل أفضل وأحظى بالقوة، وأحلق شعري بشكل متكرر، ثم، قبل عيد الميلاد يجب أن أستقل الباص إلى وينيبيغ وألتحق بابنها رونالد الذي لديه زوجة شابة مات ابنها من شلل الأطفال. كانت قد حدّثتْهُ عني، ووافق على ذلك. سيسجّلني في ثانوية القديس بولس الكاثوليكية، حيث لن تُطرح إلا بضعة أسئلة لأن زوجته تُعلّم هناك. قالت، وهي تبتسم لي، وعيناها نصف مغمضتين ومتألقتين، إذا طُرحتْ أسئلة سيقولون إنني لاجئ تخلى عنه والداه الأميركيان وسُجنا، وأنني قمتُ برحلة شجاعة إلى كندا لوحدي، وأن كنديين مسؤولين يرعونني الآن لأنه ما من أقرباء آخرين لي. قالت إن المسؤولين الكنديين لن يعيدوني أبداً إلى مونتانا؛ ومونتانا لن تكون أبداً أكثر حكمة أو تهتم. على أي حال ـ قالت ـ ستمرُّ ثلاث سنوات فقط وبعدها سأصبح في الثامنة عشرة، وستمضي هذه السنوات بسرعة، وعندها أستطيع أن أختار حياة لنفسي مثل أي شخص آخر. ويجب أن نكون ممتنين لهذا. لم تبد أبداً للحظة واحدة كأنها تفكر بأنني سأستقر مع أيّ من والديّ ثانية. وقد خطر في ذهني أنه بعد ثلاث سنوات، إذا أُفرج عن أيّ من والديّ، أستطيع العثور عليهما، وسيريدونني بالتأكيد أن أعود. جعلتُ كل هذا يبدو عادياً الآن، ولكنه كان غريباً جداً أن يتم التحدث عن مستقبلي بهذه الطريقة، وأن أكون في هذا الموقف اليائس في الحياة.

نقل رملنغر عينيه الزرقاوين إليّ فيما كانت فلورنس تواصل شرح خطتها. كان يرتدي سترة سوداء أنيقة ولفحة عريضة أرجوانية، وكما دائماً بدا استثنائياً وسط الجالسين الآخرين في الغرفة في فندقه. طرفت عيناه وابتسم.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

شفتاه النحيلتان توترتا، وظهر الانبعاج في ذقنه. عاود النظر إلى لوحة الدب والرجال الصاخبين، كما لو أن شيئاً قِيسَ فيَّ، وصُمِّم على شيء، وبعد ذلك عاد إلى التفكير بالنظام الطبيعي للكون، وكيف دمّر الرجال كلّ شيء أبدعه الله بإتقان. لم يعجبني أن يُنظر إليّ بهذه الطريقة. لم أعرف ما الذي تمّ قياسه، أو كم يمكن أن يكون القياس حقيقياً. كان هذا جزءاً من الإحساس الذي انتابني، ولكنني لا أملك كلمات للتعبير عنه، بأن شيئاً سيئاً يقترب مني. قلتُ إنني ظننتُ أنّ آرثر أراد شيئاً ما مني وإلا فلن أكون هنا أكثر من مجرد جمهور أو شاهد. ما يمكن أنه يريده أيضاً هو أن ينقل إليّ شعوراً سيئاً، أو أن يبرهن، بوجودي، أنه كان مخطئاً لأنه شعر به في المقام الأول.

كانت فلورنس على أي حال سعيدة في مواصلة مناقشة مستقبلي وكنت سعيداً بالتفكير بالحصول على واحد. قالت إنني يجب أن أفكر بأن أصبح كندياً، وستُقدم لي كتاباً عن الموضوع. وهذا سيحلّ كل شيء. أضافت أنّ كندا أفضل من أميركا، والجميع يعرفون هذا، باستثناء الأميركيين. كندا تملك كل ما تملكه أميركا، ولكن لم يغضب أحد منها. يمكن أن أكون سويّاً في كندا، وستحب كندا أن تستقبلني. قالت إن آرثر صار كندياً قبل سنوات. (هزّ رأسه، لمس شعره الأشقر بأصابعه وبقي ينظر بعيداً). لم أعرف هذا، بما أن تشارلي قال إنه أميركي من ميشيغان، مثلي. ولكن هذا جعلني أشعر على الفور بشكل مختلف حياله. ليس بشكل سيء بل مختلف، كما لو أن جزءاً من غرابته انكشف وجعله أقل إثارة مما كان عليه حين اعتقدتُ أنه أميركي. بطريقة ما بدا أقل أهمية. إن الفرق الوحيد الحقيقي بين مكان وآخر على الأرض في النهاية هو كيف تفكر بالناس، والفرق الذي يحدثه لك التفكير بتلك الطريقة.

(57)

كتبتُ رسالة إلى أختي بيرنير في تلك الأيام. كتبتها وأنا جالس على سريري في غرفتي الصغيرة ذات النافذة المربعة التي تواجه البلدة، مستخدماً ورقة رقيقة اشتريتها من الصيدلية، وقلم رصاص ميكانيكي عثرتُ عليه في إحدى علب الكرتون في بارترو. أردتُ أن يكون أمراً عادياً أنني أنا وبيرنير نتبادل الرسائل عبر المسافة الكبيرة التي تفصلنا، وأن المكان الذي كنتُ فيه في ذلك الوقت لم يكن غير عادي وفق المقياس الكبير للأشياء.

أخبرتها في رسالتي أنني في كندا، ورغم أن هذا البلد يمكن أن يبدو بعيداً مسافة طويلة عن كل شيء فإنه لم يكن. فقد أُحضرتُ إليه في السيارة في وقت استغرق يوماً من غريت فولز. قلتُ لها إنني أفكر بأن أصبح كندياً، الأمر الذي لن يشكل تغييراً كبيراً. سأذهب في القريب العاجل إلى مدرسة في وينيبيغ وأبدأ حياة جديدة رائعة. قلتُ إن الناس الذين التقيتُ بهم

https://telegram.me/maktabatbaghdad

مهمون. (بدتْ هذه الكلمة غريبة جداً في خط يدي). لقد منحوني وظيفة فيها واجبات حقيقية ومظاهر فريدة أحببتها وتكيّفت معها جيداً. تعلمت بعض الأمور وأحببتُ هذا. لم أذكر والدينا، كما لو أنني لم أكن أعرف أي شيء عنهما، ونستطيع أن نتبادل الرسائل معاً دون إدخالهما فيها. لم أذكر أيضاً آرثر رملنغر أو فلورنس لا بلانك لأنني لم أعرف كيف أصفهما أو مواقفهما في الحياة. لم أقل إنني لم أعرف أين وينيبيغ. لم أذكر أن فلورنس أشارت إلى حياتي الحالية بكلمة "مصيبة". ولم أذكر المشاعر الغريبة التي انتابتني. كنت واعياً جزئياً فحسب لها وفكرت أنها ستقلقها. أخبرتُها بأنني أحبّها وأني سعيد لسعادتها، وأن تنقل سلامي إلى رودي إذا رأته في الحديقة. سأزورها إلى سان فرانسيسكو وأكون أخاها ثانية في المرة الأولى التي تسنح لي فيها الفرصة وأستطيع أن أستقل الباص من وينيبيغ. وقّعتُ الرسالة وطويتها في ظرفها الأزرق، وأعددتُ خطة للذهاب إلى مركز البريد وإرسالها إلى العنوان الذي لدي في سان فرانسيسكو. وضعتُ الرسالة على ظهر خزانة الثياب، وقفتُ ونظرتُ من النافذة إلى سقوف البلدة والأرض التي تمتد كمحيط إلى الأفق. فكرت كم بيرنير بعيدة جداً، وكيف أنني لم أكتب أي شيء له أية أهمية، أو أي شيء شخصي، أو عنها. ستواجه صعوبة في أن تعرف عني مما قلته، لأن موقفي لم يكن سهل الوصف ويمكن أن يقلق أي شخص. لم يكن كما لو أنني في المنزل في الوطن وأذهب إلى المدرسة كل يوم، أو أستقل القطار إلى سياتل. وفكرت بأنه سيكون من الأفضل أن أكتب من وينيبيغ حين يُحلّ كلّ شيء، وأكون في مدرسة القديس بولس ويكون هناك المزيد كي أخبرها عنه والذي يمكن أن تهتم به وتكون قادرة

على فهمه.

أخذتُ رسالتها ووضعتُها في حقيبتي الصغيرة، التي كنت ما أزال أحتفظ بها من الصباح الذي كنا سنغادر فيه جميعاً: بيرنير، أمنا، وأنا. اعتقدت أنني سأقرأها فيما بعد، كمثل التعليقات والملاحظات التي طلب مني رملنغر أن أدوّنها في دفتري الصغير المخطط بالأزرق، كي أعرف كيف هي الحياة حين عشتها. لم أكتب أبداً في ذلك الدفتر، وحين غادرتُ فورت رويال تركته هناك.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

(58)

أخبرني تشارلي كوارترز أنّ القصة الكاملة لآرثر رملنغر ستكون أغرب قصة سبق أن سمعتُ بها، ولكنني يجب أن أسمعها لأن فتياناً في عمري بحاجة لسماع الحقيقة الخام، بخلاف ما يفضله معظم الناس، وهذا سيساعدني على وضع حدود صارمة لنفسي. إن الحدود الجيدة ستبقيني حيث أنتمي في العالم. قال إنه عرف الحقيقة، لكنه فشل في أن يضع حدوداً صارمة. إن المكان الذي هو فيه الآن، حيث يعيش وحيداً في مقطورة قذرة في بارترو، هو نتيجة لذلك. كان تشارلي يتحدث دوماً بتلك الطريقة، مشيراً إلى أحداث غامضة تتعلق به يمتنع عن ذكرها بالتفصيل، ولكنها مخجلة وبائسة إذا كان المرء يريد أن يصبح مفيداً ومعافى وهذا ما أردته. كان تشارلي سيئ السمعة وعنيفاً وربما منحرفاً، ولم أكن أحبه، كما قلتُ من قبل، ولكنه ذكي. تباهى أمامي أنه حاول الدخول إلى الجامعة لكنه رُفض كونه

خلاسياً، ولأنه ذكي جداً. تساءلتُ إن كان مرة واحدة على الأقل فتى مثلي في الداخل، وإن كان شيء من ذلك الفتى الجيد قد بقي فيه في مكان ما، كما في رغبته بأن يعلمني عن الحدود والحقيقة الخام.

كنا ننظف الإوز الذي اصطيد في ذلك الصباح، الكومة المريشة الكبيرة منه مرمية على الأرض إلى جانب دعامة مستطيلة لقضبان سكة الحديد استخدمناها كلوح تنظيف، تماماً داخل باب البناء المعدني المقوس المفتوح على مصراعيه. كانت بعض الإوزات ما تزال تحرك سيقانها وبعضها الآخر يفتح مناقيره الدموية ويحركها، فيما كنا نستخدم الفأس الصغيرة لقطع رؤوسها وأجزائها الأخرى قبل فتحها بالسكاكين لنزع أحشائها، ثم دفعها في آلة النتف التي صنعها تشارلي لإزالة ريشها. كان هذا هو اليوم الذي دخلتُ فيه إلى مقطورته للمرة الأولى والوحيدة.

داخل المقطورة، لم يكن كأي شيء سبق أن رأيته. كان، إلى حد ما، مثل كوخي ضيّقاً وبدون هواء وتفوح منه رائحة عفونة. ولكنه يحتوي على التراكم الكامل لحياة تشارلي، بقدر ما استطعت أن أميّز. كانت غرفة واحدة مستطيلة مدفأة جيداً، نوافذها مغطاة بالكرتون ومختومة بشريط تمويهي. مدفأة دلمار حديدية سوداء مغطاة بالزفت تتوضع في الزاوية، أنبوب مدخنتها طالع من السقف المنخفض. أريكة زرقاء قذرة تتكوم عليها الشراشف تشكّل سريره. ثمة مزيج مريع من الكراسي والحقائب الكرتونية المحطمة، وحزم من جلود الحيوانات المجففة التي يحفظها تشارلي كي يبيعها، إضافة إلى عصي الغولف الخاصة به وغيتار وتلفاز صغير غير موصول بالكهرباء وعدد من علب بذور الطيور المفتوحة والمسفوحة التي نهبتها الجرذان وعلب طعام

https://telegram.me/maktabatbaghdad

مكومة في زاوية، نواة الذرة والسمك المعلب وشاي "كو أوب" وسجق فيينا وعلب بسكويت مالح وصحون وآنية متسخة وصندوق مساحيق التجميل الخاصة بتشارلي ومرآة صغيرة مؤطرة والمزيد من مدوّماته الفضيّة، محركاتها مكسورة وتحتاج إلى التصليح، صندوق الحطب ومروحة طاولة وعلبة مخلل بسائل أصفر فيها وزوج من قفازات الملاكمة معلقة على الحائط. ثمة براد قديم وصندوق منتصب فيه أدراج مسحوبة إلى الخارج ومنزوع القشر، عليه كتب قرأها تشارلي. أحدها تمرد النهر الأحمر. سي سي إف والخلاسيون، وحياة لويس رييل كانا كتابين آخرين. هناك حزم من الورق الفالت مكتوب عليه ما اعتقدتُ أنها قصائد تشارلي، التي لم أنظر إليها بتمعّن. ثمة صور مؤطرة على الحائط لهتلر وستالين وروكي مارسيانو ورجل يسير على حبل مشدود يحمل عموداً طويلاً، عالياً فوق نهر. إلينور روزفلت. بينتو موسوليني وفكه ناتئ، وإلى جانب هذا، موسوليني معلق إلى منصب مصباح وهو مقلوب، قميصه مرفوع عن كرشه، وصديقته معلقة إلى جانبه. هناك صورة لتشارلي حين كان فتى، عاري الصدر، مقوس الساقين، متوضع لرمي الرمح، وصورة لامرأة كبيرة في السن تنظر بحدة في الكاميرا، ثم صورة أخرى لتشارلي في البذلة العسكرية له شارب كهتلر، وذراعه مرفوع في تحية نازية. لم أعرف كل تلك الأمور آنذاك. غير أنني كنت أعرف موسوليني لأنني رأيت صوراً له في جرائد قديمة، حياً وميتاً، احتفظ بها أبي من الحرب.

كان الهدف المعلن لدخولي إلى المقطورة هو إحضار حجر المسن لتشارلي كي يستطيع أن يقطع أعناق الإوزات وأقدامها وأجنحتها بسهولة أكبر. ولكنني اعتقدت أنه يريدني أن أرى كيف تبدو الحياة بدون وضع حدود.

فاحت من الداخل رائحة بيض متعفّن مختلط مع شيء حلو وكيميائي له علاقة بالطعام، وهو مذيبات الدباغة وتلك الخاصة به أيضاً. كانت الرائحة أسوأ في الداخل لأن الجو حارّ ومغلق. الرائحة مرئية ومحسوسة كجدار وباب المقطورة مفتوح والريح الباردة دخلت في الدقيقتين اللتين أمضيتهما في الداخل. أردت أن أبتعد عنها. أحياناً أتلقى نفخة منها من تشارلي حين أقترب منه أو حين يهب الهواء في جهتي. بدا كأنها تأتي من ثيابه الدهنية وشعره المصبوغ. كانت سمة ستعتقد أنه لن يعتاد عليها أحد وأنني سأحصّن نفسي ضدها. وبالرغم من أنها سمة اعتدت عليها، ففي كل مرة كنت ألتقي تشارلي كنت واعياً لنفسي وأنا أشم رائحته، وسأظل أشمها، دون أن يُنتبه إليّ، كما لو أن هناك جاذبية فيها. أثارت في داخلي، ولفترة بعد ذلك، الحاجة إلى شم الشيء الذي يجب ألا أشمّه، وتذوق الطعم الذي أعرف أنه سيقرفني، وإلى فتح عيني على أشياء سيشيح آخرون بصرهم عنها، بتعبير آخر، أن أنسى الحدود. إن هذه الجاذبيات، بالطبع، تتوقّف حين تكبر في السنّ وبعد أن تفعل فعلها بما يكفي. ولكنها جزء من النموّ، كمثل معرفة أن لسان لهب سيحرقك، أو أن المياه يمكن أن تكون عميقة جداً، أو أنك يمكن أن تسقط من مكان مرتفع ولا تعيش كي تتحدث عن الأمر.

XXX

كان تشارلي يحتفظ برأي سيء عن آرثر رملنغر، ولكنه احتفظ به دوماً لنفسه. لكنه أخبرني أن رملنغر شخص خطير ومخادع ولا يرحم وفوضوي ولا يشعر بالخجل، يجب أن يحترس شخص مثلي منه ويخشاه لأنه ذكي جداً ويمكن أن يكون مُطْرياً ويقود المرء إلى التهلكة، وقد لمّح تشارلي أن هذا حدث

https://telegram.me/maktabatbaghdad

له، لكنه كالعادة لم يحدد كيف. كنا نعمل على جثث الإوزات. أزاح بصره عن دعامة سكة الحديد حيث كنا نقوم بالتنظيف ونظر إلى بلدة بارترو الفارغة، كما لو أن شيئاً خطر له حولها. سحبَ غيمةً من دخان السيجارة إلى رئتيه، احتفظ بها، ثم طردها في تيار عبر منخريه الكبيرين. قال إن "أشخاصاً" في طريقهم إلى هنا الآن. "يعرف عنهم. إنه يحاول أن يضع استراتيجية كي ينقذ نفسه". عنى رملنغر. قال إنه كان ينبغي عليّ أن ألاحظ تصرفه الأغرب من المعتاد. هذا ما يجب أن أكون حذراً منه وألا أقترب منه، بما أن سلوكه الغريب يمكن أن يؤدي إلى أحداث خطيرة يجب أن أبتعد عنها، وأن أضع حدوداً ضدها. قال إن هذا كان كله سخيفاً. ولكن هكذا تحصل الأمور السيئة جداً في العالم. (كنت أعرف في السابق، بالطبع، من حياتي الخاصة - سواء كنت أستطيع قول ذلك أم لا - أن ما لا يُصدق يصبح في الغالب قابلاً للتصديق كشروق الشمس).

قال تشارلي إنه حين كان رملنغر طالباً جامعياً، اعتنق وجهات نظر غير شعبية، أعرف عن بعضها. مقت الحكومة، وكره الأحزاب السياسية، كره نقابات العمال والكنيسة الكاثوليكية، وأشياء أخرى. لم يحبه زملاؤه في الصف، وكتب نشرات لمجلات انعزالية، ومعارضة للحرب (كما قال البعض)، ومؤيدة لألمانيا جعلت أساتذته يشتبهون به ويتمنون أن يعود إلى منزله في ميشيغان. طُرِد والده من عمله كمشغل آلات، حين كان آرثر صغيراً، بشكل غير عادل، ولم تحمِهِ النقابة نظراً لمعتقداته حول المجيء الثاني الوشيك للمسيح والرافضة للعنف. سبّبَ هذا أزمة عائلية مريعة تركت أثرها في آرثر الصغير، مما أدى إلى تبنيه لأفكار راديكالية بينما كان ما يزال في الثانوية. لم

يشاطره أفراد عائلته وجهات نظره. وضعوا حظهم السيء خلفهم وانتقلوا إلى الريف وباشروا زراعة الشوندر السكري. لم يفهموا ابنهم ـ كان يُدعى آرتي ـ الوسيم والمثقّف والذكي والمقدر عليه أن ينجح في حياته كمحام أو من المحتمل كسياسي، والذي دخل هارفارد بسبب ذكائه. (قال تشارلي كلمة هارفارد كما لو أنه يعرفها جيداً وكان هناك. قال إن رملنغر روى له كل هذا منذ أعوام).

في كل صيف كان آرثر يعود إلى المنزل من الجامعة ويعثر على عمل في مصنع السيارات في ديترويت، حيث عاش في شقة بائسة مدخراً النقود كي يدفع مصاريفه حين تبدأ السنة الدراسية مرة أخرى. كانت عائلته لا تراه إلا قليلاً أثناء هذه الأوقات، واعتقدوا أن رغبته بالعمل من أجل فواتير جامعته علامة واعدة لمستقبله.

ولكن أثناء صيف سنته الثالثة، في 1943، حين كان يعمل في مصنع الشيفروليه الذي يدفع راتباً جيداً، اختلف آرثر مع ممثل نقابة كان يشرف على العمل ويتأكد من تسجيل الموظفين بما فيه الذين يعملون صيفاً. تبادل الاثنان كلمات حامية عن آرثر لأنه لا ينضم إلى النقابة. قال آرثر إن ممثل النقابة عرف أنه كاتب الأوراق الدعائية العنيفة المضادة للنقابات. (كانت النقابات تنتبه إلى أمور كهذه ولها صلات مع هارفارد). كانت نتيجة الخلاف أن آرثر طُردَ وقيل له إنه يجب ألا يتوقع أبداً العثور على العمل في المدينة ويجب أن يرحل بعيداً.

أدى هذا أيضاً إلى مصيبة أخرى، بما أن فقدان العمل يعني أن آرثر لن يؤمّن النقود كي يدفع تكاليف دراسته الجامعية. ولم يكن لدى أسرته أي شيء كي تعطيه له. كان مفلساً وغير قادر على دفع أجرة المنزل ويواجه النهاية المحتملة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

لتطلعاته الجامعية. ذهب إلى المسؤولين في هارفارد وتوسل إليهم من أجل منحة. ولكن طلبه رُفضَ لأن آراءه كانت معروفة ومرفوضة. أُغلقت أمامه أبواب هارفارد، كما قال لتشارلي، ورُمي ما تبقى من حياة فترة شبابه في غياهب الفوضى.

حدث لديه انقلاب في هذه النقطة. "انهيار ذهني"، كما دعاه آرثر. صار قانطاً ومغترباً عن أسرته، كان أحياناً يتحدث مع أخته، ملدريد فقط، التي لم تسأله أية أسئلة، بما فيه كيف يعيل نفسه. يائساً، بدأ آرثر العثور على العزاء في مكان آخر ولدى أشخاص آخرين. كان أولئك الأشخاص الآخرون في شيكاغو وشمال نيويورك، يشاطرونه آنذاك آراءه ووجهات نظره الانعزالية المضادة للكنيسة والنقابات والأكثر عنفاً. عدّوا أنفسهم داعمين لفلسفة حق العمل وانخرطوا في مواجهات مع النقابات لعقود كثيرة. انتقل آرثر من ديترويت وذهب كي يعيش مع عائلة في إلميرا، نيويورك، وعمل في مزرعة ألبانهم بينما كان يستعيد استقراره الذهني. كان المزارعون عنيفين وقد ألهمتهم الأحقاد والاستياءات من مظالم ارتُكبت ضدهم من النقابات والحكومة. تأثر آرثر بأفكارهم بشكل عميق. وبعد وقت ليس بطويل صار يشاطرهم استياءهم وحاجتهم للانتقام، وتعلّم جميع الخطط الخطيرة التآمرية، وخاصة كيف يزرع قنبلة في قاعة نقابة في ديترويت، قنبلة لا تهدف إلى إيذاء أحد ولكن لتؤكد فلسفة حق العمل على أنها هي الصحيحة.

إن آرثر، الذي كان ما يزال في حالة ذهنية مثارة بسبب عدم السماح له بالعودة إلى الجامعة، أقنع نفسه بأنه يجب أن يزرع القنبلة، في علبة قمامة خلف بناء النقابة. أخبر تشارلي أنه كان يجب أن يدخل مستشفى للأمراض العقلية

وكان سيدخله لو أنّ عائلته على صلة به. كانت أخته ممرضة. ولكن هذا ما حدث فقط.

بدلاً من ذلك، قاد آرثر سيارة استعارها من إلميرا، واضعاً الديناميت في الصندوق. أوصل القنبلة إلى وجهتها المحددة، وضع مؤقتاً بسيطاً، وساق مبتعداً. قبل أن تنفجر القنبلة، في العاشرة مساء، عاد نائب رئيس النقابة السيد فنسنت إلى قاعة النقابة كي يحضر قبعته، التي لم يضعها في مكانها. وفيما كان يخرج من الباب الخلفي، انفجرت قنبلة آرثر، وتعرّض السيد فنسنت لحروق خطيرة، ومات بعد أسبوع.

بدأ على الفور بحث مكثّف عن المفجّر الذي لم يره أحد، ولكن الذي كان من المفترض عضواً في الجماعات العنيفة التي فعلت ما بوسعها لخنق النقابات في أميركا.

شعر آرثر بالخزي الشديد حين علم أنه قتل شخصاً، الأمر الذي لم ينو فعله أبداً، وشعر بالرعب أيضاً من أن يُقبض عليه ويرمى في السجن. اعتُقد أن المجرم من ديترويت، ولكن لم يشتبه أحد بآرثر رملنغر الذي كان في الثالثة والعشرين من عمره. كان اسمه معروفاً لدى الشرطة التي تدعم النقابات، ولكنه لم يُذكر أبداً. وفي الوقت الذي كان يجري فيه البحث عن زارع القنبلة، كان آرثر قد عاد إلى المزرعة في إلميرا ـ وإذا لم يكن قد نبذ أفكاره علناً (لم يفعل هذا بشكل كامل أبداً)، فقد عاد إلى رشده بما يكفي كي يعرف أنه الآن مجرم مُطارد أفسدت حياته.

كانت خياراته إما أن يسلّم نفسه ويتحمّل مسؤولية ما فعله، ويذهب إلى السجن؛ وإما، كما قال لتشارلي، أن يرحل بعيداً قدر استطاعته. بما أنه لم يُتهم

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بالجريمة ولم يكن مُشتبهاً به، وأن يحاول تصديق أن لا أحد سيعثر عليه وأنه يستطيع أن ينجو من جريمته مع مرور الزمن.

نظر إليّ تشارلي وأنا إلى جانبه كي يرى إن كنتُ أصغي. كنت قد توقفت عن تنظيف الإوزّ كي أنتبه أكثر، ذلك أن القصة صدمتني. وضع تشارلي سيجارة جديدة بين شفتيه. الدم في بياض عينه اليسرى تبدل وبدا كأنه يسبح ويلمع. لم يكن يضع أحمر شفاه، الأمر الذي لم يكن يفعله أثناء تواجد هواة رياضة الصيد، ولكن خديه اللذين عليهما ندوب احتويا على دليل على الروج الذي تلطخ في حفر الإوز، وكانت عيناه لا يزال حولهما كحل. كان يرتدي مئزر لحام كهربائي أسود على مقدمته دم، وكان هناك دم على ذراعيه ويديه، وفاحت منه رائحة أحشاء الإوز. إن منظره سيكون صادماً لأي شخص. كانت الريح ترفع بقوة ندف ثلج حادة حولنا في المكان الذي نعمل فيه عند باب المنزل الحديدي. كانت الندف تنحلّ في شعر تشارلي، جاعلة صبغة شعره السوداء تجري. شعرتُ بحكة ووخز في يديّ وخديّ. وكان الريش من عملية التنظيف التي نقوم بها يهب إلى داخل الأعشاب المتصلبة وحول مدوّمات تشارلي. وصل كلب السيدة غدينز الأبيض كي يمد خطمه في صندوق الأحشاء ويلعق جانبيه. كنا نحرق محتوياته في برميل النفط كل يوم، ثم كان تشارلي يبعثر الأقدام والأجنحة والرؤوس للذئاب والعقاعق التي يحبُّ أن يطلق عليها النار.

رفع تشارلي حاجبيه الكثّين وجبهته السمينة إلى الأعلى: "تستطيع أن تسمعه يتحدث هكذا، أليس كذلك؟ أنت تعرف؟ انهياره الذهني. شعوره بالخزي. تطلعاته الجامعية. وفوق كل شيء وفوق الجميع؟" التوت شفتا تشارلي باشمئزاز. "بالطبع هذا حين هرب قادماً إلى هنا. 1945. تماماً حين انتهت

الحرب. ظنّ، أو ظنّ الأشخاص الذين اعتنوا به وما يزالون يعتنون، أن هذا المكان لا يمكن الوصول إليه على الأرض. وقد اكتشفوا أن هذا غير دقيق". بزغت أسنان تشارلي الأمامية غير مغطاة خلف شفتيه. حرك سيجارته في فمه على رأس لسانه العريض، كما لو أن هذا الجزء أمتعه. "عليه أن يواجه مصيره الآن، فالمصير الآخر كان فقط مصيره الأول. وبالطبع، إنه يشعر برعب شديد". نظر تشارلي إلى جسم إوزة متصلّب على دعامة سكة الحديد أمامه. رفع فأسه الصغيرة المشحوذة من جديد وقطع عنق الإوزة، ثم رمى الرأس على الأرض للكلب.

بذل عناصر من متآمري حركة الحق بالعمل جهوداً للعثور على مكان لآرثر كي يختبئ فيه. لم يكن هناك أحد يبحث عنه، ولكن آرثر ظنّ أنهم سيلاحقونه في النهاية ولا يستطيع أن يواجه فرصة أن يُعثر عليه. وشعر أصحاب النفوذ أيضاً بأنه لن يتماسك جيداً، وأنه غير منظّم ويشكل تهديداً، ويمكن أن يوقع الجميع. أقرّ آرثر أنه يستغرب لماذا لم يقتله أحد ما آنذاك ويدفنه في المزرعة في إلميرا. "وهذا ما كنت سأفعله ولن يفكر به أحد"، قال تشارلي.

أخبره آرثر أنّ مالك فندق ليونارد، وهو رجل قصير وعنيف ومنحرف يدعى هيرشيل بوكس، والذي عمل لديه تشارلي كخادم، طُلبَ منه أن يخبئ آرثر في ساسكاتشيوان. كان بوكس مهاجراً نمساوياً، ورجلاً أكبر في السن، يمتلك الميول الخطيرة لمتآمري إلميرا وشيكاغو، وتطوع لإنجاز كثير من المهمات التخريبية في أسفل الحدود كحرق منزل في سبوكين حيث شُوِّه شخص، وعمليات نهب وضرب. وافق بوكس على استقبال رملنغر لأنّ له اسماً ألمانياً،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ولأن آرثر درس في هارفارد واعتبره بوكس ذكياً.

ركب آرثر القطار من أوتاوا إلى رجينا في خريف 1945 واستقبله بوكس وأقلّه في السيارة إلى الكوخ الصغير في بارترو. كان ما يزال هناك أشخاص يعيشون في البلدة، كما أخبرني، وهناك بدأ حياة جديدة في كندا.

عمل آرثر بالطريقة التي عملتُ بها، كان يركب الدراجة إلى البلدة، ينظف ويقوم بمهمات لهواة رياضة الصيد الذين كان بوكس يستقبلهم في الفندق ويقبض أجوراً مقابل الصيد. على أي حال، لم يذهب إلى حقول الإوز أو ينظف الطيور أو يحفر الحفر كما فعلتُ أنا. اعتقد بوكس أنه ليس قوياً بما يكفي للعمل الصعب فعيّنه موظفاً لحجز الغرف وفيما بعد مدقق حسابات ومديراً ليلياً، إلى أن انتقل بوكس إلى هاليفاكس، حيث لديه ابنة وزوجة مهجورة. تُرك آرثر كي يدير فندق ليونارد لوحده. أخبر تشارلي أنه كان يحوّل المبالغ إلى بوكس كل أسبوع لمدة ثلاث سنوات، إلى أن مات بوكس ومنح في وصيته فندق ليونارد لرملنغر مما شكّل مفاجأة، فقد كان مولعاً به وأراد أن يحميه وعامله كابن. قال تشارلي: "ليس كابن عادي. ليس كواحد أريده".

لم يرض آرثر على أي حال أن يبقى حيث هو، يعيش في غرف بوكس الضيقة التي تطل على السهب، مع ببغاء بوكس الأخضر، سامسون، الذي يحتل مجثماً في غرفة الجلوس، ومفصولاً بشكل كامل عن أية حياة كان يألفها، تائقاً للعودة إلى هارفارد، خائفاً باستمرار من الغرباء القادمين لمعاقبته على "فعله غير القابل للإصلاح" و"وجهات نظره". قال إن وجهات نظره كانت أحلاماً فحسب، مع كتاباته، كي يجعل نفسه مميزاً أمام معلّميه. شعر أنه يجب أن يكون قادراً على تجاوز كلّ هذا ويتابع كي يصبح محامياً. "رجل انفجر إلى شظايا من هذا،

بالطبع"، قال تشارلي. ولكن لم يبد أن هذا يهم.

قال تشارلي إن آرثر يمرُّ في حالات غضب سوداء ويعاني من الكآبة حيال حياته التي صارت بشكل غير عادل متمحورة حول شيء واحد: مهنته القصيرة كمجرم؛ وأن فيه ما هو أكثر من هذا، ولكن ما من طريقة لتغيير أي شيء أو جعلها جيدة. نضج منذ تلك الأيام الأولى، كما شعر، ولكن نضجه لم يُسْمح له بأن يؤثر. قال تشارلي إنه كان من الأفضل لو أنه اعتُقل وسُجن ودفع الثمن، كان بمقدوره أن يكون حراً الآن ويعيش في أميركا حيث ينتمي، بدلاً من أن تتقطّع به السبل في بلدة صغيرة مهدّمة في السهوب حيث يشتبه الناس به ويكرهونه كأنه "فضلات" (كلمة تشارلي، نفسها ككلمة والدنا). تناقل سكان البلدة شائعات بأنه مليونير غريب الأطوار، أو شاذ جنسياً، أو منبوذ اختفى في أميركا كي يقوم بمزايدة لشخص ما (وهذا لم يكن صحيحاً)؛ أو أن أصحاب النفوذ الأجانب حموه (وهذا ما حصل)، أو ربما كان مجرماً هارباً من جريمة غامضة. (لكلّ الشائعات أساس ما، اتفقنا؟"، قال تشارلي). ولكن لم يكترث أحد في فورت رويال بما يكفي كي يبحث عن الحقيقة. كانت الشائعات أفضل. لم تقبل البلدة أبداً العجوز بوكس، لأنه كان يقدم نساء هنديات شابات خليعات، وتواصَل القمار، وشرب الكحول الصاخب، وكان أزواج المزارع يأتون إلى الفندق سراً ويسكرون، والغرباء يأتون ويذهبون في الليل. ولكنهم سمحوا بذلك لأنهم لم يريدوا المشاكل، ولأن بلدة مثل فورت رويال تحبّ أن تتجاهل ما تجيزه. أضاف تشارلي أنه حالما عاد بوكس إلى ماريتايمز، التي لم يفهم أحد أنها جزء من كندا، ("لم يذهب أحد إلى هناك أبداً")، واصلت البلدة الأمر وسمحت لآرثر، الذي لم يكن يريد أن يبدأ في أي جزء من البلدة.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كان ما يزال يشعر بأنه "متكلّس"، كما قال لتشارلي ـ وهي كلمة لم أعرف معناها، مما جعل تشارلي يبتسم ابتسامة متكلفة ـ "متكدّر وغير مقبول"، من الناس الذين لا يريد قبولاً منهم أبداً. جعله هذا يكره نفسه ويشعر بأنه كئيب ويائس ونادم جداً، من أنه كان صغيراً جداً ومرعوباً هكذا في 1954 وقطع كل تلك المسافة إلى هنا، ولأنه تغيّر بشكل كامل وغير قادر على المغادرة بسبب الخوف "الذي جمّده" من أن يتم القبض عليه. إن العودة ومواجهة العدالة أمر لا طاقة له عليه، كما قال آرثر. لم يفهم كيف يستطيع فعل هذا، كما لم يفهم لماذا لا يستطيع العودة إلى الجامعة، بطاقته إلى الاستقامة التي سنحت الفرصة لمدرّسيه كي يجردوه منها. كان غير ملائم في أي مكان وتاق إلى أن يذهب إلى أبعد بكثير. ("السفر إلى البلدان الأجنبية" الذي حدثني عنه. إيطاليا. ألمانيا . إيرلندة). كان في التاسعة والثلاثين تقريباً، لكنه بدا أصغر بعشر سنوات بشعره الأشقر الجميل وبشرته التي تخلو من التجاعيد وعينيه الصافيتين ونظراته الجميلة. بدا كما لو أن الزمن توقف بالنسبة له، فلم يكتهل وأصبح شيئاً واحداً فحسب: آرثر رملنغر في حاضر أبدي. قال لتشارلي إنه فكر بالانتحار وكان ضحية نوبات غضب ليلية رهيبة، وفوضى ذهنية أثيرت بدون تحذير (طيور التدرج التي دهسها) وقد ناقض هذا طبيعته الحقيقية. بدأ يرتدي الثياب الجميلة (الأمر الذي لم يفعله أبداً حين كان صغيراً)، ويشتري البذلات الفخمة من متجر في بوسطن ويطلب شحنها إليه ويعطيها لفلورنس كي تصلحها وتخيطها وتغسلها في ميديسن هات. قال تشارلي إنه أحياناً ـ لكنني لم ألاحظ هذا ـ يشير إلى نفسه كمحام، وفي أحيان أخرى ككاتب مهم. أضاف تشارلي أن آرثر أثر في كل شيء حوله (ليس على نحو إيجابيّ أبداً)،

ولكنه لم يكن شخصاً يترك انطباعاً. وقد أدركتُ أن هذا ما رأيته كتناقض. كان يعرف هذا، وعانى من معرفته وتمنى أن يغيّر كلّ شيء، لكنه لم يستطع.

أسرّ لي تشارلي بأنه كان سيغادر منذ وقت طويل كي لا يشاهد رملنغر ثانية، إلا أن بوكس العجوز ابن الشيطان أطلع آرثر على أمور خاصة عن تشارلي، أمور من ماضيه (مثل آرثر، مثل والديّ ومثلي) لا يستطيع أن يتحمل كشفها. قال تشارلي إنه "مسخّر" طالما أن رملنغر يريده هكذا، كخادم وموظف وصديق حميم بالقوة، وسبب نكتة، ومساعد وخصم سريّ. مرت خمس عشرة سنة، بعدد سنوات حياتي.

أضاف تشارلي: "أستطيع القول إنه يضع يديه عليك الآن". جمع كومة من جثث الإوزات المنتوفة والمسلوخة وبدأ ينقلها إلى البناء المعدنيّ المعتم. "لديه هدف لك في استراتيجيته للبقاء. إلا إذا كنتُ مخطئاً. وما أنا بمخطئ".

كانت ثلاجته تتوضع بين جلود حيواناته الممدة والتي تجفّ وعلب الأملاح وأكوام الأشراك التي يجب إصلاحها، ودراجته وأجهزة حفره، وحيث تفوح رائحة مذيبات ومواد كيماوية للصباغة.

"إنه لا يعجبني"، قلتُ، محضراً الإوز الذي نظّفتهُ ونفضتُ الريش عن نفسي، كي أضعه في الثلاجة مع إوزّه، بالرغم من أنني تقريباً أُعجبتُ به.

"إن شخصاً يريد أن تنتهي عقوبته التي يستحقها جيداً هو رجل يائس"، قال تشارلي، مديراً ظهره العريض لي، وهكذا استطعت أن أرى لمعان مشبك شعره في الظلال. قال بفظاظة: "أنت لا تعرف هذا. لا تعرف أيّ شيء".

كانت البرودة شديدة حيث كنا في بناء تشارلي المعدنيّ، كل شيء متصلب

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ولمسه يؤلم. سألته: "ما الذي يجب أن أعرفه؟ أية فائدة أجنيها من هذا؟"

استدار تشارلي كوارترز، ذراعاه مليئان بالإوزات المتوفة الرمادية، وابتسم بالطريقة غير الودية التي قام بها في الليلة الأولى حين كنا في الشاحنة على الطريق المظلم شمال ميبل كريك، حين أمسك بيدي وعصرها، وأردت أن أقفز وأهرب. "لقد أخبرتك. إن الرجال قادمون إلى هنا الآن. إنه يفهم موقفه. إنه يفهم نفسه بشكل أفضل مما أفهمه أنا. ولكنه ضعيف. وأنا لا ألومه". دفع تشارلي غطاء الثلاجة الثقيل بكوعه. في الداخل كان الإوز المجمّد، قاسياً كقوالب صبّ المعادن. رمى حمْلَ ذراعه، ضاغطاً بإبهامه على قمة الأخريات، ومتراجعاً إلى الخلف. فعلتُ الشيء نفسه واستدرتُ بسرعة نحو باب البناء المعدني المضاء. لم أحب كوني وحيداً وقريباً منه. لا أعرف ما الذي يمكن أن يفعله فجأة.

قال تشارلي وهو يعيدني في الشاحنة إلى فورت رويال إنّ الرجلين القادمين هما من ديترويت، في أميركا، مشهد جريمة رملنغر، منذ خمس عشرة سنة. أبلغه آرثر عنهما في وقت متأخر من الصيف، حين أخبره أصحاب النفوذ الذين على صلة به أن يستعدّ. (كانوا يعدونه غير منظّم، كما اعترف آرثر). قيّدت الشرطة القضية ضدّ مجهول منذ وقت طويل، ولكنّ هناك أشخاصاً تابعوا المسألة، وأبقوا أعينهم وآذانهم مفتّحة. وصار اسم آرثر رملنغر مُتَداوَلاً على نحو غير متوقع. "مفاجأة بحتة"، كما قال آرثر. لم يكن هناك اشتباه لربطه بالجريمة، أو للتفكير بأنه شخص يمكن التحدث معه رسمياً. يجب أن تظلّ هذه مسألة خاصة. فعائلة الرجل المقتول وزملاء النقابة كبروا جميعاً في

السن، ولم يصدقوا أبداً أن آرثر قادر على القتل. ولكن حين اكتُشف مكانه في بلدة ساسكاتشيوان الصغيرة والبعيدة، وأنه يعيش وحيداً ودون تفسير في فندق، وأن له صلات مع العجوز المُتوفّى هيرشيل بوكس، الاسم المعروف في دوائرهم، ربطوا الأشياء ببعضها مع أمور أخرى معروفة عنه (الشجار مع ممثل النقابة قبل سنوات، والمنشورات، والمشاكل التي سبّبها في هارفارد)، وبدا كأنه قابل للتصديق أن رملنغر هذا، الأميركي الذي صار على نحو غريب كندياً، قد يكون شخصاً يجب الذهاب لرؤيته وجهاً لوجه. إذا استطاع أحد ما أن يراقبه دون أن يشعر بذلك، ويدخل حياته دون أن يُلاحظ، عندئذ يمكن اكتشاف إن كان من المحتمل أنه المجرم. بعد ذلك، إذا عُدَّ مذنباً، أو شريكاً في الجريمة، يمكن أن تبدأ النقاشات حول ماذا يمكن أن يُفعل له. "لا بدّ أنه اعتقد أنني عشتُ وتنفّستُ حياته الملعونة"، قال تشارلي، وهو يسوق.

قال آرثر إنهم شعروا أنه ليس لديه شيء يستدعي القلق، وأرسلوا رجلين كي يراقباه، ويجب ألا يفعل أي شيء خارج المعتاد، كأن يهرب أو يقر بأي شيء، أو يتصرف بطريقة تجرّمه تمنح الرجلين سبباً للاشتباه بأنه فجّر صالة النقابة. (الأمر الذي فعله، قال تشارلي، "لأنه لا أحد سيفعل هذا").

اعتُقد أن الرجلين اللذين كانا في طريقهما عبر الغرب الأوسط في سيارة كرايزلر نيو يوركر سوداء، متجهين شمالاً وعبر الحدود إلى كندا، لم يكونا مخلصين كثيراً لمهمتهما. كانا معروفين، أحدهما يُدعى كورسلي، وهو صهر الشاب المقتول فنسنت؛ والآخر ضابط أكبر في السنّ متقاعد، يدعى جيبز، ليس عضواً في الأسرة ولكنه جاء للمساعدة في الوصول إلى حكم عقلانيّ. وكان لدى هذين الاثنين فكرة ضئيلة بأن آرثر رملنغر هو الرجل الذي يبحثان

https://telegram.me/maktabatbaghdad

عنه. كانا يقومان بالرحلة طول الطريق إلى ساساكتشيوان كمغامرة صيد بقدر ما هي لاعتقال رجل. يمكن أن يقوما ببعض صيد البط إذا أمكن ترتيب ذلك، وفشل كل شيء. ولم يفكّر أي منهما عملياً بما يمكن أن يفعلاه إذا تبيّن أن آرثر رملنغر هو المجرم، واضطرا لمواجهته، في بلاد أجنبية لا يعرفان عنها أي شيء سوى اللغة، ولفعل شيء ما: هل يطلبان منه العودة إلى ديترويت (ثم ماذا يفعلان؟)؛ هل يعودان كل المسافة لوحدهما ويقنعان الشرطة بأن تهتم ثانية (على أساس أي دليل؟)؛ أم يخطفان آرثر، وهو مواطن كندي، وينقلانه عبر الحدود الدولية؟ (كيف، ثم ماذا سيفعلان به؟ يطلقان عليه النار؟ لديهما مسدسان؛ كان هذا معروفاً، وكان خطأهما المهلك). كانا عاملين عاديين بسيطين، مثل هواة رياضة الصيد الذين يحتشدون في البار في الليل، أكثر من كونهما رجلين تحفّزهما العدالة أو الانتقام. ربما قيل لرملنغر إنهما يفكران بالوصول إلى ليونارد، وحين لا يكتشفان أي شيء خارج المألوف يتعلق به (بالرغم من وجود ذلك)، سيعودان بالكرايزلر نحو ديترويت ويجتازان الألفي ميل من جديد.

قال تشارلي إن المشكلة ـ لهذا يجب أن أكون حذراً وسأكون معتوهاً إذا لم أفعل ـ أن آرثر صار عنيفاً ومزاجياً ويشعر بالشرّ، وازداد تشوّش ذهنه من فكرة غريبين قادمين يعرفان من هو وما الذي فعله، ولديهما النية لنقله عبر الحدود كي يواجه كل ما فشل فيه. أضاف تشارلي أن والده ما يزال حياً، وأن مستقبله انتهى، وكانت تنتظره أحكامه السيئة في الماضي. ولم تكن حالة آرثر الذهنية مستقرة. كان يفتقر إلى القدرة الذهنية على عدم تجريم نفسه. صار التجريم حياته كلها. كانت هذه هي التغيرات التي طرأت على سلوكه التي كان يجب

أن تكون بادية لي، لكنها لم تكن.

كان هنا في الأعلى في كل تلك السنوات يعاني وينتظر ـ قال تشارلي ـ متوقعاً أن يأتي شخص ويعثر عليه. عاش حياته في بلدة فارغة تهبّ فيها ريح شيطانية، مغترباً وبعيداً، دون أسرة؛ ليس هناك رفقة إلا بوكس، ثم تشارلي، ثم فلورنس، والآن أنا. تساءلت عن هذا فيما بعد: كيف كان قادراً على البقاء بشكل دائم في الطقس القاسي، والزمن الذي لا ينتهي، والأيام التي بلا ملامح، وسط اللامألوف؟ هذا مستحيل، إنّ أي شخص سيفكر هكذا. كان هذا "السؤال الأفضل" الذي لم يجب عليه رملنغر حين كنا في مقهى مودرن. لقد تكيّف، كما قال لي.

ولكن هذا جعله ما هو عليه، غرائبياً وفاقداً للصبر ونادماً ومختلّ الذهن قليلاً، وعنيفاً من الإحباط، يعيش شظية حياة لا يستطيع التخلي عنها. (كان سيتخلى عنها لو امتلك الجرأة، أو الخيال كي يسافر إلى مكان أكثر بعداً، حيث يستطيع أن يختبئ مرة أخرى). قال تشارلي، بطريقة تعبر عن رفضه له، إن آرثر ما يزال يرى نفسه الطالب الشاب الساذج الذكي الذي لم ينوِ أبداً قتل أي شخص، والذي عانى بسبب هذا، بسبب المصادفة والغباء، والذي يريد أن تنتهي عقوبته، بما أن عقوبته صارت حياته.

"أنت"، قال تشارلي. كنا نعبر لافتة حدود بلدة فورت رويال، والأبنية المنخفضة، وليونارد، النقطة المكبّرة في السهوب، الشارع الرئيسي الغباريّ غير المكتظ الآن بما أن البرد قد بدأ (تُركت شاحنات البيك آب خاملة على الرصيف، الرايات في مكتب البريد والمصرف تخشخش في الريح، سكان فورت رويال الذين يرتدون ثياباً ثقيلة يظلون أقرب إلى جوانب الأبنية). "إيّاك

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أن تذكر أياً من هذا لآرثر رملنغر أو فلورنس. سأسلخ جلدك إذا فعلت". ما قاله لي (قاله ثانية) هو تحذير كي أضع حدودي و"أحمي نفسي" مما سيحدث إذا تطوّرتْ "أحداث معينة" بشكل مختلف عما هو مفترض. فكر تشارلي بشكل واضح بهذه الأحداث ولكنه لم يصفها، وهكذا لم أحاول تخيّلها.

غير أن ما شغل تفكيري ونحن نعبر الشارع الرئيسي هو الأميركيان اللذان كانا في طريقهما من ديترويت. قال أبي إن الجميع لديهم وظيفة براتب جيد وضمان في ديترويت. كانت بوتقة الانصهار الأميركية، مركز القوة، معطفاً بكثير من الألوان، تجذب العالم كله إليها، كما قال. "ديترويت تصنع والعالم يأخذ". إلخ. إن الرجلين اللذين يقودان سيارتهما هما من هناك وقادمان للعثور على أشياء حقيقية والدفاع عنها. لم أذهب إلى ديترويت، ولكن لدي اهتمام بها كوني ولدتُ في أوسكودا، التي لا تبعد عنها كثيراً إلى الشمال. يستطيع المرء أن يمتلك وجهات النظر والأفكار هذه، ولكن لا يملك تجربة حقيقية من أي نوع فيها.

"لماذا سأتورط أنا؟"، سألتُهُ. كنت قد صرتُ أكثر جسارة آنذاك وتجاوزتُ حالة الصدمة. توقّفنا أما باب فندق ليونارد الأمامي الذي كُتبت عليه كلمة "ردهة" بالأسود. هزّتْ الريح نوافذ الشاحنة. نظرتُ إلى المظهر الجانبي الخاص لتشارلي، الكثير العقد، الذي ما يزال عليه الروج. له وجه قزم، ولكنّ جسمه كبير وقوي.

قال: "إذا كنتَ محظوظاً لن تتورط". شكّلتْ شفتاه الكبيرتان السمينتان شكلاً دائرياً قاسياً، كمثل قبلة، عنتْ أنه يفكر. "إذا كنت ذكياً، ستأخذ النقود التي ادّخرْتها وتستقلّ الباص. اذهبْ إلى مكان ما قرب الحدود وانزلق عابراً

ولا تظهر ثانية. إذا بقيتَ هنا، ستشكل نقطة مرجعية له فحسب، جزءاً من استراتيجيته. لن يأبه مثقال ذرة لما سيحدث لك. إنه يحاول أن يبرهن شيئاً ما فقط".

قلت: "سيقبضون عليّ ويرسلونني إلى سجن الأحداث في الوطن".

قال تشارلي: "ستكون في وضع أفضل في الوطن. تفكر دائماً أنك تعرف الشيء الأسوأ، ولكنه ليس أبداً الشيء الأكثر سوءاً".

عنى أنني سأفعل الصواب لو عدت إلى غريت فولز، وسرتُ إلى مخفر الشرطة واعترفتُ بأنني ديل بارسونز المفقود، وتركتُ كلّ شيء يجري لي: أن أوضع في غرفة مقفلة مع قضبان على النوافذ، محدقاً إلى مشهد طبيعي جامد منتظراً ألا يحدث شيء إلى أن أصبح في الثامنة عشرة. بدا هذا كأنه الأسوأ لأمي. وكان ما يزال يبدو الأسوأ لي. لم أمتلك جواباً لتشارلي. لم أمتلك أبداً. كان يعرف فقط عن نفسه. ولكنني عرفت ما هو الأسوأ بالنسبة لي مهما حدث لآرثر رملنغر، ومهما حدث لي كنقطة مرجعية، والتي فهمت أنها تعني أنني سأكون جزءاً من نزوة فقط، وسأُنسى حين تنتهي.

لم يردني تشارلي أن أقول أي شيء آخر. لم يُصْغِ إليّ كثيراً. نزلتُ من شاحنته القديمة في شارع فورت رويال الرملي الذي تهبُّ فيه الريح وأغلقتُ الباب. قال هذا وهو يغلق الباب: "إن معظم الخاسرين رجال صنعوا أنفسهم. لا تنْس هذا". لم أعقّب. ساق مبتعداً، عندئذ، وتركني هناك لمستقبلي.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

(59)

حين وصل الرجلان الأميركيان بعد الظهر كنتُ في الردهة الصغيرة لفندق ليونارد في اليوم نفسه الذي أخبرني فيه تشارلي عن رمنغلر باكراً في الصباح. لم يكن في فندق ليونارد رواق نظاميّ وإنما مجرد غرفة دخول مربعة ومعتمة في قاع الأدراج في المركز، حيث وُضع المكتب الأمامي وعليه جرس ومصباح وصف من علاقات المفاتيح على الجدار. كنت قد تناولتُ الغداء وفي طريقي للذهاب إلى النوم. فقد استيقظتُ في الرابعة وعليّ أن أستطلع الإوز في المساء. دفعنى تشارلي إلى الظنّ بأن الرجلين الأميركيين سيصلان في الحال، وقد قررتُ أن أراهما، وتخيلت كيف يبدوان، وحاولت أن أعبر من الردهة غالباً قدر الإمكان. ولكنني لم أعتقد أنهما سيصلان في ذلك اليوم.

حجزتْ لهما السيدة غدينز، التي كانت تقوم بواجباتها المطبخية،

وسمعتْ الجرس. بالكاد تحدّثتْ مع الرجلين، لكن حين لفظ كلّ منهما اسمه ـ ريموند جيبز ولويس كروسلي ـ نظرتْ إلى الأعلى من السجل، بعينيها السويديتين السابحتين والقاسيتين واللتين لا تثقان، كما لو أن هناك مشكلة تتعلق بالرجلين الأميركيين ولا أحد يستطيع أن يخدعها.

كان مع كلٍّ منهما حقيبة جلدية. وبما أنه كان يُطلب مني أحياناً حمل متاع هواة رياضة الصيد إلى غرفهم، والذي أحصل مقابله على ربع دولار، وقفتُ قرب الحائط الذي عليه صورة الملكة إليزابيث وانتظرت. أخبرتهما السيدة غدينز أنهما سيناما في (كوخي)، لأن الفندق مليء. (لم يكن مليئاً). سترتب مع تشارلي إيصالهما إلى هناك حين يكونان مستعدين. كانت هذه الإشارة الأولى بأن ما قاله لي تشارلي صحيح: أن الرجلين قدما من الولايات المتحدة، وأنهما معروفان ومتوقَّعان. ظننتُ أن القصة غير صحيحة، أنها شيء طبخه تشارلي لأسبابه الخيالية الخاصة كي يخيفني. ولكن الرجلين الأميركيين أعلنا اسمين مُتوقّعين: جيبز وكورسلي. قالا إنهما من "مدينة المحركات"، في الولايات المتحدة. كانت معنوياتهما مرتفعة ولم يبذلا أي جهد كي يخفيا هويتهما. ولم يبد أن لديهما أية فكرة أن أي شخص سيتعرف عليهما أو يعرف لماذا هما في فورت رويال. ربما كانت السيدة غدينز تعرف من هما، وهكذا فإن الجميع كانوا يعرفون، عدا الرجلين الأميركيين أنفسهما.

"نحن ذاهبان إلى الساحل الغربي لكندا"، قال جيبز، الأكبر سناً، والذي كان ضابط شرطة سابقاً، مبتسماً. وجهه أحمر ويضع شعراً مستعاراً مصنوعاً من مادة شعر أسود أملس انتصب على رأسه المستدير ولم يبد

https://telegram.me/maktabatbaghdad

طبيعياً. منحه هذا جواً من الغباء، لأنه قصير ومستدير ويرتدي بنطلونه مرفوعاً فوق بطنه، وينتعل بوطاً منخفض الكعب بدا كبيراً كبوط مهرّج. لم يقل ما الذي ينويان فعله على الساحل الغربي لكندا. كان كروسلي أصغر وأكثر أناقة، بملامح دقيقة حادة وشعر أسود وقصير. يبتسم كثيراً أيضاً؛ ولكن عينيه متنبّهتان لهنا وهناك، وبشرته أكثر دكنة. يرتدي خاتماً ذهبياً في إصبعه الصغير يفتله بشكل عصبيّ، كما لو أنه يريد أن يظهر أنه مرح. فيما بعد، حين أُطلق الرصاص على جيبز وسقط مقتولاً على أرض كوخي ودبّ فيّ الهلع وتورطت في نقله، كان عليّ أن ألتقط شعره المستعار، الأمر الذي كان كريهاً جداً فعله. (سقط عن رأسه حين أُطلق عليه الرصاص). لم أر شعراً مستعاراً من قبل، ولكنني عرفته. دُهشت كما كان رديئاً، وصغيراً. انتهى في برميل الحرق، مع أحشاء وريش الإوز.

سأل كروسلي السيدة غدينز إن كانا يستطيعان تناول الطعام؛ فهما لم يأكلا منذ أن تناولا الفطور، في إستافان. عبست السيدة غدينز وقالت إنّ الغداء (التي تدعوه بـ "العشاء") انتهى منذ وقت طويل (كانت الساعة تقريباً الثالثة) ولكن الصيني سيعدّ لهما شيئاً في أسفل الشارع، وإن بوسعي أن أدلهما على المكان، مما نبههما إلى وجودي. قالا إن فورت رويال ليست مكاناً كبيراً ("حصن"، كما دعاه جيبز بصوت أنفيّ مثل صوت رملنغر) وإنهما يستطيعان العثور على "المطعم" الصيني الوحيد في البلدة. في ديترويت هناك بلدة صينية كاملة، كما قالا. وكانا يذهبان غالباً إلى هناك مع زوجتيهما. كانا متلهفين لمقارنة الطعام الكندي الصيني مع طعامهما المتنوع في ميشيغان.

طلبا أن يتركا حقيبتيهما في الرواق وسألا السيدة غدينز إن كان هناك أي صيد للإوز سيتم. قالا إنهما أثناء مجيئهما بالسيارة شاهدا آلاف الإوزات في الجو وأحياناً كانت واحدة تسقط ميتة بعد أن يُطلق عليها الرصاص. قال كروسلي إنهما أحضرا بندقيتيهما، ولكنه بدا متردداً حيال هذا. ربما يمكن أن يرتبا من أجل بعض الصيد في اليومين التاليين. يريدان أن يشاهدا المنطقة ويقوما بنزهات بالسيارة كما لو أنّ الزوار يأتون إلى فورت رويال، ساسكاتشيوان في البرد الرهيب لأوائل تشرين الأول\أكتوبر كي يستمتعوا بمغرياتها. لم يكن هذا شيئاً قابلاً للتصديق وجعلهما يبدوان أكثر كما قال تشارلي عنهما.

أخبرتْهما السيدة غدينز أنهما يجب أن يتحدثا مع السيد رملنغر، مالك الفندق، كي يتم تنظيم أمور الصيد. سيكون موجوداً في المطعم وفي البار الليلة. قالت إنّ هناك صيادين آخرين في الفندق، وعلى الأرجح لن تكون هناك أمكنة إلا إذا استيقظ أحدهم ثملاً أو مريضاً.

واقفاً خلفهما في الردهة المظللة كنت متنبّهاً لردود فعلهما على السيدة غدينز وهي تذكر اسم "السيد رملنغر". فقد كان السيد رملنغر هو الذي اجتازا ألفي ميل كي يرصداه، كي يستنتجا إن كان هو المجرم ويقررا ما الذي سيفعلاه حيال ذلك إن صحّ الأمر. لم أستطع أن أعرف بأية وسائل سيستنتجان هذا، بما أن رملنغر، كما قال تشارلي، لن يقرّ أبداً بالفعل، وتقريباً لا أحد على قيد الحياة يعرف عن الأمر. وقد تساءلتُ من قبل في ذلك اليوم: كيف سيبدو المجرم؟ حالما تُرتكب جريمة - لا يهم إن نويت أم لا - هل يُكتب الفعل على وجهك إلى الأبد؟ هل يفترض جيبز وكروسلي

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أن هذا سيكون سهل الكشف؟ وهل كلمة "مجرم" تُكتب على وجهك قبل ارتكابك للجريمة؟ رأيتُ صوراً للمجرمين في النشرات الأخبارية السينمائية وقد سُحر والدي بهم وبمغامراتهم. ألفن كاربس وبريتي بوي فلويد وكلايد بارو بنفسه، وجون دلنغر. بدوا جميعهم مجرمين لي، وبما أنهم ارتكبوا جرائمهم آنذاك لم يكن هناك أي شك. فضلاً عن ذلك، كانوا موتى. أُعدم كثيرون منهم بالرصاص، ووُضعوا كي يُصوَّروا. وظننتُ أنّ والديّ ربما كانا قابلين للمعرفة كلصّي مصارف قبل وقت طويل من دخول والدي إلى مصرف والسطو عليه، وأنني أنا وأختي كنا الوحيدين اللذين يجهلان ذلك.

لم يُحدث صوت اسم رملنغر، الذي نُطق في هدوء رواق فندق ليونارد المفرط التدفئة، أي تغيير في التعبيرات الوجهية لكلّ من جيبز أو كروسلي، كما لو أن الاسم لم يعن أيّ شيء. قال جيبز: "ربما"، إبهاماه السمينان رفعا بنطلونه فوق كتلة بطنه، "بوسعك أن تطلبي من هذا السيد رملنغر أن يتحدث مع صديقي ومعي. نودّ أن نصطاد بعض الإوز إذا كان يمكن ترتيب ذلك. سنأتي إلى البار الليلة. أخبريه أن يعرّف عن نفسه فقط. نحن أميركيان ودودان". ضحك كلاهما من ذلك لكن السيدة غدينز لم تضحك.

سار الرجلان الأميركيان معاً في الشارع الرئيسي الصغير الذي تهب فيه الريح كي يعثرا على المطعم الصيني. وأسرعتُ أنا إلى خلف فندق ليونارد كي أتبيّن إن كانت هناك سيارة كرايزلر نيويوركر سوداء، تحمل لوحات ميشيغان. لو طلبا مني تناول وجبة معهما، كنت سأذهب بالرغم من أنني قد أكلتُ سابقاً. ستكون مغامرة الاقتراب منهما ومعرفة من هما، دون أن يمتلكا أية فكرة عما أعرفه، كما لو أنني الشخص المتنكّر. أثارني هذا.

كان بوسعي أن أكتشف أموراً حيالهما، خططهما مثلاً، بالرغم من أنني قد مُنعتُ من التحدث عن هذا، ولم أعرف في الحقيقة ما سأكون قادراً على قوله أو لمن. يستطيع أي شخص أن يرى كيف ينجذب فتى في الخامسة عشرة من عمره إلى احتمالات كهٰذه.

إن الرجلين الأميركيين، على أي حال، بالكاد لاحظا وجودي وسارا مباشرة في الشارع نحو لافتة المطعم الصيني. خطوت إلى الخارج كي أراقبهما. وضع جيبز ذراعه القصير حول كتف الشاب الأصغر وبدأ على الفور يتحدث بشكل جدي. "هذه هي الطريقة التي نريد بها الأمر"، اعتقدت أنني سمعت جيبز يقول، صوته الأنفي يحاول الخروج في النسيم البارد. "حسناً، أعرف. أعرف"، قال كروسلي. "ولكن..." لم أسمع ما تبقى، بالرغم من أنني اعتقدت أنني أعرف ما كانا يتحدثان عنه. وكنت مصيباً.

حين وصلت إلى الفناء الترابي خلف فندق ليونارد، كانت سيارات الصيادين وسيارات الضيوف الآخرين موجودة، مع سيارة رملنغر البويك الكستنائية الكبيرة الباردة. اندفعت الريح وندف ثلج صغيرة في الجو. فناء السكك الحديدية الباسيفيكية الكندية يبعد خمسين ياردة في الجانب الآخر من قطعة أرض فارغة. كان يتم تحويل عربة نقل حمراء إلى السكة الفارغة، ورجال التحويل يهرعون في البرد بقناديلهم، يرمون المحوّلات ويقفزون على العربة وهي تعبر. ثمة عمل سأقوم به، كما ظننت، بما أنني أحب العمل، إذا لم تبدأ المدرسة بالنسبة لي مرة ثانية، وإذا لم أذهب إلى وينيبيغ، كما رغبت

https://telegram.me/maktabatbaghdad

فلورنس. إن الخطط لا تعمل دائماً، كما قال آرثر رملنغر. وقد اكتشفتُ صحّة هذا.

في نهاية صف السيارات كانت النيويوركر السوداء، ذات البابين، متسخة من رمال الطريق، بلوحاتها الخضراء والصفراء من ميشيغان، "أرض عجائب الماء". تصورت غابات مفروشة بعشب أخضر وبحيرات واسعة يستطيع المرء فيها ـ وأنا أيضاً ـ أن يجدّف في قارب، الشيء الذي لم أفعله أبداً. تخيّلتُ أنه سيكون هناك ناد للزوارق في ثانوية غريت فولز، وفرصة لي كي أجدف في نهر ميسوري. وضعتُ يدي على غطاء محرك الكرايزلر وكان ساخناً، بالرغم من أن البرد قد بدأ يتغلغل فيه. جاءت هذه السيارة من أميركا، من المكان الذي صُنعتْ فيه. جسّدتْ كل ما ربطه أبي (وأنا) بأميركا، بوتقة الصهر، والعالم المنجذب إليها. ناصرتُ هذه القيم. زرعها والداي فيّ وفي أختي. جعلتني أشعر ثانية بأن جيبز وكروسلي شريفان وعلى صواب، وكذلك مهمتهما في المجيء إلى كندا، بالرغم من أنني لم أردها أن تنجح ولم أرد أن يعود آرثر رملنغر إلى أميركا كي يُسجن. قلتُ سابقاً إن سبب ارتباطنا بالأشخاص الذين نرتبط بهم، حين تقول جميع الإشارات إننا يجب ألا نفعل ذلك، لا يمكن فهمه.

لكنني وأنا واقف في ساحة صف السيارات، عانيتُ من تشوّش. ربما كنت على شفا الانهيار. صدغاي توترا وتألما، وتخدر ذقني وأنفي (ربما من البرد). ارتعشت أصابعي. بدت قدماي غير راغبتين بالحركة. بالرغم من درجة غرابته، ومما أعرفه عنه، لم يبد آرثر رملنغر شخصاً ينقل قنبلة ويفجرها كي يقتل شخصاً آخر. بدا آخر شخص يمكن أن يفعل هذا. أما تشارلي

كوارترز فيمكن أن يفعل هذا بسهولة أكبر. أو المجرمون في جرائد السينما. في وجهة نظري، لم يكن مكتوباً على وجه آرثر رملنغر كلمة "مجرم".

ما كان مكتوباً على وجهه هو "غريب الأطوار"، "وحيد"، "محبط"؛ وكذلك "ذكي"، و"راصد"، ودنيوي"، و"أنيق اللباس". كل الأشياء التي أُعجبْتُ بها (بالرغم من إنكاري لذلك). وهكذا فإن ما قررتهُ ـ ولهذا كنت قادراً على الحركة، وعاد الإحساس إلى وجهي، وتوقفت يداي عن التألم ـ هو أن آرثر رملنغر ليس مجرماً. ربما كان هذان الرجلان الأميركيان، بالرغم من اسميهما وسيارتهما وكونهما من ديترويت، لم يكونا من قال تشارلي إنهما كانا. كانت هذه عادة ذهني. لقد كتبتْ أمي في دفتر يومياتها أنه بالنسبة لي إن نقيض كل ما هو واضح يستحق التفكير الكامل. فالنقيض قد يتكشف على أنه الحقيقة. مفترضاً تجاربي الشخصية الأخيرة مع الحقيقة، ربما بدا واضحاً أنه عاجلاً أم آجلاً سيرتكب الجميع الجرائم، مهما كان من المرجّح ألا يفعل المرء ذلك. ولكنني لم أكن مستعداً لتصديق ذلك. لم أعرف أين سأتلاءم في العالم لو كان ذلك صحيحاً، بما أنني لم أرد أن أرتكب الجرائم، أنا نفسي، وكان التلاؤم الشيء الذي أردت فعله أكثر من أي شيء آخر. وهكذا حاولتُ بقوة أن أصدّق أن آرثر رملنغر بريء مما كان من المفترض أنه فعله. بما أنه من الأفضل على جميع المستويات التفكير بهذه الطريقة.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

(60)

قمتُ بواجباتي المعتادة في ذلك اليوم، إلا أنّ قيلولتي كانت أقصر لأنني أمضيتُ وقتاً أطول في الرواق، ثم خرجتُ كي أتأكد من وجود سيارة الرجلين الأميركيين. النهارات الآن أقل ضياء، وفي الخامسة تقريباً كنت أذهب أنا وتشارلي في السيارة إلى الحقول التي فوق النهر كي نعثر على الأمكنة التي يألفها الإوزّ، ونرشد الشابين الأوكرانيين إلى موقع الحفر. كان الشابان مفتولي العضلات وكبيري الأعضاء وشقيقين، تجمعهما قرابة عن طريق الزواج مع زوج السيدة غدينز الميت. كانا صامتين لا يبتسمان، مثلها. لم يقولا شيئاً لي حين أرشدهما تشارلي إلى مكان الحفر. نظرا إليّ باحتقار، كما لو أنني فتى أميركي يتمتع بامتياز ولا شأن له حتى بمعرفتهما. اعتقدتُ أنني لست صاحب امتياز مطلقاً عدا أنني أمتلك الامتياز الغريب بأنه ليس لي مكان حقيقي أو نفوذ على الأشياء، وأستطيع أن أغادر بينما كانا يعتقدان

أنهما لا يستطيعان ذلك.

لم يظهر آرثر رملنغر أثناء النهار. كنت أراه عادة يعبر في الفندق. وكما قلت، كان أحياناً يمسك يدي ويضعني في البويك متصنّعاً اقتراحاً ما، وكنا ننطلق على الطريق السريع إلى سويفت كرينت أو نحو الغرب، بينما كان يتحدث بحماس عن الأمور التي تهمه. لم يحدث شيء من هذا. وبالرغم مما "قررته" مستخدماً التفكير المضاد بينما كنت أقف في البرد خلف الفندق (أنه ليس مجرماً، إلخ.)، اعتقدت أن غيابه مرتبط بحضور الرجلين الأميركيين. أظنّ أنني عرفت أن تفكيري المضاد عن الرجلين الأميركيين كان خاطئاً.

عرفتُ أن تشارلي كوارترز قاد الرجلين الأميركيين إلى الكوخ. كانت حقيبتاهما قد نُقلتا حين نزلت الدرج، ولم تعد سيارتهما في فناء صف السيارات. اعتقدت أن تشارلي سيطرح ملاحظة ما تشير إلى أنه مصيب في كل ما قاله لي. ولكنه صار مطبق الشفتين وحادّ الطبع، ولم يتفوّه حتى بالكلمات التحقيرية التي يردّدها عادة: أنني لا أعرف شيئاً؛ وضعيف، ولن أدخل المدرسة ثانية. كان كلامه القليل في الشاحنة في ذلك اليوم يتعلق بمعرفته عن الإوز والصيد فقط، الأمور التي قالها لي سابقاً: الإوز يطير عالياً مع الريح ولكه يطير أحياناً تحتها؛ الإوزّ أذكى من البط، بالرغم من أن هذا ليس ذكاءً في الحقيقة بل يملك غرائز جيدة؛ الإوز المرقّط البطن يحب القمح ولكنّ إوزّ الثلوج لا يحبه؛ الإوز يستطيع الطيران مائة ميل في ليلة؛ وأنّ المرء ليس في حاجة إلى أشراك حقاً - "فتاة مزرعة سمينة في فستان أسود" ستؤدي الغرض نفسه إذا شوهدت من السماء. انتابني شعور بأن تشارلي حين يكرّر

https://telegram.me/maktabatbaghdad

هذه الأشياء فإن ما يقوله لا يتعلق بي، بل يهدف إلى إبعاد ذهنه عن شيء ما لا يريد التفكير به. اعتقدتُ أن الأمر يتعلّق بالرجلين الأميركيين.

تناولتُ العشاء كالمعتاد في المطبخ، ثم دخلتُ إلى البار في السابعة كي أختلط بهواة رياضة الصيد بالطريقة التي أخبرني عنها تشارلي، وأن أصغي إلى صندوق الفونوغراف، وأتحدث مع الساقية، ومع بيتي أرسينولت عن كاليفورنيا، حيث بيرنير، وأصغي إلى قصصها عن حبيبها التي قالت إنه عاملها بقسوة. كان هواة رياضة الصيد يشربون ويدخنون السيجار والسجائر. كان هناك مجموعتان من تورنتو، ومجموعة أميركية من جورجيا. كان لأولئك الرجال لهجات كلهجة أبي حين "يتحدث بلكنة ديكسي". وكان الأميركيان اللذان من ديترويت في البار آنذاك، يجلسان إلى طاولة في نهاية الغرفة تحت لوحة زيتية كبيرة لذكريْ موظ يتصارعان، قرونهما متشابكة بطريقة لن يفلتا منها أبداً. القتال حتى الموت، هكذا كان اسم اللوحة. فوقها إشارة سوداء وبيضاء تقول لينقذ الله الملكة، وكتب عليها أشخاص عبارات تجديفية. أحببتُ هذه اللوحة أكثر من لوحة الدب الراقص في غرفة الطعام. مرة، بعد أعوام، رأيت هذه اللوحة نفسها، أو واحدة مثلها بالضبط، على حائط في فندق مكدونالد في ألبيرتا، وجلستُ متعجّباً من لغزها لساعات.

كان الرجلان الأميركيان بارزين في الغرفة المليئة بالدخان والصيادين وعمال السكك الحديدية وصانعي الأدوية. كان كلّ واحد منهما يشرب من زجاجة بيرة، يضعها إلى جانبه طيلة فترة تواجده هناك. يرتديان قميصين

نظيفين وبنطلونين أنيقين وبوطين مرتفعين إلى الكاحل لهما رباط، بينما هواة رياضة الصيد جميعاً يرتدون ثياب الصيد، كما لو أنهم يخططون للذهاب مباشرة من البار إلى حفر الإوز. لم يبد الرجلان الأميركيان مرتاحين، كما لو أنّ عصبية الأصغر كروسلي انتقلت إلى الرجل الأكبر سناً. لم يتحدثا إلا مع بعضهما وكانا ينظران مراراً حولهما في الغرفة: إلى السقف القصديري، عبر باب الردهة، نحو المطبخ، وإلى باب غرفة القمار المغلق. كانا ينتظران آرثر رملنغر. فقد طلبا أن يأتي إليهما كي يتحدثا عن صيد الإوز. ولكنه لم يأت، مما أشار إلى شيء مهم: من الممكن أن رملنغر لن يسمح بأن تتم مراقبته فهرب مما يعني أنه الرجل الذي يبحثان عنه.

بقيتُ قرب صندوق الفونوغراف مراقباً ومتوقعاً أن يخطو رملنغر بخطوته الواسعة ويبدأ بالدوران كما يفعل مازحاً ومشترياً المشروبات وواعداً الجميع بصيد جيد، وهذا سلوك لم يبد أبداً طبيعياً له. لم تكن سيارة فلورنس في باحة صفّ السيارات، مما جعلني أفترض أنها كانت بعيداً تعتني بأمها وتدير حانوتها. وقد كان من القابل للفهم أن آرثر لا يريدها أن تتواجد حيث الرجلان الأميركيان.

لم أعرف بالطبع ما الذي خطط الأميركيان لفعله حالما يشاهدان رملنغر ويكون عليهما أن يقوما باستنتاجهما. ربما سيشاهدانه ويدركان أنه ليس الرجل الذي سيفجر قنبلة ويقتل أحداً ما، وأردتُ أن أصدّق ذلك. في هذه الحالة يمكن أن يعودا في سيارتهما راضيين وينسيا كل شيء عن الموضوع. ولكن إذا قررا أنه المجرم، فماذا ستكون خطتهما؟ أثارني وجودي في البار الصاخب، حيث كان دماغا الرجلين الأميركيين مزدحمين، وأن أعرف من

https://telegram.me/maktabatbaghdad

هما فيما ليس لديهما أية فكرة أنني أنا أو أي شخص آخر يعرف عن الأمر، وأني أمتلك تلك الميزة. ولكن سيكون هناك أيضاً نتيجة لهذه الأحداث. لم يقل تشارلي هذا، ولكن كان واضحاً أنه فكر هكذا، وأن النتيجة قد تكون سيئة.

شعرتُ بإلحاح ثان قويّ كي أتحدث مع الرجلين بالرغم من أنه لم يكن من طبيعتي أن أقوم بعمل كهذا. بدا الأمر كما لو أنني رغبت بالاقتراب من شيء ينطوي على مجازفة ودراميّ. أردتُ أن أخبرهما أنني وُلدتُ في أوسكودا، ويمكن أن يعني هذا لهما شيئاً ما. إن المشاعر التي انتابتني وأنا أقف قرب سيارتهما وبعد أن لمست المعدن الدافئ - الإحساس بالصلابة المشبعة، وحتى بحب الرجلين، اللذين لا أعرفهما، ومشاطرة شيء سريّ معهما - أردتُ أن أشعر بها ثانية وصدقت أنني أستطيع أن أفعل ذلك دون أن أشكل تهديداً لأحد. لن أخبرهما أبداً ما قاله لي تشارلي. واعتقدتُ أنهما يمكن أن يكشفا عن شيء ما مهم عن مهمتهما: رأيهما برملنغر، ما يأملان فعله معتمدين على نتائج رصدهما له.

في تلك اللحظة تماماً، وقبل أن أمتلك الجرأة للتحدث مع الرجلين الأميركيين، دخل آرثر إلى البار من باب الرواق، وبدا الرجلان الأميركيان على الفور كأنهما يعرفان من هو، كما لو أنّ لديهما صورة في ذهنيهما عنه، وبدا كما كانا يتصورانه.

إن الرجل الأحمر الخدين، والمستدير الوجه، والذي يرتدي شعراً مستعاراً - ضابط الشرطة السابق - قال على الفور شيئاً ما لكروسلي الأصغر، وهزّ رأسه ونظر إلى رملنغر، الذي كان يتحدث بصخب إلى طاولة محتشدة بهواة

رياضة الصيد. استدار كروسلي ونظر وبدا فجأة في غاية الجدية. هزّ رأسه واستدار إلى الخلف ووضع يديه على زجاجة البيرة وقال شيئاً موجزاً. ثم جلس الاثنان مواجهين لبعضهما في ضوء البار المزعج، تحت لوحة ذكريْ الموظ المتشابكي القرنين، ولم يتحدثا.

كان رملنغر يعتمر قبعة اللباد البنية التي يرتديها دوماً، ويلبس إحدى سترات التويد البوسطنية المرتفعة الثمن التي جعلته يبدو غريباً في البار. نظارته الخاصة بالقراءة معلقة حول عنقه. يرتدي ربطة عنق حمراء لامعة، وبنطلونه التويد مضبوب داخل بوطه الجلدي. لم أعرف هذا في ذلك الوقت، ولكن فيما بعد فهمتُ أنه كان يلبس كدوق إنكليزي أو بارون كان يتجول في عزبته وجاء كي يحتسي الويسكي. كان نوعاً من التمويه كي يمنع الشخصين اللذين يتوقع قدومهما منذ خمسة عشر عاماً من التعرف عليه، بالرغم من أنه لم يغيّر اسمه، وأي شخص يستطيع أن يعرفه إذا أراد. ربما لم يكن يختبئ، بل يلهي نفسه فحسب منتظراً مجيء هذا اليوم.

راقب كروسلي رملنغر وهو يشقّ طريقه إلى البار. لم يستدر جيبز كي ينظر، جلس فحسب وحدق مقابله إلى كروسلي، كما لو أنه بدأ يحسب شيئاً، أو أنه صار رجل شرطة ثانية، ودّياً في البداية، ثم غير ودّي. تساءلت إن كانا يحملان مسدسيهما، بما أن تشارلي قال إنهما معهما.

رآني رملنغر قرب صندوق الفونوغراف. "حسناً. هنا السيد ديل الآن"، قال وابتسم ولوّح بيده دون مبالاة. بعد لحظة، سيأتي إلى طاولة الرجلين الأميركيين. أردت أن أكون هناك كي ألاحظ ذلك، وأن أعرف ما سيحدث حين يلتقي ثلاثتهم، وآرثر رملنغر يعرف بالضبط من هما، ولكنهما لا

https://telegram.me/maktabatbaghdad

يعرفان أنه يعرف، والأميركيان بحاجة إلى أن يقررا إن كان مجرماً. إن أيّ شخص سيرغب برؤية هذا. كان هذا ينطوي على احتمال الخطر: إذا كان لدى الثلاثة مسدساتهم وقرروا أن هذا لا يمكن أن يستمر أكثر.

رأيت عيني رملنغر تنظران إلى الرجلين وتتريثان للحظة، بعد ذلك عاد للتحدث مع هواة رياضة الصيد الذين من تورنتو. وضع أحد هؤلاء الرجال يده إلى جانب فمه كي يقول شيئاً ما، كما لو أنه يبوح بسرّ. نظر إليّ رملنغر بسرعة، ثم مال نحو الرجل، الذي همس كلمات أكثر مما جعل الاثنين يضحكان. نظر إليّ رملنغر للمرة الثالثة كما لو كانا يتحدثان عني، ولكنني لم أعتقد أنهما كانا يفعلان ذلك. ثم استدار رملنغر نحو الرجلين الأميركيين وتحرك نحوهما.

نهض العصبيّ، كروسلي، على قدميه فوراً، مسح يده على طرف بنطلونه، ابتسم ابتسامة عريضة، ومدّ تلك اليد إلى رملنغر، كما لو أنه ارتاح لحدوث تلك اللحظة أخيراً. سمعتُ آرثر يذكر اسمه وهو يصافحه. سمعتُ "كروسلي" تُنطق. نهض الرجل الأكبر، جيبز، وصافح آرثر ونطق اسمه وشيئاً آخر جعل الاثنين يضحكان. سمعت جيبز يقول "كولومبيا البريطانية"، و"ميشيغان". ثم قال آرثر "ميشيغان"، وضحكوا جميعاً. كان آرثر كممثل يؤدي دور آخر شخص يمكن أن تشتبه بأنه فجّر الديناميت أو أنه قاتل. لم أصدق أن أموراً كهذه صحيحة، لكنّ حياته كلّها في كندا كانت بروفة لهذه اللحظة. إذا نجح، كما ظنّ أنه سيفعل، بما أنه يعتقد أنه عانى بما فيه الكفاية، فإن كلّ شيء سيكون رائعاً والحياة ستستمرّ. وإذا لم ينجح، وتم تحديده كمجرم، واضطر إلى مواجهة فكرة العودة إلى ميشيغان، لا أحد

يعرف ما يمكن أن يحدث، ولكننا سنكتشف.

لم أستطع سماع ما قاله الثلاثة أيضاً. جلس الرجلان الأميركيان. جرّ آرثر كرسياً إلى طاولتهما وحرك بنطلونه عند الساقين وجلس مفرشخاً رجليه على الكرسي بطريقة غير طبيعية ولكنه لم ينزع قبعته. شعرتُ بالنعاس لأنني كنتُ مستيقظاً معظم اليوم، ومن شعوري بالقلق من الرجلين الأميركيين. ولكنني بقيت حيث كنتُ واقفاً. جلس رملنغر وتحدث بحماس مع الرجلين لمدة خمس عشرة دقيقة ثم طلب لهما بيرة لم يشرباها. نظر نحوي وعبري عدة مرات حين كان يتحدث. ابتسم الرجلان الأميركيان كثيراً حيال أي شيء كانوا يقولونه. وفي نقطة ما قال رملنغر، بطريقة ليست من طبعه، فيما كان يضحك، "آه، نعم، نعم، نعم! أنت مصيب في هذا". هزّ الثلاثة رؤوسهم. ثم نهض رملنغر منتصب الظهر ومدّ ذراعيه وبدا كأنه يمدّد ظهره وقال: "سنرتّب كلّ شيء لكما غداً". اعتقدتُ أنه كان يشير بهذا إلى صيد الإوز ولا شيء يتعلق بالتعرف عليه كمجرم. شعرتُ أن الرجلين الأميركيين ربما وصلا إلى نتيجة مفادها أنه ليس الرجل الذي يسعيان وراءه. أو، لو كان هو، فإنه صار غير قابل للمعرفة بحيث يجب أن يُترك في السهوب الفارغة بسلام. (وقد قلتُ سابقاً إنني كنت أشعر بتشوش رهيب حيال ما يحدث، بما أنني لم أمر في تجربة كهذه في حياتي. ويجب ألا يتم اتهامي بارتكاب الخطأ لأنني لم أفهم ما رأيته).

أراحتني هذه الأفكار الأخيرة حين صعدتُ الدرج إلى غرفتي تحت الإفريز وأقفلت الباب وأويت إلى الفراش البارد فيما كانت لافتة ليونارد

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الحمراء تتمايل في الهواء. لم يكن لكوخي في بارترو قفل، وأسعدني أنه لدي واحد، فيما الناس يطوفون في القاعات في الليل. اعتقدت أن كل شيء سيكون رائعاً الآن. بدا آرثر مرتاحاً من لقائه مع الرجلين الأميركيين. كان مضيافاً، كما لو أن الأميركيين لم يكونا من كانا، بل كانا صيادي إوز كما ادّعيا، وسيغادران إلى كولومبيا البريطانية حالما يمضيان صباح صيدهما الذي سنرتّبه أنا وتشارلي. فهمتُ لماذا قال تشارلي إن رملنغر "مخادع". لقد خدع الرجلين الأميركيين بعدم إقراره من هما. ولكنني استنتجتُ سابقاً أن كونك مخادعاً أمر ضروري في العالم. وحتى لو لم يرتكب الجميع الجرائم، فإن الجميع قاموا بالخداع. لقد كنتُ مخادعاً لأنني لم أنبّه الرجلين الأميركيين أنني أعرف من هما، ولأنني أخفيتُ النقود عن الشرطة، ومارستُ الخداع حيال هويتي منذ اللحظة التي عبرتُ فيها الحدود وجلستُ في سيارة ملدريد دون أن أقول أيّ شيء. إن الشخص الذي أنا هو الآن لم يكن الشخص الذي سأكونه في غريت فولز، بالرغم من أن اسمي لم يتغيّر. وكان من غير الواضح إن كان سيحدث وأكون ذلك الفتى السابق مرة ثانية، ولكن سأواصل فقط الخداع طول حياتي، بما أنني شعرتُ بأنني سأذهب في الحال إلى وينيبيغ وأبدأ حياة مختلفة جداً وجديدة، بعد أن يُترك كل شيء في الخلف بما فيه الحقيقة كلّها.

وفيما كنت أدخل في النوم، حاولت تصوّر آرثر رملنغر الطويل والأشقر والمرتبك يضع قنبلة في علبة قمامة، في مكان ما تخيّلتُ أنه يُشبهُ ديترويت، ولكنني لم أستطع إبقاء الفكرة في ذهني، والتي كانت طريقتي في اكتشاف إن كان شيء ما مهماً. (لم أستطع أن أتخيل، مثلاً، كيف تبدو القنبلة). حاولتُ

التفكير بمحادثة بين الأميركيين وبيني. تصورتُ أننا نتحدث ونحن نسير في الشارع الرئيسي لفورت رويال، ليس في البرد، والريح العاصفة لتشرين الأول\أكتوبر، ولكن في يوم مشمس صاح في أواخر آب\أغسطس، كما كان حين وصلت. جيبز يضع يده الكبيرة على كتفي. أراد كلاهما أن يعرف إن كنت قريباً لآرثر رملنغر؛ هل أنا أميركي؛ لماذا قطعتُ كل المسافة إلى كندا، ولست في المدرسة حيث يجب أن أكون؛ أين والداي؛ ماذا يفعل رملنغر؛ هل هو متزوج؛ هل أعرف خلفيته؛ هل لديه مسدس؟

في لحظات يقظتي الأخيرة، لم أعتقد أنني أعرف الأجوبة على هذه الأسئلة، باستثناء المسدس، ولم أقلق منها. وكما يحدث غالباً لي، كنت نائماً ولكنني لم أصدق أنني كنت نائماً لوهلة. بالرغم من أنني "استيقظتُ" فجأة في وقت متأخر من الليل وسمعت الأبقار في زريبة المسلخ، تئن وتنتظر الصباح، وشاحنة تهدر وتخفّف السرعة عند الإشارة الضوئية أمام الفندق. بدت كل الأمور كما يجب أن تبدو. عدتُ إلى النوم في الساعات القليلة التي كنت ما أزال أملكها.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

(61)

إن اليوم التالي، الجمعة، الرابع عشر من تشرين الأول\أكتوبر، لن يبدو أبداً كأي يوم آخر، بل كيوم فائق للعادة في حياتي، وذلك بسبب الطريقة التي انتهى بها. فقد مرّ الكثير منه بالطريقة التي تمرّ بها أيام أخرى في تلك الفترة من الزمن. فكرت طيلة الصباح بالرجلين الأميركيين في الكوخ هناك، وفيما بعد بهما في فورت رويال، يتجولان أثناء النهار البارد الذي سقط الثلج أثناءه، ثم المطر، ثم الثلج ثانية. كانت الريح تضرب الإشارات الضوئية المعلقة والثلج يتجمّع على الأرصفة والمواطنون يقون في منازلهم إذا استطاعوا. لم أمتلك أية فكرة ما الذي سيفعله الرجلان الأميركيان، أو ما الذي سيحدث. ففي الضوء الملطّخ بالأحمر للصباح الباكر أوقفتُ بشكل كامل تفكيري المضاد: أنهما لم يكونا من كانا، أو أن رملنغر لم يكن من كان (مجرم)، أو أن الرجلين الأميركيين سيتخليان عن مهمتهما في تحديده

كهارب، ثم يعملان على هذا. لم أعرف إن كان بوسعهما، في مقابلة واحدة من 15 دقيقة في بار محتشد مليء بالدخان، أن يتخذا القرار الذي يريدانه (أن يتأكدا إن كانت كلمة "مجرم" مكتوبة على وجه رملنغر، أو إن لم تكن). وهكذا من المرجّح أنهما لم يعرفا على وجه التحديد ما الذي يجب أن يفعلاه إذا صدقا أنه مذنب. ربما كانا يحاولان أن يقررا في تلك اللحظة نفسها. فقد لمّح تشارلي ـ على الأقل فكرت أنه لمّح ـ أنه ربما قد يقرران قتله وقد أحضرا مسدسين من أجل هذا؛ أو خطفه كي يمثل أمام القاضي في ميشيغان. ولكن هذا لم يبد أنه يلائم طبيعتهما والإرادة الطيبة التي أظهرها الثلاثة في البار. لم يصنع أي من هذا صورة واضحة، بالرغم من أنني فكرت بهذا باستمرار أثناء ذلك اليوم. إن الفكرة أحدثت أزيزاً مستمراً في معدتي وفي الأعلى تحت أضلاعي، مما جعلني أعتقد أنها مهمة، وأنني يجب أن أنتبه.

أخذت أنا وتشارلي مجموعات أخرى من هواة رياضة الصيد إلى حقول القمح قبل الفجر. جلستُ في الشاحنة وأحصيت الإوزات المتساقطة من مجموعات الأشراك الثلاث. ذهب تشارلي إلى صفوف الحفر وقام بصيحاته، رغم أن السماء المنخفضة والثلج والريح جعلوا الإوز ينخفض مقابل النهر ويميّز الأشراك بحدة أقل، وقد قُتل منه الكثير. وقفت أنا وتشارلي كما دائماً ونظّفنا الإوز الميت في البناء المعدنيّ. لاحظت أن سيارة الرجلين الأميركيين الكرايزلر غير مصفوفة عند الكوخ. مما أشار إليّ أنه من المحتمل أنهما رحلا.

أخبرني تشارلي، على أي حال، أن رملنغر طلب أن نأخذ الأميركيين إلى الحفر في الصباح التالي ويجب أن نضعهما في مكانين جيدين. فقد غادرت إحدى مجموعات تورنتو، ويوجد مجال الآن. أحضرا بندقيتيهما

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ومعدات صيدهما ويريدان الذهاب. لم أسأل عن أية تفاصيل عن الرجلين الأميركيين: رأي تشارلي بهما حين أخذهما إلى الكوخ؛ أو ما يمكن أن رملنغر كشفه حين وجّه تشارلي حول الصيد. كان تشارلي في مزاج كئيب وقام بملاحظات غريبة رداً على كلمات تفوهت بها فيما كنا ننظف الإوز وننزع أحشاءه. إحدى ملاحظاته: "كثير من الرجال الشجعان لديهم جراح في رؤوسهم"، وكانت أخرى: "من الصعب الاستمرار في الحياة دون قتل أحد ما". وكما قلت، كان غالباً في مزاج سيء لأسباب لم يفصح عنها، عدا الشكوى من طفولته المريعة ومشكلات أمعائه. كان من الأفضل عدم إثارته، بما أنني أردتُ أن أحافظ على وجهة نظري ورأيي بالأمور، وبما أن مزاجه السيء وألفاظه الغريبة يمكن أن تهزم كلّ ما فكرت به. إن كل ما ظننته، من القليل الذي قاله، هو أننا إذا أخذنا الأميركيين إلى الصيد في الصباح التالي، كما لو أنهما هواة رياضة صيد إوز، فإن صيد الإوز ليس كل ما سيحدث. ستحدث أمور أخرى، لأن الرجلين الأميركيين ليسا هاويي رياضة صيد فحسب. إنهما رجلان لهما نوايا.

مرة أخرى، لم أر آرثر رملنغر في الظهيرة، الأمر الذي كان قابلاً للملاحظة في ضوء الظروف الحالية. رأيتُ الرجلين الأميركيين يتناولان غداءهما وحدهما في غرفة الطعام، حيث كان هواة رياضة الصيد الآخرين محتشدين يتحدثون عن صيدهم الصباحيّ. أُرسلتُ في مهمة واحدة إلى الصيدلية كي أحضر زجاجة مسحوق بودرة للتعقيم، وفي مهمة أخرى إلى مكتب البريد كي أشتري طوابع لبطاقات بريدية كي تُرسل إلى أميركا. انشغل الرجلان

الأميركيان في محادثة متوترة ولم ينتبها إليَّ أو إلي أي شخص آخر. شعرتُ بأنه من السخف أن يمضيا اليوم في التحدث، على مرأى الجميع، فيما يُعرف الكثير عنهما، وعن نواياهما؛ وأن رجلاً قُتل؛ وأن رملنغر متنبّه لهما وربما يتخيل في شقته ما الذي سيفعله بهما؛ وأنهما يملكان مسدسين ومن المتوقع أن يستخدماهما. إن المقدمة للأمور السيئة جداً قد تكون سخيفة، كما قال تشارلي، ومن المحتمل أن تكون أيضاً عرضية وغير قابلة للملاحظة. وهذا يستحق المعرفة، بما أنه يشير إلى منشأ كثير من الأحداث السيئة: على بعد إنش واحد فقط من الحياة اليومية.

إن الشيء الوحيد الذي فعلته كي أجعل نفسي مرئياً للرجلين الأميركيين - لأنني كنت ما أزال أصدق أن الحديث معهما سيكون مغامرة - هو أنني سألتُ هواة رياضة الصيد على الطاولة التالية، الذين كنت أعرفهم من الصباح، إن كانوا قد استمتعوا. لولا ذلك لما سألتهم أبداً عن الأمر، ولكنني كنت آمل أن الرجلين الأميركيين سيسمعان لكنتي الأميركية، التي افترضتُ أنني أملكها، ويقولان شيئاً لي، لكن لم ينظر أي منهما حوله أو يتوقف عن التحدث. سمعتُ أحدهما، كروسلي، المتوتر ذا الشعر الأسود، الذي بدا أنه ينظر إلى الأمور بجدية أكثر من جيبز المستدير والأصلع، يقول: "ما من شيء موثوق. هذه مجرد قصة لعينة". افترضتُ أنهما يتحدثان عما يجب أن يفعلاه، وأن هذا سبّبَ لهما مشكلة. ولكنني لم أعرف ما الذي تعنيه تلك الكلمات حقاً، ولم أرد أن أبدو مسترقاً للسمع، بالرغم من أنني كنت. وهكذا غادرتُ كي أنام وأرتاح قليلاً.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

(62)

"أحضرتُ لك هذا الكتاب الجيد"، كانت فلورنس تقف في الردهة المعتمة خارج غرفتي، في الطرف المقابل من شقة رملنغر. كنت آخذ قيلولتي وقد أجفلتُ، وأجبت على قرعها مرتدياً ثيابي الداخلية فحسب. واعتقدت على الفور أنها خرجت من شقة رملنغر. قالت: "في هذا الكتاب بعض الخرائط الجيدة. لقد تحدثنا عنه. وهكذا..." نظرتُ إلى الكتاب الثقيل، ثم وضعتهُ في يدي وابتسمت.

كان هناك لمبة واحدة تضيء المدخل خلفها. لم يأت أحد إلى بابي سوى تشارلي كوارترز، كي يوقظني باكراً. لن أفتح الباب له دون ثياب. "يجب أن ترتدي بعض الملابس". استدارت كي تذهب، كما لو أنني مرتبك.

كانت قد قالت إنها ستحضر لي كتاباً عن تاريخ كندا. وكان هذا هو. على ظهره إشارة المكتبة. طُبع في أعلى صفحاته: المكتبة العامة لمديسين هات،

وكان عنوانه بناء الأمة الكندية، من تأليف السيد جورج براون. كنا قد ناقشنا من قبل ذهابي إلى وينيبيغ كي أعيش مع ابنها، واحتمال أن أصبح كندياً. فكّرتُ بالأمر. سيكون هذا أفضل لي كما شعرتُ، بالرغم من أنني لم أمض في كندا فترة طويلة ـ ستة أسابيع فقط ـ ولم أكن أعرف تقريباً أي شيء عنها. أحتاج إلى معرفة الأشياء الأساسية كالنشيد الوطني وقَسَم الولاء (إذا كان لديهم واحد)، وأسماء الأقاليم ومن الرئيس. وعموماً اعتقدتُ أنني ما أزال أستطيع القول إنني لا أحبها، بما أنني لم آت إلى هنا بمشيئتي. ولكن أن أكون كندياً أمر لم يبد مختلفاً عن قولي أنا وبيرنير إننا "عشنا" في أيٍّ من البلدات التي انتقلنا إليها وذهبنا إلى المدرسة، ثم انتقلنا بعيداً. لقد عشتُ في غريت فولز أربع سنوات ولم أشعر أبداً بأنني أنتمي إليها. إن المدة التي تقضيها في مكان لا يبدو أنها تهم كثيراً.

"أعدْهُ إليّ حين تنتهي منه فحسب"، قالت فلورنس. خطت عائدة في المدخل، الضوء ملامحها الناعمة غير قابلة للتمييز. "لم أقصد أن أزورك دون علم مسبق".

"شكراً"، قلت وحملت الكتاب على صدري. شعرت أن كلّ شيء فيّ مرئي.

قالت فلورنس وهي تلوّح بيدها: "لدي أولاد، وأنت مثلهم".

غادرت عندئذ. أغلقتُ بابي وأقفلته. استطعت سماع وزنها على الدرج حتى القاع.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

(63)

عثر عليّ رملنغر في مطبخ ليونارد، حيث كنت أنتظر تشارلي للذهاب إلى استطلاعنا المسائي. كنت أشرب فنجان قهوة مع السكر والحليب، وهي عادة تعلمتها بسبب تعرضي للبرد في الشاحنة كل صباح. كنت مرتدياً ثيابي الدافئة: سترتي القطنية ذات المربعات وقبعتي، بنطلوني الصوفي وبوطي الذي من دايتونز. كنت أشعر بالحرارة الشديدة في المطبخ المليء بالبخار، حيث الموقد مشتعل. لم يكن أكبر من مطبخ في منزل عائلي، فيه براد قديم، وموقد طبخ حطبيّ، قشّ للإشعال، وطاولة لتحضير الطعام، وحجرة مؤن. كانت السيدة غدينز تسمح لي بالدخول لأنه لم يكن هناك مكان آخر لي أذهب إليه، باستثناء غرفتي. ولكنها لا تتحدث معي أبداً. كانت تسلق الخضار وتجهّز اللحم المفروم لطبخه في الفرن. عبست في وجه رملنغر، كما لو أنهما يتشاجران، وربما كانا كذلك.

"أريدك أن تأتي معي الآن"، قال لي آرثر. كان مصمّماً جداً ومتأكداً من أمر ما، ومختلفاً عما كان عليه سابقاً. لم يكن قد حلق، وبدت عيناه متعبتين، وتفوح من نَفَسه رائحة الخلّ. كان يرتدي سترته الجلدية الثمينه ذات الياقة الفرائية، وقبّعته اللبادية البنية. جاء من الخارج وكان خداه حمراوين. "يجب أن نذهب في نزهة قصيرة بالسيارة الآن".

"أنا أنتظر تشارلي". كنت أتعرق في ثيابي. لم أرد الذهاب معه.

"لقد غادر. تحدثتُ إليه. سيقوم باستطلاعه مع الولدين الآخرين".

"إلي أين سنذهب؟" كنت أعرف، أو كنت أعرف بشكل عام، ولهذا لم يكن هذا في الحقيقة سؤالاً. كنا ذاهبين كي نفعل شيئاً ما مع الرجلين الأميركيين، اللذين لا شك أنهما اتخذا قرارهما الآن. سأكون أكثر سعادة لو بقيت في المطبخ، منتظراً تشارلي. فقد صار هذا مألوفاً لي من قبل، وأحببته، ولكن تشارلي لم يكن قادماً، ولم أعتقد أنه لدي خيار.

"يريد هاويا رياضة الصيد التحدث معي"، قال رملنغر، وعيناه ترمشان. بدا كأنه في نوع من الحركة، بالرغم من أنه معنا في المطبخ. لم يكن يتحدث أبداً مع هواة رياضة الصيد إلا حين يدور في البار وغرفة الطعام. كان تشارلي هو من يقوم بهذه الأمور. "لا بد أنك رأيتهما الليلة الماضية"، قال. ابتسم على نحو غير متوقع، وأدار ابتسامته نحو السيدة غدينز، التي أدارت ظهرها له واعتنت بالموقد. "سيكون من الجيد أن تذهب. سيوسّع هذا من وجهة نظرك ويشكّل جزءاً من تعليمك. الرجلان أميركيان. ستتعلم شيئاً قيّماً".

تحدث بطريقته الخطابية الانفعالية، كما لو أن الأشخاص الآخرين يسمعونه، وليس أنا والسيدة غدينز فحسب، أو كما لو أنه بحاجة إلى سماع

https://telegram.me/maktabatbaghdad

نفسه. لا أحد يقول له لا إلا فلورنس، التي بمقدورها أن تمنعني من الذهاب معه بكلمة فقط. كانت أكبر منه. ولكنها لم تكن موجودة. توتّر كلّ شيء في المطبخ فجأة: الحرارة، الطنين تحت أضلاعي، الضوء، فقاعات الخضراوات التي تُسلق. لم أستطع أن أقول لا معتمداً على نفسي فقط.

قلت:"هل هما الرجلان اللذان من ديترويت؟"

رفع رملنغر رأسه جانباً ونظر إلى الأسفل نحوي، وقد تلاشت ابتسامته، كما لو أنني تلفّظت بشيء مفاجئ. لم أكشف أي شيء كان يجب ألا أكشفه. كنت حاضراً حين وصل الأميركيان وعرفت ما عرفته من هذا. ولكنه لم يكن يعرف ذلك. بدا كأن هذا أرعبه. نظر إليّ بغرابة. كنت أريد أن أقول شيئاً فحسب.

قال:" ما الذي تعرفه عن الأمر؟ ممن سمعت؟"

"كان هنا حين وصلا"، قالت السيدة غدينز، وهي تدير ظهرها لي. "سمعهما". كانت تحرك الإناء.

"هل هذا صحيح؟" دفع رملنغر نفسه إلى الأعلى بشكل مستقيم جداً وأرجع رأسه الأنيق إلى الخلف، كما لو أن هذا سينتزع الحقيقة."هل كنت هناك؟"

"نعم، سيدي"، قلت. "حسناً"، قال رملنغر. نظر إلى ظهر السيدة غدينز. "إذا كنت تقولين هذا". "يجب أن أدخل إلى المرحاض"، قلتُ. توترت أعصابي كثيراً في تلك اللحظة. "اذهب، إذاً"، قال آرثر، وهو يخطو عابراً لي. "سأقابلك في مكان صف السيارات. إن المحرك دائر. أسرعْ".

خرج من باب المطبخ الخلفيّ، مدخلاً البرد، ثم أغلقه، وتركني في الصمت

مع السيدة غدينز، التي لم تتفوّه بكلمة أخرى.

لم أكن بحاجة لاستخدام المرحاض بل للتفكير بشيء ما بوضوح، فقد اكتشفتُ أنني لا أقدر أن أفعل ذلك في حضور رملنغر. كان لدي الكثير من الوقت منذ البارحة للتفكير بكل شيء، وللتدقيق بالأمور التي كنت بحاجة لمعرفتها، والاقتناع بعدم معرفة أن كلّ هذا كان صحيحاً، والشعور بأن هذا ربما لم يكن الأسوأ، وأنه لن يحدث أي سوء بسبب الرجلين الأميركيين. كان أبي يردد مقولة مفادها أنّ تجاربنا الأكثر عمقاً أحداث ماديّة، خاصة حين يعذّب أمي أو بيرنير أو أنا شيء نكون قلقين منه. وقد اعتبرتُ هذه المقولة صحيحة دوماً، بالرغم من أنني لم أعرف ما الذي عنتْهُ بدقة، ولكنها صارت جزءاً من إحساسي بأنه من السويّ الاعتقاد بأنّ الأحداث المادية المهمة، التي تغيّر الحيوات ومجرى القدر، هي في الحقيقة نادرة، ولا تحدث أبداً تقريباً. وقد برهن ذلك اعتقال والديّ المريع بالمقارنة مع حياتي من قبل، حيث لم يحدث إلا القليل من النشاط الماديّ، ولم يكن هناك سوى الانتظار والتوقع. وبالرغم من تصديق ما قاله والدي عن أهمية الأحداث المادية، صرت أفكر أن ما يهم أكثر (كان هذا اعتقادي المحمي كطفل) هو كيف تشعر حيال الأشياء؛ وما تفترضه؛ وما تفكر به وتخشاه وتتذكره. وكانت الحياة عموماً بالنسبة لي أحداثاً تجري في ذهني، ولم يكن هذا غريباً، مفترضين الأسابيع الأخيرة، حيث كنتُ وحيداً في كندا ودون مستقبل أعمل عليه.

بالتالي، حاولت أن أجعل تفكيري في اليوم الأخير أن يكون القوة التي تحدد ما سيحدث، بسبب وصول الرجلين الأميركيين، واعتقدتُ أن

https://telegram.me/maktabatbaghdad

النتيجة لن تكون أي شيء إطلاقاً. فكرتُ، مثلاً، أن آرثر رملنغر سيسيطر بشكل كامل على الموقف وينهيه كما يريد، لأنه كان يتوقع وصول "هذين الاثنين" (كما دعاهما الآن)، ويعرف عنهما تفاصيل مبالغاً فيها، كاسميهما وعمريهما والسيارة التي يقودانها، وأنهما مسلحان ولكنهما غير ملتزمين كثيراً بمهمتهما. اعتقدتُ أيضاً أن الرجلين الأميركيين لن يكونا قادرين أبداً على تحديد أي شيء مهم يتعلق به من مجرد النظر إليه. لم تكن الجريمة مكتوبة على وجهه، أو على وجه أي شخص آخر. وفكرت كيف من الممكن مصارحة شخص غريب بشكل كامل بموضوع كونه قاتلاً، واستنتجتُ أن هذا سيكون صعباً جداً، الأمر الذي كان الرجلان الأميركيان يدركانه دون شك كما تبيّن حين استرقتُ السمْع إليهما في غرفة الطعام. بدا لي كأن الرجلين الأميركيين سيتصرفان مع رملنغر بطريقة متناغمة مع طبيعتهما، دون تعقيد وبإخلاص وطيبة قلب. سيحتاجان إلى مخاطبته، وإلى التفكير بموضوعه، وتفسير استنتاجاتهما، وطرح خطة، وبعد ذلك سينكر رملنغر معرفة أي شيء، وسيقول لهما إنهما مخطئان بشكل كامل، الأمر الذي اعتقد "أصحاب النفوذ" في أميركا أنه الشيء الصحيح الذي يجب قوله. بتلك الطريقة سيُحلّ كل شيء. وسواء صدقّا رملنغر أم لا، سيُجبر الرجلان الأميركيان على قبول إنكاره وسيعودان - ثانية بشكل متناغم مع شخصيتيهما والحماس المحدود الذي يشعران به - إلى منزلهما في ديترويت. ما الشيء الآخر الذي يمكنهما فعله؟ لم يكونا من نوع الرجال الذين سيطلقون عليه النار. ربما سيذهبان إلى صيد الإوز مع تشارلي ومعي في الصباح.

فكرتُ أيضاً كيف يمكن أن يقترب الرجلان الأميركيان للتحدث مع

رملنغر (بما أنه لن يقترب منهما). هل سيتحدثان معه لدى عبوره في رواق الفندق؟ هل سيبادر جيبز حين يسير رملنغر إلى سيارته ويقول: "هل يمكن أن نتحدث معك على انفراد؟ لدينا شيء نخبرك به". (أو "نسألك"، أو "نسألك عنه"). كما لو أن الرجلين يريدان ترتيب زيارة فتاة إلى كوخهما، أو أن يعرفا أكثر عن لعب القمار. سيكون آرثر واثقاً، وتهرّبياً. "ليس في غرفي، بل حيث تقيمان، في الكوخ، حيث يمكن أن نكون على انفراد".

فكرّت بكل هذا، بقوة الفكر تعمل ضد الأحداث المادية، ولكن بدا الآن كأن الأحداث المادية قد بدأت بالحدوث. وسواء كانت أفكاري صحيحة أم لا فإن هذا لم يعد أمراً يستحق السؤال، وتبيّن لي أن أبي كان مصيباً.

نظرتُ من نافذة حمام الطابق الثاني، وصدري ما يزال يطنّ. في باحة صف السيارات، في دوامة من الندف الرطبة والمطر اللذين يتساقطان معاً، وقف رملنغر إلى جانب سيارته البويك، التي كانت مصابيحها الأمامية مضاءة، ومسّاحاتها تعمل، ومحركها ينفثُ دخاناً أبيض في الليل. كان يتحدث مع رجل لم أره أبداً، رجل طويل ونحيل يرتدي قبعة صوفية وسترة واقية لونها أمغر وحذاء عادياً، يزمّ كتفيه كما لو أنه يعاني من البرد. قبعة الرجل تلتقط الثلج الذي تدفعه الريح فيما رملنغر يتحدث على نحو جدي معه، ذراعه الأيسر يتحرك أولاً نحو فندق ليونارد، ثم باتجاه الطريق السريع نحو بارترو، كما لو أنه يصدر توجيهات. لم ينظرا إلى الأعلى نحوي. في نقطة ما، وضع آرثر يداً على كتف الرجل الطويل ـ بدا لي الرجل في الثلاثينيات من عمره وبطول آرثر، لكنه أشد نحولاً ـ وأشار بيده الأخرى نحو الطريق السريع ثانية. كان الاثنان يهزّان رأسيهما. افترضت أن هذا

https://telegram.me/maktabatbaghdad

يتعلق بالرجلين الأميركيين اللذين كنا سنتحدث معهما.

جعلني هذا أتساءل لماذا يجب أن أنخرط في الأمر، ولماذا سيأخذني رملنغر، وماذا يمكن أن يعني أنني جزء من هذا ـ نقطة مرجعية، كما قال تشارلي ـ في تلك اللحظة استدار رملنغر وعبس ناظراً إلى نافذة الحمام. تلاشت في تلك اللحظة الندف الكبيرة والمطر البارد، كثقب في العاصفة، وكشفتني. بدأ فمه يتحرك، يقول شيئاً بدا غاضباً. لوّح بذراعه ـ إشارة لي لم تكن معتادة منه ـ ثم قال شيئاً آخر للرجل الذي يعتمر القبعة، الذي نظر نحو الأعلى إليّ ولكن لم يصدر أية إيماءة، واستدار وبدأ السير بعيداً عبر باحة صفّ السيارات في الظلمة. ما كان يجب أن أنتبه إليه لأسابيع وتجاهلته بدأ يصيح بي. تمنيت وصول فلورنس، تمنيت لو أنني أخذتُ نقودي المدخرة، التي كنت أحتفظ بها في حقيبتي، وركبتُ الباص وسافرتُ بعيداً عن فورت رويال وآرثر رملنغر، كما قال تشارلي. تمنيت حتى لو أنني أخذت عشرين دولاراً مما أعطيته لبيرنير. شعرتُ بأنني في المصيدة وغير قادر على المقاومة. ابتعدتُ عن النافذة ونزلت الدرج إلى حيث كان رملنغر ينتظرني.

(64)

"إذا قلنا شيئاً يستند إلى كذبة فإنه لا يشكل في الحقيقة زعماً قوياً"، قال آرثر ونحن نبتعد في السيارة. كان المزيد من الندف الكبيرة يرقص في الأضواء الأمامية، والطريق السريع يمتد أمامنا كنفق. كان يتكلم بحماس، كما لو أننا نتبادل محادثة منعشة. "أنا أكثر اهتماماً بكيف تتماسك تلك الأكاذيب. تعرف؟" نظر إليّ، يداه الكبيرتان بخاتمه الذهبي على قمة عجلة القيادة. عرفت أنه نوى متابعة الحديث. كان ضوء الراديو مشتعلاً، ولكن الصوت مخفّض. "إذا تماسكتَ طيلة حياتك. حسناً... " جعل فكه ينتأ إلى الأمام. "ما الفرق؟ لا أستطيع أن أرى واحداً". نظر إليّ ثانية. أرادني أن أوافق. تحت حافة قبعته اللبادية لم تكن ملامحه مميّزة في الظل.

"كلا، سيدي"، قلت.

لم نكن نسوق بالسرعة المعتادة. بدا كأنه يريد التحدث، لا أن يصل إلى

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بارترو.

قال:"لا تستطيع أن تترك كل هذا خلفك. مرة، اعتقدت أنه بوسع المرء أني يفعل هذا. إن اجتياز حدود لا يغيّر في الحقيقة أي شيء. يمكن أيضاً أن تعود. سأفعل لو كنت مكانك. على الجميع أن يستمتعوا بفرصة ثانية. لقد ارتكبتُ أخطاء. كلانا ارتكب".

لم أستطع متابعة ما قاله. افترضتُ أني ارتكبتُ خطأ لأن أبي اعتاد القول:"إن الإنسان يذهب إلى المشاكل كالشرارات المندفعة إلى الأمام"، وكان يعني الأخطاء. ولكنني لم أعرف أية أخطاء ارتكبتُها أنا يعرف عنها رملنغر. كنت على وشك القول: لم أرتكب أية أخطاء تعرفها أنت، ولكنني لم أرغب بأن أكون مجادلاً.

قال: "بالطبع، يزعجني أنني سأموت هنا. سأخبرك هذا". كان ما يزال يتحدث بأسلوبه الخطابي. "اسأل نفسك، من أجل ماذا أعيش؟ كي أهرم وأموت فقط؟"

"لا أعرف"، قلت.

عبرنا ظبْيتين على جانب الطريق السريع، يلمع فراءهما ووجهاهما وعيناهما في الثلج العاصف. لم تتحركا حين عبرنا، كما لو أنهما لم تشاهدا البويك أو تسمعانها. رملنغر ما يزال في الحالة الذهنية المصممة التي هو فيها. كان مختلفاً عما كان عليه حتى آنذاك، مما جعلني أتساءل كيف كان يشعر. لم أمض الوقت وأنا أفكر بكيف يشعر الأشخاص الآخرون، لكنّ بيرنير كانت تخبرني دوماً. لم يذكرْ الرجلين الأميركيين بينما كنا في السيارة. بدا كما لو أن اللقاء غير مهم، ويجب ألا يقال عنه أيّ شيء.

نظر إليّ ثانية، وهو يسوق عبر العاصفة الثلجية. "أنت عميل سرّي، أليس كذلك؟" بدا كأنه يتسم تحت حافة قبعته لكنه لم يفعل. "لا تتحدث عن الأمر، أليس كذلك؟"

قلت: "أتحدث. لا أحد يسألني أي شيء".

قال: "الببغاوات تتحدث، أيضاً، بسبب اليأس فقط. هل لهذا تتحدث؟ أنا مهتم بك. تعرف هذا، أليس كذلك؟"

"نعم، سيدي"، قلت، بالرغم من أنني لم أعرف ماذا تعنيه عبارة "عميل سري".

"الآن". عدّل ذراعيه وأمسك عجلة القيادة بشدة أكبر وحدق إلى الأمام في دوامة الثلج. "يمكن أن تسمع الليلة أشياء ستُقال ـ حين ننزل هنا ـ يمكن أن تفاجئك. قد يقول الرجلان إنني فعلتُ أموراً لم أفعلها. هل تفهم؟ ربما حدث هذا لك من قبل. أحد ما يعتقد أنك فعلتَ شيئاً ما لم تفعله. هذا كل ما يجب أن يعيش معه العملاء السريون. أنا عميل سريّ أيضاً".

شعرتُ بأنه عليّ أن أقول نعم أو ربما سيشتبه بأنني أعرف ما فعله، الأمر الذي يمكن أن يؤدي إلى نتيجة سيئة بالنسبة لي، بالرغم من أنني كنت سأسمع القصة بأية حال. إن معرفتها من قبل لا يمكن أن تحدث فرقاً الآن. ولكنني قلت: "نعم، سيدي"، بالرغم من أن هذا لم يكن صحيحاً. لم يتم اتهامي أبداً بشكل غير عادل.

قال رملنغر: "الآن، إذا سمعتني أقول لأولئك الرجلين إنك ابني لا تكذّبني. هل فهمت؟ هل هذا مُرْض؟ بالرغم من أنني لستُ كذلك".

تبدّتْ رافعة حبوب بارترو في مدى بصرنا، بارزة في الظلام الثلجي،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الأبنية الفارغة المألوفة كلها مرئية على طول واجهة الطريق السريع. مقطورة تشارلي تتوضع إلى جانب بنائه المعدنيّ، الضوء الداخلي مرئيٌّ عبر الشقوق في الأغطية الورقية للنافذة. لم تكن شاحنته موجودة. هناك أضواء في الكوخ أيضاً، والكرايزلر الأميركية واقفة في الشارع الوعر، الثلج مكوّم على زجاجها الأمامي وغطاء محركها. كنا ذاهبين إلى هناك.

صُدمتُ من أن رملنغر سيقول إنني ولده. لقد خطرتْ لي أفكار من هذا القبيل، ولكنها تلاشت حين قال تشارلي ما قاله في الشاحنة في اليوم السابق. شعرتُ أنه من الغريب أن يقول رملنغر هذا الكلام فشعرت بالغثيان، وفقدتُ القدرة على التركيز على ما كان يسألني عنه. ومهما كان ما تخيّلتهُ، فإن آرثر رملنغر ليس أبي. أبي في السجن في نورث داكوتا، وليس هذا الرجل الذي يرتدي قبعة في الظلام.

"أنت لا تتحدث بما يكفي. تشارلي قال هذا". نظر إليّ رملنغر بحدة. كنا قد انعطفنا في شارع ساوث ألبيرتا، والبويك تهتزّ وتتأرجح فوق الأخاديد وكتل الرصيف التي دمرتها العناصر. المنازل الفارغة أمامنا ومكشوفة في الضوء الأمامي؛ ألعاب الكرنفال المحطمة، صف أشجار الكاراغانا.

"هل تحدّث هذان الرجلان معك؟" كنا قد وصلنا كي نصفّ خلف سيارة الرجلين الأميركيين، التي كانت لوحاتها مغطاة بالثلج والجليد. لم يعد المطر يتساقط ولكن سقوط الثلج مستمر.

"كلا، يا سيدي"، قلتُ. لم أقل إنني موافق على أن يقول إنني ابنه. كان كلُّ شيء فيه خداع ولم أعرف لماذ عليَّ أن أكون جزءاً منه. وهو لم يكن يكترث بالطبع إن وافقتُ أم لا.

"انظرْ إليّ الآن"، قال رملنغر وهو يطفئ المحرك، ثم الأضواء الأمامية، جاعلاً نفسه شخصاً مهيباً في قبعته. أخذ نَفَسَاً عميقاً. احتكت سترته وأصدرت رائحة الجلد. "لا يوجد سبب كي تنزعج. دعني فقط أظهر لهذين الجلفين نوع الرجل الذي أنا. ليس عليك قول أي شيء".

لم يعد يتظاهر أن وجوده هنا يتعلق بالصيد أو القمار أو الفتيات. لم يخبرني أي شيء، لكنه كان يقرّ بأنني أعرف، بما أنه كان يعرف.

أخذتُ أنا نَفَساً عميقاً وحاولت أن أتعامل مع شعوري بالغثيان. لم يتوقف الطنين تحت أضلاعي. أردت أن أقول إنني لا أريد الدخول. لم أرد أن أتنفّس الروائح الفاسدة وغبار الجص المتعفّن، وأجعل السقف يضغط عليّ، والضوء الكئيب الفلوري اللامع كزنزانة سجن. بالكاد عرفتُ كيف أن شيئاً ما "يعني" شيئاً آخر، ولكن الكوخ والرجلين الأميركيين اللذين ينتظراننا في الداخل، عنوا شيئاً سيئاً لم أرد أن أقترب منه ثانية.

ولكن إذا لم أذهب، ستحدث مشاجرة. إنّ لرملنغر مزاجاً عنيفاً، كما قال تشارلي، مصنوعاً من إحباطاته. وبينما لم يفعل أي شيء سيء ضدي أبداً، فإنه يمكن أن يتحوّل ضدي إذا أصرّيت على البقاء. لم يكن اهتمامه بي يشكل أي شيء. هكذا هم بنو البشر، كما اعتقدت: إنهم لا يرتبطون بمعظم الأشياء التي يقولونها أو يشعرون بها.

سيكون الأمر أسهل إذا ذهبتُ. يمكن أن يشرح الرجلان الأميركيان موقفهما بالطريقة المعقولة التي اعتقدت أنها طبيعية لهما، وبمقدور رملنغر أن ينكر كل شيء ويخدعهما، ثم يستطيعان الذهاب، وغداً أخبر فلورنس أنني جاهز للذهاب إلى وينيبيغ. واعتقدتُ أن رملنغر لن يفعل أي شيء كي

https://telegram.me/maktabatbaghdad

يوقفني. كلّ هذا سينقذني من شيء سيء.

"لستُ منزعجاً"، قلتُ، وقد ذهب الغثيان من حنجرتي، طرده إدراك بأنني سأفعل شيئاً أسهل لو دخلت.

"اعتقدت أنك تمرُّ في لحظة اضطراب"، قال رملنغر. وجهه في الظل. تحرك في مقعد السيارة، خبط الأرض ببوطه.

"لا أمرّ في شيء كهذا"، قلت.

"حسناً، جيد. لأنه لا يوجد شيء يُخشى منه لدى هذين. لا يعرفان أي شيء. ليس علينا أن نمضي وقتاً طويلاً هنا. بعد ذلك يمكن أن نذهب للعشاء مع فلورنس".

"حسناً"، قلت. فكرت كم سأكون سعيداً لو أنّ فلورنس هنا. سيكون لديها شيء تقوله كي تبقيني في السيارة معها. ولكنني كنتُ وحدي، وهكذا سيكون الأمر. خرج رملنغر من السيارة، وخرجت، وسرنا إلى الكوخ معاً.

(65)

قرع رملنغر الباب الصغير داخل الرواق ذي النوافذ وأنا أقف خلفه. فُتح الباب على الفور تقريباً. كان جيبز الأكبر سناً هناك وهو يبتسم، واضعاً شعره المستعار ومرتدياً قميصه الأخضر ذا المربعات وبنطلوناً قطنياً بدا جديداً. كروسلي يجلس على أحد السريرين الحديديين لأن الجو بارد في الداخل، كما هو الأمر دائماً. حدّق بنا بتصميم. بديا مختلفين عن الرجلين الأميركيين اللذين رأيتهما يحجزان في اليوم السابق، ويتحدثان مع رملنغر فيما بعد في البار، كأن لديهما هدفاً لا تتسع له الغرفة الصغيرة، كما لو أنها صغرت، بالرغم من أنها كانت المطبخ نفسه الذي نمتُ فيه. لم يتغيّر أي شيء. رائحة الأوساخ الباردة تجعلك تفكر بأن الأرض العارية هي تحت المشمع مباشرة، مختلطة برائحة الخزامى المنبعثة من الشمعة التي أحضرتها. كان أحدهما يدخن سيجاراً.

كان السخّان مشتعلاً ومحمرّاً كي يولد حرارة. توهّج الضوء الفلوري،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

مصدراً ضوءاً باهتاً. الذئب (الدمية) ما يزال فوق البراد، والباب إلى الغرفة الخلفية ـ حيث وضعتُ العلب الكرتونية ـ مغلق. (ربما هناك شخص ثالث، كما اعتقدت. لم أعرف من هو). كانت حقيبتا الأميركيين كل ما هو مختلف عما كان عليه الأمر حين كنت هنا. واقفاً وراء رملنغر، تساءلتُ ما الذي يمكن أن يفعله الأميركيان، كيف سيثيران الموضوع الذي قدما لإثارته، بعد أن ساقا كل هذه المسافة. لقد اعتقدا أنه من يبحثان عنه. أين وضعا مسدسيهما؟

"لقد أحضرتُ ولدي معي"، قال رملنغر بصوت مرتفع. صار صوته ولكنته مختلفين، أكثر سهولة. انحنى كي يدخل من الباب. وضع يده على قبعته كي يمنعها من الانزياح. ملأنا الغرفة على الفور وشعرت بأنني غير قادر على التنفس بشكل طبيعي.

نظر جيبز إلى كروسلي على السرير ضامّاً ركبتيه. هزّ كروسلي رأسه. "لم نعرف أن لديك ولداً".

مدّ رملنغر يده حول كتفي حيث كنت أقف خلفه، أقرب إلى الباب. "يمكن ألا يبدو الأمر هكذا في البداية، ولكن المكان هنا جيد كي يترعرع فيه فتى، لأنه آمن ونظيف".

"أفهم"، قال جيبز. كان فكه مرتخياً حين تحدث، مما جعله يبدو كأنه يبتسم دوماً.

ترك رملنغر عدة ثوان تنقضي. بدا مرتاحاً تماماً.

وضع جيبز يديه في جيبي بنطلونه وحرك أصابعه داخلهما. "نحتاج إلى التحدث عن شيء ما، يا آرثر".

قال رملنغر: "هذا ما قلته سابقاً. لهذا جئنا إلى هنا الليلة".

قال جيبز: "قد يكون من الأفضل أن نتحدث لوحدنا. هل تعرف ما أعنيه؟"

"ألن يكون حديثنا عن صيد الإوز؟"، قال رملنغر، متصرفاً كأنه فوجئ. "اعتقدتُ أن هذا ما تريدان فعله. ربما هناك أمور أخرى تريدانني أن أرتبهما لكما".

"كلا"، قال كروسلي. كان السرير في الظلال خلف النافذة الباردة التي تتوضع عليها شمعة الخزامى الخاصة بي.

"لا نريد أن نسبب لك أية مشاكل يا آرثر"، قال جيبز وجلس على الكرسي القديم ذي الظهر المنتصب ووضع يديه على ركبتيه. بطنه مشدود تحت قميصه الأخضر. تحت سريري بعض الصور لنساء عاريات تركتها هناك. لن يعثر عليها أحد.

قال رملنغر: "أنا أقدّر ذلك حقاً".

"نعتقد..."، قال كروسلي، كما لو أن الشيء التالي الذي سيقوله سيكون مهماً ويريد أن يفكر بالأمر للمرة الأخيرة. نظر إلى آرثر وطرفت عيناه عدة مرات. "نعتقد..."، قال ثانية، ثم توقف ثانية. "نعتقد..."، قال ثانية، ثم توقف مرة أخرى.

قاطعه جيبز قائلاً: "كنتُ ضابط شرطة، لقد اعتقلتُ الكثير من الناس. بوسعك تصور ذلك ـ في ديترويت". ابتسم جيبز بطريقته في إرخاء فكّه. "إن كثيراً من الذين اعتقلتهم ودخلوا السجن، لسنوات أحياناً، لم يكونوا في الواقع في حاجة إلى ذلك. لقد ارتكبوا خطأ واحداً، ولأنني قبضتُ عليهم من أجله، واستطاعوا أن يشرحوا لي ماذا فعلوا، كنت أعرف أنهم لن يعبروا الحد ثانية. هل تعرف ما الذي أعنيه يا سيد رملنغر؟" للمرة الأولى كشف لنا جيبز

https://telegram.me/maktabatbaghdad

عن وجهه الجدي. نظر مباشرة إلى آرثر كما لو أن جيبز معتاد إلى أن يُنتبه إليه وأراد أن يُنْتَبه إليه الآن. كانا من أجل الهدف الجدي الذي اجتازا المسافة إلى هنا من أجله.

قال آرثر: "نعم. لهذا معنى. لا بد أنه مشترك".

(حين أعاود التفكير بالمسألة الآن، بعد خمسين سنة، ومن قرن آخر، ربما أحسستُ آنذاك بأن آرثر سيطلق النار على كل من جيبز وكروسلي ولكنه لم يصغ الفكرة بشكل كامل وكان ما يزال يتابع كأنه سينكر كلّ شيء. ولكنه كان يصغي إليهما. يتحدث الناس أحياناً ويعتقدون بشكل خاطئ أنهم الوحيدون الذين يصغون. يتحدثون فقط مع آذانهم، وينسون أن الآخرين يسمعونهم. كان جيبز وكروسلي يسلكان ممراً يعتقدان أنه عقلاني وأن لديهما هدفاً في الذهن. هكذا قررا أنهما سينجحان. لم يعرفا أن آرثر تخلى عن العقل منذ وقت طويل).

بدأ كروسلي بشكل متعمّد: "ما نعتقده هو أنّ الشيء الجيد والصحيح الذي يمكن أن يخرج من هذا هو أن نوضح السجل، يا سيد رملنغر. ليس لدينا سلطة هنا كي نستخدمها ضدك. إنها بلاد أخرى. نفهم ذلك".

"ربما تستطيع أن تخبرني ما الذي تتحدثان عنه. هل تستطيع؟"، قال آرثر وعدّل بوطه على المشمّع المشقّق. احتكت سترته الجلدية مرة أخرى. كان ما يزال يعتمر قبعته فوق شعره الأشقر الجميل. المطبخ بلا هواء ومفرط التدفئة.

"تستطيع أن تنظّم حياتك إذا تحدثت معنا بصراحة، كما أعتقد"، قال كروسلي وهزّ رأسه لآرثر. "لقد أتينا إلى هنا غير عارفين ماذا سنفعل. لا نريد أن نسبب المشاكل الآن. إذا عدنا عارفين للحقائق فحسب، سيكون هذا

كثيراً".

اقترب رملنغر منه وقال: "ما الذي سأوافق عليه؟ أو ما الذي لدي كي أخبرك؟ تستطيع أن ترى بوضوح أنني لا أعرف. لستُ شخصاً غامضاً. أنا لا أنتحل شخصية أحد. إن سجلات ولادتي هي في ملف في محكمة مقاطعة بيريين، في ميشيغان".

"نعرف هذا"، قال كروسلي. هزّ رأسه ثانية وبدا محبطاً. "هذا ليس شيئاً يجب أن يسمعه ولدك".

"لا أعرف لماذا"، قال رملنغر. كان يخدعهما، وكانا يعرفان هذا، وكنت أنا أعرف. وربما كانا يعرفان أنني لستُ ولده.

"تستطيع أن تريح ضميراً سيئاً"، قال جيبز. كانت تلك هي الكلمة التي استخدمها. "إن الأشخاص الذين أعتقلهم - أو الذين اعتقلتهم - كانوا دوماً يشعرون بالراحة حين يصرّحون عن شيء، حتى ولو خافوا منه. أحياناً حتى بعد سنوات، مثلك. سنذهب إلى البيت ولن ترانا أبداً، يا سيد رملنغر".

قال آرثر وابتسم: "سأكون آسفاً ألا أراكما ثانية. ولكن ما الذي أحتاج إلى الإعلان عنه؟" لم يذكر أحد حتى الآن سبب وجودنا هنا. ولم يرد أحد ذلك، كما اعتقدت. قال تشارلي إن الرجلين الأميركيين يفتقران إلى الإيمان بمهتهما وربما لن يذكرا ذلك. رملنغر لن يفعل. كان بوسعنا أن نغادر عندئذ ولا شيء سيحصل أكثر من ذلك. مواجهة مكسيكية. لا أحد يرغب بالتكلم.

"أنك فجّرت قنبلة..."، قال كروسلي فجأة، وكان عليه أن يتنحنح وسط ما اعتقدت أنه لن يقوله ويمكن أنه ندم على قوله على الفور. "ومات رجل. حدث هذا منذ وقت طويل. وأنت..." فقد هواءه كما لو أن الشيء كله كان

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كثيراً بالنسبة له. كرهتُ أن أسمع تلك الكلمات، ولكنني أردت أن أسمعها أيضاً. بدا كروسلي ضعيفاً، لكونه خائفاً.

"نحن ماذا؟"، قال رملنغر. كان مترفّعاً، كما لو أنه في وضع أفضل بكثير بالمقارنة مع جيبز وكروسلي اللذين كانت أهميتهما منخفضة جداً كونهما كشفا عن نفسيهما. قال رملنغر: "هذا مثير للضحك. لم أفعل شيئاً كهذا".

كنتُ أفكر في تلك اللحظة، شاعراً بوزن الكلمات: هل كانا يعرفان المقتول؟ فقد ذهبا إلى هناك على أساس فكرة فقط، والآن، دون قناعة، اتهما رجلاً بارتكاب جريمة، رجلاً لا يعرفانه أيضاً، صلته الوحيدة بالجريمة هي أنه ارتكبها، إلا أنه من المهم بالنسبة له أنه لم ينو ذلك. لم يكن رملنغر على أي حال يمتلك النية كي "يريح" ضميره. كان العكس هو الصحيح.

نسي جيبز وكروسلي عدم رغبتهما بذكر ذلك أمامي. لكنني كنت أعرف كلّ شيء ولم أكن مصدوماً، وعرفتُ أن الصدمة لم تكن في وجهي. لم يكن رملنغر يتصرّف كرجل لا يعرف أي شيء عن الجريمة، بل كرجل يزعم أنه لا يعرف أيّ شيء عنها. لا بد أن هذا هو الشيء الذي اجتازا كل المسافة كي يلاحظاه. لقد أقرّ بها كثيراً حين قال: "لم أفعل شيئاً كهذا". كان كلّ واحد يضحي بشيء- قوة- كي يحقق تقدماً نحو هدف. تفوّه رملنغر بالحقيقة حين قال لي إنني سأتعلم شيئاً قيّماً. عرفتُ أن الأشياء المصنوعة من كلمات وأفكار فحسب يمكن أن تصبح أفعالاً مادية.

قال جيبز: "اعتقدنا أن طريقة صادقة للقيام بهذا ستكون الأفضل، أن نمنحك الفرصة كي تحرر قلبك".

قال رملنغر بشكل حاسم: "ماذا لو لم يكن لدي أي شيء أخبركما به؟ كي

أحرر؟ وإذا كانت هذه الفكرة بلا أساس؟".

"لا نعتقد أنها كذلك"، قال كروسلي، بعد أن استعاد هواءه ولكن ما يزال يبدو ضعيفاً. أخرج منديلاً من جيب بنطلونه، بصق فيه شيئاً، ثم طواه. كان خائفاً جداً.

قال رملنغر: "نعم. ولكن إذا قلتُ إنها كذلك، فهذا يعني أنها كذلك. وإذا لم تستطيعا أن تعودا راضيين إلى حيث تعيشان، ما الذي سيحدث إذاً؟"، كانت المسألة تتعلق بإرادتهما الآن فحسب. لم تكن هناك حقائق في الصراع.

"حسناً، علينا أن نتحدث عن ذلك"، قال جيبز. نهض واقفاً. فكرتُ بمسدسيهما، ربما جُهِّزا من قبل، وذُخِّرا، ووُضعا في مكان قريب. لم يكن أحد يقول الكثير من الحقيقة هنا، إن جيبز وكروسلي لا ينويان بعد أن اجتازا كل هذه المسافة أن يغادرا؛ إن لديهما أكثر مما اعتُقد. كانت المسألة تتعلق بالقرار على أي أساس سيفعلان ما ينويان فعله فقط. كان حضوري على الأرجح هو السبب الوحيد الذي منعهما من فعله في تلك اللحظة. كان هذا هو الهدف من استخدامي: إبقاء الأمور في أمكنتها، تقديم وقفة لرملنغر كي يقدر على رؤية موقفه بوضوح. كنت نقطته المرجعية.

"أعترف أن لديّ شيئاً أستطيع قوله لكما"، قال رملنغر. تنهد بعمق، بطريقة محسوبة كي يسمعها جيبز وكروسلي. "ربما سيرضيكما".

"ستسعدنا معرفة ذلك". نظر جيبز موافقاً إلى كروسلي الذي هزّ رأسه.

"أنت على حق أن ديل يجب ألا يسمع ذلك. سآخذه إلى السيارة". كان رملنغر يتحدث معي دون أدنى إقرار بأنني موجود إلى جانبه. مهما كان ما قرره في ذهنه من قبل (ولكن الذي شعرتُ أنه سيفعله في الحال)، كان قد قرره

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الآن. ما كان في ذهنه حُسم. كان استخداماً آخر يريد أن يستخدمني إياه.

قال جيبز: "رائع. سنكون بانتظارك هنا".

قال رملنغر: "سأعود بعد لحظة. هل يناسبك هذا يا ديل؟ تستطيع أن تنتظر في السيارة؟"

"لا بأس بذلك"، قلت.

"لن أتأخر كثيراً"، قال رملنغر.

أخرجني آرثر إلى البرد وأدخلني إلى البويك الباردة والصامتة، قبضته محكمة على كتفي، كما لو أنني سأُعاقب. الثلج يتوضع في ندف أكبر. كانت الريح أكثر برودة. شاحنة تشارلي مصفوفة أمام مقطورته. والضوء يتسرب من تحت بابها. كلب السيدة غدينز الأبيض يجلس على غطاء محرك الشاحنة، ملتمساً الدفء.

"إنهما سخيفان"، قال آرثر. بدا غاضباً، كما لم يكن في الداخل. بدا مستقيلاً، وقبل ذلك مترفّعاً. فتح باب السيارة ودفعني خلف المقود. قال: أدرْ المحرك. شغّل المكيّف. لا أريدك أن تتجمّد". مد يده وأشعل الأضواء الأمامية، التي توهجت عبر الثلج المندفع نحو آثار المنزل في شارع ساوث ألبيرتا.

"ما الذي ستقوله لهما؟" فكرت للحظة أنه يمكن أن يجلس إلى جانبي. تحركت نحو مقعد الراكب.

قال: "ما يريدان سماعه. لن يتركاني وحدي أبداً الآن". مد يده تحت الواقي من الشمس الخاص بالسائق وأخذ المسدس الفضي الصغير الذي رأيته

في شقته. لم يكن في قرابه الكتفيّ. كان هناك بنفسه. "سأحاول جعل هذا واضحاً لهما". قام بشهيق ثم بزفير. كانت شهقة تقريباً. قال: "ابقَ حيث أنت فحسب. سأعود في الحال. ثم سنذهب إلى العشاء".

أغلق الباب، وتركني في السيارة الباردة والهواء الساخن يهبّ من تحت لوحة القيادة. الثلج يتحول إلى ماء على الزجاج، ومن نافذة السائق راقبتُ قبعته تتحرك إلى الخلف في الظلام نحو باب الكوخ، المفتوح جزئياً. لم ينظر حوله، ولم يبد متردداً بأية طريقة. المسدس في يده اليسرى، لم يكن يخبئه، بالرغم من أنه صغير والضوء باهت، ولهذا يمكن ألا يُلاحظ. اعتقدتُ أن جيبز وكروسلي ربما أخرجا مسدسيهما وكانا يحملانهما حين دخل رملنغر. كان من المنطقي ألا يصدقاه، وسيعرفان ما سيحدث لو كانا يعرفان ما يفعلانه.

سار رملنغر عبْر المدخل الطيني الذي نُزعت ألواحه الزجاجية. خطا إلى الباب ودفعه بقدمه.

استطعت أن أرى جيبز الذي كان ما يزال واقفاً في الضوء الضعيف. كانت ساقا كروسلي كل ما هو مرئيّ منه. كان ما يزال جالساً على السرير. كانا يتوقعان أن يتم التحدث معهما فحسب. كانا الرجلين غير المعقدين اللذين وُصفا هكذا. لقد أساء رملنغر الحكم في تحديد أي نوع من الرجال هما. خطا نحو الداخل في المدخل المضاء. رأيت وجه جيبز يرحب به، وآرثر يرفع مسدسه الفضي نحوه ويطلق النار عليه. لم أره يسقط. ولكن حين تقدم آرثر إلى المطبخ كي يطلق النار على كروسلي رأيت جيبز ممدّداً على المشمع وكانت قدماه الكبيرتان منفرجتين. سمعتُ الصوت الذي أصدره الطلق الناري. لم يكن من العيار الكبير. مسدس سيدة، هذا ما سمعتُ أن تلك المسدسات

https://telegram.me/maktabatbaghdad

تُدعى. لم أسمع صرخات أو أصواتاً. كان زجاجي مرفوعاً وصوت السخان مرتفعاً. ولكنني سمعتُ أيضاً صوت الطلقات التي قتلتْ كروسلي. خرجتْ طلقة، ورأيتُ كروسلي يتحرك بتشوش إلى يمينه، محاولاً الذهاب إلى خلف السرير. اقترب آرثر منه. رأيته بوضوح يسدد المسدس الفضي إلى حيث ذهب كروسلي إلى تحت السرير كي ينشد الحماية. أطلق آرثر النار مرتين. ثم نظر حوله على الأرض، تقريباً عرضياً، إلى حيث كان جيبز، قدمه اليسري ترتعش نحو الأعلى والأسفل بسرعة. سدد المسدس بتركيز إلى رأس جيبز أو وجهه وأطلق مرة أخرى. كان العدد خمس طلقات. خمسة أصوات. كلها سمعتها ورأيتها عبر باب المدخل المفتوح من داخل البويك. نظر آرثر إلى الأسفل نحو جيبز وهو يضع المسدس في الجيب الجانبي لسترته. قال شيئاً حماسياً جداً. بدا كأنه عبّر عن مقته لجيبز، وأشار بإصبعه إلى الأسفل نحوه، ودفع الإصبع نحوه ثلاث مرات، وتحدث ما كان بالنسبة لي كلمات بلا أصوات (لكن جيبز لم يكن واعياً بالتأكيد). كلمات تأنيب عبّرت عن الأمور التي شعر بها. التفت عندئذ ونظر من الباب المفتوح، عبر الظلام، والفضاء الثلجي الذي يفصلنا، وجهي مؤطر في نافذة السيارة، يحتوي على تعبير لا أستطيع تصوّره. قال شيئاً آخر عندئذ، موجّهاً إليَّ، شفتاه تتحركان بشكل صاخب، قبعته اللبادية الكبيرة ما تزال على رأسه، كما لو أن كلماته عبّرت جيّداً عما فعله لتوه. شعرتُ بأنني عرفت ما هي تلك الكلمات، حتى لو لم تصل إلى أذني أبداً. عنت، "الآن، إذاً. الآن، حُلَّ هذا، أليس كذلك؟ مرة واحدة وإلى الأبد".

(66)

دفنّا جثتي الرجلين الأميركيين في الليلة التي قُتلا فيها. وقد كشف آرثر رملنغر عن النوع الرجل الذي كانه حين أجبرني على مساعدة تشارلي كوارترز وأولي غدينز (ابن السيدة غدينز، الرجل الطويل الذي يرتدي قبعة وسترة واقية والذي رأيته في فناء صف السيارات في ليونارد) في نقل الجثتين إلى الحفرتين اللتين حُفرتا في السهب حيث، لو أنهما عاشا، كانا سيصطادان الإوز في الصباح التالي وسأكون أنا "دليلهما".. وما كشف نوعه أيضاً هو أنه لم يعتن بي مطلقاً، ولم يكن مهتماً، ولم تكن لديه خطة أفضل لي سوى ما يقدمه حافز اللحظة؛ وأكيد أنه لم يكن يريد أن زيادة تعليمي إلا إذا اكتشفتُ أنا (مرة ثانية، بطريقة أكثر سوءاً بكثير) كم هناك من الأشياء الكثيرة الممكنة أكثر مما يمكن لذهن فتى مثلي في الخامسة عشرة من عمره أن يتصوره. وإذا ما فكّر بهذه الأحداث فيما بعد، إذا حدث وفعل هذا، فإنه لن يفكّر بي

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أبداً، وربما قد يكون نسي أنني كنت موجوداً، كمطرقة في صورة، وُضعت فقط كي تقدم المقياس، أو نقطة المرجعية، والتي تستنفد قيمتها حالما تُلتقط الصورة. لقد تخلى هو أيضاً عن أي مقياس قدّمه لنفسه، كما تخلى عن العقل. فعل ما أراد فعله فقط، داخل حدود عرفها هو فقط. ولو قلتم إنه كان يجب ألا يأخذني أبداً إلى هناك في تلك الليلة، إنه غيّر، إن لم يكن مجرى حياتي، فعلى الأقل إذاً طبيعتها؛ وإنه جازف بحياتي (كان يمكن أن يُطلق علي الرصاص وأُقتل بسهولة لو أن الأمور جرت بشكل مختلف)، إذا قلتم هذه الأشياء ستكونون على صواب، وسيكون هذا غير ذي صلة تماماً بالنسبة له. ذلك أن الأمور تحدث حيث الناس ليسوا في المكان الذي ينتمون إليه، ويتحرك العالم إلى الأمام والخلف وفقاً لذلك المبدأ. كان الناس الآخرون في الجزء الأكبر موتى بالنسبة له، موتى كالرجلين الأميركيين اللذين نقلناهما في شاحنة تشارلي في تلك الليلة، بينما كان رملنغر يقف في الظلال الثلجية يدخن سيجارة ويراقبنا. ضعوا كل هذه العناصر معاً وسوف تصنعون معنى بقدر ما يمكن أن يُصنع.

(67)

ستعتقدون أن نقل الجثتين من الكوخ إلى صندوق الشاحنة هو الحدث الأكثر قابلية للتذكر في تلك الليلة، وربما الفعل الأكثر قابلية للتذكر الذي يمكن أن يقوم به شخص: الثقل المفاجئ لهما ـ ذلك أن الأجساد حين تكون حية تبدو كأنّها بلا وزن ـ الرعب الناجم عن ذلك؛ إدراك أي تغيّر يمكن أن يحدثه الموت. وكما قلتُ، كنتُ من التقط الشعر المستعار لجيبز الذي سقط على المشمع وتوضّع على دمه الكثيف الجاف. ولكن هذا هو ما أذكره بحيوية أكبر: الخفّة الهشّة للشعر المستعار، الغريب والمبلل بالدم. لا أذكر كيف بدت الجثتان، أو الرائحة التي صدرت عنهما، أو إن كانتا رخوتين أو صلبتين، أو أي دليل على الرصاصات التي أُطلقت عليهما، أو رائحة البارود (التي لا بد أنها ملأت الغرفة)، أو حتى إن كنا قد حملناهما كصرتين، أو جررناهما من الأيدي أو الكعبين كجيفتين.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أذكر جيداً كيف حدث إطلاق النار والقتل بسرعة. لم يكن فيه تمثيل مسرحي، كما في الأفلام. حدث فوراً، تقريباً كما لو أنه لم يحدث. عندئذ فحسب مات أحدهم. أعتقد أحياناً أنني كنتُ في الغرفة حين حدث هذا، وليس في السيارة. ولكن هذا غير صحيح.

أذكر بعد اللحظة التي حصل فيها إطلاق النار، النظرة على وجه آرثر رملنغر، وهو يتحدث إلى الرجلين الميتين ـ نظرة التأنيب ـ ثم النظرة التي حدجني بها عبر الباب حيث كنت أراقب، منذهلاً. كانت نظرة (كما اعتقدت آنذاك) عنت أنه سيقتلني أيضاً، إذا حرّكته الروح، ويجب أن أعرف هذا. كان القتل مكتوباً على وجهه، المظهر الذي كان جيبز وكروسلي يبحثان عنه، والذي لم يشاهداه إلا في لحظاتهما الأخيرة.

أذكر أن رملنغر حين أطلق النار نظر إليّ، قائلاً مهما كان ما قاله، وأنا ـ غريزياً ـ نظرتُ بعيداً. أدرتُ جسدي كلّه عن النافذة ورأيت من خلال النافذة الأخرى للسيارة تشارلي كوارترز، واقفاً على باب مقطورته، والضوء خلفه، يرتدي قميصاً داخلياً وسرواله الداخلي في البرد فقط. كان يتكئ على إطار الباب ويراقب. ربما كان يعرف كل شيء وينتظر أن يقوم بواجباته فقط.

الشيء الأخير الذي أذكره هو حين دفناهما عاريين من ثيابهما، ثبّتنا حقائبهما ومقتنياتهما إلى إناء الحرق الخاص بتشارلي، رُمي مسدساهما وخاتمهما وبندقيتاهما في نهر ساسكاتشيوان. طويناهما في حفرتيهما، بعد أن حفرنا عميقاً بما يكفي كي لا تصل إليهما الذئاب والغريرات. كان هذا سهلاً نسبياً. وقفتُ فوقهما ناظراً نحو الأسفل: كلٌّ منهما في

حفرته المنفصلة، على بعد عدة ياردات، ثم نظرتُ نحو السهب المظلم، الذي استطعت أن أسمع فوقه إوزة في السماء التي يتساقط منها الثلج، تُطلق زبيطها. واستطعتُ أن أرى ـ فاجأني هذا ولكنني رأيتها ـ لافتة ليونارد بعيداً في الليل، حيث كانت فورت رويال، أقرب مما ظننت، وصورة كبير الخدم يقدم كأس المارتيني. للحظة بدا وكأن لا شيء حدث.

هل أستطيع أن أتحدث عن تأثير رؤية الرجلين الأميركيين وهما يُقتلان، التأثير فيّ؟ عليّ أن أركّب الكلمات، بما أنّ التأثير الحقيقي هو الصمت.

يمكن أن تظنوا أنني مع مرور الأعوام فكرتُ كثيراً بآرثر رملنغر، وأنه كان لغزاً، وشخصية تستحق تفكيراً طويلاً، ولكنكم مخطئون. فهو لم يكن لغزاً في أقل تقدير. اعتقدتُ لوهلة أنه يمتلك أهمية، معنى ضمنياً غنياً، لكنه لم يكن يمتلك ذلك، إلا أنه السبب في موت ثلاثة رجال. ما من شك أنه أراد أن يكون مهماً (هارفارد، مثلاً، والجريمة الأولى التي اقترفها). ولكنه لم يستطع التغلّب على الغياب الذي كان رفيقه في الحياة وقاده إلى كل مكان. إن التفكير المضاد، العادة التي جعلتني أصدق أن هناك أهمية حيث لا يوجد إلا الغياب، قد يكون سمة جيدة بصورة مجردة. (جعلني أبدو أكثر أهمية لأمي مما كنت عليه). ولكن التفكير المضاد يمكن أن يكون مادة لتجاهل الجليّ ـ وهذا خطأ خطير ـ يمكن أن يقود إلى جميع أنواع الخيانة وإلى المزيد من الأخطاء، وإلى الموت، كما اكتشف الرجلان الأميركيان.

فضلاً عن ذلك، حاولتُ بقوة أن أحتفظ بذكرى الرجلين الأميركيين، جيبز وكروسلي، حية أكثر مما احتفظت بذكرى آرثر رملنغر؛ بما أنه، بقدر ما

https://telegram.me/maktabatbaghdad

اختفيا إلى الأبد وبدون أثر، فإن تذكري هو الآخرة الوحيدة التي من المرجح أن يحصلا عليها. لقد اعتقدت، كما سبق وقلت، أن موتهما بدا مرتبطاً بخيار والديَّ التدميري في السطو على مصرف، وأنا الاستمرارية، الرابط، قلب المنطق. وقبل أن تقولوا إن هذا هراء، وضرب من الشعوذة لابتكار منطق، فكّروا كم الشرّ قريب من الأحداث الجارية العادية التي لا علاقة لها بالشرّ. وعبْر كل هذه الأحداث القابلة للتذكر، كانت الحياة السوية هي التي نشدتُ الحفاظ عليه لنفسي. حين أفكر بتلك الأوقات، مبتدئاً بتوقع المدرسة في غريت فولز، إلى السطو الذي قام به والداي، وهرب أختي، والعبور إلى كندا، ومقتل الرجلين الأميركيين، وصولاً إلى وينيبيغ وحيث أنا الآن، أرى أنها كلّ متناغم، كمثل علامة موسيقية بحركات، أو كقطع لغز، حيث أنشد أن أستعيد وأحافظ على حياتي في حالة كلية ومقبولة، بصرف النظر عن الحدود التي عبرْتُها. أعرف أنني أنا من يقوم بعمليات الربط هذه. لكن عدم القيام بها يعني استسلامك للأمواج الذي تتقاذفك وترميك على صخور اليأس. ثمة الكثير الذي يمكن تعلّمه هنا من لعبة الشطرنج، التي كانت جميع اشتباكاتها الفردية جزءاً من اشتباك طويل ينشد وضعاً ليس للخصومة أو الصراع أو الهزيمة أو حتى النصر، بل للانسجام الذي ينطوي عليه الكل.

إنّ سبب إطلاق آرثر رملنغر للنار على الرجلين الأميركيين أمر أستطيع أن أخمنه فقط عبر محاولة التمسك بشدة بما هو واضح. فالقتل لم يحلّ له أي شيء سوى أنه منحه بعض الوقت مؤجلاً حتى وقت لاحق اختفاءه في غموض أكثر عمقاً من ساسكاتشيوان: "السفر إلى البلدان الأجنبية"، الذي ذكره.

من الممكن أنه فكر بذلك، ليس بالطريقة التي يفكّر بها شخص آخر بشيء ما: يقيس السلبيات والإيجابيات ويجعل أفكاره وأحكامه تقود أفعاله فاهماً أنها يمكن أن تقوده بعيداً عن تلك الأفعال. من الممكن أنه اعتقد أن الرجلين الأميركيين سيطلقان عليه النار في النهاية ويرديانه؛ وإذا لم يفعلا هذا، فإنهما على الأقل لن يتركاه يستريح أبداً (كما قال)، أو يذهب بعيداً، وألا يعود أبداً؛ وأنهما كانا ملتزمين أكثر مما اعتقد. إن الأمر الذي فكّر به ملياً هو قتلهما إلا إذا جعله شيء ما غير متوقع يمتنع عن ذلك. من يعرف ماذا يمكن أن يكون ذلك الشيء، بما أنه لم يحصل؟ ربما كانت رؤية كثير من الناس لـ "التفكير بشيء ما ملياً" هي من هذه الطبيعة: تفعل بدقة ما تريد فعله إذا استطعت. ربما أراد قتلهما فقط: لأنهما جاءا إليه بأية حال وحاولا أن يتجادلا معه؛ لأن فكرة التحدث أغضبتهُ، بعد أعوام من الإحباط الصامت والتوق والخيبة والعزلة والانتظار؛ ربما أغضبه أن يتم التحدث معه من قبل شخصين عاديين من لامكان، كانا ينويان الشر ضده أيضاً، بما أنه كان يملك إحساساً رفيعاً بذكائه؛ ربما أشار سماع كلمتين مثل "إراحة" و"تحرير"، إلى أن الرجلين الأميركيين قد تعاطفا معه، ربما كل هذا جعله فجأة ودّياً ثم مهلكاً، ربما عرف منذ وقت طويل أن اللاعقل هو فشله الكبير، وربما توقف فحسب عن الاهتمام، وقَبِلَ أنه لا يستطيع أن يفعل أفضل من هذا، أن اللاعقل هو طبيعته، ويستحق أي شيء يريده منه. كان مجرماً، تماماً مثلما، بطريقة أخف، كان والداي سارقين لمصرف. لماذا يخبئ ذلك؟ ربما صدّق العظمة الكامنة في الأمر. في أي وقت تقتل فيه شخصين يجب أن يكون هناك نسبة جنون متضمّنة.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ماذا كانت نتيجة الجريمتين؟ القليل، الذي أعرف عنه شخصياً. خُبئت سيارة الكرايزلر الخاصة بالرجلين الأميركيين في المنزل المعدنيّ لتشارلي، ثم ساقها إلى الولايات المتحدة أولي غدينز وأحد أبناء عمومته، مستخدماً هوية الأميركيين، الأمر الذي لن يكون أحد على الحدود الأميركية حريصاً كي يلاحظه (كانت كندا، والعام هو 1960). حجز الكندياِن في موتيل هاي ـ لاين في هافر، مونتانا، واستخدما اسمي جيبز وكروسلي؛ ثم اختفيا بهدوء في ليل مونتانا، تاركين السيارة مصفوفة أمام الغرفة، والسلطات كي تبحث عن الرجلين، معتقدة أنهما ذهبا إلى كندا، وصلا إلى هافر ثم اختفيا بشكل غامض. ربما جاءت الشرطة الكندية الملكية الخيالة إلى فندق ليونارد فيما بعد وطرحت أسئلة، وعرضت صوراً. لم يربط أحد آرثر رملنغر بموتهما، كما لم يربطوه بالتفجير قبل سنوات. أما بالنسبة إلى جيبز وكروسلي اللذين دُفنا في السهب الذي تجمد في الحال (كانت التربة رخوة بما يكفي لحفر القبرين)، فلم يكن هناك أبداً دليل أنهما ماتا. وإذا حدث وجاء أحد ما وفحص بدقة أكبر ـ زوجة، قريب من ديترويت ـ فربما حدث هذا بعد وقت طويل من ركوبي الباص ورحيلي إلى وينيبيغ.

لا بدّ أن شيئاً مرّ في التيارات الكهربائية لفندق ليونارد في الأيام التي تلت الجريمتين. واصل تشارلي كوارترز أخذ هواة رياضة صيد الطيور إلى الحقول كل صباح، وواصل رملنغر جولاته بمعنويات عالية في غرفة الطعام وفي البار ليلاً. مُنعْتُ من المشاركة في أي شيء، كما لو أنني لم أعد جديراً بالثقة، ولكن ظلّ مسموحاً لي تناول الطعام في المطبخ، والبقاء في غرفتي، في ليونارد دون حسم للمسألة، أو التجول في الشوارع الشتائية لفورت

رويال كما فعلتُ أيام أيلول\سبتمبر الدافئة. رأيت سيارة تشارلي كوارترز "النصف طن" في الشارع وفي فناء صف السيارات خلف الفندق. مرة صادفتُ آرثر رملنغر في الردهة حيث حجز الرجلان الأميركيان. كان يقرأ رسالة. نظر إليّ بطريقة لم ينظر بها من قبل أبداً. بدا مليئاً بالطاقة، كما لو أنه في تلك اللحظة يرغب بأن يعبّر عن شيء ما لي لم يعبّر عنه أيضاً، بالرغم من أن وجهه تغيّر بسرعة وبدا تقريباً صارماً. قال: "أحياناً يجب أن تسبب المشكلات يا ديل كي تجعل الأمور واضحة. نستحق جميعاً فرصة ثانية" ـ وهذا ما قاله في ليلة الجريمة، ولم يكن لما قاله معنى، ولم أعرف ماذا أردُّ عليه. رأيتهُ يقتلُ رجلين. وكنت عاجزاً عن التعبير بالكلمات. وضع رسالته في جيب معطفه، وسار بعيداً فحسب. أعتقد أنه هكذا فهم قتل الرجلين بالرصاص ودفنهما في حفر الإوز في السهب: كان من أجل وضوح معيّن ينشده، ولتخفيف معاناته. حاولتُ أن أفهم ذلك وأصالحه مع ما شعر به، والذي كان مخزياً ومخجلاً، كما لو أن جزءاً من غياب رملنغر انفتح فيّ، ولكنني لم أستطع أبداً.

لا أعرف كيف استطاعت فلورنس أيضاً، أو أنها لم تعرف عن الجريمتين. إن وجهة نظري الخاصة هي أنها كانت تعرف ولا تعرف. كانت فنانة، تحمل التناقضات في ذهنها، وهكذا فإن كثيراً من الحياة يتلاءم في تلك الفئة، الزواج، أحدها. كان فعلها لهذا متلائماً مع القليل الذي أعرفه عنها.

في اليوم الرابع بعد الجريمتين ـ في الثامن عشر من تشرين الأول\أكتوبر ـ جاءت فلورنس إلى غرفتي وأيقظتني. أحضرت حقيبة كرتونية بأقفال جلدية، ولصقات على الجانب مكتوب عليها باريس ونيو أورليانز ولاس

https://telegram.me/maktabatbaghdad

فيغاس وشلالات نياغارا. وضعت هذه على خزانة الثياب وقالت إنني لا أستطيع أن أستمر طيلة حياتي بمقتنياتي التي في حقيبتي الصغيرة. أستطيع أن أعيد الحقيبة حين أراها ثانية. كان معها تذكرة باص، أعطتها لي، مع لوحة زيتية صغيرة رسمتْها، تُصوّر صف أشجار الكاراغانا خلف بلدة بارترو، وصناديق خلية النحل البيضاء في الخلف، والسهب والسماء الزرقاء مرسومة بشكل كامل. قالت بطريقة تجارية: "هذا مشهد أفضل من السابق. سيجعلك هذا تتذكر الأمور بشكل أكثر تفاؤلاً. البلدة خارج البصر". (إن هذا، بقدر أي شيء آخر، جعلني أعتقد أنها تعرف عن الجريمتين). قلتُ لها إن اللوحة أعجبتني، وقد أحببتُها كثيراً وفاجأني أنها أهدتها لي. كان هذا ما يجب أن أقوله لها عن لوحتها الأخرى، وكنت آمل أن هذا سيعوّض. وضعتُ في الحقيبة ثيابي القليلة، وقطع الشطرنج، وكتابي أسس الشطرنج ولوحي القماشي القابل للطي، ومجلدي موسوعة دليل العالم، وكتاب بناء الأمة الكندية الذي أعطته لي، ولكنني لم أضع كتابي عقل النحل، الذي تخليت عنه، مما جعل الحقيبة ثقيلة. نزلنا معاً على الدرج، وخرجنا من الفندق إلى الشارع الرئيسي الهائج لفورت رويال، إلى حانوت الحلاق حيث حلقتُ شعري في تلك الأيام الأخيرة، كما لو أنني كنتُ أعرف أن شيئاً سيحدث لي. وقفنا داخل الباب الزجاجي، وقالت لي فلورنس إنها ستوصلني إلى الباص، ويجب أن أبقى فيه حتى أصل إلى وينيبيغ، مسافة خمسمائة ميل، التي ستستغرق حتى الصباح التالي. ابنها رونالد سيستقبلني هناك، سأعيش معه وأُسجّل في مدرسة حيث ستدرّسني الراهبات، إلى أن "تُرتّب الأمور" بشكل ملائم. سيكون كل شيء رائعاً ومدهشاً. وكان جيداً أنني سأرحل

قبل أن يحكم الشتاء قبضته على الحياة. قالت إنه لا توجد فائدة في قول المزيد عن الأمور. ضمّتني وقبّلتني حين وصل الباص، وهذه أمور لم تفعلها أبداً، والتي فعلتها فقط عندئذ لأنها شعرت بالأسف عليّ. ستراني ثانية، قالت. لم أودّع أحداً غيرها. بدا كما لو أنني غادرت منذ مدة وكنت أعثر على نفسي فحسب. إن الأفكار عن الفراق، والتي تُلاحظ فيها الشكليات اللطيفة في كل مكان، تتكشف عن أنها استثناء في الحياة وليست قاعدة.

كنتُ بالطبع في غاية السعادة لأنني سأغادر. حين جلستُ في السيارة بعد إطلاق النار، وقبل نقل جثتي الرجلين الأميركيين، نظرتُ من نافذة سيارة رملنغر إلى سيارة الرجلين الأميركيين وإلى بارترو، هناك في الظلام والثلج، وقررت أنه مكان مصنوع للمجرمين، مكان غياب ووعود تم التخلي عنها. لقد هربتُ منه تقريباً، كما اعتقدتُ، ولكنني في النهاية لم أهرب. بدا هذا، كما شعرتُ ـ وأنا في مقعدي في الباص، خارجاً من فورت رويال وساسكاتشيوان ـ كأنه فرصتي الأخيرة الأفضل.

كان لدي أفكار قليلة جداً عن النظر إلى الخلف حين انطلق الباص شرقاً. لم أكن أبداً جيداً في هذا. يجب أن تغوص الأحداث في الأرض وترشح نحو الأعلى بشكل طبيعي ثانية من أجلي كي أخصّها بالانتباه الملائم. وإلا ستُنسى. لم أفكر للحظة واحدة أن جميع الأمور التي حصلت لي ستلّون طريقة تفكيري بوالديّ وجريمتهما الأخفّ بكثير. لم يعزز أي شيء إيماني أنني سأراهما ثانية بالرغم من أنني أردت ذلك. إن استخدامات رملنغر لي: أن أكون جمهوره، ثم مصدر اهتمامه المفترض، ثم أن ألعب دور ابنه، ثم أن أكون محل ثقته، والشاهد عليه وشريكه في الجريمة، لم تكن أموراً كنت سعيداً

https://telegram.me/maktabatbaghdad

حيالها، ولكنها لم تمنعني كلّها من تسلق درجات الباص، أو الانطلاق نحو مستقبل أريده.

ألم يفكّر بأنني سأتحدث عما شاهدته؟ أعتقد أنه لم تكن هناك لحظة فكر فيها أبداً أنني سأتحدث عما رأيته وشاركتُ فيه، كمثل الرجلين الأميركيين في قبريهما السيئين. بعض الأمور التي لا تقولها فحسب. شعرتُ في الحقيقة برضا محدود حين أدركت أنه على الأقل يعرفني جيداً، أنه في النهاية خصّني ببعض الانتباه.

نصحتني ملدريد رملنغر أن أحاول أن أشمل بتفكيري قدر ما أستطيع من التفاصيل، وألا أترك ذهني يركز بطريقة غير صحية على شيء واحد فقط، وأن أعرف دائماً شيئاً ما أستطيع أن أتخلى عنه. والداي بدورهما نصحاني بأن أتقبّل الأمور. (كانت المرونة كلمة أمي). مع مرور الوقت، سأكون قادراً على شرح كل ذلك لنفسي، في مكان ما، نوعاً ما، ربما لأختي، بيرنير، التي كنت أعرف أنني سأشاهدها ثانية قبل أن أموت. حتى ذلك الوقت سأحاول أن أصالح بين النصائح الجيدة التي مُنحت لي: الكرم والحياة الطويلة والقبول والهجر وجعل العالم يأتي إليّ، ومع هذه الأشياء، أن أصنع الحياة.

الجزء الثالث

https://telegram.me/maktabatbaghdad

(68)

نصحتُ طلابي بأن يفكروا بالحياة الطويلة لتوماس هاردي دائماً. وُلد سنة 1840 وتوفي سنة 1928، أن يفكّروا بكل ما رآه، وبالتغيرات التي طرأت على حياته في فترة كهذه. حاولتُ أن أشجّع لديهم تطوير "مفهوم حياة"؛ وأن يجنّدوا خيالهم؛ وأن يفكروا بوجودهم على الكوكب ليس كقائمة من الأحداث العشوائية التي تتكرّر بلا نهاية، بل كحياة، مجردة ومحدودة في آن. هكذا، كطريقة لتولي المسؤولية.

أدرّسهم كتباً تبدو لي سرياً عن حياتي، قلب الظلمة، غاتسبي العظيم، السماء الواقية، قصص نيك آدمز، عمدة كاستربردج، عن مهمة في الفراغ، وعن هجْر وشخصية، ربما غامضة، ولكنها في النهاية ليست هكذا. (إن هذه الكتب لا تُدرّس الآن لطلاب الثانوية في كندا. من يعرف لماذا؟) إن فكرتي دوماً هي "عبور الحدود"؛ والتكيّف، والانتقال من طريقة في الحياة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

لا تعمل نحو واحدة تعمل. يمكن أن تكون أيضاً عن عبور حدود وعدم القدرة على العودة أبداً.

إذا لم أخبرهم بالحقائق فعلى الأقل أروي لهم عن بعض دروس حياتي الطويلة: إذا التقوا بي الآن في سن السادسة والستين، فهذا يعني أنهم غير قادرين على تخيلي في الخامسة عشرة (الأمر الذي ينطبق عليهم)؛ وأن لا يبحثوا باجتهاد عن معاني خفية أو مناقضة، حتى في الكتب التي يقرأونها، بل أن ينظروا بشكل مباشر قدر الإمكان إلى الأشياء التي يستطيعون رؤيتها في ضوء النهار. وفي سيرورة توضيح الأشياء التي تراها لنفسك، ستفهم العالم وتتعلم أن تقبله.

يمكن ألا يبدو طبيعياً لهم بدقة فعل هذا. سيقول أحدهم غالباً: "لا أرى كيف يتعلق هذا بنا". أرد عليه: "هل يجب أن يتعلق كل شيء بكم؟ ألا تستطيع أن تخرج من نفسك؟ ألا تستطيع أن تتقمص حياة شخص آخر من أجل فائدتك؟" عندئذ يتم إغرائي بأن أروي لهم قصة حياتي حين كنت شاباً بشكل كامل؛ أن أخبرهم أن التدريس هو لفتة تشير إلى استمرارية عدم التخلّي (عنهم)، أنه مهنة فتى أحبَّ المدرسة. شعرتُ دوماً أن لدي الكثير كي أعلّمه غير أنني لا أملك الكثير من الوقت، وهذه علامة سيئة. إن التقاعد أتى إليّ في لحظة جيدة.

قبلوا على نحو جيد وطويلاً أنني أميركي، بالرغم من أنني حصلتُ على الجنسية وحملتُ جواز سفر لمدة خمس وثلاثين سنة. تزوجتُ منذ عقود من امرأة كندية، تخرّجتْ حديثاً من الجامعة في مانيتوبا. امتلكتُ منزلاً في شارع مونماوث في وندسور، إنتاريو، ودرّستُ الإنكليزية في كلية

وولكرفيل منذ 1981. احترم زملائي هجري لهويتي الأميركية. أحياناً يسأل أحدهم إن كنت أتوق إلى "العودة"، فأجيبه: كلا، مطلقاً. إنها هناك في الجهة الأخرى من النهر. أستطيع أن أراها. بدوا داعمين لخياراتي. (يفكّر الكنديون بأنفسهم كمتقبّلين طبيعيين، كمتسامحين ومتفهّمين) لكنهم استاؤوا من أنه كان عليّ حتى أن أقوم بخيار. إن طلابي، الذين في السابعة عشرة والثامنة عشرة، يستمتعون عادة باللقاء معي. يقولون لي إنني أتحدث "مثل أميركي"، بالرغم من أنني لا أفعل، وأقول لهم إنه لا يوجد فرق. أقول لهم إنه ليس صعباً أن يكون المرء كندياً. إن الكينيين والهنود والألمان يفعلون هذا بسهولة، ولدي القليل من التدريب كي أكون أميركياً بأية حال. يريدون أن يعرفوا إذا كنتُ فاراً من خدمة العلم منذ وقت طويل. (لا أعرف لماذا يعرفون عن هذا حتى، بما أن التاريخ ليس ما يدرسونه). أخبرتهم أنني "متطوع كندي"، وأن كندا أنقذتني من مصير أسوأ من الموت: الذي يفهمونه على أنه أميركا. أحياناً يسألونني مازحين إن كنت غيّرتُ اسمي. أؤكد لهم أنني لم أفعل. أقول لهم إن انتحال الشخصية والخداع هما الموضوعان الكبيران للأدب الأميركي. ولكن في كندا ليس الأمر هكذا.

بعد وهلة أتوقف عن الانسجام. كندا لم تنقذني؛ أقول لهم إنها فعلت ذلك لأنهم يريدون أن يكون ذلك صحيحاً. لو لم يفعل والداي ما فعلاه، لو عاشا كوالدين، لعشتُ أنا وأختي حياة أميركية رائعة وكنا سعيدين. لم يفعلا ذلك، ونحن كذلك بالتالي.

مع مرور الأعوام أمضيتُ أنا وزوجتي عطلة غير مخطط لها "هناك في الأسفل". لم يكن لدينا أطفال، وكنا نجسّد، بمعنى ما، نهاية خطينا العائليين.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وهكذا كنا نذهب فقط حيث أردنا: لم نذهب إلى أورلاندو وأورينج كاونتي ويلوستون، واخترنا بدلاً من ذلك المواقع الثقافية والتاريخية المهمة: تشوتاكوا، جسر بيتوس، كونكورد، ودي سي؛ التي تعدّها كلير "مزعجة"، ولكنني أعدّها جيدة. سجّلتُ في معاهد صيفية يدرّس فيها أساتذة من هارفارد، وزرتُ عيادة مايو مرة، وكنا نسوق في الغالب عائدين إلى مانتيوبا.

لم أعد أبداً إلى غريت فولز، لكنه قيل لي إنها صارت بلدة أكثر وداً ـ ما تزال بلدة، لا مدينة ـ أفضل بكثير مما كانت حين كنا نعيش فيها سنة 1960 وغادرتُها إلى الأبد. لا شيء من هذا ـ عبور الحدود ـ يمكن أن يحدث الآن، منذ الأبراج وبعد أن خُتمتْ الحدود. حدث هذا منذ وقت طويل جداً. إن والداي يشغلان مكاناً أصغر في الذاكرة، وغالباً ما أتذكر تشارلي كوارترز يقول لي، ونحن نجلس على كراسي السهب نراقب الإوز، إن شيئاً ما "خرج منه" حين ساق عائداً إلى كندا من الولايات المتحدة. إذا خرج أي شيء فإنه شيء أريده أن يخرج.

في رحلة في السيارة إلى فانكوفر توقفنا مرة في بلدة فورت رويال، ساسكاتشيوان. تعرف زوجتي كل شيء عن تلك الأيام وهي متعاطفة وفضولية قليلاً، بما أنني لا أكرر القصة مرة بعد أخرى. رويتها مرة حين كنا شابين، مفترضاً أنها يجب أن تعرف، ومذاك لم أذكر الموضوع.

لم يبق معالم كثيرة من فورت رويال. فقد اختفت الصيدلية، والمكتبة الفارغة، والمدرسة الآجرية الفارغة. كان هناك صفان من الأبنية الفارغة، ومحطة وقود تعاونية، ومكتب بريد، ورافعة الحبوب المهجورة. كان فناء

السكك الحديدية يعمل، لكنه أصغر. ومن الغريب أن المسلخ (الذي يُدعى لحوم كستوم بريري) كان ما يزال موجوداً، وكذلك فندق ملكة الثلج الصغير بلافتة نقالة في الواجهة مكتوب عليها: صيادو الإوز: الخريف قادم. احجز صيدك! كان فندق ليونارد بين الأبنية المفقودة. لا يكشف موقعه على حافة البلدة أية علامة تشير إليه. كان الصيف، بداية تموز\يوليو، ولم يبدأ الحصاد بعد. كانت معظم مساكن المدينة موجودة، وكانت أوراق أشجار القيقب تتطاير في كثير من الشوارع القصيرة المربّعة، التي لم تكن موجودة منذ خمسين سنة. ولكن لم يبد كأن هناك مكاناً لشخص كي يعمل. وقد رحل الجميع، كما افترضت، إلى أبعد، إلى سويفت كرينت.

إن بارترو، التي سقنا فيما بعد عابرين لها، تلاشت كلها. حتى قشر رافعة الحبوب تلاشى. بدا وكأنّ محركاً كبيراً انتقامياً مرّ وحرث تحتها وملّح الأرض. سقتُ عبر حقول القمح. كان المحصول كثيفاً ومتموّجاً. السماء مرتفعة وزرقاء وصافية، والريح الحارة سريعة وغبارية ومنقطة بجنادب قاضمة. البواشق تقوم بدورياتها، متكاسلة في القبة الكبيرة الدافئة أو تجثم حارسة في شجرة، هنا أو هناك. لم أذكر الأمر، بل سقتُ ـ إلى درجة أن الذاكرة لم تستطع أن تقودني ـ مقترباً من المكان الذي دفنا فيه الرجلين الأميركيين. غريب كيف أنّ قطعة من الأرض تحمل قليلاً من معناها؛ لكنّ هذا يشير إلى الحظ، بما أنّ فعلها لهذا يجعل الأمكنة مقدسة ومنيعة، بينما بطريقة أخرى لن يحصل هذا. بدلاً من ذلك، يصبح كل ذلك جزءاً من ذهننا المعقد الذي نستطيع في النهاية أن نركن إليه (لو كنا محظوظين). تمايلت حقول القمح الكبيرة وأصدرت صفيراً وغيّرت لونها وانحنت وتراجعت

https://telegram.me/maktabatbaghdad

إلى الخلف في وجه الريح حيث أوقفنا سيارتنا. خرجتُ وتنفّستُ الروائح الغنية للغبار والقمح وشيء ما فاسد على نحو غامض، أثر باهت فحسب. كان الرجلان الأميركيان يستلقيان تحت الأرض، كما سيحدث لهما الآن، حتى لو عاشا فترة أطول. وقفتُ واضعاً يدي في جيبي بنطلوني، أصابع قدمي في الغبار، محاولاً أن أجعل هذا كله يشير، ويكون كاشفاً، كما لو أنني بحاجة إلى هذا. ولكنني لم أستطع. وهكذا عدتُ إلى السيارة، فيما زوجتي تنتظر في الجو الحار، وتراقبني بفضول. انعطفنا راجعين نحو الغرب والجبال البعيدة اللامرئية وغادرنا ذلك المكان إلى الأبد مرة أخرى.

(69)

في الخريف الماضي، قبل أن تموت أختي، زرتُها في التوين سيتيز. كانت تبعد ساعة بالطائرة عن مطار ديترويت ميتروبوليتان، الذي نستخدمه كلنا وكأنه لنا. لم أكن أعرف أنها هناك. حين خطّط طلابي لحفلة بمناسبة تقاعدي، قاموا "بالبحث عن اسمي" على شبكة الإنترنت كي يعثروا على ما يستطيعون العثور عليه: على شيء ما محرج أو مؤثر؛ أو شخص ما يمكن أنه يبحث عني؛ عن حبيبة قديمة، أو صديق من الجيش، أو مذكرة من الشرطة. لم يعد بمقدور المرء الحفاظ على الكثير من الأسرار (كنت أفضل من معظم الأشخاص في هذا). عثروا على رسالة "بحث عني"، "منشورة" في موقع ما. قالت فقط: "أبحث عن ديل بارسونز، إنه مدرّس، وربما يعيش في كندا. إنّ أخته مريضة وتودّ الاتصال به. الوقت مهم. بيف بارسونز". ثمة رقم هاتف.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كانت صدمة كبيرة لي أن أرى اسم أبي على ورقة سلّمها إليَّ الطلاب بوقار، منتظرين مني أن أعرف أن لهم نوايا أكثر طيبة، ولكنهم كانوا على ما يبدو متفهمين أنني يجب أن أرى هذا.

لم أر أبي مرة ثانية أبداً، أو أمي، بعد أن ذهبا بعيداً إلى السجن. كانت المرة الأخيرة في سجن غريت فولز. وصلتْني رسائل، واحدة أو اثنتان من ملدريد، عثرت على طريقها إلي. أخبرتني إحداهما، على نحو صادم أيضاً، أنّ أمنا انتحرتْ في سجن نورث داكوتا للنساء. (كنتُ آنذاك في ثانوية القديس بولس، في وينيبيغ، ولا أستطيع تذكر الكثير مما شعرتُ به). لكنني لم أتلق أيّ شيء من أبي بعد أن انتهى حكمه في السجن، هذا إذا نجا منه. استنتجتُ أنه شعر بأنني أفضل حيث كنت، ولا شيء يمكن كسبه من العودة إلى حياة انتهت منذ زمن بعيد. اعتقدتُ أن هذا صحيح، لكنني لم أنسه. وفي زيارة سابقة لرؤية بيرنير، في بلدة رينو، نيفادا، سنة 1978 قالت لي إنها تظنّ أنها رأت والدنا في كازينو في جاكبوت، نيفادا، جالساً على كرسي، يضع أرباع الدولار في شق آلة مع "فتاة مكسيكية" جالسة إلى جانبه. كان له شارب. اعترفتْ أنها أحياناً خلطت بين هذا المشهد ومشهد رجل رأته في بار في بيكر، أوريغون، كان وحيداً. قالت: "ولكن في الحالتين كان ما يزال أنيقاً. لم أتحدث معه". كانت بيرنير كحولية والقصص التي ترويها من هذا القبيل مألوفة.

لكن فكرة أن أبي - في سن التسعين - يمكن أن يكون إلى جانب أختي، يزورها في وقت سيء، ويبحث عني في العالم كي ينشد المساعدة، كانت معادلة، على نحو مفاجئ، لشعوري بأن حياتي كلها ليست عرضة لهجوم

فقط بل تواجه خطر أنها لم تُعَش أبداً. كانوا ما يزالون كلهم هناك، ينتظرونني خاشعين وعنيدين ومحدقين وغير قابلين للمحو. جعلني هذا أدرك كم رغبتُ كثيراً بمحوهما، كم كانت سعادتي مقيّدة إلى كونهما رحلا.

اجتمعتُ أنا وبيرنير ثلاث مرات فقط في فترة خمسين سنة. إن هذه العلاقات العائلية الغامضة هي ربما عادية في أميركا، لكنني لا أستطيع التعميم عن كندا والكنديين، الذين أشعر أنني بالكاد واحد منهم. لكننا كنا نزور كثيراً والديْ زوجتي قبل أن يموتا، وما زلنا نلتقي بأختها كثيراً، في باري. إن الكنديين والأميركيين على أية حال متشابهون بطرق كثيرة، وربما كان من غير العادل التشديد على الفرق بينهم.

شعرتُ على الدوام أنني يجب أن أرى أختي كثيراً، وإذا سألني أحد عن ذلك سأقول إنني كنت ذلك النوع من الأخ. ولكن هذا لم يحدث ببساطة. فقد كانت حياتها مختلفة عن حياتي. كان لدي زوجة واحدة وكنت مدرّساً في ثانوية وراعي أندية شطرنج أثناء أعوام عملي كلها. أما بيرنير فقد تزوجت ثلاث مرات على الأقل، ولسوء الحظ لم تكن قادرة على إمتاع نفسها إلا على هوامش الحياة التقليدية. فقدتُ أثرها. كانت هبيّة إلى أن انتهى هذا، ثم زوجة شرطيّ، عاملها على نحو سيء، ثم طالب جامعي فاشل في وقت متأخر من الحياة، ثم نادلة في كازينو، ثم نادلة في مطعم، ثم مساعدة ممرضة في دار رعاية. تزوّجتْ من رجل آخر كان مصلح دراجات في غراس فالي لكنها لم تنجب أطفالاً. وهناك المزيد الذي جعل حياتها تبدو جيدة، بالرغم من أنها لم تقل هذا أبداً.

حين زرناها في رينو، كانت مع رجل يدعى وين رويثر، قال إنه قريب والتر

https://telegram.me/maktabatbaghdad

رويثر. كان الاثنان ثملين. تناولنا الغداء في مطعم في قبو كازينو. اكتسبت بيرنير، التي كانت بشرتها المنمشة منتفخة وماكياجها مبالغاً فيه، ضحكة خشنة ساخرة كشفت الكثير من لسانها. كانت عيناها الضيقتان الرماديتان المائلتان إلى الأخضر كعيني الباشق وباردتين. عاملت زوجتي بسخرية، ولم يبد أنها تذكرت أو استوعبت أننا كنديان. كانت تملك الغرابة المشاكسة التي سحرتني على الدوام، "الغطرسة"، كما سماها والدنا. حين كنا طفلين، كنا دائماً وجهين لعملة واحدة. ولكن الآن، على العشاء، وهي تتحدث بصخب مع هذا الشخص الذي يُدعى رويثر، بدت لي كائناً بشرياً زائداً آخر، بالرغم من التكلف وإيماءات اليد و"مجموعة" عرضية شبحية من ملامحها التي أعرفها. في النهاية قالت إنني أنا ـ وليس كلير ـ من تحدث ككندي، الأمر الذي لم يزعجني. قالت إن كندا "عسيرة الوصف"، مما أغاظ كلير. قالت لي أخيراً إنني تركتُ بلادي خلفي كي تعيل نفسها. بعد ذلك حدث خلاف بيني وبين وين رويثر، يتعلق بإيران، اختصر المساء. ونحن نقف في باحة صف السيارات المظلم المهجور والقائظ، فيما كان طريق إنترستيت 80 مليئاً بِحَمْله من الشاحنات التي تخبط فوقنا في الأضواء البرتقالية ووهج الكازينو اللامع، كان آخر شيء قالته لي بيرنير: " لقد تخلّيتَ عن الكثير. آمل أن تعرف هذا فقط ". لم تكن تعرف أي شيء عما تقوله. شربتْ كثيراً وكانت متألمة من "الحياة البديلة" التي عاشتها بدلاً من الجيدة التي كان يجب أن تعيشها لو عمل كلُّ شيء على نحو ملائم: والدانا، إلخ. بالطبع، هي مصيبة. لقد تخلّيتُ عن الكثير، كما قالت ملدريد إنني يجب أن أفعل، غير أنني كنت راضياً حيال هذا وبما حصلتُ عليه مقابل ذلك. "إنه لغريب

ما يجعل الناس مختلفين"، قالت كلير، على نحو غريب تقريباً، حين كنا في السيارة وكان كلّ هذا خلفنا. "إن الطبيعة لا تضعْ قافية لأبنائها"، قلتُ لها، سعيداً بتذكّري لكلام إمرسون، ولملاءمته للموضوع المطروح، بالرغم من أن ما شعرتُ به في تلك الليلة كان عابراً وناقصاً وحزيناً. اعتقدت أنه من الممكن ألا أرى بيرنير ثانية أبداً.

رتبت اللقاء معها في نزل كومفورت قرب المول الكبير القريب من المطار في التوين سيتيز. حدث خلاف لبق على الهاتف حول من سيأتي لرؤية من، وحالما حُلّ هذا، تحدثنا حول إن كنتُ سأسوق إلى منزلها في سيارة مستأجرة أو تسوق هي كي تأخذني.

"عليّ أن أرجع إلى المنزل حين أتعب"، قالت على الخط إلى وندسور، صوتها منهك لكنه ودّي، كما لو أنني لن أكون قادراً على أخذها إلى المنزل حين تكون جاهزة. كانت لديها سعلة صغيرة حادة، وكان صوتها خشناً. قالت: "أقوم بعلاجي الكيماوي أيام الثلاثاء، ولهذا أتعب بسرعة".

قلت: "هل والدنا هناك؟ بيف بارسونز"، كان هذا مثبّتاً في دماغي. لم أرد أن أراه. ولكن لا أفهم كيف سأرفض هذا إن كان حياً ويعتني بها.

"والدنا؟"، بدا صوت بيرنير شكاكاً. "والدنا؟"

قلت: "بيف بارسونز".

قالت: "آه، يا إلهي. نسيت. كلا. لقد قرّرتُ أخيراً أن أتخلّص من اسمي الكريه. بيرنير"، قالتْهُ بأسف. "كل تلك الأعوام مع هذا الاسم، كمثل الحظ السيء. بدا اسمه أفضل لي. لقد حسدته. أستطيع أن أحتفظ بمتاعي - لو كان

https://telegram.me/maktabatbaghdad

لدي أيٌّ منه".

قلت: "لقد أحببتُ اسمك دائماً. اعتقدتُ أنه مميّز".

"جيد. خذه إذاً. إنه غير مُستخدم. سأوصي به لك في الوصية"، ضحكت ثانية.

"ما درجة مرضك؟" فجأة، بسبب الهاتف، ولأننا لسنا وجهاً لوجه، بدا كما لو أننا لم نكن صغيرين، بل بالغين يستطيعان طرح هذه الأسئلة، كتوأمين من نوع آخر أفضل.

قالت: "آه. أنا أتلقى العلاج الكيماوي. لدي شهران. ربما. سرطان الغدد اللمفاوية الذي لن تريده. حقاً". تنفّست بصوت مسموع في الهاتف. تنهيدة. تنهدت دوماً، لكنها لم تفعل هذا أبداً كإشارة على الاستسلام.

"أنا آسف"، قلت. وصرنا من جديد شبه غريبين. بالطبع، أعني ذلك.

قالت وبدت في معنويات جيدة: "حسناً. أنا أيضاً. إن العلاج هو كل ما يؤلم. والعلاج ليس حتى علاجاً. من الأفضل أن تأتي. حسناً؟ أريد أن أراك، وأعطيك شيئاً ما".

قلت: "حسناً. سآتي الأسبوع القادم".

سألتني: "هل ما تزال السيد المدرّس؟"

قلت: "حتى حزيران. ثم أستقيل".

"سيفوتني تخرجك كما أظنّ". أطلقتْ الضحكة الحادة الساخرة التي تذكّرْتُها من المرة الأخيرة، حين قالت لي إنني تخلّيتُ عن الكثير.

"تريدُ أن تعرف إن كنتَ ستأتي". هزّتْ كلير رأسها بتصميم. كانت

تساعدني في حزم حقيبة صغيرة. نويتُ أن أبقى هناك نهاراً وليلة فقط. "وبالطبع، سوف تبقى".

قلتُ لها: "إذا كانت أختك مريضة وتحتضر، ستذهبين". كان منزلنا في شارع مونماوث يقع إلى جانب حديقة صغيرة فيها أشجار بطم تتبرعم، في الأمام وجانبياً، وكلُّ شجرة تشكّل عرضاً ذهبياً صاخباً. كان تشرين الأول\أكتوبر، الوقت الذي تعيش من أجله على ارتفاعنا.

قالت وهي تربت على كتفي وتقبّل خدي: "سأفعل. أحبك". أضافت: "امنحْها كل ما تريده مهما كان".

قلت: "لا تريد مني سوى المجيء. تريد أن تعطيني شيئاً ما".

"سنرى"، قالت. تعمل زوجتي محاسبة، وهي عضو في جمعية المحاسبين، وتميل إلى رؤية العالم، خارج دائرتها الصغيرة من المقربين والأقرباء، من منظور الإيجابي مقابل السلبي، والربح مقابل الخسارة، والمنح مقابل التلقي، ولكن ليس الشر مقابل الخير. إن وجهات النظر هذه لم تتركها متشائمة بل متشككة فحسب. كان قلبها طيّباً. قالت: "ستحصل على كل ما سيأتي إليك، مهما كان. أخبرْها أنني أرسل تمنياتي الحارة ـ إذا كانت تتذكرني".

قلت: "إنها تتذكرك. سوف تقدّر هذا. سأخبرها".

كان الجو بارداً في مينيابوليس، المدينة التي أحببتُها دوماً من بعيد لما بدا أنه تفاؤلها المصقول، القوي والذي يعرف حجمه. كنا أحياناً نمرّ من هنا في الطريق إلى منزل أم كلير في بورتيج لا بريري، راكبين المعدّية وعابرين إلى

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وسكنسون.

كنت خارج نزل كومفورت في معطفي، أنظر إلى بعض أسراب البط المسرعة جنوباً، حين اقتربت بيرنير في سيارة بروب مدهونة بالأزرق، بعض الأشرطة اللاصقة الصدئة متناثرة حول عجلة القيادة وعلى غطاء محركها وسقفها. أنزلت نافذتها. "هيه، أيها الفتى الكبير. هل لديك وقت لشيء سريع؟ شيء سريع هو كل ما لدي". بدت مريعة. وجهها، المبتسم من خلال النافذة، بلون الخردل. الانتفاخ منذ ثلاثين عاماً تلاشى، وكذلك الحبوب البناتية في أسفل فكها. بدت عيناها منهكتين خلف نظارتها الأكبر من المعتاد ذات الإطار الأحمر، النوع الذي ترتديه النساء الأكبر في السن كي يبدين أصغر. كانت نحيلة تقريباً كما في صغرنا. بدت كامرأة عجوز أسنانها كبيرة بالنسبة لفمها. وبدا وجهها المسطح كأن فيه نمشاً أقل بسبب مساحيقها. شعرها الذي كان مرة غزيراً صار شائباً ومتناثراً.

قالت، حالما انطلقنا: "عليّ أن أقود إلى المنزل. إنه ليس بعيداً. لقد نسيتُ دوائي المخدّر. سنذهب إلى آبلبيز. أشعر بالراحة هناك. ما رأيك؟"

"رائع"، قلت. كانت تضع مجزئ تيار كهربائي مربوطاً في أعلى يدها اليمنى، من أجل علاجها الكيماوي. كان كل ما تفعله يتطلب جهداً كبيراً وصعوبة بما فيه رؤيتي. كانت سيارتها ركاماً في الداخل: غطاء سرير مخملي أخضر ومتسخ يغطي المقاعد ذات الظهور المستديرة، جهاز الراديو منتزع، قطعة من شريط لاصق مثبتة فوق شقّ في لوحة التحكم البلاستيكية، المقعد الخلفي يحمل إطاراً وبعض أجهزة الرفع. كانت بيرنير ترتدي معطفاً أرجوانياً مبطّناً لم يكن جديداً، وبوطاً أبيض مكسواً بالفراء. صدرت

عنها رائحة مستشفى: كحول للتعقيم وشيء ما حلو. كانت شدّة مرضها واضحة، كما قالت.

"سأتناول قرص دوائي حالما نأكل". تحدثت عن حركة المواصلات على الطرق السطحية قرب المول. "سأحصل على ثلاثين دقيقة جيدة، ثم علي أن أذهب إلى المنزل. سأعيدك إلى الفندق، أو سأبدأ بالقيادة إلى الخلف أو جانبياً. أنا مدمنة الآن. لم أكن هكذا من قبل. لقد عالجت حساسيتي. هذا جيد". ابتسمت. "هل عرفتني؟ إن الأصفر هو لوني الخريفي الجديد. هذا لأن كبدي في حالة مزرية. هذا ما سيقضي علي ، على ما أظن. لا بأس بهذا".

قلت، ولم أرد بأن أبدو جدياً إذا لم تكن هكذا: "لقد عرفْتكِ. هل هناك شيء أستطيع فعله؟"

"هذا". مالت إلى الخلف في مقعدها كما لو أن شيئاً في وسطها عضّها. تنفّستْ بعمق، ثم زفرت بعمق. "إلا إذا أردتَ أن تعلّمني الحساب. اعتقدت أنه سيكون من الجيد تعلم الحساب قبل ثانية من موتي. كنت جيدة فيه، أتذكر؟ إنه مختلف الآن كلياً. يجعلك الموت ظامئاً إلى المعرفة، وإلى أمور أخرى أيضاً". ابتسمت. "أشتاق إليك. أحياناً".

قلت: "أذكر. لقد اشتقتُ إليك".

"بالطبع. لديك ذاكرة. لا أبدو أنني أعثر على ذاكرتي". استدارت ونظرت إليّ بجدية كما لو أني قلتُ شيئاً لم أقله. كانت نظرتها تهدف إلى تجسيد الودّ نحوي، إلى الترحيب بي وجعلي أعرف أنها مشتاقة إليّ. "أذكرك، مع ذلك"، قالت ورفعت ذقنها بطريقة كانت تشبه والدنا أكثر

https://telegram.me/maktabatbaghdad

منها. كانت إيماءة لي أيضاً. شعرتُ بوخز الحنين المفاجئ عندئذ إلى أن أكون صغيراً، وأن تكون الحياة كلها حلماً أستيقظ منه في قطار إلى سياتل.

"إذاً تحبين كونك بيف؟" لم ألمسها بعد، ولكنني مددتُ يدي بتشوش وربتُّ على كتفها، شعرتُ بأنه نحيل تحت معطفها المبطن.

سعلتْ بحدة وهوّت وجهها. "آه، نعم"، قالت وابتلعت ما سعلته. "كنت بيف خمس عشرة سنة. هذا اسمي العادي. المسكينة العجوز بيرنير سقطت تحت حافلة في مكان ما. لم تستطع أن تلحق خطوي".

"أنا أحبّهُ"، قلتُ.

"لم يكن والدنا جيداً مع بيف. اعتقدتُ أنني يجب أن أقوم بمحاولة معه. كانا طفلين فحسب، تعرف؟ كلاهما".

"كلا، لم يكونا"، قلت، غير متوقع من نفسي أن أتحدث عنهما بهذه الحدة. "لم يكونا إطلاقاً. كانا والدينا. كنا نحن الطفلين".

"حسناً لقد فزتَ عليّ"- قالت وهي تسوق. كانت يداها حمراوين وتبدوان خشنتين. "ألا تستخدمون هذا التعبير: فزت عليّ؟"

"أحياناً".

"ممسوسة"، قالت بيرنير، وهزت رأسها وابتسمت بتسامح. "أنا ممسوسة. أنا ممسوسة في رأسي. وهكذا أنت. نحن توأمان. إن النطفة لا تنسى".

قلت:"هذا صحيح. نحن ممسوسان".

كان منزل بيرنير عبارة عن مقطورة مؤلفة من قسمين، جديدة وبيضاء

وتتوضع في زقاق ضيق مستقيم من مقطورات أخرى بيضاء، معظمها جديدة بفناءات أنيقة وصغيرة وشجيرات مربوطة بأسلاك إلى الأرض وسيارات رياضية مصفوفة في الأمام على طريق غير معبد وبدون رصيف، وثمة صحون لاقطة على جميع الأسطحة. كان الأطفال يلعبون في الخارج صباح السبت. طائرات فضية عملاقة ترتفع في سماء الخريف على بعد ميل منا إلى الشمال تصدر محركاتها ضجيجاً خفيفاً فيما هي تختفي.

أوقفت بيرنير السيارة في المدخل. كان رجل صغير يقف في نهاية المقطورة، داخل إطار محاط بالأسلاك المرتفعة يطعم الأرانب أوراق الخس فيما عدد من الأرانب السمينة الرمادية والبيضاء تضغط إلى الأمام نحو الفتحة الصغيرة.

"هنا أكثر الرجال البيض صبراً في العالم، وبطل العالم في لعبة السكرابل. إنه يعتني بقطيعه". فتحت بابها وواجهت مشكلة في تحريك ساقيها من تحت عجلة القيادة. "أعْطنا دفعة بسيطة، يا حبيبي". بدت بيرنير متألمة ومُجْهدة. "من الصعب أن تجعلني أذهب بعد أن أتوقف. لن يستغرق الأمر دقيقة". بدأت تتحدث بلكنة جنوبية خفيفة ونحن نقترب من منزلها. "لسنا متزوجين"، قالت داخل السيارة. "لكنه أفضل زوج سبق وحصلتُ عليه. ينبغي أن أتزوج شخصاً جيداً مرة، أليس كذلك؟ إنه خجول". توقفت متصلبة ونظرت نحو الرجل، الذي كان يغلق باب الحظيرة. كان يرتدي بوط رعاة بقر وبنطلون جينز وسترة من النايلون واقية وقبعة حمراء كالتي يرتديها طلابي، ولكن قبعته مستقيمة. "لقد نسيتُ شيئاً"، نادتْهُ. نظر إليها لكنه لم يجب. "جرعة دوائي"، قالت وبدأت تسير بصعوبة نحو الدرجات الأمامية كي تحضر دواءها.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

في أسفل الزقاق، وفي ضوء الشمس البارد، كانت كثير من المقطورات الأخرى، التي تواجه الشارع جانبياً، ترفع رايات أميركية ترفرف على سوار من الألمنيوم في فناءاتها كما لو أن أحدهم باع الراية نفسها للجميع. لكنّ فناء بيرنير يفتقر للراية. وفي بعض المروج لافتات بين الأعشاب تدافع عن كل ما يؤمن به القاطنون: الإجهاض جريمة. الزواج سرٌّ مقدس. أوقفوا الضرائب. لقد انتشر هذا في كندا، وتبنّته الحكومة: التوتر الأميركي العصبي من أجل شيء آخر. الاندفاع الحتميّ لكلّ شيء شمالاً.

خطا الرجل الصغير الذي يرتدي قبعة حمراء وبوطاً إلى القفص التالي وبدأ يطعم الأرانب المزيد من أوراق الخس من إناء فضي عند قدميه على الأعشاب. على سترته الواقية راية الاتحاد مخيّطة على الظهر وكلمات صغيرة تحتها لم أستطع قراءتها. كان قصيراً وخشناً ونحيلاً وبارز العظام وجافاً، أكبر من بيرنير بكثير. ظننتُ أنه متديّن، أُنقذ منذ وقت طويل، وأنا أراقبه من الوهج الشمسي للزجاج الأمامي للسيارة. في مكان ما ستكون هناك دراجة نارية. جهاز تلفاز عملاق. كتاب مقدس. توقف الجميع عن شرب الكحول منذ سنوات، وينتظرون الآن. هذا ما حدث لهم، كما ظننتُ، انتهى بهم المطاف إلى هنا، بهذه الطريقة. صار من عادتي أن أؤيد طريقتي في الحياة، كما لو أن طريقتي يمكن أن تعلّم الجميع شيئاً ما. لم تكن مثيرة للإعجاب كثيراً بما أنها لم تعلِّم أحداً، على الأقل أختي، التي أشرفت على حياتها بنفسها، وقبلتْها. لم أعرف ماذا أدعوها، كما أدركت.

أغلق الرجل الصغير القفص الثاني بعناية. انحنى والتقط الإناء الفضي ونظر إلى السيارة وهو منحن. ثم وقف وحدق مباشرة إلى الزجاج الأمامي

العاكس. ربما كان يستطيع رؤيتي على المقعد، منتظراً بيرنير، منتظراً بيف. رفع الإناء في إيماءة تحية، ابتسم ابتسامة تودّد لم أتوقعها منه. استدار وسار بطريقة متصلبة محترمة إلى زاوية المقطورة وذهب. لم يرني أرد له الايماءة. لم يرد أن يقابلني. فهمت جيداً بشكل كامل. كان هذا متأخراً في المشهد.

في السيارة المتوجهة إلى آبلبيز، بدت بيرنير متحسنة. كانت قد وضعت المزيد من المساحيق وصدرت عنها رائحة الكرز وبدأ تمضغ علكة. أحضرت إلى السيارة كيساً كُتب عليه كَب فودز وفيه ما ستعطيني إياه كما خمّنتُ.

شغلت المكيّف وقالت لي إنها تشعر بالبرد طول الوقت، ولا تستطيع أن تتدفأ كي تنقذ حياتها. حكت الشريط البارز الذي يبقي سلك التوزيع الكهربائي مثبتاً إلى قفا يدها وهزّت رأسها حين رأيته. بدت كأنها تريد دفع لسانها العريض إلى الخارج بين شفتيها، ربما بسبب تأثير العقاقير. تحدثت أيضاً بشكل أقل بلكنتها الجنوبية الآن بما أننا بعيدون عن المقطورة. "إنه من غرب فرجينيا"، قالت. كانت تفكر بالرجل الذي لم يكن زوجها، وتشعر بالاستمتاع حياله. اسمه راي. وتحبّه. عرف كل شيء عنها ولم يكترث. خدم في الجيش الأميركي لوقت طويل، لكنه تقاعد. التقت به في رينو ونقلها إلى السيتيز منذ عقد. لديه أخ هنا. المقطورة هدية زفافها. يربي الأرانب "للمائدة"، ويبكي كلما ذبح واحدة. يذهبان إلى الكنيسة. "بالطبع أنا لا أؤمن بأي شيء. أذهب فقط كي أسليه وكي أكون جيدة معه. يعرف أنني يهودية من جانب أمي. لكنني غير متقيدة بالدين اليهودي".

قالت إنها مهتمة بالصين وبهيمنتها المتنامية؛ ومتضايقة من "المهاجرين

https://telegram.me/maktabatbaghdad

غير الشرعيين"، والضرائب، والحادي عشر من أيلول (9\11)، "التهديد". تذكرت اسم كلير وأنها محاسبة. قالت إنها تتمنى لو تستطيع زيارتنا، وتعرف أن وندسور ليست بعيدة جداً عن السيتيز. قالت إنها وراي صوّتا لأوباما. "لماذا لا؟ تعرف؟ هذا شيء ما مختلف". سألتني إن انتخبته. قلت لها كنت سأصوّت له لو كانوا يسمحون للكنديين بذلك مما أضحكها، ثم سعلت، وقالت: "حسناً. أنت مصيب. هذه نقطة جيدة. نسيتُ أنك تركت بلادك خلفك. لا أستطيع لومك". مرة ثانية، لم تكن تعرف أي شيء عن حياتي، ولن تكترث عند تلك النقطة. كانت تعمل بثبات كي تتمسك ببعض شبهها معي. كان كلُّ ما لدينا معاً هو والدانا، منذ خمسين سنة، وبعضنا بعضاً، كأخ وأخت، وكنا نحاول الاستفادة من هذا، على الأقل في صباح أحد الأيام. بدت، في الوقت الذي كنا فيه في السيارة، قادرة على ألا تبدو مريضة، غير متألمة من أن حياتينا انحرفتا هكذا وبشكل غير عادل بالنسبة لها (الآن، خاصة). بدت كأنها تجد ذاتاً قديمة، كأنها تنظر إليَّ بشكها وحبها السابقين، مما جعلني أشعر بأنني صغير وساذج بالمقارنة مع كونها كبيرة وحكيمة. أحببتُ هذا. أسعدني أن كلير لم تأت. بالرغم من أنني لم أتصور الأمور هكذا. فكرت بمقطورة؛ ولكن بعد ذلك، غرفة مرض بأضواء مخفّضة، جهاز تلفزيون بدون صوت، قمة خزانة عليها أدوية، أوكسجين، ضباب وعطر الموت فيها. كان هذا أفضل. في ظروف مختلفة واعدة أكثر لن نكترث بأن نمضي يوماً معاً. كان هذا تساهل الموت.

انعطفنا إلى باحة صف السيارات في آبليز، المحتشدة بالوافدين يوم السبت، الخارجين والداخلين إلى السيارات الكبيرة والدراجات والبيك

آبات ـ "اسمعْ. أقول لنفسي دوماً: تذكري هذا. يمكن ألا يكون بهذه الطريقة في ستة أشهر".

قلت: "أنا لستُ مختلفاً كثيراً عنك في هذا. ما نزال في العمر نفسه".

"ولكنك لا تعرف كم مرة تبيّن أن هذا صحيح. في حياتي؟ إن ستة أشهر فترة حياة". نظرتْ إليَّ بقسوة، عضلات فكها تعمل تحت لحمها البني الفاتح، لسانها غير مستقر في فمها.

"أعرف"، قلت.

"حسناً"، قالت وتنهدت ثانية بالطريقة المستقيلة. مرة حين تنهّدتْ، فعلت هذا دائماً بفقدان للصبر. "أحاول أن أقاوم بقوّة كبيرة هذا الاحتضار التدريجي. يمكن ألا أبدو هكذا. ولكنني أفعل. أشعر كما لو..."ـ نظرت إلى المفاتيح في المشعل، مدت إصبعاً وجعلتها تصلصل بلا هدف ـ " أشعر، أحياناً، أن حياتي الحقيقية لم تبدأ بعد. إن هذه لم تكن عادية، يمكنك القول. وهذا شيء لم تسببه أنت. لقد اجتزتُ الشارع كله بنفسي في ذلك الصيف. أتذكر؟"

قلت: "أذكر. أذكر ذلك بوضوح". لقد تذكّرْتُه.

"هل أنت نادم أنه ليس لديك أي أطفال؟" بدت تحدق بالمواصلات في الشارع المؤدي إلى المطعم. مرّت حافلة كبيرة، متجهة إلى المول، نوافذها مليئة بأوجه النساء، وكلهن مؤطرات بحلاقة شعر قصيرة. أطفأتْ المحرك والمكيّف. في الخارج كان الضجيج مكتوماً ومتواصلاً.

قلت: "كلا. لم أفكر أبداً بالأمر. أعتقد أنني أرى ما يكفي من الأطفال".

قالت بانتصار: "إنها نهاية الخط إذاً. ينتهي خط آل بارسونز هنا في مكان

https://telegram.me/maktabatbaghdad

صف السيارات في آبلبيز. تقريباً".

"أقول أنا وكلير الأمر نفسه".

"تشعر كأنك عشت حياة رائعة؟ والآن بعد أن أخبرتك كيف أشعر؟ لا بأس أن تقول إنك عشت هكذا. أنا سعيدة". أدارت وجهها نحوي وفي تلك اللحظة لم تظهر أية علامة إجهاد، الراحة فقط. إن وجهها سينظر إليّ بتلك الطريقة إلى الأبد.

قلت: "أقبل ذلك. أقبله كله. لقد تزوجت الفتاة المناسبة".

"كلنا نقبل ذلك. ليس هذا جواباً". تجعدت شفتاها الجافتان ونظرت باستياء إلى الخلف إلى الباص الذي عبر. "أي خيار كان لدينا؟"

قلت: "آنذاك، نعم. لقد كان لدي". لكنني لم أكن متأكداً من أنني اعتقدت ذلك.

استنشقتْ بانتباه: "أنا أختك الكبيرة. يجب أن تخبرني الحقيقة كلها وإلا سأعود كي أسكنك". ابتسمت لنفسها، شدت قبضة بابها وبدأت ثانية تحرك قدمها إلى الخارج متألمة. قالت: "أستطيع أن أفعل ذلك بنفسي هذه المرة". أوقفنا ذلك الحديث عندئذ ولم نعد إليه أبداً.

XXX

جلسنا في آبلبيز قرب النافذة الكبيرة التي تطل على سيارتها الصدئة، التي كانت منبعجة أكثر مما ظننت، بلوحاتها الملتوية من مينيسوتا وممتص الصدمات الخلفي المنتزع. لم تبد سيارات أخرى في باحة الصف مثلها.

بدت بيرنير مرحة، وقد شفيتْ من حديثنا الأكثر جدية، كما لو أن هذا الضجيج الذي يتخلله صوت التلفزيون والأصوات الفارغة كانوا ما هي

بحاجة إليه وتعرف أن مهمته هي أن يجعل المرضى الميؤوس من شفائهم ينسون آلامهم. ظلت مرتدية معطفها الأرجواني، الذي كان بحاجة إلى التنظيف.

أخرجت علكتها، لفتها في زاوية منديل ورقي، ووضعتها على إفريز النافذة. طلبت كأس مارتيني وشجعتني على ذلك، ولكنها قالت إنها لا تستطيع تناولها مع دوائها. كانت تحبّ رؤية الكأس أمامها، كما في الأيام القديمة، والشراب المعدّ كي يؤدي سحره القليل. طلبتُ كأساً من النبيذ كي أسترخي وأنشّط معنوياتي.

كانت الحقيبة البلاستيكية الخاصة بالتسوق إلى جانبها على الكرسي. قالت: "هل قلتُ إنني لن أنتحر؟ نسيتُ ما قلته لك. إن المواد الكيماوية هي السبب".

قلت:"لم تذكري هذا. وأنا سعيد لسماع ذلك". رفعتُ كأسي كي أشرب نخبها.

قالت:"إن انتحاراً واحداً يكفي في عائلة مؤلفة من أربعة أشخاص". كنا في السادسة عشرة آنذاك فحسب، ولم نكن في موقع كي نتولى قيادة الكثير. إن موقع قبر أمنا كان شيئاً آخر إضافياً هجرته. "أنا في الحقيقة لا أركز اهتمامي عليهما كثيراً"، قالت، تاركة إصبعاً، عليه وشم صغير ذاو لصليب، ينقر كأسها وهي تتصفح قائمة الطعام، التي فيها صور بألوان براقة للمأكولات التي يستطيع المرء طلبها. "أحياناً أفكر بهما وسرقتهما الكبيرة". (شدّدتْ على الكلمة). "عليّ أن أضحك. كلنا ندور فقط هكذا. كان حدث حياتنا، أليس كذلك؟ لعنة كبيرة، وكل شيء مكوم فوق بعضه".

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أغمضتْ عينيها نصف إغماضة خلف نظارتها واتكأت على كوعيها وحدقت بي كي تجعلني أعرف بدقة ما عناه لها أنها كانت على الطريق خارج مشكلاتها. خفتُ عليها، ومن أجلها، ولم يكن بوسعي فعل أي شيء كي أصلح أي شيء.

"إن التفكير بالأمر لا يقودكِ إلى أي مكان"، قلتُ، وكان هذا الحد الأدنى من الحقيقة.

بدأت جميع الخادمات يغنين بصوت خشن: "عيد ميلاد سعيد لك" لزبون كبير في السنّ في الجهة الأخرى من المطعم. بدأ زبائن آخرون يصفقون إيقاعياً. كان فريق جامعة مينيسوتا لكرة القدم يلعب على شاشة تلفزيونات العشرين بوصة. سُمع تصفيق أحياناً، ثم تلاه صياح.

قالت بيرنير: "كلا. لا يقود في الحقيقة". نظرتْ بعيداً عن كأس المارتيني، كما لو أنها سمعتْ لتوّها الغناء والتصفيق. "إنه سرّ نتشاطره، أليس كذلك؟ مع العالم كله. نتفوّه به دون قصد. يربطنا مع بقية البشرية. هذا مكسبي". ابتسمت دون سبب واضح. تذكرتها وهي تكتب لي في بداية حياتها: نشعر بالطريقة نفسها ونرى الأمور بالطريقة نفسها. كانت قد بدأت بتشاطر العالم آنذاك، بينما أنا لم أبدأ. لقد تم التخلي عني فيه. تساءلتُ فيما إذا كنتُ أخدعها نوعاً ما الآن، بطريقة مؤثرة. هل كنت أمنحها ذاتي الحقيقية الأكثر صدقاً؟ هل كان ما قلتهُ عن حياتي صحيحاً؟ لم أرغب بخداعها. كان هذا كل ما يجب أن أمنحه لها، وقد شغلني دوماً، مفترضاً ماضيّ، وأنني مدرّس، حيث يجب أن يمثل المرء دائماً ولكنه يحاول ألا يفعل هذا. لم يكن هذا واضحاً أبداً، بما أننا كلنا لدينا ذوات نختار بينها. قالت: "ربما لديك

عِرْقٌ وحشيٌّ مخبأ. وربما لدي واحد عادي. واحد مُروّض". تركتْ ذهنها يشرد في محادثة داخلية لم نكن نتبادلها بالضبط.

"على الأرجح"، قلت وتناولتُ جرعة من النبيذ، الذي كان قوياً. "على الأقل نصف هذا يمكن أن يكون صحيحاً".

"حسناً". أخفضت عينيها. اكتشفت نفسها وهي شاردة. شعرها البني والشائب كان رقيقاً في المقدمة وممشطاً بإحكام إلى الخلف. وضعت الروج حين دخلتْ إلى منزلها. كانت أذناها مثقوبتين، ولكنها لا تضع حلقاً. كانت شحمتا أذنيها شاحبتين ورقيقتين. "هل ما تزال رجل الشطرنج؟" قالت وابتسمتْ لي كي تشير إلى أنها تنتبه الآن.

قلت: "كلا. أنا أدرّسه. لم أكن جيداً فيه أبداً".

نظرتْ حولها فجأة كما لو أن طعامنا وصل - حساؤها وسلطتي - بالرغم أنه لم يصل. "تحدّثْ عن الشيطان"، قالت، ورفعت كيس كب فودز ووضعته على الطاولة. "وهكذا". تنهدت وأخرجت من الكيس حزمة من صفحات دفتر جافة وفيها ثقوب ومربوطة مع بعضها بما بدا كأنه قطع متصلبة من أربطة الأحذية التي لا يختلف لونها كثيراً عن لون بشرة بيرنير. "لم أرد أن أرسل هذا إليك". وضعت يديها فوق الصفحات كي تبقيها ملتصقة، ثم نظرت إليّ وابتسمت. "لم أعرفْ إن كنت سأحبكَ. أو إن كنتَ ستحبني، وأنك حتى تريد ذلك". تنهدتْ ثانية، هذه المرة بعمق كبير، كما لو أنّ شيئاً ما قد هزمها.

"ما هذا؟"، سألتُها. كان على الورقة العليا كتابة فاهية بالحبر.

"إنها يومياتها فحسب، ما تدعوه هكذا، أو دعتْه. كتبتْ ذلك في السجن

https://telegram.me/maktabatbaghdad

حين كانت فيه في البداية، منتبهة إلى التواريخ. أرسلتْها إلى ملدريد، التي التقيتُ بابنها مرة، في الغرب بعيداً. وقامت ملدريد بإرسالها إليّ. منذ وقت طويل، مهما كانت درجات الانفصال هذه. كان يجب أن ترسلها إليك. ولكن لا بد أن علاقة الأم ـ البنت أحدثت فرقاً بالنسبة لها، كما أعتقد. لا شيء فيها يزعج أحداً. لا يوجد كشف عظيم. ولكن تستطيع سماعها، وهذا ظريف نوعاً ما. يجب أن تحصل عليها". بيديها اللتين عليهما كدمات دفعت الأوراق عبر قمة الطاولة، دافعة كأس المارتيني جانباً، مبللة حافة الصفحة السفلية.

"شكراً"، قلت وأمسكت الأوراق.

"تدعوها يوميات امرأة ضعيفة. وهكذا كانت". عضّتْ بيرنير نثرة من الجلد الجاف عن شفتها السفلى، كما لو أن محتويات الصفحات أثارت اهتمامها ثانية، الآن بعد أن سلّمتْها لي، وبعد أن اجتزتُ كل تلك المسافة للحصول عليها. "تقول أشياء مثل: أنت جيد فقط إذا كان بوسعك أن تفعل شيئاً سيئاً وتقرر ألا تفعله. و: كنا فاشلين في الزواج، الأمر الذي نستطيع جميعاً أن نتفق عليه. ما يجعل الحياة أفضل هو السؤال الجوهري. و: لا تستطيع أن تعرف أن حياتك لا تُطاق إلى أن ترى طريقك للخروج منها. تتحدث عن التفكير بهجر والدنا قبل ذلك بوقت طويل، وعن عملية السطو التي قاما بها. تكتب رسائل لنا. وثمة بعض الأبيات الشعرية التي كانت تحبها. لقد حفظتُ بعضها غيباً مرة... عبر أية جريمة. عبر أي خطأ استحقيت ضعفي الآن؟ أرادت دائماً أن تكون كاتبة. لقد قرأتُ هذه اليوميات مع مرور الأعوام. وقد أبكتني. لم يستطع والدنا أن يتماسك،

ولكن كان لديها إحساس أفضل بكثير. على الأقل هكذا أذكرها". هزّت بيرنير رأسها ونظرت ثانية إلى باحة صف السيارات المشغولة التابعة لآبلبيز. "أتمنى لو لم أكن قاسية معها. الآن، خاصة. سأفضل أن أكون مثلك. أنت تقبل كل شيء. سيكون لهذا معنى أفضل في جميع الأمكنة".

"أنا أيضاً"، قلت، ولم يكن هذا الجواب الذي أرادتْه. كنت أنظر إلى الكلمات الرائعة الدقيقة والذاوية التي تجري صغيرة على طول الخط الشاحب الأزرق، ليس بحبرها البني المفضّل.

بدأت بيرنير تنقر بأصابعها على قمة الطاولة. حين نظرتُ إلى وجهها الواضح المنتظر كان بلا تعبير، لكنّ عضلات فكها كانت مهتاجة. لمعت عيناها. لم نبد الآن كأننا نشبه بعضنا في أي شيء بطريقة مختلفة.

"هل تتذكر رودي؟" زمّت شفتيها.

"نعم"، قلت.

"رودي ذو الشعر الأحمر. رودي كازوت. حبي الأول الكبير. أليس هذا مضحكاً؟"

قلت: "لقد رقصتُ معه".

"رقصتَ؟" توهجت ملامحها بشكل وجيز. "أين حدث هذا؟"

"كنتِ موجودةً. رقصْنا ثلاثتنا في اليوم الذي ذهبا فيه إلى السجن".

أردت أن ألفظ اسمها. من أجلي. اسمها الحقيقي. "بيرنير"، قلتُ بنعومة.

"هذا اسمي"، قالت هذا بصوت خشن، كما لو أن شخصاً إلى الطاولة الثانية همسه.

قلت: "هل تحتاجين إلى أي شيء؟ هل يوجد أي شيء أستطيع فعله لك؟"

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أصدر الحشد أمام التلفاز زئيراً قوياً آخر. صفّق الناس في المطعم بسأم. لم تقل أي شيء للحظة، كما لو أن المحادثة الأخرى التي كانت تجري باستمرار في رأسها، تلك التي سنقوم بها كلنا في النهاية، صارت غير قابلة للمقاومة. قالت: "لقد فعلتَ كلّ شيء. كلنا نحاول. أنت تحاول. أنا أحاول. ماذا يوجد غير هذا؟"

قلت: "لا أعرف. ربما هذا صحيح"، لكنّ قول هذا لم يكن كافياً.

أكلنا قليلاً من طعامنا حين جاء. لم تكن جائعة، وكنت قد تناولت فطوري في الفندق. في لحظة مفترضة، بعد أن جلسنا لوهلة دون الكثير كي نتحدث عنه، قالت: "لا أشعر بأنني كاملة". صارت قلقة، وهي جالسة. تناولت قرص دوائها. أعدتُ الصفحات إلى الكيس البلاستيكي. لقد انتهى موعدنا.

ذهبت إلى البار ودفعت الفاتورة وساعدتُها على النهوض والخروج إلى الباب الأمامي. لم تكن قادرة على قيادة السيارة إلى أي مكان، ولم أكن أعرف طريق العودة إلى بيتها. طلبتُ من المضيفة أن تتصل بتاكسي، فأتت بسرعة أكبر مما توقعت. جلسنا بصمت معاً في المقعد الخلفي، بيرنير تحدق من النافذة إلى السيارات العابرة، وأنا أنظر من نافذتي.إنه مكان أجهله. لم يهمها ترك سيارتها في الخلف، سيحضرها راي فيما بعد.

أخيراً دخلنا زقاق المقطورات براياتها وشجيراتها وسياراتها الأنيقة وأطفالها، وكانت طيارات نفاثة ترتفع في السماء في مكان ليس ببعيد. كان راي هناك في الداخل. بدا سعيداً لعودتها. تصافحنا وتبادلنا اسمينا. ذكرتُ أننا تركنا السيارة. بدا مرتبكاً وضحك لسبب ما كان آسفاً عليه فيما بعد

على الأرجح. كان يعرف ماذا يفعل. بدت بيرنير كأنها تشعر بأنها ليست على ما يرام وتحتاج إلى المساعدة في صعود الدرج. سألني راي إن كنت أريد الدخول. قال إن القهوة جاهزة دائماً. قلت إنني لن أدخل وشكرته، وإنني سأتصل غداً. حين قلتُ وداعاً عبر المدخل، حيث كان جهاز تلفزيون كبير يشتغل ـ اللعبة ثانية ـ استدارت بيرنير وابتسمت وقال بشكل حالم: "حسناً يا عزيزي. رائع أنني رأيتك ثانية. قل لهم إنني أسلم عليهم، هل ستفعل؟""

قلت: "سأفعل. أحبك. لا تقلقي". لم تكن هناك نظرة السخط على وجهها، تلك التي كانت أمنا تأمل بأن تختفي.

رجعتُ إلى الفندق في التاكسي التي انتظرتني. في الصباح عدتُ بالطائرة إلى ديترويت.

×××

ثمة شيء قليل آخر يجب أن يُقال. كان هذا مريحاً لي. فأنا مبارك بالذاكرة، كما صارت أختي بيرنير مباركة بذاكرة أضعف. كانت على صواب؛ كان هذا حدثَ حياتينا، بما أنه بدأ في عائلتنا، وبالرغم من أن عواقبه كانت كبيرة فإنها لم تتجاوز أبداً مصدرها. بعد أسبوع من وفاة بيرنير، والذي حدث في الأسبوع الذي جاء بعد عيد الشكر الأميركي العام الماضي في 2010، قلتُ لطلابي، على نحو غير متوقع جداً: "هل حدث وانتابكم شعور غريب بأنكم نجوتم من العقاب نوعاً ما؟" كنا نتحدث عن هاردي ثانية. العمدة. حدقوا إليّ مرتبكين، وقد عرفوا أنني ذُهلتُ، وأنني أتحدث عن نفسي. أدركتُ على الفور أن ما قلته لهم شيء مرعب. لكنّ أحد الفتيان، والذي هو من عائلة من كوسوفو، قال إنه نجا من العقاب.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

لم أر أختي ميتة، لكنّ راي اتصل بي باحترام في ذلك اليوم ودعاني ديل، ودعا بيرنير بيف. قال إنهما تزوجا قبل أسبوع. قلت له إن هذا رائع، وشكرته. لم يكن ذهابي إلى هناك مهماً، بما أنني لم أخدعها أثناء زيارتي، كما اعتقدتُ، وأنها فهمت أنني لم أخدعها. ولكن في الأيام التي تلت موتها انتابني شعور غريب، وهذا لم يحدث لي من قبل، أن والدنا ما زال حياً في مكان ما، يعيش في سن متقدمة جداً، وربما يريد أن يعرف عنها، وحتى عني. حاولت مصمماً أن أنسى تلك الفكرة، وفي الحال فعلت. كانت خيالاً فحسب، تتعلق بأنني هُجرت ثانية. بالرغم من أنني أنا نفسي الآن، أحياناً أرى حلم بيرنير، الحلم الذي كتبتْ عنه في رسالتها من سان فرانسيسكو، منذ خمسين سنة: أنني قتلتُ أحداً ما، ونسيته؛ ثم بزغت الجريمة، في طيف مريع، وكُشفت لجميع من أعرفهم: لطلابي وزملائي وزوجتي، الذين شعروا كلهم بالرعب وكرهوني من أجلها.

غير أنني لم أقتل أحداً، لا في أحلامي ولا خارجها (لكنني ساعدت في دفن الرجلين الأميركيين وفي مكان ما لدي دين يجب أن أسدده من أجل ذلك).

كانت يوميات أمي كثيرة كما قالت بيرنير، تتألف من فقرات، وأفكار غير مُنجزة تُركت لوقت لاحق لم يأت أبداً، ومن وجهة نظرها بسرقة المصرف، وآرائها، ومبرّراتها، وتفاهاتها، وكلماتها القاسية عن والدنا. يستطيع أحد ما أن يؤلف قصة كاملة منها. مرة أخرى، يقول رسكين إن التأليف هو المؤالفة بين أشياء متنافرة. وتشكل محتويات يومياتها أشياء متنافرة. ولكن في سنّي هذا لا يهمّني واجب كهذا، بما أن هذه الأشياء لم تعد منسجمة مع مادة

حياتي المتبقية، ويؤسفني أن هذا صحيح.

غير أنّ هناك شيئاً واحداً كتبتْهُ أمنا ربما أرادتني بيرنير أن أقرأه أكثر من غيره ولهذا السبب أعطتني الأوراق.

كتبت أمنا بيدها الرائعة، وبالحبر الأزرق الذي حصلت عليه في السجن، والذي صار غير مرئي في بعض المواضع:" فيما أنت تموت فإنك ستحتاج إليه على الأرجح، كما أعتقد. لا تقاتْله، إنه كالحلم، إنه جيد. هل تتخيل أنه يشعرك أنه جيد؟ فقط الاستسلام لشيء ما؟ لا مزيد من القتال، القتال، القتال. سيقلقني في النهاية وأكون متأسفة. ولكنني الآن أشعر بأنني جيدة. انزاح ثقل عني. ثقل كبير. إن الطبيعة لا تمقت الفراغ، كما تبين".

كان تاريخ هذا هو ربيع 1961. وضعت بيرنير إشارة بقلم الرصاص إلى جانبه. عنى شيئاً ما لها. ربما سيعني شيئاً ما لي يوماً ما، شيئاً ما أكثر مما هو جليّ.

في بعض الأيام أسوق عبر النفق إلى ديترويت، المدينة التي كانت هناك، والآن مسافات من قطع الأرض الفارغة فحسب، بالأبنية الكبيرة المتلألئة على طول حافة النهر، كمثل واجهات مزيفة، تشكّل وجهاً جيداً جريئاً لعالمنا على الجانب الآخر. أسلك طريق جفرسون على طول النهر وفي النهاية أخرج إلى الضواحي الغنية نحو "ذ ثمب"، ومرفأ هورون. أفكر دوماً بأنني سأسوق شمالاً إلى أوسكودا، حيث وُلدتُ، وأرى كيف هي اليوم، بقايا القاعدة الجوية، التي لا أذكر منها أي شيء. ولكن حين أرى قوس جسر بلو ووتر الكبير المرحِّب، والذي يمتدّ ثمانمائة وسبعين قدماً إلى

https://telegram.me/maktabatbaghdad

سارنيا، أفقد هذه الرغبة، كما لو أنني أحاول أن أملك شيئاً لم أحصل عليه أبداً. قالت لي زوجتي: "يجب أن تذهب، يوماً ما. سيكون هذا مهماً، سيساعدك، في أن تنهي هذه الأمور، كما لو أنني لم أفعل هذا.

لا أنسى بالطبع أنني أعيش في الجهة الأخرى من الحدود من مكان ولادتي، ومن المكان الذي بدأ فيه السلوك الشيطاني لآرثر رملنغر، ومن المكان الذي غادره الرجلان الأميركيان في طريقهما للقاء مصيرهما. بمعنى ما، إن أهميته تثقل عليّ، وقد فكّرت غالباً بأن حياتي هنا، الآن - في المجرى المختل للأشياء - كانت مقصودة، وأن الثقل هو ثقل العاقبة. كما لو أنني توقعت أن أترأس جانبيْ شيء ما. ولكنني لا أؤمن بهذه الأفكار. أؤمن بأنّ ما تراه هو معظم ما هو موجود، كما علّمتُ طلابي، وأن الحياة مرت علينا فارغة. وهكذا، بينما ترزح الدلالة ثقيلة، فإنّ هذا معظم ما تفعله. إن المعنى الخفي غائب تقريباً.

قالت أمي إنه سيكون أمامي آلاف الصباحات كي أستيقظ وأفكر بكل هذا، حين لن يقول لي أحد كيف أشعر. وها قد مرّتْ آلاف الصباحات الآن. ما أعرفه هو أنك إذا تحمّلْتَ الخسارة تكون لديك فرصة أفضل في الحياة، وللبقاء على قيد الحياة، وللنجاة من أن تصبح متشائماً عبر كل هذا؛ وللحفاظ، كما لمّح رسكين، على التناسب، وللمؤالفة بين الأشياء المتنافرة في كلٍّ يحافظ على الخير، حتى لو لم يكن من السهل العثور عليه. وكما قالت أختي: نحاول. نحاول. كلّنا نحاول.

— انتهت —

رواية ■ كندا ■ ريتشارد فورد

– محطّماً من المصيبة الناجمة عن سرقة والديه واعتقالهما، يصارع (ديل) تحت سماء السهب الكندي المترامي كي يبني نفسه من جديد، ولكن بحثه عن الراحة والسلام يقوده إلى اصطدام مروّع وإجرامي مع رملنغر.

– كندا رواية مُتقنة وتستند إلى رؤية ساحرة، مذهلة وعميقة، وقد ألفّها أحد أعظم الكتاب الأميركيين (ريتشارد فورد)، وهي عن حدود تُنْتهك وبراءة تُفقد، ومصالحة تتم، وعن الروابط الأسرية الغامضة والمعزّية.

– الرواية مكتوبة بنثر مقتصد، شاعريّ وعميق، ولهذا من المتوقّع أن تصبح واحدة من الكلاسيكيات العالمية.

ريتشارد فورد..

ولد ريتشارد فورد عام ١٩٤٤، وهو روائي أميركي وكاتب قصة شهير نال العديد من الجوائز العالمية وترجمت كتبة لمختلف اللغات .
حصل على إجازة جامعية من جامعة ميشيغان. وبعد تخرجه علّم في احدى الثانويات وتطوع في المارينز ولكنه سُرّح بعد أن أصيب بالتهاب في الكبد. ورغم إصابته بعسر قراءة إلا أنه أعلن أن ذلك ساعده كقارئ حيث أجبره على التعامل مع الكتب بطريقة معمّقة.

مكتبة بغداد

أسامة إسبر..

أسامة إسبر شاعر وقاص ومترجم سوري. يعمل حالياً كمحرر للقسم العربي في تدوين للنشر بواشنطن، وكمدير لدار بدايات للنشر. من بين مجموعاته الشعرية شاشات التاريخ ميثاق الموج، تتكرر فوق المنفى ومن بين مجموعاته القصصية: السيرة الدينارية ومقهى المنتحرين (٢٠٠٠). ترجم لكل من برتراند رسل، توني موريسون، نادين غورديمر، نعوم تشومسكي آلن لايتمان، وآخرين.

https://telegram.me/maktabatbaghdad